المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

وليم جولدنج

يوميات مصرية

ترجمة: سمير محفوظ بشير

مراجعة وتقديم: أحمد الشيمى

1754

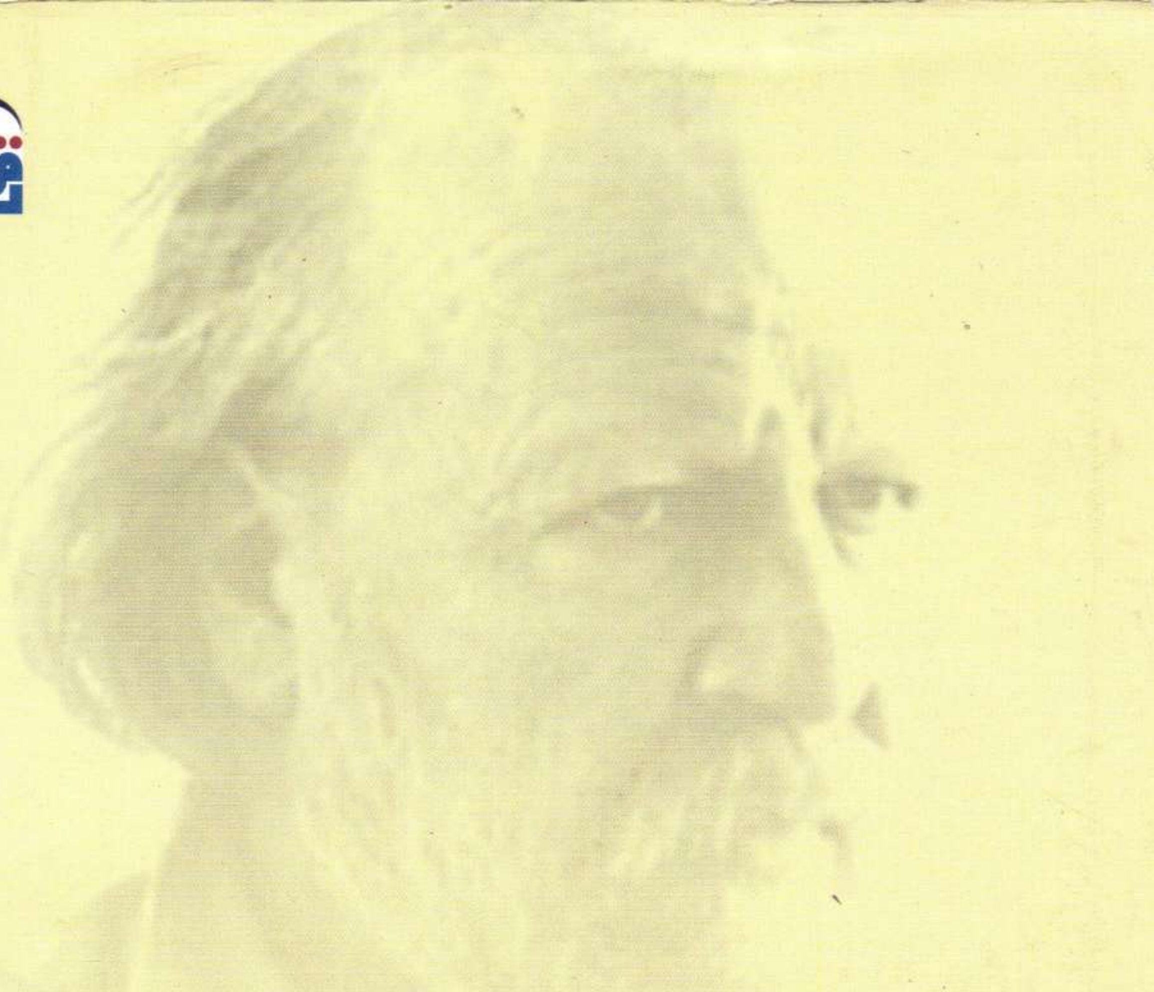

إنها قصة الرحلة النيلية التى قام بها الكاتب البريطانى الشهير وليم جولدنج فى ربوع مصر المجاورة للنيل مستخدما مركبا نيليا متواضعا. كانت المفاجأة الكبرى هى أنه لم يشاهد الكثير وهو فوق ظهر هذه المركب؛ لأن شاطئى النيل منخفضان، وبالكاد استطاع أن يشاهد الأطراف العليا للنخيل. لكن مع ذلك، استطاع أن يزور عدداً من المدن المصرية، وتقابل مع عدد كبير من الناس والمسئولين، وشاهد عدداً من الآثار المصرية.

لقد قام برحلته هذه فى شهر فبراير، فى عز برد مصر الشهير، وعانى الكثير بسبب ذلك، إلا أنه استمتع برحلته هذه، والتقط العديد من الصور الفوتوغرافية، وكانت زوجته مصاحبة له، ومعه عدد من البحارة والمرافقين.

هذا الكاتب الإنجليزى الشهير حصل على جائزة نوبل فى الآداب عام 1983، وقام برحلته النيلية هذه عام 1984،وهو يبلغ الثالثة والسبعين من العمر. فى هذه الرحلة، رسم شكلا بديعا لكل ما شاهده وعاينه.

تصميم الغلاف: نادية كشك

يوميات مصرية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1754
- يوميات مصرية
- وليم جولدنج
- سمير محفوظ بشير
- أحمد الشيمى
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:
Egyptian Journal
By: William Golding
Copyright © William Golding, 1985
First published in America by Faber & Faber Ltd.
Arabic Translation © National Center for Translation, 2011
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

يوميات مصرية

تأليف: وليم جولدنج
ترجمة: سمير محفوظ بشير
مراجعة: أحمد الشيمى

2011

جولدنج، وليم جيرالد، ١٩١١ ـ ١٩٩٣ .
يوميات مصرية/ تأليف: وليم جولدنج؛ ترجمة: سمير محفوظ بشير؛ مراجعة: أحمد الشيمي. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١١.
٣٣٦ص ؛٢٤سم .
تدمك ٥ ٨٩٣ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الأدب الإنجليزى.
أ ـ بشير، سمير محفوظ. (مترجم)
ب ـ الشيمى، أحمد. (مراجع)
رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٢٠٠/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -893 - 5
ديوى ٨٢٣

• تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة

السير وليم جيراليد جولدنج أديب بريطانى مرموق وُلد فى التاسع عشر من سبتمبر عام ١٩١١،وتُوفى فى التاسع عشر من يناير من عام ١٩٩٣، أى انه تجاوز الثمانين سنة، ولكنه استغل هذا العمر الطويل فى تحقيق إنجاز أدبى مرموق حتى حصل على جائزة بوكر العالمية فى الرواية عن رواية "طقوس المرور Rites of Passage عام١٩٨٠، وتُوج بحصوله على جائزة نوبل فى الأدب ١٩٨٣ عن مجمل إنتاجه الروائى ولا سيما رواية «إله الذباب». كتب جولدنج ثلاث عشرة رواية هى ـ حسب سنة النشر: إله الذباب Lord of the Flies (١٩٥٤) الوارثون(١٩٥٤) The Inheritors (١٩٥٥)بنشر مارتن Pincher Martin (١٩٥٦) السقوط الحر The Free Fall (١٩٥٩) البرج The Spire (١٩٦٤) الهرم The Pyaramid (١٩٦٧) العقرب الإله The Scorpion God الرجال الورق The Paper Men (١٩٨٤) الظلام المرئى Darkness Visible (١٩٧٩) وثلاثية بحرية تحت عناوين: نهايات الأرض Ends of the Earth، وطقوس المرورRites of Passage (١٩٨٠) الأحياء المغلقة Close Quarters (١٩٨٧)، ونشر جولدنج ثلاثة أعمال نثرية لا تنتمى إلى جنس الرواية وهى على التوالى: البوابات الملتهبة The Hot Gates(١٩٦٥)، والهدف المتحرك The Moving Target، ويوميات مصرية An Egyptian Journal (١٩٨٥) فى٢٠٠٨ قالت عنه جريدة التايمز إنه رقم ٣ بين ٥٠ كاتبًا بريطانيًا قالت إنهم أعظم كتاب بريطانيا منذ عام ١٩٤٥.

وُلد جولدنج فى بيت جدته لأمه فى ٤٧ شارع مونتوايز فى كورنول، وقضى سنوات طفولته الأولى هناك، ثم كبر فى بيت أسرته فى مارلبورو من أعمال ولتشير، حيث كان أبوه مدرسًا للعلوم فى مدرسة مارلبوور للنحو، وكان جولدنج وأخوه الأكبر منه جوزيف من تلاميذ هذه المدرسة المرموقة. والتحق جولدنج بجامعة أكسفورد ليحصل على ليسانس فى الأدب الإنجليزى بمرتبة الشرف الثانية فى صيف عام ١٩٣٤، وفى العام نفسه أقدم على نشر أول كتبه بعنوان "قصائد" فى دار ماكميلان وشركاه للنشر والتوزيع. ويبدو أن محاولة جولدنج الشعرية لم تنجح، ويبدو أنه أُحبِط وقرر التخلى عن فكرة الكتابة الأدبية والالتحاق بالجيش. خدم جولدنج أثناء الحرب العالمية الثانية فى البحرية الملكية وشارك فى الإنزال الكبير فى نورماندى فى عام ١٩٤٤ على السواحل الفرنسية، وهو الإنزال العسكرى لجيش الحلفاء المعروف بـ .D-DAY ولكن جولدنج يعود إلى الكتابة، ويكتب رواية هذه المرة، ويسميها «الغرباء فى الداخل»، ويدفع بها إلى دار فيبر للنشر.

جولدنج من الأدباء الذين أصبحت شهرتهم أسيرة لعمل واحد من أعمالهم الأدبية قلت أو كثرت، وقد يكون هذا العمل عملاً فذًا بالفعل، وقد لا يكون كذلك. اشتهر جولدنج بروايته الأولى «إله الذباب»، التى نشرها فى عام ١٩٥٤، وتروى قصة جماعة من تلامذة المدارس قذفت بهم طائرة إلى جزيرة معزولة فاضطروا إلى إدارة شئونهم بأنفسهم، مما أسفر عنه ذلك من مصائب وكوارث لم يتوقعوها. ويقال إن العنوان مستوح من «بلزيك» الشيطان الذى يُوصف فى التوراة بأنه «إله الذباب». وقد تُرجمت الرواية إلى لغات كثيرة فى أنحاء العالم، وحتى فى اللغة العربية صدرت لها ترجمة لعبد الحميد الجمال عام ١٩٩٤ من الدار المصرية اللبنانية بعنوان «أمير الذباب». أرسل جولدنج إلى صاحب دار نشر فيبر وفيبر الرواية مكتوبة بخط اليد مشفوعة برسالة قصيرة يقول فيها: «أرسل إليكم روايتى» الغرباء فى الداخل، وهى قصة رمزية أرجو أن تنال رضاكم فتنشروها. وبالفعل نشرها صاحب فيبر، ولكنها لم تلق الرواج المتوقع، وقابلها النقاد بالتعليقات الساخرة، واقترح أحد محررى دار النشر تغيير العنوان، وطرح عنوان

إله الذباب ووافق جولدنج. ولكن ماذا كان جولدنج يقصد من العنوان الأول الغرباء في الداخل، ما الذى كان يدور فى ذهنه؟ كان يقصد أن الإنسان مجبول على الخير، ولكن هناك قوى شريرة فى داخله، شياطين تسكن أعماقه البعيدة وتتقلب عليه، وتعمل على إزاحة الخير واستقبال الشر، هو إذن عدو نفسه، مغرم بمحو ذاته. وهى فكرة، أو قل: هى واحدة من تلك الأفكار التى طرحتها الرواية التى كُتبت بعد الحرب الكبرى الثانية، أو قل: الأدب الذى كُتب بعد الحرب الكبرى الثانية، ما يُسمى أدب الحرب. فما الذى يجعل البشر يقتلون بعضهم بعضًا بأبشع ما تكون أدوات القتل والتدمير؟ وما الذى يجعلهم يبنون حضارة عظيمة ثم يلوون عليها فيدمرونها تدميرًا؟ هل تنطوى نفس الإنسان على عناصر سعادته وشقائه فى آن؟ وهل تنطوى نفس الإنسان على غرباء يسكنون أعماقه، ويعملون فى غير صالحه، وأعداء يتربصون به فما ينتهى من بناء حتى يستدير فيهدم هذا البناء، وكيف يعيش الإنسان فى عالم ملأه الخوف من الإنسان، والتربص بما ينجزه، والعمل على تقويضه؟ تلك كانت أسئلة سألها جولدنج لنفسه حين شرع فى كتابة رواية إله الذباب. كانت خبرته بالحرب طازجة لم تجف بعد، وكانت دماء الشباب لاتزال تجرى فى عروقه قوية ملتهبة، فهو يريد إذن أن يقول إن الشر لابد منه، وإن تلك القوى الشريرة لا يمكن الهروب منها لأنها ليست قوى خارجية يمكن التصدى لها، وإنما هى قوى داخلية، قابعة فى نفوسنا، مستقرة فى أعماقنا.

أما كتاب يوميات مصرية - الذى نجح سمير محفوظ بشير فى ترجمته إلى لغة عربية سهلة ميسرة رغم صعوبة أسلوب جولدنج، ورغم لغته المغرقة فى الذاتية فى كثير من الأحيان حتى لتبدو فى بعض الأحيان تهويمات غامضة تخصه وحده - ليس رواية، ولكنه ينتمى إلى ما يُسمى «أدب الرحلات»، وهو رصد لرحلة قام بها جولدنج إلى مصر فى الثمانينيات، ولعله لم يكن يخطط للقيام بهذه الرحلة، ولعل هذه الرحلة إلى مصر لم تكن إلا فرارًا من أزمة نفسية كانت تتملكه، أزمة البحث عن موضوع للكتابة، فقد كان جولدنج فى تلك الفترة يزهو بالنجاح الذى حققه فى رواية «طقوس المرور»، والتى فاز بها بجائزة بوكر الدولية، متفوقًا على أنتونى بيرجس الذى كان مرشحًا للجائزة نفسها برواية

القوى الأرضية "Earthly Powers". ولم يمض عامان على هذا النجاح حتى حصل جولدنج على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٣؛ ليصبح آخر أديب بريطانى يحصل عليها فى القرن العشرين. ولكن الجائزة أحنقت عليه بعض النقاد، وزعم بعضهم أن جرام جرين كان الأحق منه بالجائزة؛ فهو الأكبر سنًا، وهو الأغزر إنتاجًا، والأوسع انتشارًا.

ربما كانت «يوميات مصرية» إذن رحلة إلى الداخل أكثر منها رحلة إلى الخارج، وربما كانت لونًا من ألوان السعى إلى الابتعاد لم تخلص فيه النية لكتابة عمل أدبى بمعنى الكلمة. والحق أن الكتاب يحفل بالإحباطات التى يصادفها الكاتب فى رحلته تلك على ظهر قارب متهالك، وفى معيته رجال ربما كانوا أكثر منه إحباطًا وأكثر سخطًا على الحياة ومن فيها. فى هذا الكتاب نجد جولدنج مشغولاً بقاربه أكثر من شغله بالناس من حوله، ومشغولاً بالطبيعة أكثر من شغله بالبلاد التى يمر عبرها، ونجده أكثر تأملاً للسماء التى تظله وقاربه أكثر من تأمله للأرض وما فيها من مظاهر الإحباط ومظاهر التفاؤل، بل إن جولدنج فى هذا الكتاب ربما كان أكثر استغراقًا فى التفكير فى شئونه العقلية والنفسية من استغراقه فى الرحلة التى قرر القيام بها وتوقفت به، أو أراد لها أن تتوقف عند الأقصر.

ولكن الكتاب - مع ذلك كله - مفيد، ومأتى الفائدة من كتاب كهذا تجدها فى قِدَمه. فلو افترضنا أن جولدنج بُعث حيًا ليقوم بالرحلة نفسها اليوم وعلى القارب نفسه، فلن يجد أكثر مما وجد فى الرحلة الأولى، لن يجد غير شواطئ مصرية قبيحة، وأناس ساخطين، وكبار موظفين يتملقونه ربما لأنهم ظنوا أن له نفوذًا سياسيًا، وهم لا يعرفون أن الأديب لا يمكن أن يتمتع بنفوذ سياسى. وقد أحزننى جولدنج فعلاً حين تحدث بشىء من الأسى عن المهندس حسن فتحى ومشروعاته فى القرنة التى لم تكتمل، وأحزننى فعلاً لأن وزير الزراعة فى الثمانينيات كان يحلم بزراعة مليون شجرة زيتون، وأسس لذلك معهدًا لإكثار الزيتون فى الفيوم، واستمع جولدنج إلى المهندس المسئول عن المعهد، وسمع عن إحباطاته، وشروعه فى الاستقالة، بسبب العنت الذى لقيه من البيروقراطية المصرية، وبسبب حماس هذه البيروقراطية لإجهاض المشروعات الطموحة والأحلام الكبيرة. ويذكرنا ذلك

بمشروع الجامعة التى كان الدكتور أحمد زويل ينوى بناءها لتبنى المتميزين علميًا، أين هو هذا المشروع الآن؟ وقد يحزن القارئ أن الريف المصرى، ولا سيما الصعيدى، لم يتغير كثيرًا منذ كتب جولدنج هذا الكتاب، بل قد يكون هذا الريف ازداد شقاءًا على شقاء بسبب إهمال الحكومات المتعاقبة لقراه، وتجاهلهم لمصير أبنائه. لو قُدر لجولدنج القيام بالرحلة اليوم لوجد أن مصانع السكر هى هى لم تتغير، ولوجد الطرق هى هى لم تتغير، ولوجد الناس هم هم لم يتغيروا. واقرأ ـ إن شئت ـ تلك الفقرة التى وردت فى صفحة (٦٠):

أما بالنسبة للرحلة، فقد كانت كئيبة غاية الكآبة. هنالك تجد سلسلة من شواطئ منخفضة موحلة ونادرًا ما تعثر على شجرة، ولو شجرة واحدة تكسر رتابتها، والأندر أن تجد قرية، وما يزيد من الكآبة وانقباض الصدر أنك لا تجد منزلاً واحدًا فى الطريق مما قد يغريك بإبطاء السير، لن تجد غير ذلك الجمع الكبير من الصبية الفقراء أنصاف عراة، وأحيانًا كاملى العرى، كلما وقفنا يصيحون فى وجوهنا طلبًا للبقشيش. حينئذ تسأل نفسك وقد تملكك العجب: من هؤلاء الذين جاءوا من أصلاب بناة الأهرام؟ وما هى طبيعة النظام الحاكم الذى راح يحط من منزلة هؤلاء المحكومين الذين يعيشون فوق أخصب أرض خلقها الله؟

ولا تعليق!!!

احمد الشيمى

(١)

كانت نشأة هذا الكتاب غريبة، ولم يكن الهدف من كتابته واضحًا تماما. فعلى مدى ستين عاما خلت، ربما أكون قد قرأت كل كتاب شيق ومثير كتبه أى إنسان عن مصر. وشأنى فى ذلك شأن أبناء جيلى، استقر فى وجدانى ما يمكن التعبير عنه بأنه نوع من الصلات الحميمة التى جعلتنى أهتم بهذا البلد وليس فقط بمصر القديمة. وربما كانت صفة الجمود (الثبات فى المكان) التى تميز مصر القديمة هى التى تظهر فى مقابل التغيير الذى يميز خبرة الحياة اليومية. ليس هذا توقًا إلى نوع من الفردوس المفقود، لكنه نوع من الشوق لمعرفة شىء مجهول وكفى. ربما فى وسعنا أن نقسم أبناء ذلك الجيل إلى فريقين: فريق قرأ كتابات كونان دويل بإرادته، وفريق آخر قرأ كتابات رايدر هاجارد. هذا التصور فى نظرى له جاذبية خاصة. وفى وسعنا الخروج بفكرة مفادها أن الرجلين يقعان على طرفى نقيض. فمن جانب لدينا ذلك الكاتب مبدع شخصية شرلوك هولمز المغرق فى حب الذات، ومن جانب آخر لدينا مبدع «هى التى يجب أن تطاع (*) هنا

(*) رواية لرايدر هاجارد (١٩٥٦ ـ ١٩٢٣)، ظهرت طبعتها الأولى فى عام ١٨٨٦، وبيعت منها أكثر من ٨٣ مليون نسخة فى ٤٤ لغة مختلفة حول العالم، أى أنها من أكثر الكتب مبيعًا فى التاريخ كله، تحكى قصة رحلة هوارس هولى والوصى عليه ليو فلسى فى مملكة مفقودة فى مجاهل إفريقيا، هنالك يميشان مع السكان الأصليين لهذه المملكة التى تحكمها ملكة بيضاء غامضة أو ساحرة أو ملغزة اسمها عائشة، وكانت تحكم بالحديد والنار، فهى التى يجب أن تطاع، من خلال الرواية يتناول هاجارد العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، الغالب والمغلوب، ويتناول أيضًا الحكم المنصرى الذى كان يتحكم فى مصير الأفارقة من قبل الاستعمار البريطانى، كما يتناول طبيعة علاقة المرأة بالقوة، بحيث يظهر المرأة على طبيعتها حين تمتلك القوة المطلقة (المراجع).

يصبح الهدف النهائى هو منطق الاستنباط، وهناك أمامنا المعتقدون فى إمكانية التواصل مع الأرواح دون الاعتراف بالتفسيرات العقلية. وهكذا انتهى كونان دويل إلى الاعتقاد فى الجنيات، مثلما اعتقد أن الصور الفوتوغرافية التى رسمتها فتاتان صغيرتان لجنيات كانت حقيقية. قد نغرق فى البساطة، ولكن الحياة ليست بهذه البساطة. ورغم ذلك كله ففى عالم أى من الرجلين شىء من عالم الآخر.

بالطبع، نجد أن هاجارد كان مغرمًا بفض أسرار إفريقيا السوداء، والتاريخ المصرى يمثل جزءًا مهمًا منه. فى رواياته الشهيرة مثل: قمر إسرائيل، رغبات العالم وكليوباترا، نجده كثيرًا ما يمتعنا بمعلومات عن مصر القديمة بين الحين والآخر مثل: أسرار السحر، وصراع الآلهة، والقوة التى كانت تتمتع بها جماعة الكهنة، جاذبية القديم عموما، كذلك عظمة وجلال الملوك والملكات. فى هذه القصص نحس أن هناك ما يربطنا بالعالم القديم، وما يحملنا على الإعجاب الشديد، كذلك الذى جربناه عندما عثرنا على مقبرة توت عنخ آمون.

على الرغم من أننى كنت أقرأ روايات آرثر كونان دويل عندما كنت أجدها بالمصادفة، فأنا فى الواقع لم أقدم يوما على شراء واحدة منها، أو حتى أستعير كتابًا له من مكتبة عامة. لكن بالنسبة إلى هاجارد، فإننى كنت على استعداد كامل أن أنفق المال، وأن أسير الأميال للحصول على كتاب من مؤلفاته، ثم أقراه وأعيد قراءته، وما زلت أظن حتى الآن أن كتبه تحفل بكل ما هو مثير وعجيب. لقد كان كارل جوستاف يونج يقول دائما إن رواية هاجارد عائشة: عودة هى، تعتبر النموذج الأصلى للأنيما أو الروح الخفية فى النفس البشرية.

ولكن ترى كيف كانت صورة مصر فى أذهاننا ونحن أطفال أو مراهقون كثيرًا ما كنا نشاهد صورة الملك فاروق على طوابع البريد، لكن هذا الإنسان لا يمكن أبدًا أن ندرجه ضمن سلالات الفراعنة، ورأينا بريطانيا العظمى وهى تدير شئون مصر، وكانت فائدة لمصر. أيضا أوراق البردى، ولا ننسى بالطبع ما ذكر عن مصر فى الكتاب المقدس. فى كل متحف شهير نشاهد التوابيت والمومياوات المصرية التى تبعث فى النفس مزيجا من المشاعر التى تختلط فيها مخاوف الموت

والسحر الغامض بالرعب. لقد اقتصرت مصادر معلوماتنا عن مصر القديمة على ما عثر عليها المكتشفون وعلماء الآثار، فهؤلاء هم الذين بذلوا الجهد فى استخدام العلم والمنطق فى أبحاثهم واكتشافاتهم. لذا يمكن القول إن العلم والمنطق عملا فى خدمة الغموض والسحر! وكان ذلك أمرًا محيرًا، وخلطًا غريبًا.

يمكن لى القول بأن الفترات الأولى من حياتى كانت حافلة بالرومانسية، لكنها رومانسية مشوبة بالخوف، أو لعلها كانت مرحلة دينية، لكنها فى الواقع كانت أقرب للوثنية، فبمجرد ما كان يخطر فى بالى التفكير فى المومياوات، حتى أحس بقطع كثيفة من الثلج تحتك بجلد بشرتى. فى ذلك الوقت، كنت مستعدًا أن أؤمن وأقدس الإله رع وإيزيس وأوزوريس أكثر من الثالوث المقدس. بالنسبة لى، لم يكن التضاد والتعارض ما بين الاعتقادات المصرية القديمة بعيدة عن التصديق، طالما أن تلك الاعتقادات ذات مدلول دينى، لذا فالتضاد هو أمر طبيعى وبديهى.

مع ذلك، وفى الوقت نفسه، على مدى اهتماماتى خلال سنوات مراهقتى، كنت أنجذب نحو تلك الاكتشافات الأثرية التى ساهم العلم والمنطق فى إظهارها إلى الوجود! كان هذا نوعًا من الاهتمام المبالغ فيه، وبالكاد كنت مدركا له، لكنه على أية حال هو شعور مات بشكل طبيعى مع تقدمى فى السن، وانشغالى بعواطف الحب والحياة من حولى، أكثر من انشغالى بحوار خيالى مع الموت والسحر.

مع ذلك !

ربما أكون مبالغا إذا صرحت بأننى كنت أشعر فى داخل كيانى بأننى مصرى قديم، لكنى كنت أشعر بأن هناك صلة وصلات وتعاطف غير عادى وعجيب. أصبحت، وهذا ما يدعو للغرابة، مستغرقا فى شعور قوامه نوع من المسئولية، كما لو أننى مدين لهذا القطر بشىء ما، هذا على الرغم من أننى لم أخط بقدمى على أرضه من قبل، بل يمكننى القول: إن هذا الكتاب الذى بين أيديكم، لا يُعد فى نظرى محاولة ناجحة بها أسدد ديونى.

استمرت هذه الصلة الغريبة تربطنى بمصر القديمة وتنمو داخل وجدانى حتى اقتربت من الانتهاء من مرحلة الكهولة. فى ذلك الوقت – وقبل عشر سنوات من

نشر هذا الكتاب- قمت أنا وزوجتى بزيارة مصر للمرة الأولى. لماذا تأخرت هكذا؟ فى أى وقت خلال العشرين عاما السابقة كان متيسرا لنا أن نزور مصر، لكنى أعترف هنا بأنه كان هناك العديد من الأمور الشائقة والمحببة للنفس التى كان واجبا علينا أن ننجزها، بلدان أخرى علينا أن نكتشفها، مراكب ويخوت علينا أن نبحر عليها وبها، مال ونقود علينا أن نكتسبها، سمعة وشهرة نسعى وراءها....

مع ذلك، ما إن تحققت أولى زياراتنا لمصر حتى أدركنا أن مصر الخيال ليس لها وجود فى الواقع. كنت حينذاك مضطرا إلى أن أعيد تنظيم أرشيف خيالاتى، فمصر أكبر... أكبر من ذلك! حتى تقديرى لعلماء الآثار تغير وأصبح مختلفا؛ فقد كانوا فى نظرى جماعة من أصحاب الحكمة الذين يتسلحون بالعلم والمنطق، أصبحوا فى نظرى جماعة من المهووسين المغرقين فى الخيال الجامح، أبعد ما يكون عن اكتشاف الأسرار التى داعبت خيالنا فى الصغر، أو قبل ستين عامًا خلت. فقد انتشرت حكاية الكاهنة التى أحكمت سيطرتها على معبد، فلم يكذبوا الحكاية، وإنما أصروا على الخرافة وانساقوا وراء الادعاء.

فى ذلك الوقت ـ ومنذ عام تقريبًا ـ اقترب منى أحدهم واقترح علىّ أن أكتب عن مصر كتابًا، وأن أعاود زيارة هذه البلاد على أن يكون فى رفقتى واحد من المصريين يرشدنى ويوجهنى، يعرف لغة البلاد ويعرف أهلها، رفيق سفر كان أهلنا فى العصر الفكتورى يطلقون عليه رفيق السائح. وقد راقت لى الفكرة، ولكن أين الهدف؟ وأين البرنامج؟ رحت أبحث عن الهدف خصوصًا وأنه لم يكن لدىّ ما كان يمكن أن يشغلنى فى ذلك الوقت. لقد قرأت الكثير عن مصر، ولكنها كانت قراءات تفتقر إلى الكثير من العمق. قلت للناشرين إن الكتاب المقترح لن يكون ذا أهمية كبيرة، ودهشت عندما وافقونى الرأى نفسه، قلت فى نفسى ولماذا لا يكون الكتاب عن مصر وعنى؟ ولماذا لا يضم صورًا فوتوغرافية نلتقطها فى مصر، ومنها صور لى. بدت تلك المهمة مثالية فى نظرى، لذا شرعنا فى بحث التفاصيل. طرأت فى ذهنى فكرة بدت مقبولة وجذابة وقابلة للتطبيق. فى المرة الأخيرة التى قمنا فيها أنا وزوجتى بزيارة مصر، كانت المشكلة الكبرى التى واجهناها هى إمكانية الحصول على غرفة فى فندق. فى الواقع، فى سالف

الزمان، كنت أنا بحارا، طالما أبحرت فى أيام شبابى، بل والتحقت بالأسطول البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية، وكنت ضمن طاقم القيادة البحرية على بعض السفن. بعد نهاية الحرب، قضيت عاما أدرس لبعض الطلبة كيف يبحرون ويتقنون فنون البحر. بعد ذلك، أبحرت فى قاربى الفاخر على طول سواحل أوروبا الشمالية، ثم ترأست قيادة قارب ابنى بدون أجر بالطبع. لذا، فلماذا لا نقوم فى مصر بتأجير قارب كبير أو يخت نعيش داخله ونبحر به فى النيل جيئة وذهابا ونتوقف أمام أماكن مشهورة مثل أوكسيرنخوس(*) وأبيدوس وبقلوب ملؤها الغبطة والانسجام، نختلط بالمصريين الأحياء بدلا من زياراتنا المتكررة للأموات. لقد توصلت من جراء زيارتى السابقة إلى حقيقة بسيطة، مفادها أن مصر عبارة عن قطر يكتنفه تعقيد بالغ، ويمتزج بثقافة عربية ذات شأن كبير أو صغير، وإنه أمر عجيب أن نجعل زائر البلاد ينغمس فى شئون المصريين الأموات، بينما هناك حياة عجيبة تتفاعل وتتشابك على طول وادى النيل وفى الصحارى والوهاد. السائح (وأنا واحد من السائحين) غالبا ما يكون فى جعبته وقتا ومالا قليلاً، لذا تجده مضطرا إلى أن ينشغل فقط بمشاهدة الصروح الفرعونية والمعابد، لكن بالنسبة لنا، وقد توفر لنا الكثير من المال والوقت كما نهوى ونشاء، أستطيع أن أقول: إن هذا المسلك السابق بالنسبة إلينا ليس إلا إساءة فى حقنا.

لذا اضطررت إلى أن أطير إلى مصر لمدة ثمان وأربعين ساعة لكى أبحث عن مركب أو يخت نيلى يمكن أن نقوم بتأجيره. فى هذا الشأن، بل قل إننى لاقيت الدعم الكامل من قبل الشاب المصرى النبيل الذى عُين مرشداً لى وهو السيد علاء صواف.

كان هناك عدد قليل من المراكب المتاحة. فكرة قيام أفراد بتأجير مركب يبحرون به فى النيل لم تكن فكرة حديثة، إلا أنها نادرة . لذا أقول إننا بحثنا فى الشاطئ كله أمام القاهرة حتى تملكنا يأس قاتل. كتبت فى يومياتى:

(*) مدينة بهنسا الحالية فى محافظة المنيا. (المراجع).

كانت جميع المراكب التى شاهدناها فى حالة يرثى لها، ولم تكن كثيرة. كانت الإسكندرية أفضل فى هذا الشأن. توقعت أن أجد المركب الخيالى الذى وصفه شكسبير فى مسرحية أنطونيوس وكليوباترا «القارب التى كانت تجلس عليه». ولكن القوارب التى رأيناها ليست سوى أطباق بلاستيكية أو قوارب بيتية قديمة متهالكة، حيث تجد ستائرها متهدلة، وقد انزاحت عن بعضها البعض بسبب ثقل حجمها، وهناك سجاجيد تحت الأقدام تشبعت بالماء الذى تجمع عادة فى القاع. وتكلفة الإبحار اليومى فى هذه القوارب يبلغ فى المتوسط ٢٥٠ جنيها مصريا فى اليوم.

بعد ذلك، تناولنا الغذاء أنا والمرافق ونحن واجمون، فجأة قال مرافقى الذى كان ثنائى اللغة، أى كان يتحدث الإنجليزية والعربية طبعًا: هناك قارب أعتقد أنه متاح، إنه على بعد ميل أو ميلين عند منطقة المعادى، ولكنى لا أعرف هل هو مجهز للإبحار به أم لا؟

بالطبع، كان هو القارب الذى استأجرناه فى النهاية. هو قارب كبير يمتلكه رجل يدعى الدكتور حمدى، واتفقنا معه على كل شيء. اسم القارب هو «هانى» (على اسم ابن الدكتور). بدا هذا القارب فى نظرى أنه أكثر جدارة ومتانة بالمقارنة بالقوارب الركيكة التى شاهدناها. أخبرونى أيضًا أنه قارب لم يعمل كثيرًا، أى أنه فى حالة جيدة. هناك مطبخ يقع فى منتصفه وواجهة بها كل أزرار التحكم فى الملاحة، فيه أيضا كابينتان كل منها مجهزة بأربعة أسرة، ودورتين للمياه، تلك التى ندعوها نحن البحارة باسم «الرءوس»، ولو شئنا دقة الوصف لظهرت هذه الرءوس أشبه بالآثار المصرية القديمة، ولكنها بدت لى مناسبة وجيدة وتؤدى الغرض منها بشكل يرضينى. على أية حال، إذا حدث أمر يعكر الصفو أو لا يسير على ما يرام ـ وهذا ما يحدث عادة فى عالم الإبحار والقوارب ـ يمكن لنا بكل سهولة أن نهجر هذا القارب، ونقطع المسافة راجلين أو نستقل قطارا مثلا.

طرت بعدها إلى إنجلترا بعد ساعات من اتفاقى على تأجير هذا القارب. فى الحال، وجدت نفسى غارقا فى سلسلة لا تنتهى من المقابلات الصحفية

والمناقشات والحفلات والمنشورات ليس هنا مجال للخوض فى تفاصيلها. إلا أن مصر والقارب والكتاب أصبح لهم جميعا نصيب فى هذه المناقشات والمقابلات. مع كر الأيام، سيطر علىّ شعور من القلق والانزعاج، حيث ثبت قطعيا أننا راحلون فعلا لا محالة وأن موعد الرحيل قد اقترب. كنت حينذاك فى الثانية والسبعين من العمر- وأنا لست فى حاجة إلى مزيد من النقود، وذاكرتى تزخر بأحداث ماضية طالما اشتبكت فيها مع ما هو مسىء ويدعو لليأس، لكنى أنا هنا قد تعاقدت بالفعل على أن أملأ كتابا ما زالت كل صفحاته خالية بيضاء. وعقدت العزم على أن أخطط لما يجب أن أفعله فى شأن هذا الكتاب. سوف أمد فى زيارتى لمصر، ولن تقتصر على زيارة مدن وقرى وادى النيل، لكن سوف أزور أيضا سواحل البحر الأحمر. أذهب إلى البحر الأحمر مخترقا الصحراء، الصحراء، الصحراء! إنه تصور يقطع الأنفاس بكل تأكيد، وبحثت فى كتبى.

... كان الجندى منذ مائة عام خلت، كان قواده يحرصون على أن يرتدى هذا الجندى زيا محكما وكثيفا، بينما إنسان ذاك العصر من المصريين دائما ما يبحث عن ارتداء الملابس المريحة التى تتكون من قميص وبنطلون وجاكت وحذاء من التيل الأبيض بنعل كثيف، وغطاء فوق رأسه... لكن الجزء المعرض دائما للشمس وهو العين...

حسنا، إن مستوى معارفى الآن أفضل من ذلك كثيرًا . لقد أحسنا فكرا عندما اخترنا شهر فبراير لنحضر إلى مصر، بهذا نفيد من الشتاء المعقول لهذا البلد، أيضا نهرب من شتاء بريطانيا القاسى، والتى يمكن أن نعود إليها مرة أخرى عندما تتفتح الزهور ويصدح الوقواق.

ثم، وقعت أسيرا للمرض، بذلك تغير موعد الرحيل وسط عديد من المقابلات الأخرى، والجلسات، والأطباء، وحفلات تقام على شرف تكريمى بينما هى فى الواقع مصدر ألم. خلال ليال جافانى فيها النوم، انشغلت محموما فى رسم خطط الرحلة. أكتب مقدمة؟ لا، لن أكتبها توفيرا للوقت والجهد والمال. طبعا لن أشكل فهرسا للكتاب الآن - حسنا، هو لن يكون من تلك النوعية المعروفة من الكتب، لذا وداعا أيها الفهرس! بعد ذلك، التعريف بمن كتبوا عن مصر. ربما هذا

أيضا لا لزوم له. عملى سوف يكون على شكل صحفى، والصحافة تحرص دائما على تجهيل مصادر معلوماتها، لذا، وداعا يا جيلسون أنت وميجور تشارلز، بولز، و. لورنس، وداعا يا ماسبيرو انت والأستاذ جاستون كامبل وجوتييه كذلك ثيوفيل- أخيرا كتبت قائمة بعناوين بعض الموضوعات وقررت أن أعالج كل واحد منها بدقة كاملة.

فى الحقيقة، كنت أخطط لأن أكتب هذا الكتاب دون اللجوء إلى الذهاب إلى مصر. كنت أشعر بارتباك بالغ، فقد استقر فى ذهنى أننى لن أجد سوى القليل لأكتب عنه. تخيلت نفسى وأنا أجوس الصحراء غارقا فى مناجاة النفس فى أكثر الأماكن انعزالا، سوف أنحنى فجأة إلى الأرض، وأكتشف بالصدفة البحتة وأنا أنكش فى الأرض، ويا للعجب، على لفافة من ورق البردى- أو أدعى بأننى قد عثرت على تلك الأوراق.

لكن يوم الرحيل أزف دون رحمة. أخذنا معنا كثيرًا من الملابس كدسناها فى ثلاث حقائب كبيرة، لكن عدد الكتب كان قليلا. كنت مشغولا ومهموما بما سوف ألقاه عندما تطأ قدمى مطار القاهرة. لم أعثر فى مكتبتى على كتاب بولتارك الذى يحكى فيه عن قصة إيزيس وأوزوريس، كان ذلك فى نظرى كارثة فظيعة، شعرت أن ذلك سوف يسلب منى إمكانية استعارة بعض التشبيهات التى وردت فى هذا الكتاب لتؤكد مشاهداتى، فمهما بدت الجملة المكتوبة جميلة ورائعة وفى مكانها المناسب، إلا أن الجملة غير الموثقة سوف تشع جمالا عندما ندعمها بالاستعارات.

ثم، مرة أخرى، شغلنى موضوع الستين صورة فوتوغرافية التى سوف يتم تزيين هذا الكتاب بها وتضخم من حجمه. لم أكن من قبل فى وضع أكتب فيه مؤلفا مزينا بصور فوتوغرافية، ولم أدر ما الذى يمكن فعله بالضبط فى هذا الشأن. هل سوف يقوم شخص ما بتصوير المواضيع التى سوف أكتب عنها؟ هل علينا أن نتقابل ونتشاور مع بعضنا بعضًا؟ هل من الواجب علىّ أن أكتب شيئا تحت كل صورة؟ أليس من الأفضل أن أترك موضوع الكتابة جانبا حتى ينتهى موضوع التقاط الصور؟ ألم يكن من الأجدر أن أحتج بكبر سنى وشيخوختى عندما طُلب منى تنفيذ ذلك؟

هبطنا مطار القاهرة واجتزنا "رعب" المطار فى خمس دقائق، كنا نندفع اندفاعا، وقد قابلنا مرشدنا المصرى وأرشدنا مباشرة إلى فندق الشيراتون بالجيزة.

على نفس المنوال، ما إن غادرنا المطار حتى بدأت المنغصات الصغيرة التى اعتادت أن تقدمها مصر حاضرة ومستعدة للعمل، حتى فى أفضل أماكن الإقامة وأكثرها فخامة، واستطاعت ببراعة أن تقدم نفسها إلينا مرة أخرى. كانت حركة المرور أكثر كثافة من زيارتنا السابقة وأشد هستيرية. حتى ونحن داخل غرفتنا الفخمة ذات التصفيح المزدوج، عانينا مرة أخرى من عواء السيارات واصطكاك الفرامل وأصوات النفير التى لا تصمت أبدًا ، كلها تعزف لحنا نشازا على خلفية الحياة فى القاهرة، لذا جافانا النوم. لعلنا بذلنا أقصى جهد لتحقيق ذلك، لكن هى حركة المرور، يا لها من حركة مرور! إنها أشبه بالحمى. فى لحظة وحيدة وهى ساعة فى الفجر، فجأة توقف الضجيج كأنما هناك شىء ما قد انطفأ. سريعا هجرنا الفراش وفتحنا النوافذ الفرنسية الشكل للشرفة المطلة على النيل المختبئ معظمه خلف عدد من العمارات العالية. كان الكورنيش المجاور للنيل ساكنا وصامتا، بعدها مباشرة شاهدنا سيارة حمراء وحيدة قادمة من بعيد وهى تطلق نفيرها بشكل مستمر. قالت زوجتى آن: " إنه يعانى من الوحدة، المسكين لم يحتمل هذا السكون، ثم مرقت هذه السيارة أمامنا فى اتجاهها إلى منطقة الأهرام وما زالت تزعق. بعد ذلك استمعنا لصوت خافت يصلنا من منطقة الزمالك، إنه المؤذن، وحالا جاوبه العديد من زملائه. قالت آن، هل تتذكر؟. خلال زيارتنا الأولى قضينا وقتا فى فندق بالزمالك، لم أشعر حينذاك بالضيق من ذلك الحوار الذى يجرى ما بين المؤذنين، ولعلى شعرت بنوع من التقوى والحبور. تركت سريرى بعدما أغلقت النوافذ الفرنسية وبدأت فى كتابة بعض من انطباعاتى:

«سوف نصادف هؤلاء المؤذنين كثيرًا أثناء رحلتنا فى النيل، لذا قررت أن يرسو مركبنا على الشواطئ الريفية البعيدة. سوف نشاهد المدن صباحا وأكتب انطباعاتى مساء. بالطبع، عندما نرسو على أى شاطئ، فإنه يمكن لنا أن نجوس خلال شوارع القرى قبل أن ...»

«السرير».

أعتقد أننا قد نلنا قسطًا من النوم قبل طلوع نهار اليوم التالى. قضينا معظم صباح هذا اليوم فى تحويل ثلاث حقائب ليصبحوا حقيبتين فقط. بعد ذلك، خرجنا لنلقى نظرة سريعة على المركب «هانى» التى لم تشاهدها آن من قبل. كان هذا القارب راسيا بجوار عوامة يمكن الوصول إليها عن طريق ممشى خاص. ما إن اقتربنا، حتى لاحظنا وجود نفر من الأشخاص فوقها، ما إن شاهدونا حتى وقفوا تحية لنا ثم جلسوا، لذا لم ندخل القارب بل وقفنا بجوارها ننظر إليها بكل وقار. كانت تتلقى عناية فائقة وبدت نظيفة للغاية فى نظرنا، فى الوقت نفسه شاهدنا رجلا ببزة زرقاء مزينة بنجوم بيضاء وعلى رأسه عمامة زرقاء محكمة منهمكا فى تنظيف المركب بكل همة ونشاط كأنما عين رئيسه تراقبه عن قرب، أردت أن أحييه وأشجعه فابتسمت له ابتسامة عريضة، لكنه يبدو أنه لم يلاحظ مجهودى هذا، استمر بكل بساطة فى تلميع الحاجز الخشبى الماهوجنى- الذى أخذ يلمع بقوة تحت شمس فبراير الباردة.

بشكل ما، بدا من غير اللائق الصعود إلى متن القارب كأننا لم نتأهل لذلك بعد. الأكثر من ذلك تملكنى إحساس غريب بأننا على وشك أن نسلم قيادتنا فى ذلك السن المتقدم لأناس آخرين يقودون هذا المركب، وهم نفر من البشر لا نفهم كلمة واحدة من لغتهم. تحركنا من مكاننا، وكأن ظروفنا العجيبة تلك محتاجة إلى تأكيد، لأنه على الفور وقعت أنظارنا على شجرة غريبة الشكل. كانت هى شجرة متوسطة الحجم، لكن زهورها المتفتحة كبيرة الحجم. بعد فحص واستفسار، اتضح لنا أن تلك هى أول شجرة موز نراها. كان هذا الموقف فكاهيا وله دلالات عميقة. بعد ذلك، عدنا إلى فندقنا لنستعد لحضور حفل المساء الذى دعينا إليه وقضينا كل فترة الظهر فى نوم عميق.

فى شقة الدكتور حمدى التى يظهر عليها الترف، شاهدنا عددًا من الصور الفوتوغرافية وأُخذ لنا فيلم فيديو. تقابلنا هناك مع عدد من رجال البوليس الذين لهم نشاط واسع فى شتى الأقطار الشرق أوسطية، قابلنا أيضا عددًا من مدرسى المدارس والجامعات. فى هذا الحفل، اكتشف الدكتور حمدى ومرشدنا

السيد علاء صواف بأنهما قريبان من بعيد. فى الحفل، أكد الدكتور حمدى (ولعله كان يبغى أن يزيح عن كاهلى أى شعور بالمسئولية) أن السيد علاء هو المسئول الأول عن المركب، هذا بالطبع جعلنى أشعر بأنى مجرد راكب فى هذا القارب البسيط الذى لم أتعود أن أستخدم مثله من قبل. مع ذلك، لا أنكر أن جهلى باللغة العربية سوف لا يجعلنى قادرا على تسيير هذا القارب بشكل مرضٍ. على أية حال، علىّ أن أتقبل هذا الوضع شئت أم أبيت.

فى الصباح التالى، ساقونا مرة أخرى إلى المركب ومعنا الحقيبتان. لاحظنا هناك أن مرشدنا قد استأجر لنا طباخًا يحمل بين يديه عودًا. سألت حضرة الراعى، طالما أنه هو الآن المسئول الأول عن القارب، هل هو على علم بأداء القوارب وطرق تشغيلها؟ كانت إجابته بالنفى. كنت آمل مخلصا أن تكون تلك الإجابة من باب التواضع ليس إلا، بدا لى الموقف عبثيًا أو بعيدًا عن الواقع. يتكون طاقم المركب من مهندس وعامل نظافة وطباخ إضافة إلى الريس. أفاد السيد علاء بأن الريس شاذلى هو المسئول عن تسيير هذا القارب. عندما شاهدت هذا الريس لاحظت أنه رجل متقدم فى السن. الريس لا تعنى (كابتن)؛ إنها تعنى «الرجل المسئول عن تشغيل القارب». تعجبت من أن أربعة رجال مخصصين لإدارة قارب لا يزيد كثيرًا عن قاربى الذى أمتلكه وطالما أبحرت به! نظرت نحوهم جميعا، لكنهم كانوا يتحاشون مبادلتى النظرات- أو لعلنى أنا الذى تفاديت ذلك - لذا تجاوزتهم. تركت زوجتى منهمكة فى حوار جاد مع علاء وشغلت نفسى بالتحديق فى شجرة الموز العجيبة، لكنى فى الواقع، تذكرت فى تلك اللحظة فقرة مؤلمة قرأتها يوما فى كتاب لم أحضره معى، تقول:

.. الرجل الإنجليزى يسير فى طريقه.. بأسلوبه المتمثل فى اختراق الأشخاص الذين لا يبهجونهم بنظراتهم..هم دائما ينتظرون مقدم الصداقة بدلا من السعى الجاد لاكتسابها.. يُعد البريطانى هو الغريب الأول وسط الغرباء الذين يعيشون فى مصر..إنهم يمتنعون بسبب طباعهم الخاصة عن التماثل والاندماج فى الحياة العامة لهذا القطر...

كان ذلك صحيحًا. أحسست فى داخلى، بناء على خبرة عمر بحاله أننى ذاك الإنجليزى المذكور فى تلك الفقرة. سد كبير ربما أكبر من سد اللغة، ربما هى العادات والطبائع الراسخة فى القدم. وأنا الذى كنت آملا أن أخط كتابى هذا ليس لوصف معابد الفراعنة، ولكن عن البشر من المصريين!

التفت مرة أخرى إلى القارب، لاحظت أن أفراد الطاقم قد صعدوا إليه بينما زوجتى ما زالت منشغلة فى حوار حميم مع علاء، بجوارهم كان يقف نوبى عجوز نحيف القوام أسمر البشرة وجلده متغضن، يرتدى بنطلونًا جينزًا وجاكتًا رماديًا ويعتمر على رأسه بعمامة محكمة، شاربه أبيض كثيف يبدو وجهه من خلفه متجهما، وهو منشغل بفك بعض الحبال الخاصة بالقارب. فى ركن آخر، تجمع كل من الدكتور حمدى ومعه ابنه وزوجة ابنه الفائقة الجمال مع عدد من النسوة اللاتى كن قريبات مرشدنا علاء. كانوا جميعًا يفيضون بالحيوية والود والحركة، جعلتنى أتذكر على الفور واقعة «رحيل كريستوفر كولمبس إلى العالم الجديد». تبادلنا عبارات الوداع، ثم بكل شجاعة امتطينا ظهر المركب، صعد أيضا الريس شاذلى بجلبابه الرمادى الواسع وعمامته السمراء وأخذ مكانه داخل كابينة القيادة الزجاجية التى بداخلها مقود الحركة وباقى أدوات التحكم. وجه الريس شاذلى أسمر كأنما هو نوبى، ملامحه محددة لكنها طينية اللون بسبب عوامل الوراثة والتعرض المستمر للشمس. أما عن مهندس قاربنا، فهو رجل متحذلق له شارب رونالد كولمان، توجه فورا نحو ماكينة القارب وانشغل بها. وضع الطباخ رشدى عوده فى جرابه واتجه فى الحال إلى المطبخ. أدار الريس الماكينة، فألقى النوبى الحبال داخل المركب. لوح الحضور بأيديهم لتوديعنا وانهمكوا فى التقاط الصور التذكارية. ونحن نتحرك، قفز النوبى إلى مركبنا.

إذن فالطاقم يتكون من خمسة أفراد!

كان الهدف المأمول أن نتحرك من مكاننا هذا، ظللنا واقفين فى نفس المكان نلوح بأيدينا ونصيح ثم نتلقى إجابات غير مفهومة. تحرك قاربنا، وأبعدت بعض القوارب الراسية منظر المودعين على الشاطئ. يبدو أننا فعلا قد بدأنا. المعادى هى ضاحية من ضواحى القاهرة وقد غادرناها الساعة الحادية عشرة صباحا،

بينما المنطقة المرتفعة من المدينة هى خلفنا الآن. تتناثر المصانع المختلفة بجوار شاطئ النيل فى الناحية الجنوبية وتمتد لأميال عدة. كان الجو باردا ونحن نمخر مياه نهر النيل الذى يُعد من أشهر الأنهار فى العالم. إنه يبلغ فى الاتساع نهر التايمز تقريبا إذا نظرت إلى هذا الأخير من فوق كوبرى برج لندن. أظهر لنا التيار المائى المعاكس أننا لم نقطع سوى مسافة بسيطة - شىء مدهش هذا الأمر، حيث من المفترض أن قدرة هذا القارب إحدى عشرة عقدة، بينما يبدو أننا لم نستخدم سوى خمس عقد مخصوم منها عقدة بسبب التيار العكسى. لم يرتسم أمامى أى منظر ملفت للنظر يمكن أن يميزه عن أى نهر آخر، بالطبع كانت الأهرامات مختبئة وراء المبانى، بينما تحيط بنا مياه لونها رمادى، أما عن الصنادل التى كانت تمر بنا، فهى تُعد من الأمور العادية التى لا تحتاج إلى شرح أو تعليق. لاحظت أن الريس شاذلى لم يسر فى خط مستقيم، لذا فكرت أولا أنه ربما يتبع تيارا مائيا يعرفه هو جيدا، لكن لا. إنه ينتقل من مكان إلى آخر ومن شاطئ إلى آخر، وفى كل مرة أجده يرفع عقيرته بنداء معين مخاطبا من يجده على الشاطئ أو مكان الرسو. ظننت أيضا أنه ربما يود أن يجعلنا ندرك كم هو بارع فى قيادة المركب، لكن اتضح لى لاحقا أنه كان يبحث عن قطعة حبل وأشياء أخرى. علمت بعد ذلك، أن وظيفة شاذلى الحقيقية ليست قيادة هذه النوعية من القوارب، لكن عمله وما يزال هو أنه مختص بتحديد أماكن سير أى مركب سياحى فى النيل، وأنه ارتضى أن يكون معنا لأن سفينته السياحية كانت فى الورشة.

هبطت أنا وزوجتى لكى نفحص قمرتنا. لاحظت آن من الوهلة الأولى أنه لا يوجد مكان يمكن أن نعلق فيه ملابسنا، وهو شاغل لم الاحظه عندما استأجرت هذا القارب، حاولت بعدها أن أتجنب النظر المباشر فى عينيها، لذا قمنا برفع السرير الأعلى وأعددناه ليكون هو مخزن ملابسنا (من الواضح أننا أحضرنا معنا عددًا كبيرًا من الملابس). تظاهرت أن هذا الإجراء سليم تماما ويغنينا عن استخدام الدواليب أو الأدراج، لكن هيهات أن يخدع هذا التصور أحدا. لم تعجبنى أيضا دورة المياه، بدت لى فتحة التواليت أصغر من مقاسى.

اقترب الريس شاذلى من مركب ضخم يستخدم كمطعم وقفز إليه. أخذنا نحملق نحوه من نافذتينا (هما اثنتان واسعتان). رأيناه بعد لحظات آتيا وبصحبته الرجل النوبى الذى كان يحمل بين يديه بمرساة. إذن فنحن أيضا كان ينقصنا الهلب، ولم أتابع مشاهدتى، لأن الشاب المسئول عن النظافة، المدعو فارس، بدأ فى تلميع زجاج نافذتى من الخارج من على بعد ست بوصات من وجهى. بعد ذلك، اقتادنا شاذلى إلى وسط النيل.

ارتدينا ملابس أثقل لنجابه ذلك البرد ثم صعدنا إلى سطح القارب. أخذنا نرتعش ونحن نتلقى الرياح الشمالية الباردة. على شمالنا، استقر جبل أبيض على بعد نصف ميل من الشاطئ الشرقى للنهر وشاهدنا على البعد العديد من المعدات الميكانيكية ودخانًا كثيفًا وسحبًا من الغبار. كانت تلك هى طرة الشهيرة بمحاجرها التى يقتلع منها الحجر الجيرى الأبيض، تلك التى غطى بها خوفو وجه هرمه الأكبر فأصبح لونه ذا لون أبيض شاهق فى الزمن الغابر. بمرور خمسة آلاف عام من تقطيع الأحجار، أبعدت المحاجر عن النيل بمقدار نصف ميل. كان هذا المنظر تعويضا لنا لأننا لم نشاهد الأهرامات. بعد طرة، أصبح الشاطئان أكثر ريفية ولهما مسحة مصرية خالصة. على البعد، شاهدنا تجمعات كبيرة من النخيل وخطوطًا خضراء لأشجار دقيقة الحجم. مررنا أيضًا ببرج ضخم للحمام مبنيا بالطريقة المصرية الخالصة، فهو يتكون من جدران طينية تنتهى بمنارات بها فتحات يعشش فيها الحمام. رأينا أيضًا عددًا من الحمير مفكوكة العقال تأكل الحشائش من أرض خالية من الحشائش. شىء غريب أن نشاهد حمارا يصنع ما يشاء وليس محملا بأثقال قد تقضى عليه، لكن نحن الآن فى شهر فبراير وقد حل الشتاء المصرى، وهو الموسم الذى يرتاح فيه الفلاح وكذلك حماره، إلا إذا كان عملك له صلة بحركة النقل فى النيل أو كنت امرأة. كان النيل منخفضا، لذا تجمعت بعض النسوة يغسلن الملابس على حافة الشاطئ ذى المياه الطينية. لم أشاهد سوى رجل وحيد منهمك فى صنع الطوب، بينما هناك عدد من النسوة قادمات وفوق رءوسهن الجرار الفارغة يردن ملأها بالماء. فكرت، أشجار نخيل البلح تلك تشبه فى الشكل فرش غسيل الزجاجات - لكن هل

أنا حقا على معرفة وثيقة بفرش غسيل الزجاجات؟. هنا وهناك، تناثرت مصانع الطوب وقد اقتحمت حرم النيل وزاحمته بكسر الطوب الأحمر. هناك أيضا عدد من المراكب راسية بجوار هذه الساحات يتم تحميلها بالطوب الأحمر، وهناك مراكب أخرى حملت بأحجار بيضاء، لعلها نُزعت من مبان قديمة اختفت حاليا من الوجود.

ثم، فى منتصف النهار- وقد بقيت ساعات حتى تغرب الشمس- رابط مركبنا بجوار مركب راسية بجوار جبل من التبن ينكش فيه الحمام، وتلعب الفئران فى أرجائه. هذا التبن يملأ حوشًا من الأحواش المخصصة لصناعة الطوب، وأعتقد أنه هو نفس التبن الذى منعه فرعون عن العبرانيين فى الزمن القديم، لكن كل ما يهمنى (حتى والفئران تمرح فيه) هو أنه يمكن لأى إنسان أن يحمل ما يشاء من هذا التبن.

تناهى إلى سمعنا أول خبر سيئ فى رحلتنا هذه، فقاربنا لا يحمل بين جنباته بطاطين أو ملاءات، لذا قام كل من علاء والطباخ رشدى بالصعود إلى المركب المجاور ثم اقتحما جبل التبن وأسرعا باحثين عن مكان يمكن فيه أن يشتريا هذه الأغطية. أيضا اختفى كل البحارة، ثم بدأت الأسماك تقفز حول مركبنا. هبت بعد ذلك الرياح وبدأت بكرة فى الأعلى تخبط فى القلع، تاب، تاب.تاب.تاب إلى ما لا نهاية. اقترب وقت مغيب الشمس سريعا بينما غطت السحب العالية وجه السماء واشتد البرد عن الصباح.

حضر علاء محملا بالبطاطين والملاءات وظهر فجأة باقى الطاقم، ثم بدأ الحفل الموسيقى العربى الذى يبثه مكبرا للصوت. الوقت الآن السادسة مساء وقد غربت الشمس، إذن هناك وقت كاف لنقطع مسافة أخرى، وهذا ما أخبرت به علاء. هذه الملاحظة انتقلت بعد الترجمة إلى الريس شاذلى. هنا توقفت الموسيقى وخرست، وسكت الحوار المتبادل ما بين البحارة، يبدو أيضا أن البكرة توقفت عن الخبط فى القلع، لعل الريح أيضا سكنت وهدأت. فى الحال تلقيت الإجابة الحكيمة: لا أحد يسير فى النيل بعد حلول الظلام.

لكن لماذا؟ هذا ما صدر منى، أليس لدينا الأنوار الحمراء والخضراء التى تجهز بها المراكب عادة وتوضع فى المقدمة؟ هذه المعلومة الصادرة من فم خبير ألجمت الجميع، لكنى مرة أخرى تلقيت الترجمة القاطعة المانعة. لا أحد يبحر فى النيل بعد حلول الظلام، يجب الحصول على إذن بذلك، هذا لا يمكن الحصول عليه إلا فى القاهرة، فهناك لوائح ونظم يجب أن تتبع، النيل منخفض وسوف نعانى من مشاكل جمة إذا تحركنا من مكاننا هذا.

الجميع كان يبتسم فى وجهى بطريقة لطيفة كلها ود وحب. هى ابتسامة مصرية شاهدت مثيلا لها فى وجوه التماثيل المصرية الفرعونية، لكن للمرة الأولى أفهم معناها. علينا إذن أن نتحرك فى النيل فقط ما بين الساعة السادسة صباحا حتى السادسة مساء. إذن فى هذه الحالة، وهذا ما قلته، يجب أن ننطلق غدا الساعة السادسة صباحا بالتمام والكمال. مرة أخرى أتتنى الترجمة بشكل سريع، فعلا سوف نتحرك مبكرا، لكن ندعو الله أن لا يكون هناك ضباب شديد فى الصباح.

ضباب!

الضباب الذى هو عفريت البحار، يعتبر صديقا للكابتن. تخيلته وهو يهبط بينما تعمل الشمس على انقشاعه إلى أن يختفى كلية بعيدا عن الشاطئين.

حسنا، ليس هناك ما يمكن عمله. تذكرت، مرة أخبرتنى سيدة عجوز أن أخاها كان يعمل بحارا فى مركب مطاردة، وأنه أمر أن يصعد فوق قارب للمهربين فى الخليج، بينما غادره هذا ليطارد قاربا آخر.. قام هذا البحار وهو غير مسلح برسم خط بالطباشير فى وسط القارب المحمل بالمهربين وحذرهم من عبور هذا الخط وإلا... استمر هكذا الحال إلى أن عاد إليه قاربه المسلح وقبض على كل المهربين... يا سلام!

لا... ليس هناك ما يمكن صنعه أو فعله. اشتغل المولد الكهربائى ثم صدحت الموسيقى، قيل لى على لسان الريس شاذلى المبتسم أننا قد قطعنا خمسة وسبعين كيلومترا.

بعد قليل من الوقت، صمت المولد وانطفأت الأنوار وخرست الموسيقى. ما إن حدثت هذه الوقائع تباعا، حتى بدأت البكرة فى الأعلى عزف لحنها الرتيب المعتاد.

رقدت فى سريرى بكامل ملابسى تغطينى بطانية وملاءة، ولأنه لا توجد مخدة، بدا أن النوم لن يطرق بابى. بدأت وأنا فى حسرة الوم نفسى، لأننى لم اتجهز جيدًا لتنفيذ هذه المهمة التى كنت فيها متلهفا على التعرف على مصر الحديثة وكذلك المصريين.

تخليت عن طريقتى الصبيانية فى مقاربة الأمر، واستبدلت بها طريقة ناضجة تتسق مع كبر سنى. لم تكن المشكلة الحقيقية تكمن فى عدم قدرتى على مقابلة الناس، ولكن المشكلة كانت تتمثل أكثر فى قدرتى على تقدير الأمور. كل تصوراتى عن مصر بالذات تبدلت وتغيرت بسبب الانفجار المعلوماتى الذى نعيشه فى أيامنا هذه، هو انفجار لا يمس فقط معرفتنا بمصر القديمة أو حتى الحديثة، لكن بما يمكن أن نسميه بمصر الجيولوجية. أعلم الآن أن الوادى الذى يخترقه نهر النيل حاليا هو كله كان مجرى للمياه الغزيرة. وبالطبع، كانت هناك جهود دائبة ليس لاكتشاف المعادن الثمينة فقط، بل وللتنقيب عن البترول. تفهمت أيضا معنى تلك الظواهر المختصة بحركة طبقات الأرض والإزاحات المستمرة لها والتى تجتاح الركن الشمال الشرقى للأراضى الإفريقية. فمصر التى ترتسم فى خيالى (تلك التى يجب أن تظهر جلية فى هذا الكتاب) هى ذلك البلد الذى يحتوى فى باطنه على ذلك التاريخ العظيم. هو تاريخ يصعب تشبيهه أو قصره على قصة الإنسان هناك، ولا حتى إذا امتد الوصف لكى يشمل النظر فى طبيعة الإنسان العاقل الذى وُجد أولا فى هذه المنطقة، فهى مسألة لا تتصل فقط بآلاف السنين لكن بملايين السنين التى استطاعت أن تؤثر فى الخيال. أعلم الآن، أكثر مما كنت أعرف وأنا صغير، أنه لم يكن هناك نيل واحد يخترق هذا الوادى، بل كانوا خمسة أنهار متجاورين. وعندما نقيس النيل الحالى بتلك الأنهار القديمة، يتضح أن هذا النيل لم يكن سوى نطفة بالمقارنة بهم، لكن لكى يستطيع المرء أن يختبر هذا الخيال الجيولوجى، عليه أن يرى ما هو تحت السطح، أن ينظر فى

الماضى البعيد، ربما يستجلى تلك الطبقات التى تغطى وتخبئ هذه الصخور وأن يجهد عقله بكل حماس ـ وشاعرية أيضا ـ ويقتنع بأن هذا المكان مشابه لغيره من الأماكن، وأنه فى الحقيقة هو ملتحم بالطبيعة الكلية التى تنتظم كوكبنا وتعبر عنه.

أخذت النجوم ترعش، وأنا أحملق فيها من فجوة ما بين ستائر النافذة الموجودة خلف رأسى، هى نجوم خالدة تؤكد لنا وتشرح مجمل تاريخ هذا الفرع النهرى الضئيل الذى نسميه النيل بالمقارنة بإخوته العمالقة السابقين، هذا الفرع الخامس الباقى بدأ فى نقر قاع قاربنا بين الحين والآخر.

كانت تلك هى مشكلتى الهزلية. فى خيالى جمعت ما يملأ فراغ جراند كانيون(*) بل أكثر من ذلك، ملأته ببخار وصخور وحفائر وحصى ورمال والوحل والطين، بحيث بدت جوانبه المنحدرة فوق سطح الأرض بأكثر من بضع مئات من الأقدام ـ تلك كانت أصبحت مصر التى أعرفها، يصعب علىّ أن أجمعها فى صورة مغرقة فى البساطة. كذلك فإن المضيق لم يعد خاضعا للتخمين الذى يقبله المنطق. لقد استطاع الفحص باستخدام الموجات الصوتية وكذلك الحفر تحديد كل شىء، بما فى ذلك المدى الزمنى المفترض أن يغطى معرفتنا بتاريخ معين قدره عشرة آلاف من الأعوام، يجب الآن أن يغطى ملايين السنين، ويبدو أن قصة الإنسان ذاته شغلت على الأرجح نصف هذا الزمان الغابر، لذا نحب أن نستعد من الآن لقياس زمنى يتعدى الألف عام.

خطر فى ذهنى تلك التماثيل المصرية القديمة، ألا يمكن أن تحسم لنا القياسين السابق ذكرهما؟ إن الإنسان فى حاجة إلى قدر عظيم من الخيال لكى يركز ذهنه وخياله لاستيعاب كلا المقياسين فى الوقت نفسه. كان هناك، كما أتذكر، أحجار مصقولة انفصلت أو اقتلعت من المعابد تحتوى بالصدفة على

(*) جراند كانيون هو مضيق صنعته مياه نهر كوليرادو فى الولايات المتحدة فى ولاية أرزونا، وهو جزء من منتزه جراند كانيون، وهو المنتزه الوطنى الرئيس فى الولايات المتحدة (المراجع).

حفريات. حتى بدون هذه الحفريات، فنوعية هذه الأحجار كانت محددة ومعروفة. مثلا يأخذنا التمثال البديع لزوسر الموجود فى متحف القاهرة إلى مسافات زمنية بعيدة (باستخدام قياس واحد) الذى يعود بنا إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ونحن نقدر ذلك ونتعجب له. لكن نظرتنا الأخرى، ذات البعد البؤرى، يجب أن تميز بأن هذا التمثال اقتطع من منطقة طرة التى تتميز بأحجارها الجيرية الشاهقة البياض، وهى تلك الضاحية التى مررنا بها فى مبدأ نهارنا. علينا إذن أن نضرب الزمن السابق فى ألف.

شعرت بالدفء الآن، لكن رأسى الأصلع كان ما يزال بردانا، لذا أخذت أتحسس فى الظلام باحثا عن قبعتى التى أتقى بها الشمس، عثرت عليها وثبتها فى رأسى وانتظرت أن تصبح خيالاتى التى تزدحم بها رأسى ذات فائدة حقيقية حتى ولو لمرة وحيدة.

تذكرت واقعة حدثت معى عندما كنت فى المرة السابقة فى زيارة لمدينة أسوان. كنت بجوار المعابد التى تقع على حافة الصحراء الغربية، شاهدت فى حفرة قريبة من المعابد مطرقة قديمة. كانت عبارة عن صخرة مستديرة الشكل تناسب قبضة يد الإنسان، كانت هذه المطرقة وأمثالها هى أول الأدوات التى استخدمت لتشكيل الأحجار، كل ما عليك هو أن تدق بها بكل إصرار فوق صخرة أخرى أقل صلابة حتى تتشكل كما تشاء. كنت قد شاهدت فى اليوم السابق نتيجة لهذا العمل وأنا أتطلع نحو المسلة الناقصة غير المكتملة على الجانب الآخر من النيل. هناك أخذت فى تفحص سطح هذه المسلة المتعرج الذى استُخدمت فيه مثل هذه المطرقة التى عثرت عليها، تعجبت من مقدار الزمن الذى قضاه العمال فى عملهم هذا، منحنين أو مستلقين على الأرض وهم يدقون على هذا الشىء لفصله من أصله. لقد فشلوا فى إكمال هذه المسلة لأنها انفصلت عند نقطة ضعيفة فيها لم يتبينوها فى حينه، لكنهم نجحوا فى أن يتركوا وراءهم درسا عمليا يوضح مدى الإصرار فى العمل وموضحًا للأساليب الأولى التى كانت تتبع فى تشكيل تماثيلهم ومسلاتهم. الآن وأنا على الجانب الآخر من النيل، ترقد تحت قدمى واحدة من تلك الأدوات البدائية التى استخدموها، وتواجهنى واحدة من

نفس نوعية الأحجار التى طالما طرقوا بها على المسلة الناقصة وغيرها، وهى من جرانيت أسوان الأحمر. لعل هناك عددًا قليلاً من المتاحف الكبرى التى ليس بحوزتها مثل هذا المدق. مثلا نجد فى المتحف البريطانى الرأس الكبير لسيزوستريس وأيضا مقدمة ذراعه وقد تشكلت باستخدام مثل هذه المدقات. لذا بشكل تجريبى، أمسكت هذه المطرقة التى عثرنا عليها ورحت أتأملها. لم تكن هناك علامات مرئية على سطحه. لكن، لم أتوقع أن يكون هناك أية علامات، فأنت من الممكن أن تخدش سكينا بقطعة من الماس وهذه الأخيرة تظل سليمة تماما. كانت المطرقة من حجر الديورايت المستحضر من شواطئ البحر الأحمر، ويفوق فى صلابته الجرانيت بمقدار مرتين. أخذت أدق فوق بقايا حجر من الجرانيت الأحمر، لدهشتى لاحظت أنه بدأ يتكسر بسهولة بالغة، وقبلما يصيبنى التعب، كنت قد حفرت فى ذلك الحجر حفرة طولها قدما وعمقا يزيد عن النصف بوصة. بالطبع، حتى حجر الجرانيت يتعرض سطحه الخارجى لتغيرات كيمائية بطريقة (بعد ملايين السنين) يصبح بعدها نوعًا من الكاولين اللين. مع ذلك، ما إن اخترقت السطح الخارجى وتوصلت إلى الصخرة الأساسية حتى لاحظت أنها أيضا قابلة للتشكيل. كيف يمكن للإنسان أن يستوعب مثل تلك التجربة؟ بالنسبة لى، كانت تلك تجربة مدهشة ولها دلالات عميقة. لكن على ماذا تدل؟ كانت هناك المعلومة التى تؤكد أن الجرانيت هو حدث جيولوجى نشأ فى مدى زمنى معين، كذلك فإن مطرقة الديورايت كانت موجودة فى ذلك الزمن البعيد نفسه، ثم كان هناك (فى زمن أقرب) أن جرت محاولات تشكيلية وتصويرية نفذتها أيادى عمال وفلاحين وعبيد، وذلك باستخدام هذه الأدوات البدائية فى تشكيل وتشذيب التماثيل الفرعونية منذ خمسة آلاف من الأعوام المنصرمة.

ما أود إظهاره هو الحيرة التى واجهتها فى علاقتى مع الأشياء، وهى حيرة امتدت على مساحة العمر. كنت فى حاجة إلى أن أجد نقطة محورية لمعرفة الأشياء معرفة عميقة، ومعالجة للأمور تزعم الإحاطة دون الوقوع فى الضحالة، ولكنى فى النهاية أدركت أن أهم العوامل ينبغى أن تكون خبرتى الذاتية، والتأثير الذى تتركه تلك الظواهر المنفصلة وغير المتشابهة على إحساسى الخاص.

كانت رأسى دافئة، ولا أقول إنها كانت تغلى. وأنا تحت كومة هائلة من الملابس، بينما هناك نجمة وحيدة تلمع من وراء الستائر. رقدت، شاعرا بأن رأسى كانت تغلى فعلاً. اعتورنى شعور لم أجد له تفسيرًا بأنى أنجزت شيئًا.

لابد أنى نمت.

(٢)

صعدت إلى سطح القارب ـ ربما بعد فترة نوم عميق، وعلى الرغم من أننى لم أكن فى كامل وعيى ـ لعلها كانت الساعة السادسة إلا ربع صباحا. لاحظت أن الظلام ما زال باقيا والبرد شديد. نظرت إلى الدنيا، شىء غريب! على مقربة رأيت رجالاً يرتدون الجلابيب، بعضهم فى القوارب وآخرون على الشاطئ. لا أحد فيهم فى حالة حركة. كان الماء ساكنًا، ولا يمكن رؤية التيار. لقد جعل سكون المشهد هؤلاء الرجال الذين يرتدون الجلابيب وكأنهم يتأملون مأساة فظيعة لا مفر منها تكاد تقع أمام أعينهم، ظنًا منهم أن لا فائدة فى الحركة أو الصوت. سألت نفسى: هل كان هؤلاء الأفراد واقفين أو جالسين أو منحنين هكذا طوال ليلهم؟ أم كانوا مثل تلك السحالى التى تنتظر بزوغ الشمس حتى تنفك عضلاتها ويسمح لها الدفء أن تتحرك؟ وربما نحن الذين كنا مثل تلك السحالى، فقد انقشع الليل وأنا فى غاية الإعياء. أخذت أراقبهم بينما كان الفجر قد أرسل أضواءه فانزاحت آثار الضباب القليلة من وجه المياه. شاهدت صيادا منكمشا داخل قاربه، بينما مجدافاه الغريبان (عبارة عن عارضتين خشبيتين مشوهتين) موضوعان بإهمال على جانبى القارب، بينما يضع فوق رأسه عمامة محكمة ومربوطة جيدة ليتقى برد الفجر. كان يبعد عنا بمقدار عشر ياردات. لم يتحرك أبدًا من مكانه، يرتدى الجلابية الثقيلة، كان المشهد يخبر بأن الليل هو وقت اجترار الأحزان، وأن وقت الفرح والفرج موعده الصباح.

بشكل فجائى، بزغ النور من الشرق، رأيت امرأة تخرج من دارها وبيدها صفيحة تريد أن تملؤها بالماء، أقدمت ببطء حتى حافة الشاطئ الطينى، فلمعت

الصفيحة حين انعكست على سطحها أشعة الشمس الأولى. رفع الصياد رأسه، ثم بدأ عدد من الأشخاص يتحركون على الشاطئ. كان المشهد حالة مسرحية؛ فقد انتقلنا من حالة الحزن إلى حالة الحركة التى فيها تتبدى حركة ونشاط الحياة اليومية، وكل ذلك فى غضون دقيقتين فقط لا غير. على البر، هناك امرأة تقود حمارا، أمسك الصياد بمجدافيه الغريبين وأخذ يجدف ببطء شديد. رفع رجلان جلابيبهما إلى أعلى وقعدا بقرب المياه. اهتمت الشمس بجبل التبن، فتحولت تلك إلى ذهب مجدول يمكن أن يقدم للفتاة الجميلة فى قصة من قصص الجنيات. بدأ الحمام مرة أخرى ينقر فى التبن والفئران تخشخش فى وسطه. ظهر قارب شراعى بشراع ممزق مجعد كأنما هو مصنوع من جلد قديم، اقترب منا هذا القارب بخطى محسوسة بفضل التيار الخفيف. هذا القارب كان خاليا ومتجها شمالا. وقف قارب آخر صغير مواجها لنا، لكن لم تكن تصدر منه حركة سوى أن يلعب مع التيار، كان هذا القارب محملا بالطوب الأحمر ويبدو أن الفراغ الوحيد المتاح داخله لا يتعدى ست بوصات.

ظهر علاء وهو يرمش. سألته عن أسماء تلك القوارب التى تحمل الطوب، أجابنى بأنه لا يعرف، وعندما تقدم بهذا السؤال للريس شاذلى، أجاب ذاك بأنها تسمى صنادل، والواحد منها هو صندل. كان الريس يحنى رأسه وهو يبتسم:

«أرجوك. قل له إننى آمل أن نقطع مسافة أفضل من الأمس»

ترجم علاء. استمر شاذلى فى لى جسمه، ثم رد على علاء وأسرع بعدها إلى غرفة القيادة الزجاجية.

«ماذا قال؟»

«أجاب بأن من يركب بحر النيل يجب عليه أن يستخدم شراعا اسمه الصبر».

ولم أنبس ببنت شفة. أدار فيلسوفنا الماكينة وتحركنا. هبط علاء إلى مكانه. ثم ظهر ذاك النوبى الذى ظننت أولا أنه عامل فى نادى اليخوت بالمعادى. بدأ ببطء شديد يجمع بين يديه عدداً من الحبال.... يسير الإنجليزى فى طريقه.. بأسلوبه الخاص فى تجاهل الأشخاص.

تحركت من مكانى ووقفت بجواره، شاعرا بأنه وإن كنت بلا أى نوع من السيطرة على الأحداث فعلى الأقل يجب أن أجاهد ضد طبيعتى المتحفظة، وأن أحاول التعرف على أفراد الطاقم. أدار النوبى ظهره لى ونزل إلى مكان إقامته.

لم أشعر بأننا نتحرك بالسرعة الكافية. المنظر أمامى لا يمكن إطلاقا أن أدعوه مثيرا أو جذابا. هو منظر شاطئين كليهما طينى الشكل، وعلى يسارنا بالكاد يمكن أن نلمح جبال الصحراء الشرقية.

حينئذ، بدأت أدرك خطأً آخر من أخطاء سوء التقدير. عندما يكون الإنسان راكبا فوق سفينة سياحية عالية، يتاح له أن يستجلى كلا الشاطئين، لكن عندما تكون موازيا لسطح المياه، كما فى حالتنا، بينما النيل فى أقصى انخفاض له، الانخفاض الذى يحدث كل فبراير من كل سنة، إذن ليس أمامك سوى أن نشاهد وجه الشاطئين الطينيين. فى تلك الظروف، لن يكون فى مقدورك أن تتمتع برؤية الوادى على مدى اتساعه، وتنحصر مشاهداتك على بعد مظاهر الحياة المائية المحدودة والشاطئين. أكثر من ذلك، نلاحظ أن النيل ومعه كل الأنهار التى تفيض، تلقى بكميات هائلة من الغرين الذى يتجمع على مدى مئات السنين، وبتكرار ذلك يعمل هذا على رفع الشاطئين، ولذلك سميت "بالمرتفعات". ويا ليت كانت أبصارنا محدودة بهذه المرتفعات فقط، بل إن الأرض التى خلفها تجدها أكثر انخفاضا عن مستوى الرؤية العادية، لذا لا يمكن أن تشاهد سوى الأطراف العليا للنخيل ولا شىء آخر. هذا جعلنى أشعر بذعر بالغ من إمكانية قيامنا بقطع مئات الأميال ولا تقع أنظارنا سوى على الطين والمياه الرمادية.

ظهر الطباخ رشدى ليخبرنا أن الغذاء جاهز، فشرحت له أنها تسمى الإفطار، ثم نزل هو إلى الأسفل. استخدمت زوجتى التواليت الخاص بنا، لكن بدا عليها أنها تعانى مرضا ما، لذا بذلت كل جهدى لمعالجة هذا الأمر، لكن دع هذه القصة فى طى الكتمان ولن أنبس بشىء سوى أن أفراد الطاقم حاولوا بعد ذلك أن يكون نظام دورات المياه فى أفضل حال.

بعد الإفطار، وضعنا ملابس أكثر على أجسادنا، لأن الرياح الشمالية الباردة السريعة كانت لنا بالمرصاد. ذهبت لأجلس على السطح، رأيت النوبى قابضا على إفريز المركب بقوة، قطعا لم يكن يعانى من دوار البحر، لكنه حكم السن فقط. اقتربت منه وسألته عن اسمه، فأجاب إنه «سيد»، ثم بدا على وجهه بعض مظاهر الامتعاض، فأدركت أنه لا يود أن يفضى بأكثر من ذلك. كنا نقترب من جزيرة، حيث ظهر للعيان أن النهر ينقسم هنا إلى فرعين. كانت هذه الجزيرة غاصة بالنخيل وتحيط بها الأسلاك الشائكة كأنما هى سجن. سألت الرجل العجوز عن اسم هذه الجزيرة، أجاب:

«اسمها فيشر»

«آه، فيشر، يعنى فيشرمان، الصياد»

«لا. فيشر الإنجليزى»

«صياد إنجليزى؟»

ما إن استمع لذلك، حتى بدا على وجهه مظاهر الامتعاض وانسحب سريعا وهبط إلى مقره المفضل.

طالما أننا سجناء هذا النهر، فعلى الأقل علينا أن نعرف كل شىء يخصه. كان هناك عدد كبير من أشجار النخيل الضخمة على الشاطئ مباشرة ومعها عدد من أشجار السنط. بالتأكيد أشجار السنط هذه هى مصرية خالصة، حيث يرد ذكرها كثيرًا فى الأدبيات القديمة. عدد كبير من هذه الأشجار الأخيرة لا يزيد طولها عن أربعة أو خمسة أقدام فوق خط المياه. قبل بناء السد العالى فى أسوان، كانت المياه ترتفع عدة أقدام أعلى من هذا المستوى، وحتى فى المكان الذى يبعد ٥٠ ميلا من القاهرة، فإنه إذا حدث فيضان زمان، فإنه قطعا سيغرق هذه الأشجار، لذا نرجح أن هذه الأشجار قد نمت وترعرعت خلال الخمسة عشر عاما الماضية، حينئذ وهنا أيضا، ليس مسموحًا للمياه أن تزيد عن أربعة أو خمسة أقدام.

ظهر علاء.

«إلى أى مدى يمكن أن يرتفع النهر فى هذه الأنحاء فى أيامنا هذه؟»

أوه، أعتقد أنها لن تزيد عن أربعة أو خمسة أقدام، ففى فبراير كأيامنا هذه يطلقون من السد العالى مياها بالكاد تكفى لتشغيل مولدات الكهرباء الضخمة عند السد. لا أحد يحصل على مياه كافية للرى فى فبراير، لهذا تجد النيل فى أشد حالات انخفاضه، وهذا ما دعا شاذلى أن يسير فى خط متعرج. هو مضطر إلى أن يتبع أعمق المياه"

إذن فى هذه الحالة سوف نصادف تيارًا عكسيًا ضعيفًا.

على العكس. قال شاذلى، إنه طالما أن النهر منخفض، سنجد المياه تتجمع فى الممر وتجرى هكذا بسرعة.

«لكن متى يرفعون من مستوى المياه؟»

بعد عدة أيام، غالبا يوم ١٦ فبراير، هذا ما أخبرنى به شاذلى، وهذا الإجراء يحدث هكذا: أولا يغلقون السد المؤدى إلى البحر، ثم ينتظرون قليلا حتى ترتفع المياه خلفه، ثم بعدها يغلقون السدود واحدًا تلو الآخر على طول مجرى النهر وينتظرون كل مرة يفعلون ذلك، بعد ذلك يطلقون المياه فى الترعة الرئيسية لرى الأراضى الزراعية.

إذن لن يكون هناك أى تيار مائى على الإطلاق.

نعم بالكاد.. هذا ما صرح به

قلت فى نفسى: هذا يفيدنا فى التخطيط للرحلة. كانت فكرتى هى أن نسير ضد تيار مائى ضعيف ثم نعود باستخدام تيار سريع، لكن اتضح الآن أنها فكرة خاطئة. كان واجبا علينا أن نسير ضد تيار مائى سريع فى ممر عميق، ثم نعود فى النهر المتسع بدون الاعتماد على أى تيار مائى يساعدنا فى السير.

أخذت أراقب الشاطئين.

علاء، ماذا حدث للإحدى عشرة عقدة التى وعدنا أن يسير هذا القارب بموجبها؟ نحن فى الواقع لا نستخدم سوى خمس عقد منها فقط.

أجاب علاء بكل لطف وحب: «بصراحة، صادفتنا بعض المشاكل الميكانيكية البسيطة».

«يا الله!»

«السبب هى مضخة المياه.. يظن المهندس أحمد أن بها عيبًا ما»

فتحت فمى ثم أغلقته. فكرت، لعل هناك قولاً ظريفًا أو حكمة لطيفة سوف تصدر من فم علاء، لكنى أنا قطعا لست مستعدًا لسماعها. ظهر النوبى فجأة من القمرة الأساسية ثم اختفى خلف كابينة القيادة.

لماذا أرى سيدًا هذا متجهما فى وجهى؟

بصراحة، هذا موضوع حساس نوعا ما.

لا. قل لى.

حسنا، سيد هذا كان يعمل فى منطقة السويس منذ أربعين عاما. كان يعمل فى معسكرات الإنجليز. هو يكرههم.

فكرت. منذ أربعين عاما. عالم الحرب العالمية الثانية؛ الأطلنطى؛ جنود العاصفة؛ دى- داى (*) .

إذن، لهذا هو يعرف بعض الكلمات الإنجليزية.

نعم.

(*) اسم عملية عسكرية تم فيها إنزال قوات كبيرة للحلفاء فى نورماندى على السواحل الفرنسية فى الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا فى السادس من يونيو عام ١٩٤٤، فى البداية كان مخططًا له أن يتم فى الخامس من يونيو ولكن الجنرال دافيد أيزنهاور أمر بتأجيله إلى اليوم التالى بسبب سوء الأحوال الجوية، ولذا سُمى اليوم بأول حرف من اسمه (المراجع).

تذكرت.

لقد ورد على لسانه حديثا عن جزيرة مررنا بها، قال فيشرمان وإنجليزى..

آه..نعم.

أخبرنى إذن.

هل حقا تريد أن تعرف؟

«طبعا».

حدث هذا منذ عدة سنوات، كان أحد المصريين يمتلك نصف هذه الجزيرة. حدث أن حضر بعض السياح الأجانب الأثرياء فى قاربهم مثلك أنت، واحد منهم وكان اسمه فيشر أراد أن يشترى هذه الجزيرة، لذا دعاه هذا المصرى إلى حفل غذاء، لكن الإنجليزى رفض الحضور.

ولم رفض؟

ضحك علاء ضحكة مصرية خالصة قائلا: «أعتقد أنه ظن أن طعام هذه الوطنى لم يكن نظيفا».

لم يكن فى إمكانى أن أعلق، لذا استمر علاء فى سرد قصته.

«على الرغم من ذلك، عرض هذا المصرى أن يمنح هذا الإنجليزى نصف الجزيرة كهدية خالصة»

«ولم كل هذا؟ ..»

«ثم حث ملاك نصف الجزيرة الآخرين أن يبيعوا نصيبهم فى الجزيرة لهذا الرجل الإنجليزى بسعر بخس»

«لا أفهم أبدًا ما معنى ما تقول...»

«المصريون عموما كرماء للغاية، مستعدون أن يمنحوا ضيوفهم كل ما يرغبون فيه.

«مثل ذلك العربى وحصانه».

«لهذا دعيت باسم جزيرة فيشر، بالطبع قام ناصر بعد الثورة بتأميمها».

ذكرت نفسى، أنه فى ظل أى ظرف، لن أبدى إعجابى بأى شىء بعد ذلك. استقرت فى ذهنى بعض الآراء القاسية تختص بفيشر هذا وكذلك هذا المصرى الكريم. لقد كان المصرى غبيا، أما فيشر هذا فهو إنسان كريه، إلا أن حال «سيد» يدعو للرثاء حقا.

«أعتقد أن قصة فيشر هذه لم تفقد بعضًا من تفاصيلها المهمة».

«أخبرنى سيد أنه استمع إليها من ابنة فيشر ذاتها».

شعرت أن الرياح أصبحت تحمل لنا قدرا أكبر من البرد. القارب يسير أبطأ. بدا الشاطئان أكثر كآبة. يا لهؤلاء المصريين القدامى، ما ذاك الذى يمكن أن يفعلوه مع الأجانب الذين يعيشون بينهم؟ لكن هذه التصورات اضمحلت وخفتت فى ذهنى وأصبحت ضئيلة الشأن والمعنى عندما قمت بالزيارة الأولى لمصر، وقتها انشغلت تماما بجموع تلك الجماهير السمراء المفعمة بكل مظاهر الحياة والتوقد. هم لا يشبهون القدامى الذين طالما استخدموا اللغة الهيروغليفية فى مراسلاتهم من الذين صاحبونى أيام طفولتى وشبابى المبكر. الآن تجلت كل الحقائق، من نحب ومن لا نحب، تجلت مظاهر الكراهية والهستيريا، وهو ذا أمامنا ذاك الرجل النوبى العجوز المليء بالأحقاد القديمة، والذى نزع نزعا من وظيفته فى نادى اليخت لكى يصحبنا لأى سبب من الأسباب، لعل هذا يكون لنا ذكرى.

«علاء».

«هه».

ما الذى يجرى فى أذهان الطاقم بشأننا؟ اثنان من المسنين يضعان نفسيهما فى موقف حرج !! وماذا يريدان فى النهاية؟

سوف أبحث معهم هذا الموضوع.

نزلت إلى قمرتى لكى أدون كل أحزان النهر فى يومياتى، لكنى وقفت طويلا أمام النافذة مكفهرا محملقا فى أكوام الطين والمداخن المتراصة على الشاطئ

أمامى. هناك قارب مستعد للتحميل أمام ساحة الطوب الأحمر. ذكرت نفسى بأن هذه الصنادل اللطيفة ذات الخطوط الانسيابية والمقلاع الوحيد الهائل، سوف تكون من الأشياء التى يمكن أن تعزينى فى رحلتى هذه. واحد منها كان واقفا شمالا ثم مر بنا مقتربا للغاية من مركبنا. هو فى الواقع متخصص فى تحميل القش، بدا فى نظرى كأنما هو بغل كبير وضعت سلال على جانبيه. كان وسطه متسعا والتبن المحمل عليه يلمع تحت ضياء الشمس بينما القلع قذر وقمئ. من كان عليه أن يدير هذا الصندل كان واقفا فى الخلف وأمامه أكوام عالية من القش. لا يمكن بالطبع أن يرى أمامه. لكن على أيه حال، استخدام البخار غلب تماما استخدام الشراع، أو ليس هكذا الأمر فى كل البحار؟ مررنا بعد ذلك بكومة من الطين وسط النهر وقد جفت المياه فوقها، بينما تحط عليها مئات من طيور البحر، تلك التى يسميها المصريون «الإوز العراقى». لا أعلم من أين أتت تلك التسمية.

حاولت أن أحد من مشاعر الانقباض التى تملكتنى وودت صادقا أن أبحث عن شئ يشرح القلب، وأن أبعد قليلا من موضوع المراكب التى تمر بى. لذا وجدت تركيزى يتجه غصبا نحو موضوع صناعة الطوب تلك. على أية حال، يعتبر هذا الموضوع مسليا للغاية. فى هذا الجزء من النيل، كان فى إمكانى أن أشاهد مجموعة ضخمة من المداخن، عددت ثلاثين منها فى موقع واحد- الدولة المصرية تحارب هذا الإنتاج الطوبى الكثيف وقد حاولت مرارا أن تمنعه، لكنها لم توفق كلية. صناعة الطوب فى حد ذاتها ليست بالأمر السيئ، لكن هناك نوعين منه. هناك الطوب المصنوع من الطين النى، وهو فى مقدور أى فلاح أن يصنع مثله على حافة النهر، وهناك الطوب الأحمر المحروق المأخوذ طينه من أجود الأراضى الزراعية الخصبة. ولن يوجد فى أى قطر متمدين أكثر بشاعة من مرأى ساحات صناعة الطوب الأحمر سوى القليل. الطوب اللبن أقل متانة ولاحظت أنه لم يوجد سوى ساحة واحدة لصناعته وسط ثلاثين من الساحات المتخصصة فى صناعة الطوب الأحمر. فى ساحة الطوب اللبن، تلاحظ وجود عامل واحد منهمك فى تقليب الطوب المصنع ليسمح للشمس والهواء أن يجففا الوجه الآخر من الطوبة.

وهنا وهناك، بين حقول النخيل تتناثر المنازل المبنية بالطوب اللبن، وحوائطها تلك التى تتساند على بعضها البعض طلبا للدعم منذ زمان موغل فى القدم. نعم، هكذا كان الحال دائما، ويبدو أن مجمل تاريخ مصر يتساند على بعضه هكذا، وله نفس الزاوية.

هذه الفكرة لم تكن وليدة اللحظة، بل بزغت فى وجدانى بعد لأى وتفكير عميق. فإحدى قراراتى التى عزمت على تنفيذها عندما كنت فى بلدى هو أن أخصص فصلا كاملا فى كتابى هذا عن هذا الموضوع. هى قطعة إنشائية تزحم رأسى ولم تكن فى حاجة سوى إلى نوع من التأكيد عندما أصل إلى مصر وأستقر وأتعرف على المكان بنفسى. هى تتحدث عن هذه الزوايا، تلك التى دعوتها بأنها "موغلة فى القدم، والتى تزيد فى درجة ميلها ورغبتها فى الدعم المستمر بالمقارنة بتلك الحوائط المبنية من الطوب اللبن الهش، بل وتزيد عن ذلك التدرج المائل الذى نشاهده فى بوابات المعابد الفرعونية التى نشاهدها هنا وهناك، إلى أن ننتهى إلى ذلك الميل الشديد لحوائط الأهرامات، حيث انحنت الأجناب بحيث يستحيل تشييد سقف تلك الأجناب الأربعة. هذا ما كان يدور فى ذهنى، كنت أفكر فى هذا التدرج فى الميول وأعتبره كأنه نوع من التدرج فى الوزن، فى السيطرة على هذا البلد، كأنما هو حق وامتياز فى مخيلتى. نظرت إلى تلك المعابد الفرعونية كرمز قديم، أراها تنطق أمامى قائلة، أنتم أيها الفلاحون، لكم هذه الحوائط المائلة المتساندة بعضها على بعض، لكن نحن الآلهة لنا طريقنا أو مسارنا الخاص. قعوا على وجوهكم، وقدموا لنا الأضاحى". فأنا هنا، وفى نفس المكان، أجد أمامى نفس تلك الحوائط الطينية الهشة، وبيوت عديدة شيدت بها. لم تقع عيناى عليها بعد، لكنى سوف أراها قطعا، وهى تلك التى سوف تؤكد ذاك الفصل الذى يختمر فى رأسى وأرغب فى رصده.

مع ذلك، ألاحظ أن البيوت التى شاهدتها وتقع قريبا من الشاطئ، أرى أنها بنيت بالطوب الأحمر الغبى القبيح، تلك التى تزيد فى سماجتها عما أشاهده فى ساحات صنع هذا الطوب. عندما تصل واحدة من تلك الساحات لتفترش أرضا تتاخم النهر، يتحول الشاطئ الملاصق إلى ساحة من هشيم الطوب الأحمر.

شاهدت الصنادل راسية بجوار الشاطئ تحمل الطوب، وفى موقع وحيد لاحظت أن الطوب يحمل فوق ظهر سيارات ضخمة، بينما الصنادل المجاورة خالية.

فى مصر، لا يتم نقل الطوب باستخدام الأوناش. إذا أردت أن تحمل صندلا، فعليك استعمال عضلات العمال، وباستخدام ألواح خشبية مائلة. ترى الحمالين وقد ربطوا قطعة من الخشب المستقيمة على ظهورهم تمتد من فوق رءوسهم حتى وسطهم، هذه القاعدة بها رف بارز يقع عند وسط العامل والطوب يحمل على هذا الرف حتى يصل إلى مستوى رأسه، حيث يرص عمودين أو ربما ثلاثة متراصين بجوار بعضها البعض. بذلك يحمل هذا الرجل جزءًا من حائط كامل خلفه يسير بهما الهوينى واضعا يده المنقبضة على صدره كأنما هو يحاول منع صدره من الانفجار وخوفا من أن تتبدد أضلاعه، ثم بكل مشقة يصعد الصندل ليضع الطوب فى مكانه المحدد، بعدها يعود مسرعا لنقل حمل آخر. أشاهد الفلاح وهو يفرغ حمولته بعد عدة محاولات ثم يندفع عائدا ليتلقى جرعة تعذيب أخرى، وهكذا دواليك. ألاحظ أن العامل منهم يتناول بسرعة الأداة الخشبية، ثم يظهر بعد ثوان معدودة لكى يحمل عددا آخر من هذا الطوب بينما راحة يديه منقبضة. تلاحظ أيضا أن الشاطئ، والساحة، والصنادل والرجال، كلهم غارقون فى اللون الأحمر. لكن طالما وُجد الطوب، وُجد المال أيضا. لاحظت أن قِلع أحد الصنادل الراسية لونه أبيض وجديد، لذا يثور فى مخيلتى شعور فظيع، أكيد أن هذا الشراع ليس سوى مهر إحداهن.

كل هذا الذى أشاهده أمامى، يقع فى منطقة بجوار الشاطئ وتوازى منطقة الأهرامات، لكن بسبب الشاطئ المرتفع الحدين وكذلك الأشجار الكثيفة، لم نر أى هرم حتى الآن. فى الحقيقة، فى الغرب منا، وعلى مدى النظر، لا نشاهد أى امتداد صحراوى، فالمبانى المتناثرة وأشجار النخيل والطوب والمداخن العالية تمتد بيننا وبين محيط أو آخر. لا يوجد خلف هذا الشاطئ والخضرة المنتشرة وساحات صناعة الطوب الأحمر شيئا سوى السماء ذاتها. لكن على الجانب الشرقى، الوضع مختلف، فالصحراء الشرقية بادية للعيان، حيث تشاهد بعض المرتفعات والتلال ظاهرة خلف الشاطئ لتذكرك دائما بهذه الصحراء الشاسعة.

أما ذلك الجرف الصحراوى الصخرى الذى انسحب عن ناظرينا بعدما تجاوزنا منطقة طرة، نجد الآن بعض المظاهر التى تؤكد أنه سوف يظهر أمام أعيننا من جديد. هناك أمر غريب يميز تلك الصحراء التى تطبق على نهر النيل، حيث يبدو كأنك لست أنت الذى يتحرك لكن هى الصحراء، تجدها وقد تسللت فجأة وتقترب خلسة، ثم تطل فوق البيوت وفوق الأشجار ثم تبتعد مرة أخرى. تتبدى مظاهرها الصحراوية بأشكال وألوان مختلفة، مرة تشاهدها خالية وصافية، وأخرى يغلب عليها اللون البنى، يتلو ذلك منحدرا لونه أصفر والرمال تنبسط تحت أقدامه. يتعذر على المرء أن يحدد تلك الظواهر بدقة كاملة، لكنك لا تملك سوى أن تصفها بشكل عام، إلا أنه ما إن تطل عليك، حتى تصبح أسيرا لها ومتعلقا بها.

بعدما سار بنا مركبنا عدة ساعات ضد التيار، وصلنا إلى منطقة ريفية مفتوحة، والشاطئان منخفضان بشكل بالغ، كان فى إمكاننا أن نستعرض كلا الجانبين بلا عائق لأميال عديدة. على اليسار، تزاحمنا الصحراء الشرقية وتداهمنا كأنما هى ترغب فى أن تخترق مكاننا وتغطى كل شىء تقابله فى وجهها. كان هناك حفيف من الحياة على هذا الشاطئ، رأيت بعض النسوة وقد انكببن ملاصقات لحافة الماء بينما تظلهن الصحراء فوق رءوسهن ولا يمنعها من تغطيتهن بالكامل سوى نخلة أو نخلتين، بينما انتصب هنا وهناك جدار قديم لبيت فى قرية مغرقة فى القدم. ترتدى تلك النسوة ملابس لونها أحمر أو أزرق أو أسود. لاحظت أنهن لا يستخدمن «البلاص» التقليدى المصنوع من الطين المصمت ... كل شىء مصيره الفناء. لم أظن أنه فى مدى عشر سنوات منذ زيارتى السابقة سوف يختفى هذا البلاص العتيد، وهو الذى دام لمدة ستة آلاف من السنين. الآن أشاهد النسوة وهن يغسلن ويحملن أوانى من البلاستيك أو الألومونيوم أو الصفيح. هذه الأوانى المستحدثة تعتبر أخف وزنا وتتسع لقدر أكبر من المياه، وهى لم تخترع لتفسد سلوكيات هؤلاء النسوة، فما تكتسبه هى من خفة وزن الإناء الجديد، تفقده بسبب الوزن الإضافى للماء. منهن ـ البطلات ـ من كن يمشين الهوينى، وقد حملن إناءً ضخمًا يمكن أن يتسع لحمل كبير من القمامة أو

ماء المطر. من الأفضل أن أسمى هذه الأوانى الأخيرة: "براميل المياه". المنظر كان مؤلما حقا، على الرغم من أن النسوة البطلات هؤلاء كن يتحركن بها وهن فخورات بما يفعلن. هذه القدور والصفائح والطسوت والأوعية كانت جميعا تلمع فى ضوء الشمس الساطعة، بينما طابور النسوة الحمر والزرق والسود يتحرك بتؤدة وجلال ملوكى كأنهن الأعمدة التى ترفع معبد الإركتيوم، وبالقوة نفسها. (*) أليس بنات كارياس اللاتى استعبدهن الأثنينيون، وحكموا عليهن بأن يحملن الأثقال عقابًا؟ أفكر دائما فى هذه الأمور والمقارنات عندما ترد على بالى، فالفن يسوغ الأشياء.

هنا وهناك، يطفو على سطح الماء مساحات مما نسميه الياقوت المائى، هو ورد النيل الذى يسد ويعيق حركة مرور المياه فى الأنهار الكبرى فى العالم. موطنه هو إفريقيا الاستوائية وأمريكا الجنوبية، والآن تجده فى كل المياه الدافئة التى تناسب معيشته. هذا وقد حاولت أن أزرعه فى حديقتى بجنوب إنجلترا، لكن بالطبع قام الشتاء بالقضاء عليه. أتذكر، هو كان ينتشر بغزارة فى برسبن بأستراليا. إنهم يقدمونه فى الصين طعاما للخنازير. يحاول المسئولون فى أمريكا الجنوبية جاهدين أن يتخلصوا منه، لكن بلا جدوى، فهو عنيد وينشغل دائما بجمع المعادن لنفسه. الآن، هو ذا أراه طافيا أمامى، لونه بنى بسبب شتاء مصر، لكن وروده جميلة للغاية، وهو الآن فى طريقه إلى البحر. كنت قد سمعت أن هذا النبات قد جلبه أحدهم من إفريقيا الوسطى، واستخدمه كنبات للزينة فى الحدائق السودانية، لكن لا أعلم إذا كانت تلك حقيقة مؤكدة أم لا. أتذكر أيضا أنه خلال فترة الظهيرة، تلحفت زوجتى آن بملابس ثقيلة، ووقفت على السطح لترسم قرية معينة تقع على الشاطئ الشرقى، لكن هذه القرية رحلت واختفت. مع ذلك، وعلى الرغم من تتابع المناظر، عندما مرت على قريتين أخريين، استطاعت أن تكمل الرسم. هذه القرية لا تشبه قرية معينة، لكن هناك تشابهًا كاملاً لكل القرى التى تقع على ضفاف النيل. أعتقد أنها مزقت هذا الرسم بعد ذلك.

(*) أعمدة اتخذت هيئة النساء الجميلات، ترفع معبد الإركيتيوم فى أثينا بولياس فى اليونان. (المراجع).

بسبب الرتابة التى يتميز بها النيل أمامى، وجدت نفسى أجاهد بقوة لأن أملأ به يومياتى، لكنى لم أحقق نجاحا يذكر. قررت أن أسجل خواطرى، وأكتب عن أى شىء يطفو على الماء، لكنى للأسف لم أشاهد سوى ورد النيل. الحقيقة الناصعة تؤكد أنه لا يوجد ما يمكن إضافته فيما يتعلق بماء النيل. كانت المياه فى ذلك الوقت من العام ذات رغوة، لها لون رمادى أخضر مع شىء قليل من اللون البنى، لذا قللت من جهدى فى التحديق بالماء وأخذت أشغل فكرى بالأمراض الكامنة فى تلك المياه. كنت حذرا للغاية. نحن نسير الآن فى الممر العميق حيث يتوقع عدم وجود الطفيليات الناقلة للبلهارسيا أو الديدان الغينية أو أى نوع من الطفيليات الأخرى، لكن ما زال هناك احتمالات الإصابة بالأمراض البكتيرية والفيروسية، فهذه الشوربة بريئة المظهر ما زالت قادرة على أن تسبب الشلل والالتهاب الكبدى إذا لم تتعامل معها باحتراس بالغ. فكرت فى شأن غريب، هناك فى القاهرة الآن يجرون سباقا دوليا حول جزر النيل. وقد حكى لى علاء بأنه هو نفسه كان رياضيا فى يوم من الأيام ويتمتع بالتجديف فى نهر النيل وأنه أحيانا كان يشرب من مائه مباشرة عندما يشعر بالعطش، لكنه يبدو الآن أمامى وهو فى كامل صحته ولياقته. مع ذلك، سواء وُجد المرض أو لا، أستطيع أن أقرر هنا أن النيل هنا يخلو من أية نفايات أو قمامة. وربما لم يكن لدى الناس ما يلقونه فيه.

وفى سيرنا وجدنا عددًا من الجزر يسعى خلالها النيل، تعجبت بشىء من الخفة: ترى من أهدى هذه الجزر؟ ولمن كانت عربونًا للكرم المصرى؟ لعلها كانت تلك من نصيب نابليون الذى حضر إلى مصر مصطحبا معه مكتبة عامرة، ولعله كان يعلم بالكرم العربى. فلم لم يذهب إلى المماليك فى معركة الأهرام ليخبرهم بأنه غريب فى بلادهم ويريد أن يأخذ الأهرام، وأنه ...

مررنا على بعض الطيور المائية التى كانت تسبح مكونة طابورا أمامنا. الصحراء الشرقية التى كانت تطاردنا، قفزت فجأة وأصبحت على بعد ياردات من الشط الشرقى. أخذت أراقب امرأة استفادت من التكنولوجيا الغربية، رأيتها تملأ الماء داخل جركنين بلاستيكيين لونهما أزرق ثم وضعتهما على جانبى حمار، فأصبحا بذلك مثل الخرج الذى يتدلى على جنبيه، ومماثلا لتلك النسوة اللاتى

لم يفدن من استخدام المواعين الخفيفة التى حلت بدلا من البلاليص، نجد أيضا أن الحمار هذا لم يستفد من حمل تلك الجراكن الخفيفة، لأنها فى الواقع أوسع حجما. هذا كل ما فى الموضوع. عندما وضعت هذه المرأة الإناءين فى وضعهما المناسب على ظهر الحمار، أضافت مقداراً من الماء داخلهما لتصل إلى الحافة، رأيت بعد ذلك الحمار وهو يستدير بدون توجيه الأمر له، ثم تهادى فى مشيته متجها إلى داخل الصحراء. لم يكن فى استطاعتى أن أحدد المسافة التى قطعها هذا الحمار، لكن عندما تصفحت الخرائط، اتضح لى أن تلك المنطقة ليس بها أماكن زراعية كثيرة تفصلها عن الصحراء القاحلة. كانت الشمس تبرق بضياء شديد بينما الرياح الباردة تهب علينا بضراوة.

حوالى الساعة الثالثة ظهرا، ونحن فى انتظار وجبة الغذاء، فجأة انحرف قاربنا بعنف. صعدت سريعا إلى السطح، كان واضحا ما الذى حدث. اتضح أن الفرجة التى تفصل ما بين الطارة والدفة قد انفصلت. أفراد الطاقم جميعهم، ما عدا عم سيد العجوز، كانوا يتسابقون ويدورون حول بعضهم بعضًا وهم فى نقاش محتدم. الآن، والقارب قد حدث به انفصال بينه وبين تروس التعشيق، ابتدأ فى التراجع عائدا بنا مرة أخرى إلى القاهرة، والتيار المضاد الذى كنت أعتبره فى السابق عائقا ضد تقدمنا، رأيته الآن وقد تحول إلى تيار شديد. بدأ الشاطئان ـ بطريقة معروفة لكل بحار صادف حظا سيئا ـ يرجعان رويدا إلى الخلف بشكل محسوس. ألقى شاب بالكاد كنت ألاحظه من قبل، هو ذاك الذى كان يرتدى أوفرولاً مزينًا بنجوم بيضاء، بالمرساة السخيفة فى الماء، لكنها لم تمنع الإزاحة التى نتعرض لها. حاول شاذلى إجراء بعض المناورات بعمل دفعات فجائية جعلت القارب يتأرجح بعنف إلى أن شحط فى طين طرف جزيرة وسط النيل ـ بعدها قفز ذو الرداء الأزرق سريعا إلى الماء ممسكا بحبل وبسرعة ربطه على شاطئ الجزيرة، هنا توقفنا عن التراجع، بينما استمرت مياه النيل تضرب أجناب قاربنا بلطف.

تجمع أفراد الطاقم وسط المركب يتناقشون فيما يتوجب صنعه. قفز كل من علاء ورشدى/العواد إلى الشاطئ. فجأة ظهر فلاح بصحبته امرأتان كذلك حمار

وجاموسة. ما إن شاهدنى هذا الفلاح حتى استغرق فى ضحك متواصل. ثم تجمع عدد من الناس على الشاطئ، الجميع يتحدث ويضحك فى الوقت نفسه، بينما تجمع جمع أقل فى منتصف الكابينة منهمكين فى فحص حبل سلكى مقطوع من منتصفه، كانوا بكل جهدهم يحاولون ربط طرفى هذا الحبل السلكى، اقترحت عليهم أن يفككوا أسلاك الحبل، لكن يبدو أن لا أحد فهم مقصدى، من الواضح أنه خطر على بالهم جميعا فكر يتعجب من هذا الراكب الغريب الذى يود أن يحشر أنفه فى أمور لا يفقه فيها أحد مثلنا نحن البحارة.

رجعت أنا وزوجتى إلى قمرتنا وتحدثنا فى مدى السرعة التى سوف تقود بمثتنا تلك إلى لا مكان. بعد فترة، قامت آن ونظرت خارج الباب، ثم عادت وقد غلبها ضحك مجلجل. قالت إن اللجنة الفنية تحاول ربط السلك المعدنى بحبل من النايلون الأزرق. كان موقفا كوميديا أكبر من كونه مأساويا، إنها تشبه تماما تلك الأيام التى طالما صادفنا فيه حظًا سيئًا ونحن على ظهر قواربنا، تلك السنوات التى فيها حاولنا بكل جهد جهيد أن نحيى الرميم من معدات أتلفها البحر.

صعدت مرة أخرى إلى ظهر القارب، ظن الفلاح المهرج الضاحك أن شكلى مثير للغاية وطريف. أخبرت علاء بأن هذا الرجل به مس من الجنون، فوافقنى قائلا بأن أسباب ضحكه ليست راجعة إلى أخطائنا الواضحة! اجتذبت أنا مقطعا من المشاهدين، واستأثر علاء بالجزء الآخر وأنا وسطهم. كان الجو العام وديا للغاية، وليس أكثر من ذلك.

فى أسفل القارب، لاحظت أن الطاقم قد انتزع قطعة من الحبل السلكى الخاص بمعدة ميكانيكية أخرى لإصلاح العطل. فكرت، يعلم الله فقط، ما الذى يمنع الآن من تعطل هذا الجزء الآخر من الماكينة، وماذا نفعل فى قطعة الحبل السلكية المنزوعة من هذا الجزء عندما نحتاج إليها. أخيرا أمكن لنا أن نواصل المسير، تقابلنا مرة أخرى بعدد من ساحات صناعة الطوب الأحمر. يبدو أن الصعيد كله يستخدم الطوب الأحمر، ويمتلئ اليوم بمصانع الطوب الأحمر. لاحظت أن هناك مجموعة من المداخن وقفت منتصبة تحت قاعدة مزينة. هذا بدا فى نظرى أمرًا عجيبًا، فتزيين وتجميل مصانع الطوب الأحمر يعتبر فى حد

ذاته منافيا للمنطق ونوعًا من التناقض لأن هذه الأماكن تحفل بكل ما هو قبيح. يصلح التزيين للطوب ذاته، لكن عندما يقتصر التزيين على أماكن صناعته، فهذا أعتبره نوعًا من البلازما الهندسية التى تحاول غصبا لأن تكون مصدرا للجمال والرشاقة. أعتقد أن محاولة الإصلاح والتجميل تلك قد طاش صوابها.

لاح لنا فى الأفق الجنوبى شكل خزان ضخم للمياه وونش هائل. لقد أصبحت قادرا الآن التعرف على خصائص أى مكان نمر به وأستطيع أن أميز ما إذا كنا مقبلين على مدينة أو قرية. تتميز المدينة دائما بخزان الماء المرتفع، والذى بواسطته يتم سحب مياه النيل إليه للتكرير أو أن يسحب المياه من أحواض التنقية، تلك التى لها التأثير الفعال فى المحافظة على صحة المصريين، إذن فقد وصلنا إلى مدينة بنى سويف.

واضح أن هذه المدينة هى من الأماكن المخطط أن نقوم بزيارتها، لذا قمنا برباط مركبنا بجوار مركز شرطة المسطحات المائية. يقع هذا المركز على مرتفع على الشاطئ ويتكون من كشكين وبعض القوارب المتهالكة، بينما هناك عدد من الشبان الذين ارتدوا الأزياء البحرية ليس على قدر كبير من النظافة، مع ذلك تجدهم مدججين بالسلاح. لاحظت أن هناك خفيرًا منهم وقد وقف وبين يديه بندقية آلية لا أعرف نوعها، نظيفة نظافة بغيضة. تقدم علاء وقدم للمسئول عن المركز خطاب توصية كان قد حصل عليه بالقاهرة مسجلاً فيه أنه يتعين على كل جهات البوليس البحرى أن تقدم لنا كل المساعدات الضرورية... إلخ. لذا على الفور، قبلوا إمدادنا بالمياه النقية والوقود، والاحتياج الثانى هذا كثيرًا ما تجده ناقصا فى كل مكان. حل الظلام الآن، هو إظلام يبدأ الساعة السادسة مساء ويستمر لمدة اثنتى عشرة ساعة. ربطنا مركبنا مرة أخرى بجوار عتبات مزينة ومبهرجة، وجدنا أن ذلك المكان مناسبا لكى نبدأ فى التسوق والحصول على ما يلزمنا.

صعدنا إلى أعلى، وصادفنا على الفور بعدد من التحيات أل «هالو» التى انهالت علينا من فم رجال وأولاد، لدرجة أن طلب منى أن أذكر اسمى، هذا ما وجهته إلىّ تلميذة ترتدى الملابس الغربية، ثم هربت من أمامى وهى غارقة فى

نوبة من الضحك «كن مدهشات فى نزقهن». بجوار النهر، عثرنا على منتزه عام نظيف وأنيق. لاحظت أن الأشجار تظلل كل الشوارع على الجانبين، وكان هناك مبنى للخدمات العامة على بعد قريب منا مجهزًا بمسرح وسينما، لكن الغبار كان يغطى كل ما هو جميل. الإضاءة الضئيلة المنتشرة، بالكاد كانت قادرة أن تخترق حالة الإظلام الذى ينتشر فى فترة المساء الأولى. كان أمامنا مباشرة شارع به بعض المحلات والأكشاك، وهذه الأخيرة كان معظمها ينار بمشعلات تعمل بالأسيتلين التى أعادت لى ذكريات نصف قرن خلا. كان هذا أمرا عجيبا، كأننى قد قمت بزيارة إلى الماضى البعيد. فى بلادنا، نحن نحرص على أن تنتشر الإضاءة فى أكبر دائرة محيطة، لذا يحرص المختصون على رفع مستوى اللمبات القوية ليكون موقعها فى أعلى مكان، وبذلك يظهر كل ما يحرص الآخرون على إخفائه. لكن تلك المشعلات التى شاهدتها معلقة فوق وداخل أكشاك بنى سويف، كانت منخفضة، أحيانا تصل إلى مستوى الرأس أو ربما تصل إلى مستوى وسط الإنسان، ولم يكن لها قوة إنارة مسيطرة، إلا أنها تبث قدرا من الدفء بحيث تشعر كأنك داخل كهف من الكهوف، حيث تنتشر المعاملات البشرية بكل أشكالها، من مساومات ومسامرة وشجار، وكل هذا يحدث تحت تلك الإنارة الخافتة نوعًا ما. إنها إضاءة تناسب البرتقال والمانجو والموز وعربات اليد التى يمكن أن تجد فوقها هذا وذاك وكل ما يخطر على بال. كان هناك أيضا عدد من الحمير الصابرة وقد امتطاها رجال ضخام الجثة جلسوا عليها بكل وقار وجلال، أو يجلس فوق ظهورها أولاد صغار يتظاهرون كأنهم فوق ظهور الجياد المطهمة. شاهدت أيضا سيارات شحن ودراجات وعددًا من الشباب فوق الموتوسيكلات التى تصدر أصواتًا مزعجة باستمرار. اللباس المنتشر فى معظمه غربى الشكل، لكن المكان فى مجمله ينقصه قدر كبير من مظاهر التحضر. تستطيع أنت بكل سهولة أن تسير، لكن ليس على الرصيف، وعلى السيارات أن تتفنن فى تحاشيك كأن هناك حقًا مكتسبًا للمارة وعلى السائقين أن يحافظوا على حياة هؤلاء الناس. تسوقنا واشترينا عددًا من الفوط كذلك ابتعنا يوسفى وموز. هذا الموز لم يكن ذا حجم كبير، ربما بسبب أنه مقطوف حالا من أشجاره.

تلمسنا طريقنا إلى مركبنا خلال ظلام دامس. كنا نسمع صوت الموسيقى صادرة من منطقة الكورنيش، لعلها موسيقى صادرة من راديو قاربنا - هل هو شريط مسجل - كانت تلك الموسيقى العربية التى نستمع إليها مألوفة للغاية بشكل غريب. ما إن استقر الحال برشدى حتى أمسك بعوده وأخذ يدندن به، بينما انهمك باقى الطاقم فى حديث ومسامرة، بدا الأمر فى نظرنا كما لو أننا قضينا مع بعضنا البعض شهرا وليس يومين فقط. كنا نبعد عن القاهرة بمقدار ستين ميلا. تذكرت أنه يتبقى لنا عشاء لم نتناوله بعد، لكن الطعام لم يصلنا أبداً، بدلا من ذلك، خفت رتم الحوار والكلام ثم توقف المولد عن العمل وببطء انطفأت الإضاءة فى قمرتنا ولم يتبق سوى ضوء ضئيل يصلنا من عمود إضاءة فى شارع من شوارع بنى سويف.

(٣)

كانت تلك ليلة أخرى عانينا فيها من البرد الشديد مع ندرة النعاس، فنحن عندما نلقى مرساتنا فى أى مدينة، نسمع دائما أصوات المؤذنين وهم يتبارون مع بعضهم بعضًا من فوق المآذن، فى لحظة الليل التى فيها يتضح الخيط الأبيض من الأسود. عن نفسى، لا يزورنى النوم عندما أسمع ذلك التنافس. تحركنا من بنى سويف الساعة السادسة والنصف صباحا ومررنا تحت كوبرى غير مكتمل البناء. كانوا قد أخبرونى فى القاهرة أن هذا الكوبرى له عشر سنوات منذ بدأ الشروع فى بنائه. بالطبع، سوف يلحق به الصدأ والقبح. عند طرفه البعيد حيث سوف يصل هذا الكوبرى، برزت خوابير معدنية ضخمة، لكن بتصفح أماكن وجودها، يتضح أن زاوية بناء الكوبرى لم تكن سليمة، هذا يدعو للحزن. كنت أود أن أطلع على تواريخ وضع هذه الخوابير، لكنى لم أوفق. على أية حال، هناك قصص غريبة تحكى عن الكبارى التى تبنى فوق النيل. هناك قصة حكيتها لعلاء كما سمعتها أثناء مرورنا عبر هذه الخوابير الخطيرة، ولدى خروجنا من نطاق بنى سويف، كنت راغبا فى أن يخبرنى عن مدى صحتها. يقال إن هناك مهندسا معماريا صمم أحد الكبارى المتحركة فى القاهرة، وعندما اكتمل بناء هذا الكوبرى، توجه ملك مصر وهو منتفخ الأوداج وضغط على زر التشغيل، لكن الكوبرى لم يفتح كما هو مخطط. وطبقا للقصة، بقى الكوبرى فى مكانه لا يفتح ولا يقفل وانتفاخ الأوداج ترك لمناسبات أخرى. حسنا، هل هذه القصة حقيقية أم لا؟

طبعا ليست حقيقية.

لكن يا ابنى العزيز، من أخبرنى بهذه القصة أطلعنى على أدق تفاصيلها- فهذا المهندس رجع إلى شقته بالزمالك وضرب رأسه بالرصاص. أنت بالطبع تعلم أن المهندسين المعماريين دائما ما يطلقون الرصاص على رءوسهم عندما يحدث مثل هذا الخطأ فى التصميم. إنه تقليد راسخ. المصرى القديم الذى يحدث منه خطأ فى تصميم مسلة ما، كان يضرب رأسه بالرصاص.

أين يقع هذا الكوبرى؟

قل لى أنت.

أنا لم أشاهده أبدًا ، لكنى أنا أعرف هذه القصة. إنه كوبرى (أبو العلا). لكن على أية حال، هذا المهندس لم يقتل نفسه، لقد رجع إلى بلاده وبنى شيئا آخر، أظنه بنى برج إيفل.

كانت رياح الصباح منعشة للغاية.

بالطبع أتوقع أن أستمع لكل الحقيقة، لكن هل كان من المعقول أن يطلق الرصاص على رأسه أولا ثم ذهب ليشيد برج إيفل؟

على أية حال، هناك قصص غريبة موثقة، تُحكى عن تشييد الكبارى على النيل، فهى تؤسس فوق مياه النيل القوية الهادئة مع التعرض إلى ضغوطها ليلا ونهارا ومن عام لآخر. هناك كوبرى آخر تم بناؤه بعد دراسات معقدة وحسابات دقيقة، إلا أنه بطريقة أو بأخرى، لم يتمكن هذا النهر من قراءة هذه الحسابات وصنع شأنا أخرجه عن نطاق هذه الأرقام. هذا النهر تجاهل هذا الكوبرى تماما واتخذ لنفسه مسارا مختلفا. لذا ترك هذا الكوبرى مكانه عاطلاً وليس هناك نهر يمر تحته ويكون مبررا لوجوده. أيضا فى يوم من الأيام غرق قارب كان محملا بالأحجار فى منتصف نهر ما، لذلك أدى تكسر التيار عند مكان هذه الحمولة وتجمع الغرين حولها، تسبب ذلك فى بطء التيار فى هذا المكان، بعدها كون هذا الغرين ما يشبه الضفاف قوامها الطين ثم تحول إلى جزيرة عظمى، ما زالت موجودة حتى يومنا هذا، كل هذا حدث بسبب غرق قارب كان محملا بالأحجار. تعجبت مما يمكن أن تفعله المياه فى تلك الخوابير المعدنية البارزة عند بنى سويف والزاوية الخاطئة التى استقرت هناك.

بدا النهر أكثر اتساعا بعدما تجاوزنا بنى سويف، أكثر مما هو الحال عند القاهرة. ما إن انقشع ضباب الصباح حيث تبدى لنا هذا القدر من الرخاء والتنعم المتبدى على البر الشرقى، حيث امتدت عشرات من المنازل والفيلات ومزارع يانعة تتخللها أشجار النخيل، كلها انتزعت من الأرض الصحراوية الصفراء البنية. فى تلك المنطقة، كان الشاطئ منخفضا، لذا تيسر لنا أن نملى أنظارنا بلا مانع، لكن النقيض تابعنا ونحن نتطلع على وجه الصحراء الغربية، على بعد ميل أو أكثر من بنى سويف. هنالك كان يتراص عدد كبير من الأكواخ التى يسكنها الفلاحون الفقراء. هناك أيضا عدد كبير من الأكمام والأخصاص التى تحيط بها عيدان البوص وأكواخ أخرى وضع البوص فوقها لتصبح سقفا لها. تحركنا قليلا، فشاهدنا قرية أخرى مكشوفة كل بيوتها مبنية من الطوب اللبن، هنا تذكرت نظريتى الخاصة "بالزاوية الخالدة"، والتى لاحظت أنها تشابكت وتعقدت فى التو واللحظة وتلاشت كالبخار. فى الحقيقة لا توجد تلك الزاوية الخالدة بل هناك كل أنواع الزوايا والمنحنيات! والأكثر وضوحا هى الزاوية العاجزة المتهالكة، لأنه إذا كان الفلاحون قد عرفوا يوما كيف يبنون، أقول إنهم الآن قد نسوا ذلك الفن تماما. بعض الزوايا سلكت مسلكا خاطئا، بحيث ترى المنزل وقد تساند على الخارج وليس على الداخل. هناك خطأ واضح وجلى، حيث ترى بيوتا قد انهارت فعلا وصنعت سدا فى الحارات. شاهدت كوخا فظيعًا حائطه الأيسر يميل إلى الخارج بينما حائطه الأيمن يميل إلى الداخل، لذا بدا البناء كله كأنه مائل إلى اليسار وظهر عليه أنه سوف يسلم الروح فى أية لحظة. الحركات الأولى التى تشى بوجود حياة تبدت عندما شاهدنا عددًا من الأطفال يخرجون ويتسابقون هنا وهناك طلبا للدفء. ثم خرجت بعض المتلفعات باللون الأسود من جحورهن، كذلك تحركت بعض الحمير والمعز فى مكانها. بعدها تركناهم، لم نشاهد أهم تحركاتهم المرحة فى يومهم هذا. ربما يكون هذا هو العيب الذى يتعرض إليه المسافر الذى ليس له سلطان مطلق على تحركاته. لم أنس أبدًا رحلاتى التى كنت أقضيها مستخدما قطار الغرب العظيم وأنا أشاهد مباراة للكريكت. شاهدت أولا اللاعب الأساسى وهو يضرب الكرة فى الوسط، فجرى زميله نحوها أمسك بها

ثم رفعها ليلقيها، لكن بناء مر بنا فغطاه. حدث هذا منذ خمسين عاما، ولا أدرى ما إذا كان اللاعب الرئيسى قد أمسك بالكرة أم لا. شىء عبيط طبعا. على أية حال، ابتعدنا عن هذه القرية وعادت إلينا حياتنا العادية.

أخرج علاء بطاريات الكاميرا الخاصة به. هذه الكاميرا تفوق فى سعرها هذا القارب كما أظن. توسطت الشمس كبد السماء، فاستطعنا رؤية الكثير من الصنادل. البعض منها طويل للغاية، يستطيع أن يحمل مئات الأطنان من البضائع. بعض وحدات الصندل تجدها مترابطة مع بعضها بعضًا، نجد أمثلة لها فى نهر الراين أو السين. تجد واحدًا يدفع الآخر. نرى المقدمة لها شكل المؤخرة كأنهما يتداخلان. الأولى هى "الدافع" بينما المتبوع وهو الصندل ذاته فإنك تجده فى المقدمة وبلا أشرعة، كلاهما يكونان قاطرة ومقطورة، وأحيانا تجد وصلات تربط ما بين عدد من الصنادل. رأينا قاطرة لها كابينة واسعة خلفها عدد من صفائح الجاز المدهونة وبداخلها بعض الشجيرات النامية؟ هذا منظر نادر، المصريون عامة لا يهتمون كثيرًا بإنشاء الحدائق الخاصة.

دخلنا بعذ ذلك إلى منطقة واسعة من النهر، ذات أشجار نخيل عديدة على اليسار وجزيرة منخفضة على يميننا، لا تحتوى على شىء سوى الأعشاب وبعض نباتات البردى التى نمت فى المياه المنخفضة، وقد انضمت سيقان هذا النبات الأخير بحيث يتعذر على قارب صغير أن يخترقها. فى يوم من الأيام، كانت مثل تلك الجزيرة تغص بنبات البردى، لكن هذا زمان انقضى وولى. هذا النبات ذو سيقان طويلة مزهرة ويمكن أن تجد مثيله على شاطئ نهر التيمز أو بجوار أنهار أوروبا عموما، وهو الذى يُصنع منه ورق البردى. الآن، ما عدا بعض العينات التى تزرع فى أرض الدلتا، لا تجد هذا النبات منتشرا إلا فى السودان، حيث ينمو البردى وحشيا، وتجد سيقانه طويلة للغاية، قد تبلغ عشرة أو اثنى عشر قدما طولا، كما أظن. لاحظت أن هناك بعض الصيادين يجوسون داخل هذه النباتات الكثيفة مستخدمين قوارب ثقيلة، مشكلين منظرا يمكن أن تشاهد مثيله فى الرسوم الصينية. مرة أخرى ألاحظ أن مجاديفهم عبارة عن قطعة من الخشب عارية من الزخرف ويد المجداف مستديرة الشكل، أما أطراف المجاديف ذات

الشكل المعروف فهى غير موجودة. سألت علاء عن معنى استخدام هؤلاء الناس تلك الأداة الغبية، وأجدها منتشرة على طول مصر وعرضها كله. رد علىّ قائلا بأنه يمكن لمن يجدف هنا أن يستخدم الواحًا طويلة بديلا عن المجاديف العريضة، تلك التى لا تتناسب سوى مع القوارب الثقيلة. إذن هذا مثال آخر لتبرير سخيف فى حد ذاته، وكيف يصبح بقدرة قادر تفسيرا منطقيا.

كانت هناك ريح تهب فى الاتجاه الخطأ، أعنى أنها كانت تهب من جهة الجنوب، وهى الجهة التى من المفترض أن تهب من جهتها رياح الخماسين، وهذا لا يعتبر أمرا عاديا فى هذا الوقت من السنة. على أية حال، هى ريح ليست فقط تهب من الجهة الخطأ بل هى باردة جدا أيضا. راعنى أيضا تلك الظاهرة التى ترتسم على تلك القوارب الصغيرة التى يدعوها المصريون باسم الفلوكة، فهى تبث معالم الدهشة للمراقب لأنها تناقض كل قوانين الهيدروماتيكا والأيروماتيكا معًا، فهى تقف على حدود نقطة واحدة من الرياح، وهذا أمر فيه نوع من الاستحالة. كنت منشرح الصدر لوهلة، لكن يا حبذا لو تشاهد تلك الفلوكة وهى تسير وتناور. وجهت بعد ذلك أنظارى نحو تلك الأعشاب الكثيفة الممتدة أمامى وتبعد حوالى خمسين قدما من مركبنا، لاحظت وجود ولد صغير يخوض داخل المياه المنخفضة المجاورة للجزيرة رابطا نفسه فى فلوكة بحبل رفيع ، كان مرتديا جلبابا لونه بنى، لذا صعب علىّ تمييزه فورا وسط تلك الأعشاب المحيطة به.

ما إن ارتفعت الشمس فى كبد السماء حتى اختفى عن ناظرى الشاطئان المرتفعان، بدا هذا مخالفا لطبيعة الماء هنا، لكنى كنت سعيدا بهذه الظاهرة. الآن أستطيع بكل راحة أن أملى النظر بالريف المصرى الذى يقع بيننا وحتى حدود الصحراء الشرقية وتلك السحب بنية اللون التى تملأ الأفق البعيد حيث ينبسط أميالا عديدة من أعواد النخيل والبساط الأخضر. ما إن حانت الساعة الثامنة صباحا حتى بدأ طابور الصباح. أتت النسوة من بعد ميل محملات بالمشنات والسلال فوق رءوسهن، هذه المشنات كانت مكدسة بالبرسيم الأخضر لكى تتمتع الحمير التى ترعى بحرية بجوار النهر بغذاء شهى. ربما بسبب قلة عدد الفلاحين القاطنين فى تلك الجهة وصغر مساحات الأراضى الزراعية المملوكة لهم، كانت

مساحة الأرض الضيقة الصغيرة بجوار النهر هي الوحيدة المناسبة لأن تجد فيها حيواناتهم مرعى يمكن أن تعثر فيها على بعض الحشائش.

سرنا قليلا فتغير منظر الصحراء الشرقية وبدت على شكل هضاب ذات صخور قاسية تزحف رويدا حتى وصلت إلى حافة النهر ذاته، ثم أصبحت تلالا تحتل فيه المقابر مكانا، ويمرح في أرجائه عدد من الكلاب. على الجانب الغربي لهذا المكان لم تقع عيناى على مصانع الطوب الأحمر، تلك التي تلتهم الأرض الخصبة الغنية التهاما. بل اكتسى هذا الجانب بحقول شاسعة مزروعة بالذرة وقصب السكر والنخيل، وبلا أي مدخنة على مدى النظر. لاحظت بعدها أن الشاطئ الشرقي يحف بالمياه المتسارعة الخطى، وكان التيار سريعا أيضا في المجرى المتعرج الذي سلكه شاذلي. المنظر كله الآن سواء أكان النهر أو الشاطئان، مختلفا تماما عما عهدنا شمالا حيث كان يحفل بأكوام الطين وساحات صناعة الطوب الأحمر. في مكاننا هذا، لا نشاهد سوى الصخور والماء، أيضا خطوط ممتدة من الرغوة الكثيفة، تتكون من مياه تصعد فجأة من العمق ثم تصطدم بعوائق خفية. هنا شاهدنا المزيد من الصنادل الجرارة، كنا نحن وراء قافلة منها. الجميع كانوا يحاولون السير بمهارة في الممر الأوسط المتعرج حيث توجد أعماق للمياه، إلا أن بعض هذه الصنادل كان راسيًا على الشاطئ الغربي وقد استقرت في الطين، رأيت بعضًا آخر منها على البعد، في الحالة نفسها. سمعت الكثير من الصياح وشاهدت العديد من المناورات التي تجرى. ظللت في كابينتي أشاهد كل ما يحدث من نافذتي الواسعة. رأيت أيضا أفراد طاقمنا يتسابقون فوق السطح وقد أمسك البعض منهم بعصى طويلة يتحسسون بها عمق المياه، رأيتهم وهم يبتهلون ويرجون ويدعون الله، ويتفوهن بتلك الابتهالات التي ظننت معها للحظات أنهم من القديسين. لكن بالطبع، غرزنا. صدمنا قاع النهر الذي طالما كنت أظن أنه طيني التكوين، لكن يا الله، ليست هذه هي الحقيقة! شعرنا بصدمة عنيفة خشنة، شعرنا كأن كل حصى القاع قد تكاتفت لكي تخبط في بدن مركبنا، الأسوأ أنها كانت تخبط في الرفاص - عندما تخلصنا من هذا المأزق، سار شاذلي بسرعة بطيئة متلمسا طريقا كله مطبات وخبطات متكررة تقصف بطن مركبنا

بين الحين والآخر، بهذا استطعنا أن ننفذ ونسلك طريقا أبعدنا عن تلك الصنادل التى وقفت مكانها تعانى وتشكو. الواضح أن هناك كثيرين يتشوقون لبلوغ يوم ١٦ فبراير عندما يحين موعد إطلاق المياه خلف القناطر بالتتابع، بدا هذا اليوم كأنه لن يأتى أبدًا .

أتينا أخيرا إلى مكان مياهه هادئة ما بين ببا والفشن. أتذكر هذه الأيام جيدا وأستطيع أن أرى بعين خيالى الصحراء الشرقية وقد أطلت على النهر بوجهها الغريب الشاهق البياض. لعل منطقة طرة كانت تبدو هكذا قبلما يبدأ الفراعنة الحفر والتقطيم منها، ذاك الذى استمر لمدة تزيد عن خمسة آلاف عام، ويستطيع أحفادهم أن يفعلوا مثلهم طبقا لما أراه أمامى. من المفترض أن كل تلك المياه المنخفضة العمق، وذاك الممر الملاحى المتعرج المعقد، من أسباب وجودها جميعا هو الامتداد الذى تسلكه تلك الهضاب البيضاء تحت مياه النيل، صانعة بذلك نوعًا من الحواجز الجيرية التى تكون نوعًا من الجنادل الصغيرة المتعددة. هى بالطبع لا تشبه الجنادل الكبيرة التى تتكون من الجرانيت القرمزى الذى تتخلله النقط السوداء. هى تشبه ذلك لكنها تتكون من نوع من الصخور الجيرية العنيدة، وتأكيدا لقد أصبح الجانب الشرقى من النهر مصدرًا لإثارة كبيرة للغاية، فلم يكن الأمر مقتصرا فقط على الهضاب البيضاء الزاحفة المتغلغلة بطبقاتها التى تشبه الصخر فى صلابتها، لكن الأدهى من ذلك هى تلك الهضاب الجيرية التى تفترش مساحة كبيرة من قمة الماء، لكن ثلثى القاع معبأ تماما بكسر الحجر الجيرى. فى تلك المنطقة بالذات، تزدهر الملاحة، كذلك العبور إلى الجانب الآخر. لاحظت أيضا أن الجانب الغربى مزدحم ومكدس بتلك الأجزاء المكسرة والفتات الجيرية النازحة من الجانب الشرقى. لاحظت كذلك أن الصنادل تستخدم الشراع فى تلك المنطقة، وهى تعتبر من أندر الأماكن التى يحدث فيها ذلك على مستوى العالم، كما أظن. فاستخدام الشراع فى هذه الحالة يعتبر عملا له مردود اقتصادى. المنظر هنا رائع وجميل ونحن وسط المياه الهادئة. صعدت إلى السطح وسألت شاذلى عما إذا كان هناك تسميات محددة تفرق ما بين الصندل الكبير والصندل الصغير؟ أجابنى بنعم. إنهم يقولون: الصندل الكبير والصندل الصغير. سألته

مجددا: هل هناك تسمية محددة تطلق على الصندل ذى الصاريين؟ قال لى نعم، هو يدعى باسم الصندل ذى الصاريين. فى تلك اللحظة قررت أن أحفظ كل ما عرفته عن حركة الملاحة فى النيل، وأضعها فى مقال شيق. أقول لكم الحق، كنت أجد أن هذا الموضوع أكثر إثارة من زياراتى المتكررة للمعابد الفرعونية. قال يعقوب بيما (*) يوما إن العبرانيين عندما نهبوا حلى المصريين قبل خروجهم، كان هدفهم أن يسلبوا المصريين حكمتهم وقدراتهم السحرية الكبيرة. لقد أصبحت المعابد الفرعونية نوعًا من العلب الكرتونية الفارغة. الهيروغليفية؟ كنت أعرف طرفًا من الكتابة الهيروغليفية، ولكنى نسيتها!.

فى هذا المكان، كانت الصنادل مشغولة بتحميل كتل حجرية جيرية غير مستوية الأسطح وكبيرة الحجم. كان كل عامل يحمل حجرا واحدا. كانوا يعاملون تلك الأحجار بنوع من الحب والرحمة كأن كل حجر منها له مقام أرفع من الطوب الأحمر. افتتنت أيضا بشراع مركب منهم وقد انتفخ تماما بالهواء حتى أصبح مشابها لبطن سيدة حامل فى شهرها التاسع. طبعا نحن نعرف كل هذا، وكلماتنا جاهزة دائما لتعطى التصوير السليم. شاهدت بعد ذلك صندلا انتهى تحميله ولم يتبق فراغ داخله سوى ما أقدره بست بوصات، وتكدست فوقه الأحجار الجيرية وتزاحمت حول عمود الشراع، أما أفراد طاقمه فقط جلسوا فوق هذا وتلك، ثم تحرك بهم الصندل المحمل بتلك البضاعة وهذه الثروة. إنها خلاصة صناعة لها وجه إنسانى غالب، فالعمال الذين حملوا الصندل، هم ذاتهم الذين سوف يقومون بتفريغه على الشاطئ الآخر، ويتشارك فى هذا الجهد المضنى أربعة أو خمسة عمال فقط. الآن، من السهولة بمكان أن تنظر إلى تلك المسألة بنظرة عاطفية، وهذا ما أريد أن أقحم نفسى فيه، لكنى أعتقد أن أى إنسان سوف يشعر بالسعادة عندما يعمل فيما هو أبيض الشكل وقد غطاه الجير، بدلا من ذاك الغبار الأحمر الذى ينبعث من الطوب الأحمر الممل. مع ذلك، أقول لكم، يداى نظيفتان تماما، وأنا لست سوى مراقب من بعيد، وأنا بالطبع لا أعرف واحدا

(*) يعقوب بيما (١٥٧٥ ـ ١٦٢٤) مسيحى ألمانى متصوف وعالم لاهوت، من أقطاب العقيدة اللوثرية. (المراجع).

ممن انهمكوا فى فصل الكتل الحجرية من الجبل، أو ممن كانوا يعملون فوق الصندل، فهذه المهمة أفضل قطعا أن تتولاها جماعة من الحمقى. كانت هناك عدة ممرات فى الجبل يصعدها العمال بهدفهم الواضح، هو تسهيل إلقاء الكتل الحجرية الكبيرة من قبل عدد من العمال الذين استقروا على القمة. كان هدف الصاعدين هو إخلاء الممر من أسفل إلى أعلى من الأحجار بحيث لا يتبقى سوى الكسور الصغيرة. هذه الكسور يتم نقلها بعد ذلك وتحرق لتصبح جيرا. فى كل المحاجر التى مررنا بها ـ والتى تبدو وكأنها تهدد وجودنا ذاته- نجد ذلك الممر الذى يجب أن يصفى تماما حتى يتبدى حرف الجبل العمودى، وطالما أن زاوية ميل الممر تحددها كمية المواد الملقاة عليه، لذا يصبح الجرف العمودى الشكل مصدر تهديد خطير لحياة هؤلاء العمال. أعتقد أن هذه الطريقة فى الحصول على الكسر والدبش من المحجر هى طريقة خطيرة للغاية. تجد عددا من العمال يعملون بهمة ونشاط بينما ينتصب فوق رءوسهم حروف جبلية خطيرة. بالتأكيد هم يعلمون تماما ماذا يفعلون، لكن عندما نتخيل مئات وآلاف الأحجار التى اقتطعت من الجبل ثم دحرجت على هذا الممر، نعلم حينذاك أن ما يفعلونه هذا ليس نوعًا من الروليت الروسى.

هكذا كانوا يعملون. إنها منطقة حجرية، ولا مراء فى ذلك. تتهادى الأحجار البيضاء من فوق هضاب الصحراء الشرقية بينما يتصاعد الغبار الكثيف يغطى وجه السماء وتحمله الرياح إلى مسافات بعيدة. لكن سواء كان هناك غبار أو لا غبار، فإن منظر الهضاب ناصعة البياض من جهة، والأحجار البيضاء المقتطعة والمكدسة على الجانب الآخر ستصيبك بصداع رهيب فى التو واللحظة. أحسست براحة عميقة ما إن اختفى من ناظرى هذا الوحش- أستمحيكم عذرا على إطلاقى هذا الاسم على الصحراء الشرقية بهضابها البيضاء- وابتعدنا عنها بعدة أميال، وصادفنا مرة أخرى منطقة يانعة الخضرة. فى هذا المكان الجديد تقابلنا مرة أخرى بتلك الأكواخ التى بنيت بالطريقة المجنونة المعتادة.

على الجانب الغربى، كانت توجد مداخل واسعة تختص بالقنوات التى سوف تسير موازية للمجرى الرئيس للنيل وربما تصل إلى القاهرة ذاتها، أو تغير مسارها وتذهب لمنطقة الفيوم. كان هناك استخدام وحيد للطوب، ففى بداية

مدخل أى ترعة توجد بوابة عظيمة، بجوارها سوف تجد حتما منزلا رائعا وليس كوخا، مخصصا للسيد المشرف على فتح وغلق هذه البوابة. واضح أن هذا الرجل له أهمية عظمى وهيبة كبيرة، لذا فالطوب الأحمر هو الملائم لتشييد منزله. لكن هناك مظهرا غريبا يميز الأسلوب المصرى الحديث، فهذا الطوب الأحمر يستخدم بنفس الطريقة التى يبنى بها الفلاحون بيوتهم، حيث لا تشاهد أبدًا زاوية قائمة. ألم يسمع أحد هنا عن الزاوية القائمة؟ عندما أفكر بأن أجدادهم الفراعنة كانوا هم أوائل البشر الذين حددوا أبعاد الزاوية القائمة أتعجب! يبدو أنه فى أيامنا هذه قد انمحت من الأذهان كل تلك المعارف القديمة.

كنت أظن أننا قد فرغنا من الصحراء الشرقية وخلفناها وراءنا، لكن ما إن اعتدت على مسيرنا الهين، حتى ظهر هذا الوحش الأصفر مرة أخرى وزحف مجاورا للشاطئ، ثم قفز علينا ورسخ داخل المياه. عدنا مرة أخرى إلى الأرض الصخرية، لكن هناك فرقا، فقد ساد اللون الأبيض وظهرت المحاجر كبيرة الحجم ذات الصخور الجيرية. الآن نستطيع أن نرى ما تستطيع أن تفعله بكل رعونة وهى تتلوى وتبرز. تلاحظ أن الألف قدم العليا من هذه المنطقة من الوادى تتكون من ذلك الجلمود الرملى الطينى، وقد تلوى وتجعد بصورة تفوق الوصف والتصور. كل المنطقة التى تقع شمال مغاغة بهذا الوضع الذى يجعلنا ندرك أنها تعرضت لتغيرات وتقلبات عنيفة الشكل، فالخطوط المستقيمة التى ربما تشاهدها تتخلل طبقات الصخور، تجدها وقد تلوت وتجعدت كأنك تراقب مجموعة من الأوراق التى تكعبت وتجعدت بشكل عشوائى. تجد الصخور هنا، والتى قد تزن الواحدة منها ملايين الأطنان وقد برزت فى وضع مستقيم أو مقلوب أو على جنب. ويبدو أنه قد نشبت حرائق هائلة فى الزمن القديم حيث ترى كتلاً ضخمة من طبقات سوداء وسط كتل الحجر الجيرى وقد برزت إلى الأمام وبقيت هكذا حتى بردت. تجدها أحيانا وقد واجهت السماء كأنما هى سكاكين مشهرة. أيضا هناك العديد من الصخور المنفصلة من هذا التشكيل تظهر أمامك كأنما هى نوع من القلاع أو القصور الشامخة وأشكال التوائية كثيرة لا تظن أبدًا أنها من صنع الطبيعة، وهى فى حاجة إلى إطلاق مسميات جديدة نقتبسها من عوالم الجن والسحرة

والشياطين وأرواح الصحراء التى هى العفاريت ذاتها. لاحظت أن واحدة من هذه التشكيلات السوداء موجودة داخل النيل ذاته بجوار الشاطئ الشرقى، وعندما مررنا بجوارها لاحظنا أن المياه منخفضة حولها وهى عالية وجافة ولها أسنان بارزة من كل الاتجاهات بينما هناك فلوكة مهشمة بين أسنانها الفتاكة.

إذن فهناك مخاطر حتى فى هذا النهر الطيب المعتدل، لكن لاحظنا ونحن نتقدم أن المياه منخفضة للغاية فى تلك المنطقة، وبدا النهر غاصا بالمراكب والصنادل مرة أخرى. لقد اتضح لى أن هذه المنطقة من أكثر المناطق دراماتيكية بالمقارنة بأى مكان آخر ما بين الإسكندرية وحتى أسوان. أخيرا عبرنا هذا المكان ودلفنا ببطء إلى منطقة ذات شطين منخفضين، أو من الأنسب أن نطلق عليهما هضبتين منخفضتين من الطين البنى. فوقنا، كانت السماء الزرقاء الصافية تلمع ولا يحدها أو يعكرها لا الغبار الجيرى أو الغبار الأحمر. هذه الهضاب الطينية كانت مفككة لدرجة أنه كان يتخللها أحيانا أكوام من الجير الأبيض القذر. هذه الهضاب أصبحت عبارة عن نتوءات متتالية جعلت المياه تتجمع فقط فى منتصف النهر. أعتقد أن هذه الهضاب المتراصة المتوازية هى من فعل فيضانات سابقة وقد تجمعت هكذا على مدى الدهور السالفة، ثم كشفت عن نفسها وظهرت كأن النهر قد التهم مساره بشكل مائل من الغرب إلى الشرق. إلا أن هذه التكتلات كان يتخللها فوارق واسعة فيما بينها، لكنى لا أظن أن هذا كله من غرين النيل الوارد، إلا أن ما أراه أمامى يؤكد فعلا أنه غرين، لأنه ليس مختلطا سواء بالأحجار أو الحصى. لاحظت أيضا أنه فى كل مائة ياردة تقريبا توجد جرار تقف فوق هذه الهضاب المنخفضة وهنا أنبوب متسع يصله بالماء. لكن على الرغم من هذا النشاط الميكانيكى المستمر، رأيت النسوة يصعدن إلى هذه الهضاب محملات بالبلاليص أو الصفائح المعدنية، كما لو أنه يصعب إهمال تلك الحقوق الدهرية واستبدالها بكل ما هو حديث. فى الحقيقة، رأيت فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها الست سنوات تتبع فى سيرها مجموعة من الفلاحات تتظاهر بأنها تحمل بلاصا فوق رأسها، لكن الغريب أيضا أن مكان إقامتهم ربما يبعد عشرة أميال فى قلب الحقول ولا يمكن تبين معالمها. كان الشاطئ الغربى مزدهرا بالخصب والنماء

مزدانا بزراعات الفول والذرة والبرسيم، بينما تخفى عنا الهضاب أشجار التين. وإذا نظرت فوقك ترى أسراب البط البرى تطير فى أشكال هندسية تشبه حرف الـ V الإنجليزى، أو شكل المراوح.

هبط كل من رشدى وعلاء وجلسا فى مؤخرة السفينة وأخذا فى عزف وإنشاد بعض القطع الموسيقية العربية. هذه الموسيقى محببة للنفس ومقبولة. ثم عزف رشدى الحركات الثلاث من قطعة الفئران الثلاثة العمياء (*) لكن بنغمة أقل من المعتاد واستمروا فيها حوالى النصف ساعة، وطبعا بعد كل تكرار كان رشدى يضيف بعض التقسيمات العربية، لكن الصوت كان هادئا وجالبا للنوم أيضا.

ما إن قررت أن تلك الشواطئ الطينية المتكررة ربما لا تكون سوى تراكمات تركتها الفيضانات قبل إنشاء السد العالى، دلفنا إلى منطقة فيها مثل تلك النتوءات لكن بشكل منحرف لا تدل إطلاقا على أنها من مبتكرات حركة المياه. هذه النتوءات الجديدة، هل هى تلك التى يدعونها الطيات المقعرة؟ أو ربما هى نوع من التطبيقات المخالفة؟ هذه التعبيرات الجيولوجية بالكاد أتذكرها ولعلى لم أتفهم معناها جيدا ووجدت أنها قد وردت لذهنى بشكل مفاجئ. فى الحقيقة، كل ما يهتم له هذا النهر وشواطئه هو أن لا يستسلم لتحليلات شخص يعتبر من الهواة. كان واضحا بما لا يدعو مجالا للشك أن هذا الطين الذى أحكى عنه هو ليس طينا عاديا، لذا من الأفضل أن أدعوه باسم الطين الصخرى، وعلىّ الآن أن أتجاهل أى فكر آخر.

(*) أغنية إنجليزية قديمة للأطفال من التراث، ألفها توماس رانفنسكروفت فى عام ١٦٠٩ وكان فى فترة المراهقة. تقول كلماتها:

ثلاثة فئران عمياء
ثلاثة فئران عمياء
انظروا كيف تجرى. انظروا كيف تجرى
إنهم يجرون وراء زوجة الفلاح
التى قطعت ذيولهم بسكين اللحم
هل رأيتم مشهداً كهذا فى حياتكم
كمشهد الفئران العمياء الثلاثة. (المراجع)

وجدت أن، وبناء على السلطة العليا الممنوحة للريس شاذلى، كذلك أفراد الطاقم، هؤلاء الذين يرطنون بلغة لا أعرف حرفا منها، أننا سوف نرسو هنا وحتى قبل اكتمال حلول الظلام. أخذت أناقش وأعارض علاء، لكن هذا الشاب أوضح لى أننا لن نجد أى مكان مناسب للرسو ما بين هنا وحتى المنيا، حيث إننا إذا فعلنا ذلك فسوف نجد أنفسنا فى منطقة منعزلة ليس بها سوى الحقول الزراعية. معزولون؟ وما هى المخاطر إذا فعلنا هكذا؟ على أية حال، رسونا بالفعل على الشاطئ الغربى، لكنه أيضا كان مكانا منعزلا وليس له اسم فى الخرائط. دلفنا وسط عدد من الصنادل والمراكب والتصقنا تقريبا بصندل راسٍ. لوحت لريس هذا الصندل بالتحية، فتلقيت منه تحية عسكرية بحرية حارة. لكن لماذا هى بحرية؟. كنا فى الواقع قريبين جدا من تجمعات الطين الصخرى السابق الإشارة إليها، تفحصتها فلاحظت أنها حافلة بالبثرات والحفر المكورة وهناك أسراب عديدة من الطيور تحط وتطير حولها، بينما شمس العصارى الصفراء تغطيها بأشعتها الهادئة. إذا لم تكن هذه الطيور من نوع السنونو فلعلها تكون من نوع الخطاف أو عصافير الجنة. لفترة دقيقة أو دقيقتين، وددت من كل قلبى أن أرحل مع هذه الطيور إلى أوروبا.

كانت الصحراء الغربية غائبة عن النظر، أما الصحراء الشرقية فقد ظهرت ملامحها على البعد، وبدت خطوطها المحددة فى سماء بداية الإظلام. كان هناك على البعد انحناء معين يدعونه باسم دليل العفريت، ولا أعرف دلالة هذا الاسم، لعله مكان تكثر فيه العفاريت والأرواح الشريرة، لذا أجد أن كل الصنادل قد تجمعت فى هذا المكان خوفا من مجاهيل ما فوق الطبيعة.

هبطت إلى أسفل المركب. لقد كنا محصورين بين عدد من المراكب تصلصل فيها أصوات الموسيقى والأغانى العربية. ظللت فى مكانى أدون فى دفتر يومياتى بينما قامت آن بالخروج وقد تلفحت بكوم من الملابس الثقيلة اتقاء للبرد واتقاء لأى مصادفات قد تحدث ويكون مصدرها العفاريت أو الوحوش أو من رجال البحر المجاورين لنا. انهمكت فى تصفح خريطتى لأعرف أين نحن ومتى. اتضح لى أنه بمعدل تقدمنا الحالى فإننا لن نحقق سوى نصف ما انتوينا فعلا أن نحققه.

حالا عادت زوجتى.

هناك رجلان يدخنان الشيشة فى المركب المجاور. تعالى وانظر.

لماذا؟

يبدو أنهما قد فقدا عقلهما.

كان هذا غريبا ـ كأننا قد عدنا مرة أخرى إلى شارع كنج رود. صعدت إلى السطح، لكن كلا الرجلين ربما أدركا شيئا ففضا جلستهما وتركا خلفهما رائحة كريهة غير مستساغة تملأ الجو. كانت هناك إضاءة على ذلك المركب الآخر، فقد تركوا عدداً من اللمبات العارية مضاءة فوق السطح. ظهر علاء واستفسر ما إذا كان معى قدر من النقود، فأعطيته ما طلب ثم وجدته يتسلق عدداً من المراكب الراسية حتى وصل إلى الشاطئ واختفى فى ظلام الريف المجاور.

ظللت فى مكانى. دار فى ذهنى خاطر مفاجئ. اقتربت من الحافة وأخذت أستجلى ماء النيل. كان الماء ساكنا للغاية. لعله بسبب هذه المراكب الراسية أو بسبب تكوين هذا الشاطئ نجد أن حركة التيار شبه منعدمة. إلا أنه بواسطة اللمبات المعلقة فى المراكب المجاورة استطعت أن أدقق النظر فى سطح الماء. هى مياه لا تغلى ولا تفور، لكن، ويا للغرابة! ظهرت أشكال تتفجر على شكل دوائر صغيرة، بدت كأن هناك عدداً من الأسماك الصغيرة منهمكة فى التهام حشرات ويرقات السطح. كانت تلك هى اللمحات الودودة لما قد ندعوه باسم الحياة الخاصة بالنيل وما تفعله الطبيعة فى تلك المياه الراكدة. لا أدعى أننى اهتممت بهذا الأمر، لكن يا ترى ما هو مقدار توجسى وتخوفى؟ أعلم أنه دائما ما يتم التنبيه على السياح بعدم الشرب من ماء النيل أو الاستحمام فيه. لكن فى المجرى السريع للنيل، بالكاد نلمح آثار الطين فى الماء، لكن بجوار الشاطئ، حيث بالكاد يتحرك الماء؟ وكذلك داخل الترع الصغيرة الراكدة؟ لا حقا!

أفكر الآن ـ وأنا أعدد ذلك على أصابعى ـ فيمن يبصقون فى النيل، من يتبولون ويتبرزون، لكن على هذه الشواطئ الطينية نفسها، التى تحدث فيها كل هذه المآسى، رأيت أناسا يقفون وسط مياهها، يغتسلون أو يستحمون أو يشربون،

بل وفى مرة رأيت أم تعطى طفلها قدرا من هذه المياه ليشربها. حسنا، أخذت أسأل نفسى، ترى ما الذى سوف يحدث لهؤلاء المساكين الجهلة؟! لكن مع ذلك، يبدو أن لا شىء يحدث لهم، ومهما ادعى رجال الطب، فإن المراقب المحايد لا يلاحظ أن هناك فرقا كبيرا بين هؤلاء البشر المغرقين فى المرح والنشاط وبين المواطنين الأوروبيين الذين نشأوا فى ظلال مياه شركات التحلية. لعل هؤلاء المكسحين والمعوقين والعمى، يرقدون الآن داخل بيوتهم التعسة أو يرتعشون تحت سقوف أخصاصهم المغطاة بالبوص. لكن أن يستطيع المرء منهم أو يخطو حتى حافة مياه النهر بينما ترمقه نظرات ذلك الرجل الغربى الذى تصادف وجوده فى هذا المكان، يعتبر هذا شكلا من أشكال اكتمال الصحة. فكرت، سوف يمر جيلا أو أكثر على هؤلاء الذين يجاورون النيل حتى يتعلموا كيف يتعاملون مع المياه النقية التى تسحب من الخزانات المعلقة أو ترد من الأبيار. فى نفس الوقت، تذكرت أنه ليس هناك ما يمكن فعله الآن، فنحن نشرب المياه المعدنية ولا نجرؤ أن نلمس تلك المياه التى يمرح فيها كل ما هو قاتل أو جالب للمرض.

أخذت أنظر حولى ثم إلى فوق، كانت السماء حافلة بالنجوم التى يحف بها ضياء سمائى غامض، لكن الجو كان باردا.

هبطت إلى أسفل مركبنا مرة أخرى، لاحظت أن زوجتى قد رقدت على سريرها تقرأ. وأنا ليس لدىّ ما أفعله. رقدت على سريرى أتمعن وأفكر فى غوامض الجيولوجيا والفلك والأنثربولوجيا والبيولوجيا والباراسيتولوجيا وفصائل النباتات والحيوانات المصرية ذات المخالب والأشواك والأسنان، كذلك شغلت فكرى بهذا الكتاب وأين يقع منتصفه، ما هو موضوعه بالضبط؟ بدا موطنى فى ناظرى بعيدا.. أبعد مما أتصور وأتخيل.

(٤)

هذه الليلة كنا بعيدين عن المساجد، لذا لم نستيقظ مبكرا بسبب صوت المؤذن المجلجل، لكنى على كل حال نهضت من نومى متوقعا سماع الأذان. كان الجو باردا أكثر من الليلة الماضية والساعة الآن الخامسة صباحا. ارتديت ملابسى فى الظلام. هناك تيار بارد مميز كأنما هو تيار نهرى يمرق بين تلك المراكب الراسية. كان هناك بعض من آثار الضباب ولم يكن هناك شىء مختلف يدل على أننا لسنا معرضين للتيارات الباردة ونحن فى وسط نهر التيمز. بكل تكاسل أخذت أدير رأسى هنا وهناك لكى أتحقق من الدلائل التى تؤكد أننا فعلا فى مصر، لكنى لم أعثر على واحدة منها، فقط هو الخبير المحنك الذى من الممكن أن يفيدك عن هذه الفروق الفنية التى تخالف ما تجده فى أوروبا. أخيرا نسم النهار عندما بدأ شعاع من ضوء يحدد الخطوط العليا لهضاب الصحراء الشرقية، فى تلك اللحظة ايقنت تماما أننا فعلا نقيم فى الجانب الجنوبى من البحر الأبيض المتوسط. رأيت فلاحا جالسا فوق مرتفعات الشاطئ فوق حفائر طيور السنونو- أعتقد أنه استمر فى جلسته تلك طوال الليل- كان يشبك ساقيه وهذا من الصعب رؤيته بسهولة، وهو معتاد بالطبع على الجلوس بهذه الطريقة التى قد تقنعك أنه ربما يكون مقطوعا حتى وسطه. هو وضع جسدى يصعب على الأوروبى أن يقلده.

فجأة اتسع نطاق النور وأصبحنا نهارا بينما انهزم الضباب وتراجع بعيدا. نحن الآن هنا، لا نبعد عن القاهرة بأكثر من ثلاثة أيام، وللأسف لم نر شيئا ولم نفعل شيئا! كل ما سوف أرحل بصحبته هو ما كتبته عن هذا النهر الذى لا يختلف كثيرًا عن نهر التيمز فى مدى اتساعه، وليس من المهم ذكر مدى طوله! من ذاك

الذى سوف يهتم بمواضيع مثل وصف المحاجر ومصانع الطوب الأحمر؟ حتى سلسلة الأهرامات التى تمتد من الجيزة وتنتهى عند هرم ميدوم الذى تراه بمجرد الخروج من الفيوم(*)، فقد غطاها جميعا هذه الشواطئ المرتفعة. كذلك سلسلة أحياء القاهرة القبيحة ونحن نزحف ببطء بالغ فى مركبنا هذا السيئ الإعداد والإمكانيات. لكن يجب أن نستمر فى المسير.

بكل غضب أخذت أدور فوق سطح المركب صانعا أكبر قدر من الضوضاء، حتى فى هذا، لم يحدث شيئًا. أخيرا خرج الريس شاذلى، لكن ليس من موقعه داخل مركبنا بل من صندل مجاور. يبدو أنه عثر على واحد من أصدقائه العديدين. صنعت بيدى بعض الإشارات الغاضبة العصبية وأخذت استعجله ليأخذ مكانه أمام عجلة القيادة. هو بدوره صنع بعض الإشارات التى تعبر عن مدى استهانته بما أفعل ثم غيرها إلى تعبيرات لطيفة. بكل وقار رفع جلابيبه لكى يقفز إلى مؤخرة مركبنا. وإذا كان مقررا أن ترحل، إذن عليك أن تصمم على ذلك. ثم بخبرة عمر فى التعاملات مع البشر، أدرت له ظهرى.

دارت ماكينة مركبنا الساعة السابعة إلا ربع، ثم بعد نصف ساعة حضر إلينا رشدى فى قمرتنا محملا بأكواب الشاى. أخيرا ظهر علاء. ما إن شاهدته حتى أمطرته باحتجاجاتى عن هذا التأخير والوقت الضائع، لكن وجدته يهون من قدر اهتماماتى وقلقى قائلا:

«أنت دائما منهمك فى رسم الخطط، هذا فعلا شىء مفيد، لكن ألا تعلم أن ما سوف يحدث سوف يقع؟»

" لا بالطبع، إذا كان فى مقدور الإنسان أن يفعل ما يشاء! "

أعتقد أنه نوع من الصدام الحضارى، ليس بين الشرق والغرب لكنه ما بين الجنوب والشمال، وهنا تغلب الجنوب. حاول علاء أن يلطف الأجواء قائلا:

«ألا تعلم أن اليوم هو يوم الجمعة؟»

(*) هرم ميدوم فى بنى سويف. (المراجع).

بالطبع. يوم الجمعة هو يتخصص للمسلمين، الأحد للمسيحيين. هل لدينا يهود على مركبنا؟ إذا كان هؤلاء لهم وجود بيننا، إذا فهم لهم يوم السبت، بذلك يقتصر الأسبوع على كونه أربعة أيام عمل فقط. من خلال إحدى نوافذ قمرتنا، لمحت سيد النوبى وهو يصلى وقد أرخى جبهته حتى لامست الأرض. آمل أن يحدد اتجاه مكة بدقة، أنا عن نفسى يصعب علىّ أن أحدد ذلك.

اضاف علاء: "أيضا ليس فى استطاعتنا الآن أن نبتعد عن المنيا، فنحن فى حاجة ماسة لأن نفكك طلمبة المياه والحصول على قطع الغيار البديلة. المفروض أن لا نتعجل فى موضوع إصلاح هذه الطلمبة"

"هل هذا هو الإيقاع المعتاد لمن يبحر فى النيل؟"

أجاب علاء وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة، "طبعا، ما أخبرتك به هو الصواب عينه.

إذن نحن الآن فى بلاد الموز- الموز وقصب السكر- يبدو فى مفهوم الناس هنا أن يوم الجمعة هو يوم الراحة التامة. هى فعلا نوع من الراحة غير العادية، لاحظت أن كلا الشاطئين مزدحم بالناس، حيث يخطرون وقد ارتدوا أعجب الأزياء فى ألوانها، تلك التى لاحظت أنها ترتبط- كما أعتقد- بالمناطق التى تقع فى منتصف وأعلى الصعيد. حيث تشاهد النايلون المزخرف، والأخضر الكهربائى، والبرتقالى، والأحمر الفاقع. لاحظت أيضا أن لون البشرة هنا أكثر سمرة، وبدأ يقترب رويدا من لون بشرة النوبيين السمراء. أرى أن هذه السمرة متناسبة ومتناغمة مع تلك الأزياء، لا أعرف كيف، هما بالتأكيد فى منتهى التناسق والانسجام الكامل.

نعم. نحن الآن فى المنيا. كنت قد شاهدت هذه المدينة من قبل وأنا على الطريق منذ عدة سنوات سابقة، بل وقضينا فيها ليلة كاملة. لاحظت أن الشوارع المجاورة للنيل مليئة بالغبار ومرتبكة النظام ولا تشبه إطلاقا ما رأيته فى زيارتى السابقة. هنا يزدحم النيل بالمراكب والقوارب، الكثير منها مخصص لنقل الناس عبر النهر، فالمنيا أيضا لديها كوبرى لم يتم اكتماله منذ سنوات عديدة سابقة.

هذه المدينة تعتبر مدينة نقل وانتقال وسطية. شاهدت على الكورنيش وجود مسجدين وكنيسة، لكن الشارع كان مليئًا بالدبش والحصى. ركبنا قاربنا مرة أخرى ورسونا عند محطة مخصصة للبوليس النهرى. كالمعتاد تقابلنا مع ذلك الحارس فى الخدمة وقد حمل على كتفه بندقية آلية تلمع فى ضياء الشمس، ما إن حلت دقائق على رباطنا حتى تسلل أفراد الطاقم واحدا وراء الآخر، بما فيهم علاء متجهين إلى داخل المدينة. لم يتبق منهم سوى سيد. رأيت هذا النوبى بعد ذلك وقد أخرج ما أعتقد أنها طلمبة يدوية وانهمك فى شفط المياه القذرة التى تجمعت فى قاع المركب. سرت أنا وزوجتى هنا وهناك، ثم شعرنا بالملل. لاحظت أن المعديات التى تروح وتجىء كلها محملة بالناس حتى آخرها بحيث لا يتبقى من فراغ فى كل معدية أكثر من عدة بوصات.

جلسنا مرة أخرى.

بدأت الشمس فى الأفول وقد أرسلت أشعة قرمزية خلف منارات المساجد، بعدها حلت فترة الغسق وفرشت هذه أجنحتها على كل ركن وزحفت على سطح النهر أيضا. حضر أفراد الطاقم تباعا. لقد اتضح أنهم لم يعثروا على قطع الغيار المناسبة لطلمبة المياه وأنه يجب أن يتوجه أحدهم إلى مصر ليحضر هذه القطع. بهمة فاترة، رأيت سيد النوبى متقدما معلنا أنه مستعد أن يذهب للقاهرة بالقطار. انشغل الطاقم بعد ذلك فى تفكيك الطلمبة استعدادا لقطع الغيار التى سوف ترد من القاهرة، هذه إذا وردت أصلا.

قال علاء، "يلزمنا أن نظل فى المنيا لمدة يوم كامل على الأقل. شاذلى متخوف من رحلتنا إلى محطتنا التالية، وهى أسيوط، قال إنه ربما نواجه مشكلة ونحن فى طريقنا إليها"

«لما لا. نحن قضينا الليلة الماضية فى مكان مجهول على شاطئ النيل، إذا لم لا نكرر فعلتنا تلك ونرحل الآن؟»

«أخبرنى شاذلى أن هناك منطقة طويلة فى مجرى النيل هو لا يود أن يقضى الليل فى رحابها خوفا من القراصنة».

هل أنت جاد؟

«هذا ما أخبرنى به شاذلى»

فى النهاية، طالما أننا محبوسون هنا، قررت أن نقضى يومين فى المنيا وأعتبر تلك فرصة أتمكن فيها أن أشاهد ما تيسر. كانت زوجتى تشعر أنها ليست على ما يرام، كان واجبا أن أتركها فى المركب. شرح لى علاء أنه اتصل بمساعد مدير الثقافة بمحافظة المنيا، وهذا الرجل لم يتمكن من الاتصال بالمدير ذاته لأن الأخير كان فى منزله. المساعد كان خائفا من أن يجرى اتصالا تليفونيا برئيسه.

غادر الطاقم المكان، واحدًا تلو الآخر وتركونى وزوجتى. مرة أخرى شغلت نفسى بالتدوين فى يومياتى. أخذت أعدد كل العوائق التى صادفتنا، نحن بلا دليل، أيضا نجهل لغة القوم، طلمبة مركبنا عاطلة، أما النهر فقد كان يقدم لنا تنويعات مختلفة فى ذلك النشاط الوافر لنقل الأفراد بين الشاطئين فى المنيا، بينما ما زال أمامنا أميال عديدة من الهضاب الصحراوية التى تبرز منها كل مائة ياردة تقريبا قمم شاهقة من الصخور الجلمودية، وتستقر ما بين هذه القمم انحناءات لطيفة. يا ترى، هل هذه القمم هى دليل العفريت؟ أتذكر أننى شاهدت هذه الهضاب عند أول زيارة لى للمنيا، كنا قد غادرنا القاهرة فى الفجر، ووصلنا إلى هذه المدينة مبكرين، لذا لم يكن مفروضا أن نتوقف هنا فى رحلتنا السابقة تلك، لكن ـ ونحن فى طريق عودتنا من الوادى ـ توقفنا هنا وقضينا ليلتنا فى فندق لوتس. بعد ذلك شربنا الشاى فى الدور العلوى لنفس هذا الفندق وأخذنا نملى أنظارنا فى تلك الهضاب. توافقت بعدها رغباتنا واعتبرنا أنها سوف تكون فرصة رائعة لو أتيح لنا أن نتوجه ناحية تلك الهضاب باحثين فى أرجائها على أحجار الصوان والعظام والأوانى القديمة! قلنا لأنفسنا، بالتأكيد مكث الإنسان القديم فيها واستخدم هذه المهام. لكننا نحن الآن كنا أقرب إليها بحوالى ميل ونعلم أن هذه الهضاب ترتفع إلى أعلى بمئات من الأقدام، ويصعب تماما أن نصل إليها. فى أيام زيارتنا الأولى، جلسنا نستمع للسادات يلقى خطابا استمر عدة ساعات فى التليفزيون الأبيض والأسود؛ واتضح لنا بعدها أن الكلمات العربية

البسيطة التى عرفناها قد خدعتنا - هل كان جادًا حين قال إنه سيطرد الخبراء الروس؟ أكيد خدعتنا مسامعنا، لكن فى الحقيقة هو فعلها. كان هذا نصرا مؤزرا للسادات، كذلك للكلمات العربية التى عرفناها بالإضافة إلى بعض تخميناتنا التى ثبت أنها صحيحة.

الآن، أصبحت كل تسلياتنا هى تنحصر فى مراقبة العبارات بين الشاطئين محملة بالبشر. لاحظنا أن هناك لنشات بدورين تعمل فى هذا المجال، وهناك أيضا عبارات ضخمة يمكن أن تتسع للسيارات، لكن هذه ربما كانت عاطلة عن العمل بشكل "مؤقت". أيضا كانت هناك صنادل تمارس أيضا عمل العبارات وهى مكدسة بالناس، ومن العجيب أن أمواج المياه العنيفة لم تتسبب فى غرقها فى النيل. حولنا انتشر أكثر من دليل يشى بالسر المصرى الغامض. من أين تفد هذه الجماهير؟ فى مصر، دائما ما تجد أن هناك تجمعا من الناس، وليس هناك تعبير أخف من ذلك. فى لحظة معينة تجد المسرح خاليا، فى اللحظة التالية، عندما تحتك سيارتان أو يقع بعض من أقفاص الخضار من فوق عربة نقل أو أن طفلاً يقع وتُجرح ركبته، تفقد على الفور تتبعك لهذا الحدث، لأن جمهورا لحظيا ظهر فجأة وأحاط بموقع الحدث. نرى فى مقابلنا على الشاطئ الآخر رصيفا مخصصا لنزول العابرين والذى نشاهده خاليا تماما معظم الوقت، لكن ما إن يصل صندلا إليه وقبل اكتمال نزول الناس، تجد هذا الرصيف قد ازدحم فجأة بالناس يرغبون ركوب الصندل. لم نلاحظ أبدًا أن هناك صندلا أو مركبا ذا دورين خال من الركاب، إلا أن هذا الرصيف تجده دائما خاليا إلا فى لحظة الدقيقتين المجنونتين التى يتم فيهما التفريغ والتحميل. أخذت أجول بناظرى فى المياه الممتدة أمامى، لاحظت أنها رغوية القوام، وتعجبت فربما يكون من أسباب هذه الظاهرة هى وقوع هذه المياه داخل إطار هذه المدينة. لاحظت أيضا أن سائقى العربات الحنطور، وقد جلبوا جيادهم البائسة حتى حافة المياه، ثم ينزلون بها وينهمكون فى تنظيفها. كان من المستحيل الا يدركنى العجب، وأسأل نفسى: هل كانت تلك الجياد الغاطسة فى مياه النيل بمنجاة من مرض ما؟ أم هى فى الواقع ستستبدل مرضًا جديدًا بآخر قديمًا؟

وما إن حل الغسق حتى لاحظت أنه لم يتبق فى الماء سوى مركب سياحى ضخم يحاول قائده بكل استماتة أن يرسو بجوار الكورنيش، لكن الماء لم يكن كثيفا على الشاطئ، لذا وجدته وقد غرز على بعد خمسين ياردة من حد الشاطئ. بقدوم الليل، لاحظت أن مؤخرة الكوبرى غير المكتمل، والذى يقع على بعد مائة ياردة من موقعنا قد انتصب فى الهواء كأنما هو يعانى من مرض ويشعر بالألم مما جعله يحتفظ بهذا الشكل. جلست مرة ومرات فى كابينتى، بينما رقدت آن على سريرها وهى ترتعش بين الحين والآخر وتحاول أن تجلب النوم لعينيها بلا فائدة. أخيرا عاد طاقم مركبنا. أداروا المولد فانطلق النور وكسا المركب من المقدمة حتى المؤخرة. قدم لنا رشدى العشاء وبعدها أحضر لنا القهوة المصرية المرة. بدأنا ندرك طبيعة الوجبات المصرية، هى ليست نوعًا من الولائم لكنها لذيذة ولها تأثير عجيب. والخطاب الذى كان يشهره علاء فى كل مرة نرسو فى رحاب محطات البوليس البحرى عملت مفاعيله السحرية هنا أيضا، فقد مد خطاف إلى مركبنا وتم جذبنا حتى الشاطئ حيث إمكانيات الإضاءة المتوافرة. كذلك تم مد خرطوم من عندهم ملأ خزاناتنا بالمياه النقية الواردة من الخزانات الكبرى المعلقة. خرطوم آخر سحبنا به احتياجاتنا من الوقود. أيضا حضر إلينا ضابط شاب جميل بملابسه الكاكى الأنيقة وأخذ يحيى وينحنى فى كل الاتجاهات. أتى علاء ليخبرنا أنه لم يتمكن من مقابلة مدير المركز الثقافى، وأنه سوف يكرر محاولة الاتصال به فى الغد. الطعام والقهوة كانا رائعين للغاية. استطعت أخيرا أن أضيف بعض اللوازم الضرورية إلى قمرتنا، هى عبارة عن أغطية ممكن أن نسحبها فوق الملابس التى نضعها فوق البطانية الوحيدة التى نستخدمها. لا أفهم لماذا لم يخطر ببالى أن أشترى مزيدا من البطاطين، كنت أحس أن هذا التصرف ليس لائقا وأنا أرى أفراد الطاقم ينامون بأقل غطاء ممكن.

باستخدام القوى الكهربائية المجانية التى اقتبسناها من معدات الشاطئ، أصبحنا قادرين على تشغيل مولدنا طوال الليل، بذلك أصبح مركبنا أدفأ أكثر مما نحب أو نرغب، لذا قضيت معظم الليل مستيقظا فى سريرى مستمتعا

بالدفء، لدرجة أننى استمعت للأذان باستمتاع ونمت فورا بعد انتهائه. أما زوجتى فقد كانت فى حال أفضل.

أتى علاء بعد الإفطار، أخبرنا أنه استطاع أخيرا أن يتصل بمدير المركز الثقافى، وأن هذا المدير أنب مساعده فى المنيا عندما علم أن علاء وصحبه كانا فى حالة انتظار. الآن المنيا كلها رهن إشارتنا. حضر إلينا بالفعل ظهرا مدير المركز الثقافى السيد/ أحمد الشريف. غدا سوف يصطحبنا لحضور عرض فنى يحضره سكرتير عام محافظة المنيا، وللأسف المحافظ كان فى القاهرة. لو كان حاضرا لما تردد عن أن يفرش كل مكان تخطوه أقدامنا. فى نفس الوقت، قدم لنا مرافقة سوف تعمل معنا كمترجمة ومرشدة سياحية، هى فى الحقيقة تعمل كضابط فى شرطة السياحة. مدام إكس هذه تجيد التحدث باللغة الفرنسية بطلاقة. لكن ما الذى أود أن أشاهده أو أتلمسه؟ تحججت آن بأنها ليست على ما يرام، لذا ذهبنا جميعا ما عداها.

أهم المواقع التى زرناها كانت هى المقابر الفرعونية الواقعة جنوب بنى حسن على الضفة الأخرى للنيل. عبرنا المدينة بالسيارات ثم سلكنا الطريق الرئيس ثم توقفنا لنزور قصرا مملوكيا أصبح مع الزمن عبارة عن وكالة تجارية. هو بناء متقن يحفل بالقاعات الرخامية والأبهاء والممرات، لكن ألحقت به من الخارج محلات تجارية صغيرة. رحلنا بعد ذلك جنوبا وسارت بنا السيارة مسافة قدرها حوالى عشرين كيلومترًا بجوار ترعة تراصت بجوارها حقول قصب السكر. أخذت أدقق النظر فى هذه الترعة إلى أن اعتدت عليها. إنها قناة ليس إلا. بتراخ سألت علاء عن اسم هذه الترعة، أجابنى أنها تدعى باسم بحر يوسف. ما إن سمعت ذلك حتى شعرت بنوع من الغضب غير المنطقى. فكرت، إن من يدعى بأن تلك القناة تخص يوسف الشهير، فعليه أن يتقدم بقصة محبوكة أكثر قبولا من الحكايات الساذجة غير الدقيقة (هل هم يدعون أن تلك هى القناة التى بناها يوسف لفرعون. فى الحقيقة هم يقولون: إن تلك الترعة بناها يوسف آخر غير يوسف بن يعقوب. هل سمع أحد خبرا يفوق هذا سخافة!). حتى قبلما أشاهد هذه القناة، كان قد وقر فى ضميرى وفكرى أنه حتى إذا لم تكن واحدة من

منجزات يوسف الصديق، فمن المحتمل أن تكون هذه الترعة الحديثة محفورة فى المكان القديم نفسه. إذن ما هى أصح الاحتمالات؟ بالطبع دائما ما تُحفر القنوات الحديثة فى أفضل وأنسب مكان، إذن فهذه الترعة ليست سوى ذكرى للترعة الأصلية. كنت أعد نفسى بأن يغمرنى شعور طاغ عندما أشاهدها للمرة الأولى، لكنى الآن وقد سرت بجوارها مسافة عشرين كيلومترا، شعرت أنها عادية. أحسست أن مشاعرى السابقة ليست مبررة ولم تكن ضرورية بالمرة.

لكن هى على أية حال قناة يوسف، هى الأعظم خلودا وتأثيرا حتى ولو قورنت بالأهرام ذاتها. فى الزمان الغابر، انتشرت المجاعات والأزمات الاقتصادية فى منطقة الصحراء وغرب النيل مقابل القاهرة الحالية، لذا ما إن حُفرت هذه الترعة، حتى برزت إلى الوجود منطقة الفيوم التى تبلغ مساحتها ما بين ٢٠ إلى٣٠ كيلومترًا مربعًا. إذا عدنا إلى أيام الفراعنة، نجد أنه قد خطرت لأحدهم فكرة خلاصتها هى تحويل مياه الفيضان الزائدة من النيل لتصب فى هذا المنخفض الصحراوى، على أن ترجع المياه مرة أخرى عندما يكون الفيضان منخفضا فى سنة من السنوات، لكن هذه الوصلة المقترحة لن تصل حتى تبلغ منطقة القاهرة الحالية. كان واجبا أيضا أن تنبع هذه الترعة من على بعد مئات من الأميال جنوبا لأسباب تختص بعلم توازن السوائل، بذلك يكون انحدار القناة الجديدة متدرجا بحيث يمكن التحكم فى تدفق المياه. بذلك نشأت ترعة يوسف تلك التى نراها الآن أمامنا وهى فى الحقيقة طويلة جدا ومتسعة وتدعو للإعجاب بسبب الأسلوب التى نفذت به. هنا الآن أمامى تبدو كأى ترعة عادية، وكان لزاما على أن أنشط ذاكرتى لكى أتذكر كل ما أشاهده. إذن هذا هو بحر يوسف (ذاك الذى يشبه مخازن القمح التى أنشأها فى الزمن الغابر) الذى تمكن به أن يخلق داخل منطقة الفيوم، أول بحيرة من صنع الإنسان.

أخيرا التفتنا يسارا وعبرنا تلك القناة متجهين ناحية النيل وسط أرض خصبة. ليس هناك أى نوع من المزروعات لا يمكن أن تجده فى المنيا. هناك قصب السكر، والقطن، وفول الصويا، والثوم، والبصل، وكل أنواع الخضروات، والطماطم، والعنب. أضيف إلى هذه القائمة البرسيم والقمح الذى شاهدته

بنفسي. هذه المحاصيل هي في الواقع أفضل كثيرًا بالمقارنة ببيوت الفلاحين! أرى الآن أمامي كثيرًا من المنازل المبنية بالطوب الأحمر، لكن معظمها غير مكتمل البناء. أجد أمامي أيضا بعض الزراعات التي حان قطاف محاصيلها لكنها مهملة وربما يلحقها البوار، هذا يعني أن ثروة مصر تنتهك. سألت عن هذه المشكلة، فتلقيت طرفة واحدة من جملة ثقافتي المنياوية. أخبروني بأنه يمكن للفلاح أن يحصل على دخل أفضل إذا عمل في مصنع لنسج القطن أو لتكرير السكر، وأنه لم يعد هناك العدد الكافي من الفلاحين اللازمين لحرث ورعاية الأرض. من تبقى منهم، يطلب أجرا مرتفعا ليعمل في الأرض "ويصعب على ملاك الأراضي الوفاء بهذه الأجور المتزايدة". الأسوأ من ذلك، طبقا لوجهة النظر الحكومية، هي تسلل الفلاحين خارج البلاد متوجهين إلى البلاد العربية الغنية، هناك يمتهنون أردأ أنواع الأعمال في بلاد البترول وما شابه. بعد ذلك، يعودون إلى وطنهم بالنزر القليل من المال الذي يمكنهم من هجر عملهم الأصلي في الفلاحة التي تقضم ظهورهم وهم ممسكون بالفئوس طوال يومهم، لذا ربما تجدهم قد اقتنعوا بفتح دكان صغير أو يمتهنون أي عمل آخر يبعدهم عن مجال الزراعة.

أخبرني علاء أن هذا الفعل يؤدي بالطبع إلى ارتفاع أسعار الغذاء، الآن في مصر لن تجد سوى القلة الذين يشترون ما يشاءون، وهذا الأمر كثيرًا ما يقود إلى قيام نوع من المتاعب.

«أي نوع من المتاعب؟»

«ثورات ومظاهرات وتخريب».

«أرجو أن لا يكون هذا قد حدث منذ وقت قريب».

«حدث هذا فعلا منذ شهر أو شهرين».

نسير الآن متجهين نحو مدينة أبو قرقاص، وهي في الأصل كانت قرية مسيحية، لذا شاهدنا في المقابر التي عبرنا بها الصلبان المعدنية باقية، أما الخشبية منها فهي مهشمة.

توجهنا بعد ذلك إلى العبارة وتسلقناها. لاحظت أن ماكينة هذه العبارة تعود إلى أربعين أو خمسين عاما سابقة ومن صنعها زوج أختى، مما جعلنى أمعن فى السياحة فى الخيال. تحركت هذه العبارة جنوبا لمسافة ربع ميل ثم دارت حول جزيرة فى النيل واتجهت إلى الشاطئ الأبعد. كان هذا الشاطئ متدرجا ومليئا بالحصى، لذا اضطررنا أن نقفز فوق تلك العقبات. كان راسيا هناك أيضا باخرة سياحية ضخمة على بعد عدة "مئات من الياردات ويبدو أنها كانت خالية. سرنا وسط الرمال والمخلفات حتى وصلنا إلى جسر يصلنا إلى منطقة زراعية رائعة الخصوبة، لعلها أفضل منطقة خصبة شاهدتها اليوم. على البعد شاهدت مضخة مائية تمد تلك المنطقة بكل ما يلزمها من مياه، لذا امتدت أمامنا نصف دستة من الحقول المزدانة بزراعات الفول والخضروات تغذيها بالمياه قنوات صغيرة للغاية على النمط القديم الذى اخترعه الفراعنة و وزراء الزمن الغابر. يحجب هذه المنطقة بأسرها مئات من أشجار النخيل التى تظلل المكان وتجعله أكثر طراوة وبرودة، شاهدت أيضا حقلا صغيرا يغمره الماء بينما المزروعات البازغة بالكاد تظهر على السطح. رأيت أيضا عددا من الطيور البيضاء تنقر فى الأرض، هى الطيور التى يطلقون عليها صديقة الفلاح، إنها طيور (أبو قردان). تساءلت عن هذه الطيور، فقيل لى إنها تتناقص فى العدد بسبب كثرة استعمال المبيدات. حتى هذا يحدث فى تلك الجنة الصغيرة!

سرنا فى ممر ووصلنا إلى استراحة فى الطريق، ثم تابعنا السير فى منطقة صحراوية صاعدة وأخيرا وصلنا إلى قاعدة بعض التلال التى تشبه فى تكوينها نفس تلك الهضاب البنية الوحشية التى طالما تابعتنا وطاردتنا فى إبحارنا من القاهرة، وظلت ملازمة لنا فى الوادى ولم تتركنا أبدًا . أخيرا انثنى هذا الممر صاعدا بخشونة ثم ظهرت بعض العتبات التى يمكن أن أدعوها باسم "الخطو الحميرى" حيث إنها أعمق من أن يخطوها الإنسان مستريحا، لكنها لا تعلو كثيرًا. كانت المقابر التى من المقرر أن نشاهدها، أو الأصح القول بأنها المقابر التى روعى أن يكون من المناسب أن أشاهدها، كانت ظاهرة أمامنا الآن بأبوابها العالية المربعة السوداء ومحفورة فى الهضبة. جاهدنا فى الصعود وعثرنا على عدد من

المقاعد الحجرية التى وُضعت فى منتصف المسافة بكل حكمة ليستريح عليها من يشاء. أخيرا وبعد جهد جهيد وصلنا إلى فتحة باب المقابر. رأيت بالداخل عددا من السائحين الذين كان قد انتهى الشرح لهم وكانوا مستعدين للعودة إلى قاربهم السياحى الذى يسبح فى ضياء الشمس، ويمثل نبراسا وسط هواء صاف شفاف.

أعتقد أن مجال دراسة هذه المقابر قد يهتم بها المشتغلون بعلوم الآثار والمتبحرون فى علم المصريات، فهى تلقى الضوء على الأحوال التى كانت سائدة فى زمن قديم كان مفعمًا بالمتاعب والقلاقل، لكنها قطعا لا تمثل هذا القدر من الأهمية فى مفهوم الجاهل بهذه التواريخ، وهذا يختلف بالطبع عما يمكن أن يشاهده المرء فى وادى الملوك بالأقصر. هذه المقابر تعود إلى عهد المملكة الوسطى وتحفل بالرسومات التى توضح الحياة المدنية حينذاك. لاحظت أيضا أن الرسوم لم تكن مزدهرة كما نشاهدها فى الرسوم المنقولة، لكن الموضوعات كلها جذابة. وقد اهتمت هيئة الآثار بمصر، وكذلك محافظة المنيا بتلك المقابر كذلك بالزائرين، حيث مهدوا الطريق وجعلوه آمنا.

وهنا بدأت المدام إكس تتحدث. السيدة المسكينة، طول سنوات العمل فى مجال الإرشاد السياحى، أسبغ على حديثها المعد سلفًا درجة من السطحية التى أفضت به إلى الفتور، أضف إلى ذلك أن كثرة تكرار الكلام نفسه لكل سائح جعله يبعث على النوم رغم ما ينطوى عليه من معلومات. عندما انتهت، أعادت ما حكته باللغة العربية لمنفعة باقى مجموعتنا. كنت أحرك رأسى بحرارة وأنا أستمع لشرحها باللغة الفرنسية، بينما فى الوقت نفسه كنت أرمق مجموعة السياح المتوجهين إلى مركبهم السياحى وهم يخطرون بعيدا فى الممر الطويل. أمامهم برق مركبهم السياحى المنتظر قيام ولد بدفعه قليلا، أو ريحا ربما تسوقه ليصبح مزة أخرى مركبا بحريا. هذا القارب يبدو فى شكله قدر من الانسيابية والأناقة، بدنه يتكون من الزجاج والمعدن، وبكل بساطة لا يوجد شىء آخر يمكن أن يتداخل مع وحدة اتساقه، حيث يتتابع الزجاج ثم المعدن حتى فى تكويناته العليا. أدركت فجأة، أنه كله خطأ فى خطأ، هو ليس سوى نوع من أشكال الموضة الجارية، تشبه تلك الخطوط الغريبة التى تضاف إلى بعض السيارات ولا تمثل حقا فائدة تنفع،

سوى بمقدار واحد فى المائة. إنه مركب نيلى يصلح فقط للأنهار الضيقة، ليس أمامه عواصف تواجهه ولا أمواج ترهقه، أعظم خطر يمكن أن يواجهه هو ما قد يثيره مركب آخر يمر بجواره. حسنا، لما لا يجمل هكذا إذن؟ إنه بصراحة يصلح لأن يقل الملكة كليوباترا أو مجموعة من الكليوباترات العالميات، وأن يخطر فى الماء وقد ازدان بالذهب المشغول، ويغلب على الألوان السائدة اللون الأحمر والأرجوانى. أما عن هذا الكم الهائل من الزجاج: فأقترح أن تكون النوافذ على شكل صندوق زجاجى، وأن يُنثر على السطح عدد كبير من الشجيرات المزروعة ذات الرائحة الزكية، لكى يسود فى الأعلى اللون الأخضر الجميل.

عدت لنفسى فجأة عندما أدركت أننى مستمر فى هز رأسى موافقا أثناء شرح باللغة العربية التى يعرفها الجميع ما عداى. فى النهاية، حرصت على توجيه سؤال ذكى، لكى أوضح للجميع أننى كنت متابعا للشرح وما يتحدثون عنه، لكن احتمالا مفزعًا أمسك بتلابيبى، هل أنا ذاك الفلسطينى؟ هل فعلا استطاع شومان اليهودى أن يطردنى من بلادى؟ هل استطاع هو أيضا أن يطرد أصحاب هذه المقابر فى حياتهم؟ ما نشاهده الآن أمام أعيننا له قدر كبير من الأهمية، ورسوم تفصيلية معبرة تشمل فنونهم الحربية، التى منها نتفهم أن الحاكم الإقليمى الذى كان يحكم هذه المنطقة فى الزمان القديم، استطاع بعبقريته أن يقتنى جيشا خاصا به وهكذا. أعتقد أن ما يجب أن ننتبه إليه عند دراسة المصريات هو أن القصة دائما ما تكون حدسية تخمينية، والدليل القاطع غير موجود، ودائما ما تكون الروابط رقيقة ودقيقة، لكن طالما أن قوة أى سلسلة تنحصر فى أضعف حلقاتها، لذا...

عادت السيدة إكس للشرح باللغة الفرنسية، بينما أنا ما زلت مستمرا فى هز رأسى كأننى متفهم لكل كلمة تنطق بها. أما المقبرة التى وقفنا فى رحابها، فيمكن القول إنها تبعث على الارتعاش إذا قورنت بحالة الجو الخارجى. كنت أهز رأسى كأن كل الحقائق المفجعة التى نستمع إليها أصبحت جلية وواضحة. منذ عشر سنوات، كنت أشك فى شأن أمور كثيرة، أما الآن فهى ناصعة ومؤكدة أمام عينى. إذا لم تكن أنت متخصصا فى علم المصريات، فإنك سوف تشعر بالغبطة

والاهتمام وأنت تتصفح كتابا مليئا بالرسوم والصور الموجودة فى المقابر. أقول إن هذا أفضل كثيرًا من أن تتحمل المشاق لترى ذلك بنفسك وتمعن النظر فى الصخور والمنحوتات والرسوم.

هناك درجة من الخبرة تستلزمها لمسات الخبير بالصخور والأحجار والمنحوتات. عندما تقترب من الأهرامات مثلا وتتلمس وتتحقق سوف تنطق حالا معترفا: نعم، أنا هنا! لكن بعد ذلك، ما هو الأكثر أهمية، أعتقد أنه ينحصر فى اكتشاف ما ليس متوقعا وخفيًا عنك بما يحيط بك من أحداث لم تكن متوقعة حدثت فى حينها. مع ذلك، أقول إن كل أشكال الفنون الحربية التى نشاهدها الآن داخل المقبرة، كانت فى نظرى ذات أهمية عادية، كذلك الرسوم التى تعبر عن الحياة المدنية فى ذلك العصر القديم.

خرجنا إلى ضوء الشمس وبدأنا رحلة العودة، بينما تجمع السائحون فوق سفينتهم الأسطورية، تلك التى ربما كان اسمها كانوبوس(*) أو رمسيس. عدنا مرة أخرى بالمعدية ثم قامت السيارات بنقلنا حتى المنيا على طول بحر يوسف، صديقى العتيد. ونحن فى مركبنا، لاحظت أن صحة زوجتى قد تحسنت ورأيتها منهمكة فى رسم معين سوف تستكمله عندما نعود. توجهنا مساء لحضور حفل بقصر الثقافة، حيث قدموا لنا الشاى وطافوا بنا هنا وهناك. ربما أهم ظاهرة لفتت انتباهى هى اللغة الإنجليزية التى كان ينطق بها الجميع، بما فيهم بعض الطلبة الذين قابلناهم. خرجنا بعد ذلك وزرنا فندق اللوتس الذى قضينا فيه وقتا ممتعا قبلا. عدنا بعد ذلك إلى مركبنا وأتى إلينا علاء ليوضح لنا بعض الأمور التى غمضت علينا. قال إن الفلاحين لا يهاجرون لكن هم فى الحقيقة يهربون. هم دائما مرابطون فى هذه الأرض التى لا تمنحهم الكثير ولا يلزمهم القانون بالارتباط بها. لذا تجد أن مدينة المنيا تُعد إحدى المراكز المهمة للتسلل والاختفاء. هى مدينة تتجمع فيها عدة طرق تؤدى إلى عمق الصحراء الغربية. هذه الطرق تقودهم إلى الواحات، فإذا كنت فى حاجة ماسة للرحيل ولديك قدر مناسب من

(*) الاسم القديم لأبو قير فى الإسكندرية، وصفها سترابو وهيرودوت وسينكا فى كتبهم.. (المراجع).

المال، فهناك طرق سرية تقود إلى الواحات من المنيا. حينئذ من الممكن أن تستقل سيارة لاندروفر أو حتى جمل، لكن بالطبع من الأفضل أن لا يقبض عليك رجال البوليس فى أى من البلدين. فى الحقيقة، يوجد من المنيا ما يمكن أن ندعوه باسم «الطريق الخفى» الذى يقود إلى ليبيا الغنية بالبترول. لقد تم غلق الحدود المصرية الليبية عدة سنوات سابقة بشكل رسمى، لذا فهذا الطريق لا يعرفه الكثيرون.

استطاع سيد النوبى أن يعود من القاهرة مصطحبا معه قطع الغيار المطلوبة لطلمبة مياه مركبنا. مع ذلك، كان يبدو عليه أنه يعانى مرضا ما، لذا طلبت أن تنقل له تمنياتى له بالشفاء العاجل وأشكره أيضا بسبب المشاق التى عاناها فى رحلته المزدوجة إلى القاهرة. هذه التمنيات انتقلت إليه عبر الثلاثين قدما التى تفصل قمرتنا عن مقدمة المركب حيث يرقد. كنت مهتما أن لا تنطبع صورتى فى ذهن سيد وكأننى فيشر آخر أو فيشر الذى تملك الجزيرة بالنصب أو أن أذكره بالإنجليز الذين احتلوا بلاده فى زمن ما، هؤلاء الذين طالما كرههم، أعتقد أننى كنت مداهنا إلى حد ما. أخبرنى علاء أنه سوف ينقل للرجل ما يراه مناسبا. ولم أعرف أبدًا حقيقة ما نقله إليه.

لكنه كان يوما رائعا. خرجت أنا وزوجتى وسرنا هنا وهناك، بعدما تسلقنا حافة مركبنا وسرنا بعيدين عن خندق النيل واستمتعنا بوقتنا. هذه الأمسية، عمل المولد فى وقت متأخر، لذا شعرنا بالدفء ونحن داخل قمرتنا، بينما برقت النجوم من خلال فجوات ستائر نوافذنا. كانت تلمع وتبرق وتتراقص كما تفعل هكذا دائمًا مع كتاب الرحلات. حاولت قدر إمكانى أن أظل مفتوح العينين مستمتعا بالنظر إليها، لكنى لم أوفق تماما.

(٥)

كان اليوم التالى مليئا بتعقيدات مختلفة، فالأحداث لم تكن متوافقة بحيث يمكن أن تتلاءم مع متطلبات أشخاص من مشارب شتى. وإذا اعترفت أن كل الأحداث قد جرت بشكل مبهج ومرضٍ، فهذا يستدعى أن أقول إن الكتاب الذى أقوم بتأليفه سيعوزه التماسك. حضر إلينا صباح اليوم مبكرا السيد مدير المركز الثقافى يدعونا إلى الخروج معه. عندما تابعناه، توقعت أن تكون وقفتنا الأولى داخل موقع حكومى، لكن هذا لم يتحقق. توقفنا بالفعل أمام كشك يقع فى شارع الكورنيش. هو عبارة عن محل صغير علق على بابه مختلف البضائع التى قد يهتم بها السواح، أما داخله فهو مكتظ بكل الأنواع والأشكال. فيه يمكن أن نشترى مثلا جلابية أو طاقية، وهى صفقات ليست مرفوضة تماما وتناسب أحوال الطقس هنا، ليس هو سوى فقر الخيال ذاك الذى يقف عقبة كأداء أمام الغربى عندما تجده دائما متمسكا بارتداء البنطلونات وما تحت البنطلونات. فى هذا الكشك تستطيع أيضا أن تشترى تذكارات مصرية قديمة مقلدة، وهى التى يدعونها باسم "فرعونى". هى فعلا فرعونية سواء كانت مصنوعة من البلاستيك وتمثل لوحة نارمر أو تمثل الشيخ الخشبى، لكن طول هذا الأخير لن يتعدى الست بوصات. لكن أشهر تمثال فرعونى مقلد هو رأس نفرتيتى، فإذا لم تكن سيدة رائعة الجمال فى زمانها، لكانت باعثة على الملل حقًا! لكن هى فعلا كانت جميلة - إلا أن ما أود أن أسأله لنفسى هو، هل هى فعلا كانت فى حاجة لهذا الجمال؟

لكن هنا فى داخل هذا الكشك، كل تماثيلها المقلدة غير جميلة إطلاقا، سواء كانت النسخة مصنوعة من البرونز أو النحاس الأصفر أو الأحمر أو الحديد أو

الصفيح أو الرصاص أو الألابستر أو الجرانيت أو الطين أو حتى بإشغال الإبرة. لعل أقبح الأشكال ضمن هذه الأنواع جميعا كان عبارة عن عيدان من البامبو المفرغ على شكل فازة مكتوب عليها بعض الحروف الهيروغليفية بالإضافة إلى وجه نفرتيتي.

يوجد أيضا صور فرعونية مرسومة على ورق بردى أصلى، فقد قامت وزارة الثقافة المصرية مشكورة، بتشجيع زراعة نبات البردى فى عدة مزارع بقرب القاهرة. حيث يمكن استخدام سيقان هذا النبات لصنع ورق البردى بالأسلوب القديم. هذا الورق المنتج جيد الصنع، ورؤيته ولمسه يُعد درسا مفيدا للأولاد والطلبة، إلا أن الرسوم التى تنقش عليها تميل فى معظمها إلى أن تكون أقل أصالة وجمالا. لكن الشيء الغريب ونحن واقفون هكذا أمام هذا الكشك هو أنه من المنتظر أن نبتاع شيئا. حسنا، نحن على الأقل لدينا ما يكفينا من الوقود والكهرباء، لما لا إذن. ثبتت عيناى على صورة مرسومة هى مزيج من فنون كثيرة لبطتين بأسلوب منطقة أخيتاتين(*). كانت الصورة جميلة، وسوف تحقق إحدى أمنيات أحفادى، وهى أن يحصلوا على رسم على ورق البردى، جزئيا أيضا ـ طالما أنه من المفترض أننا يجب أن نشترى شيئا، وأن من هو مضطر إلى أن يركب الطائرات، عليه أن يعمل حسابا للوزن وغرامة الوزن الزائد، إذن هى المختارة. لكن ما إن مددت يدى لأطلبها، حتى همس علاء فى أذنى قائلا إن سكرتير عام المحافظة سوف يمنحنا بالتأكيد بعض أوراق البردى المرسوم عليها بعض المناظر الفرعونية، لذا من الأفضل ألا نتعجل ونتهور. أخيرا اخترت أنا وزوجتى راسين صغيرتين لكل من أخناتون ونفرتيتى، رأينا أنهما لن يتسببا فى أى نوع من المتاعب، فهما ليسا ثقيلى الوزن، ويمكن بسهولة ـ إذا دعت الظروف ـ التخلص منهما. وضعنا هذه المقتنيات الجديدة وسط حاجاتنا ونحن نتوجه إلى مقر محافظة المنيا. هناك وجدنا نفرًا من الحرس، كالمعتاد كان الزى ليس بهذا القدر من اللياقة مشابهين فى ذلك رجال البوليس البحرى. ما إن شاهدونا حتى حاولوا

(*) كانت أخيتاتين ـ ومعناها الشمس ـ عاصمة الدولة فى عهد أخناتون لفترة قصيرة، ومكانها اليوم تل العمارنة فى المنيا على بعد ٣١٢ كيلومترًا جنوب القاهرة. (المراجع).

أن يصطنعوا كتفا سلاح، لكن فى آخر لحظة تراجعوا عن ذلك، أو لعلهم نسوا كيف يفعلون ذلك. دخلنا. الدور الأرضى الذى كان يزدان كله بخرائط رائعة ملونة توضح ما سوف تكون عليه مدينة المنيا الجديدة، مهما كان موقعها الفعلى. ثم قادونا إلى جناح السيد سكرتير عام المحافظة، وهو رجل له هيبة ومنظر، جعلت مرشدنا علاء بغير قصد يخبط قدميه فى بعضهما البعض تحية، بطريقة تذكرنا بأيام المثول أمام عرش الفراعنة العظام. فى الحقيقة، كانت الصورة التى أمامى "فرعونية" تماما، فأنت أمامك بلا شك مظهر يمثل القوة والسلطان. أجلسنا سيادته مرحبا وطلب لنا الشاى، ثم أنهى متعجلا ما أمامه من أوراق ومهام كان منهمكا فيها قبل دخولنا إلى حضرته. سألنا بعد ذلك مع الذى يمكن أن يفعله من أجلنا. كانت الإجابة الطبيعية هى أن السادة مرءوسيه قد صنعوا معنا الواجب وأكثر، وأننا قد تأثرنا تأثرا بالغا بذلك العطف واللطف الذى غمرتنا به كل محافظة المنيا. يبدو أننى كنت أميل إلى الإسراف فى إبداء الشكر والامتنان. لاحظت أن تلك المشاعر كانت تكتنفنى دائما عندما أكون فى حضرة عظماء الأرض، وهذا الرجل الماثل أمامى لا يقل منزلة عن أشرف "نبلاء" الزمان القديم. هذه المشاعر الطارئة تنشأ عندما يتلقى شخص ما معاملة تفوق قدره الحقيقى، ثم يلتقى مع شخص آخر يمثل سلطة عليا تسبغ عليه ما هو أكثر من قيمته الحقيقية. فى تلك اللحظة بالذات، تحول حديثى مع السيد سكرتير عام المحافظة ليصبح بالحقيقة هو حديث يجرى ما بين «النبلاء»، حيث راح كل منا يسرف فى التعبير عن مشاعره - المبالغ فيها - تجاه الآخر. عبر السيد السكرتير عن مدى تشرفه بمقابلتنا، كذلك عبرنا نحن (أنا) بأننا كنا أكثر منه تشرفا بمقابلة حضرته، فهو يقول إن الكلمات تعجز عن الترحيب وأنا أقول إن الكلمات أيضًا تعجز عن الامتنان ... وهكذا جرت المجاملات.

وأخيرا عدنا إلى أرض الواقع. فهل هناك أى سؤال يمكن أن أوجهه لسيادته؟

نعم. يوجد. أريد أن أعرف ما هى خطط المنيا المستقبلية. كان هذا هو السؤال المناسب. هل شاهدت حضرتك الكوبرى الجديد؟ هذا عندما يكتمل بناؤه، كل ما ينقصه هو أساسات الجانب الآخر من النيل، كذلك أساسات منتصفه،

سوف يسهل كثيرًا من مشكلة المرور إلى الضفة الأخرى. على الجانب الآخر سوف تُبنى المنيا الجديدة حيث نحن الآن ويتم الانتفاع من الصحراء. هل لاحظت الصحراء التى على الجانب الآخر من النهر؟ إن علماءنا الآن فى مرحلة التجريب، لكن ما إن ينتهوا حتى يصبح فى الإمكان صنع الطوب من التراب، بذلك لن يضطر صناع الطوب من الاعتداء على الأرض الزراعية الخصبة فى الوادى. لكن هل استطاعوا بالفعل أن يشكلوا طوبا مصنوعا من التراب؟ ليس بعد، لكن هو على ثقة بأنهم سينجحوا، ثم أطنب فى هذا الموضوع بالذات. أخيرا سألنى عما استدعى نقدى وعدم رضائى، ما الذى لاحظته أنه خطأ فى خطأ؟ إذن هم فى حالة يقظة كاملة واهتمام بالغ بكل نقد بناء يُوجه لهم. أجبت بأسلوبى المدهون بقدر كبير من «النبالة» إننا لسنا سوى ضيوف على بلدكم الكريم وليس لنا حق أن ننتقد شيئا، علينا فقط أن نقدم كل آيات الشكر على حسن ضيافتكم. لكنه أصر وبشدة أن أذكر أى أخطاء أكون قد لاحظتها وصادفت عيوننا. أخيرا اقترحت ـ وكلى تردد ـ أننى لاحظت شيئا، ترى كيف أعبر عنه؟ لاحظت بعض المعوقات التى تقف حيال تنفيذ بعض المشروعات، رأيت أيضا كثيرًا من بيوت الفلاحين غير مكتملة البناء، كذلك شاهدت بعض الأراضى الزراعية التى لا تُستخدم الاستخدام الأمثل.

هذا يا سيدى صحيح تماما. هذا ما عبر عنه السيد السكرتير العام، صحيح تماما! إنها مشكلة مزمنة تقابلنا دائما. لعلك يا سيدى قد تقابلت مع أحد من هؤلاء الفلاحين، إنهم ليسوا..ليس كلهم أذكياء. هم دائما يطالبون بأجور مرتفعة من أصحاب الأراضى، وهؤلاء يعجزون عن تلبية هذه المطالب المغالى فيها، لذا أصبح العمل فى الحقول غير اقتصادى بالمرة. هو شخصيا يعرف عددا من الفلاحين الذين عجزوا عن العيش فى مساكن عائلاتهم، واضطروا إلى بناء منازل أصغر. إنها فى الحقيقة مأساة. البعض منهم، كما لاحظت، غير قادر حتى على تكملة بناء هذه البيوت الصغيرة. إذن ما العمل مع هؤلاء الناس؟

لن نأخذ من وقت سيادته أكثر من ذلك، فوقته ثمين للغاية. نهضنا، ونهض هو. لقد كنا، كما نطق سيادته، ضيوفا أعزاء على الحكومة المصرية ذاتها. فى

نفس الوقت، كتعبير عن مدى احترامنا لكم، نتوسل إليكم أن تتقبلوا تلك الهدايا البسيطة كرمز لهذه الصدفة السعيدة. صفق بيديه، فحضر على الفور فراشا. تناول منه السيد السكرتير صورة مرسومة على ورق البردى وقدمها إلى زوجتى، التى ابتسمت وسعدت بهديتها. أما أنا فقد قدم لى، وكلى سرور واغتباط، زهرية من البامبو مرسوم عليها وجه نفرتيتى. قبضنا على هدايانا، ثم استأذنا فى الرحيل.

عاد بنا المينى باص مرة أخرى إلى مركبنا. قررت آن أن تقضى باقى النهار داخل قمرتنا منهمكة فى استكمال بعض من رسوماتها، أم بقيتنا فقد انتوينا أن نرحل إلى مقام المهرطق العظيم أخناتون. داخل المينى باص جلست أنا، ومدير الثقافة، ومدام إكس، وضابط من شرطة السياحة، أيضا شابان من الأدباء وقد حمل كل منهما ورقا وأقلاما. سارت بنا السيارة بجوار بحر يوسف، لكن إلى الجنوب هذه المرة، حتى أقصى حدود محافظة المنيا. أثناء سيرنا، انهمك هذان الشابان فى توجيه الأسئلة لى. لم أكن مرتاحا لهذا الأسلوب، كنت أعتبره وضعا عكسيا فيه نوع من الانتقام! كانت توجهاتى أن أقوم أنا بتوجيه الأسئلة، لكن انقلب الوضع وأصبحت أنا الذى عليه أن يجيب! على أية حال، أجبت على أسئلتهم بشىء من الحيطة، لأننى أجبت على مثيل لها آلاف المرات. أخيرا وصلنا إلى مدينة دير مواس التى تقع على ضفاف النيل. هنا ونحن فى انتظار قدوم العبارة، لاحظت أن واحدة من أمنياتى فى طريقها إلى التحقيق. اقترحوا علىَّ أن أزور منزل "فلاح فقير". أنا فى الحقيقة كنت قد طلبت أن أقابل البشر بينما يرتسم على وجهى بعض مظاهر التقى والورع متحليا بقدر كبير من مشاعر سيكولوجية المحتوى عالية المقدار، لكنى الآن، وقد وجهت بأمنيتى وشيكة التحقق، شعرت على الفور بزيف مشاعرى وارتباك بالغ. لكن لماذا؟

ارتسم على وجه هذا الفلاح وزوجته مسحة من الوقار والحشمة. لقد رحبا بى بطريقة زادت من مقدار قلقى.

قال علاء: «إنهم فقراء جدا. هذا هو الأب وتلك هى الأم وذاك هو ابن ذلك الرجل، أعنى أنه الابن الأخير الذى عليه أن يفلح ويزرع الأرض الآن، أما ابنهم الأكبر فهو يتعلم فى الجامعة».

صالة المعيشة لم يكن لها شكل محدد. هى عبارة عن مسطح غير مسقوف، بينما عدد كبير من عيدان قصب السكر كانت مستندة على الحائط. على مائدة صغيرة استقر واحد من علامات فقرهم المدقع؛ إنه تليفزيون أبيض وأسود معروض فيه وجها يتحدث، أعتقد أنه الرئيس مبارك، يفتح فمه ويقفله بدون صوت. دعتنى العائلة أن أتفحص غرفة نومهم. تحتوى هذه الغرفة على ثلاثة أسرة كبيرة ولا شىء آخر. حسنا، فى أى غرفة للنوم، ما الذى يمكن أن نحتاجه أكثر من ذلك؟ فجأة خطر لى أن أسألهم عن أحفادهم، فهذا الموضوع عموما محبب لهم. لذا تم توضيح الأمور كلها لى. خرجنا بعد ذلك لساحة المنزل لنشاهد شكلا عموديا ضخما ملتصقا بالحائط وسط أكوام من عيدان قصب السكر، هذا الشكل فى نفس حجم الجرار الضخمة التى يمكن أن تشاهدها فى قصر كنوسوس(*)، لكن لا تشبهها فى الشكل. هناك تقابلنا مع الجد الذى لاحظ مدى اهتمامى بما أرى، لذا أمال جسده والتقط بعضًا من الحب من فوهة أسفل صومعة الغلال. فحصت هذه العينات وعلى وجهى مظاهر الوقار وهززت رأسى. صافحت الجميع حولى كذلك الجدة العجوز - التى تقاربنى فى العمر - وهى التى أخجلتنى غاية الخجل عندما فوجئت بها تقبل يدى. ثم وأنا فى قمة الارتياح وجدت نفسى خارج هذا المنزل، متحققا أخيرا مدى صعوبة، بل استحالة أن يكون الإنسان أكثر من سائح حصل على بعض الامتيازات الخاصة، أما هؤلاء الصحفيون الذين يظهرون على شاشة التليفزيون وهم يقدمون لنا آراءهم الموثقة وأفكارهم الراجحة عن حقيقة ما يجرى داخل بيوت الفقراء المتداعية - أقول لهم إنهم يمتلكون جبهات نحاسية باردة لا تفهم. تحركت مبتعدا، بينما يلاحقنى الشابان وأقلامهما مشرعة.

لاحظت أن هناك فلاحا آخر يحاجج علاء بحرارة، فتقدم إلىّ هذا الأخير يقول ضاحكا: "هل تود أن تشاهد مصنعا صغيرا لقصب السكر؟"

لدهشة علاء، وافقت أنا على هذا العرض. نعم هذا ما فعلته! سرنا مرة أخرى وسط تلك البيوت المبنية بالطين وبعض منها تم طلاؤه بالجير، له تلك

(*) عاصمة الحضارة الميناوية فى وسط الساحل الشمالى لجزيرة كريت. (المراجع).

الزوايا المجنونة التى أشرت إليها سابقا، بينما يحيط بنا عدد كبير من الغفار والغبار وروث البهائم الجافة والتبن ومصاصات القصب، وسط جمهرة عظمى من الأولاد الصغار والمعز وأيضا الجاموس. فى فناء مفتوح، شاهدنا ماكينة ذات تروس متقاطعة ولها سيور طويلة، ربما هى تلك التى يدعوها المهندسون باسم "قادوس الطاحونة". كان هناك رجلان يغذيان القادوس بأعواد القصب، فتقوم تلك بالتهامها فورا بعد تهشيمها. قاموا بتقديم قطعة من قصب السكر، لم أعرف ما الذى يمكن أن أفعله بها. رأيت علاء يقشر قطعته ثم يشرع فى مضغها للحصول على عصارتها، كما تفعل الماكينة التى أمامى بالضبط. عود قصب السكر هذا يبلغ فى سمكه حوالى بوصة. أتذكر أننى قرأت فى كتاب للأطفال "لعلها رواية: عائلة روبنسون السويسرية"، كيف أن أفراد العائلة كانوا مسرورين وهم يتلذذون بامتصاص العصير الحلو الكثيف من القصب. لذا تجرأت وأخذت قضمة، كادت أسنانى أن تبرز خارجا. أعواد القصب هذه هى أعواد، أعتقد أنها لا تصلح إلا لأن نتعكز عليها. انتقلنا بعد ذلك إلى فناء آخر شبه مسقوف، هنا كانت الحرارة لا تطاق. أمامنا انتصبت نصف دستة من الدانات الكبرى التى ينبعث منها البخار الكثيف، فتحاتها لا تبتعد عن الأرض سوى عدة بوصات، بينما وقف عدد من الرجال فوقها يحركون ما فيها بمغارف طويلة. كنت أشعر بالنار تشتعل تحت قدمى والأرضية تشع بحرارة تلسع. على جانب، استند عدد من جوالات الجير الحى الذى يستخدم لتنقية هذا العصير. أعطيت ملعقة مليئة بعينة من كل دانة على حدة لأتذوقها، بالطبع جميعها ذات طعم سكرى كثيف، لكن كان هناك اختلاف واضح ما بين العسل الخام قبل التنقية والعسل المنقى. وأنا أتذوق، صنعت مئات من إيماءات الموافقة والتعضيد، وكان العرض الأخير هو أن أتذوق كوبا مملوءًا من العسل وتم تشجيعى لفعل ذلك، بالطبع هذا هو المولاس بعينه. أفادنى علاء بأن المولاس هو المنتج النهائى لهذا المصنع. هو يحفظ فى جرار طينية ثم يرسل إلى مصانع أخرى ليعاد تكريره. هذا المولاس يعتبرونه دواء لكل داء، كأنما هو «الرويال جيلى». أخذت أصفق بكلتا يدىّ محييا هذا المصنع الصغير، كأنما أنا أحد أفراد وفد سوفييتى، آملا أن يكون تصرفى هذا تعبيرا مخلصا عن مدى إعجابى وتقديرى.

خرجنا بعد ذلك تتبعنى معيتى الخالدة ويصاحبنى عدد من الأولاد الصغار الذين لم يفوتهم مشاهدة هذا العرض بأكمله.

ذهبنا إلى موقع رسو المعدية، شعرت بسرور بالغ عندما لاحظت أننى سوف أستخدم فلوكة فى العبور، فدائما ما أشعر بالسرور يغمرنى عندما ابحر من مكان إلى آخر، لأن هذا يُعمق فى إحساسات الإنسان شعورا رائعا ويجعله مدركا ولامسا بشكل مباشر لإحدى قوى الطبيعة البسيطة الجبارة وهى تعمل بلطف وانسيابية، ومهما كان تعبيرك مختلفا، فالمياه الهادئة والجو اللطيف، يصعب وصف تأثيراتهما على الخيال. لذا قررت أن أجلس فى تلك الفلوكة مستمتعا، لكن للأسف، جلس الشابان أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى، استمرا فى تعذيبى بسلسلة من الأسئلة والاستفسارات الأدبية. كان من الصعب علىّ أن أبعد ناظرى عن النيل لأنغمس فى حوار أدبى، لكننى جاهدت أن أفعل كل ما فى إمكانى، إلا أن هذا أيضا لم يكن كافيا فى تقديرى. كنت فى نفس الحين أتمعن فى هذا الموقف غير المرضى وأشعر بالمرارة لأننى تركت بعضًا من الفلاحين فى مصنعهم الصغير يصرخون لأننى قاطعت عملهم، وهاأنذا أمثل الآن دور الكاتب المشهور وأنا أجالس فى منتصف النيل، وعلىّ أن أعطى آرائى وتحليلاتى وأن أقيم أعمال زملائى الأدباء المعاصرين. كان بالفعل موقفا صعبا، متعبا لكنه أيضا طريف.

عبر النيل، تستقر أخيتاتن على الجانب الشرقى للنيل. هنا عاش لفترة الفرعون المهرطق أخناتون، ذاك الذى تجاسر ونفض عن قدميه غبار الإله آمون. المكان هو سهل وحدوده هى جرف صحراوى أصفر نحاسى على هيئة قوس، يبدو النيل عنده كأنه سهم مشرع داخل قوس. عندما تكون قريبا من النهر، لا تشاهد سوى الخضرة الطاغية التى قوامها النخيل وكافة المحصولات الزراعية الأخرى. وقفت مكانى شاعرا بالأسى لذاك اليوم الذى هرب من يدىّ، فقد تعرضت لخبرات جديدة عندما زرت المصنع الصغير لقصب السكر، ثم عقدت فصلا دراسيا أصبح ملازما لى فى كل خطوة، أخيرا ها هى أخيتاتن، صعب علىّ أن أضع كل هذا تحت قبعة واحدة، كما يقولون. هجرنا القارب وتسلقنا الشاطئ

وتتبعنا قناة جافة متجهين إلى مقصدنا. بجوار بعض المنازل القليلة، وجدنا العربة التى سوف تقلنا، إنها مقطورة يجرها جرار زراعى. صعدت وصعدت مجموعتنا وتحرك الجرار بسرعة ستة أميال فى الساعة. مررنا بمنطقة خالية تماما من المنازل، ثم وقع بصرنا على ذلك السهل المجدب. فى الحقيقة، يبدو أن إلهًا من آلهة الأقدمين قد دمر هذا المكان! فداخل هذه الأميال المربعة، لا تصادف أبدًا اللون الأخضر، التغيير الوحيد الذى يمكن أن تلاحظه هو لون التراب الأبيض المصفر الذى يتقاطع مع تلك الصخور البنية الصفراء أيضا. على بعد أميال قليلة من تلك الصحراء الموحشة يوجد هذا الجرف الذى يرشد إليه طريق غير معبد. ابتداء من منتصف هذا الطريق الصاعد تنظر إلى مجموعة من الحفر المنحوتة السوداء المربعة الشكل. هذا الطريق الذى سرنا فيه كان خشنا للغاية، حتى أن الجرار كان يعانى بشدة وهو يسير جاهدا فيه، أعتقد أنه لا يمكن لأى سيارة أن تطرق هذا الطريق، بل حتى السيارة ذات الدفع الرباعى سوف تظل معظم وقتها طائرة فى الهواء لمسافة عدة بوصات ما بين الهبدة والأخرى. الضوضاء كانت مزعجة للغاية، أجسادنا ترتفع ست بوصات ثم تنحط بعنف على المقاعد الخشبية، بينما الأسئلة ما زالت تتوالى علىّ. فى إحدى رحلاتى وأنا معلق فى الهواء سمعت سؤالا يقول: "ما رأيك فى الكاتبة فرجينيا وولف؟"، بالطبع كان هذا أكثر بمراحل من قوة احتمالى. انفجرت فى سلسلة الضحكات الهستيرية، وحاولت أن أنطق لكنى لم أستطع. شىء رهيب أن يكون الإنسان عبارة عن هباءة تافهة! بصراحة، أعترف بأنها لم تكن مقابلة صحفية ناجحة، إلا أنها لم تكن كلها بسببى. توقف الجرار أخيرا على بعد ميلين من قاعدة الجرف. كان من السهل أن يختلط الأمر علىّ وأظن أننى مازلت فى بنى حسن التى زرتها بالأمس. فالمكان له نفس صفات الطريق الصاعد بدرجاته الحميرية والمقاعد الحجرية التى يستريح عليها التعبان أو المهزوم، وتقريبا هى نفس الفتحات السوداء المربعة التى نشاهدها أعلى المكان.

مرة أخرى شرحت لنا مدام إكس ونحن نستمع بينما تتحرك رءوسنا أعلى وأسفل تفهما لما تقوله. مع ذلك، هنا شىء قيم يمكن أن نشاهده. أنتم بالطبع

تعلمون قصة أخناتون وذاك الصراع الذى نشب بين إلهين ـ آمون وآتون- وكيف حاول أخناتون المهرطق أن يحبب شعبه بالقوة بعبادة قرص الشمس، لكن بعد وفاته، استطاعت قوة آمون أن تفوز وتنتصر مرة أخرى، ومثلا، أصبح توت عنخ آتون هو توت عنخ آمون. كل هذا معروف وكتب عنه فى مئات القصص والروايات والكتب التاريخية، حيث وصف أخناتون بأنه هو أول فرد فى التاريخ يؤمن بإله واحد. لكنى فى الواقع لا أعلم من أول من أطلق عليه هذه الصفة. لقد أصبح هذا الرجل هو أحب الشخصيات التى يتناولها الكتاب فى أعمالهم ذات الصبغة التاريخية، فطغى بذلك على قصة موسى فى مصر والفرعون الذى عاصره أثناء ملحمة الخروج من مصر.

لكنك وأنت هنا، تستطيع أن تشاهد بعينيك مدى العواطف المحتدمة التى انطلقت وعبرت عن نفسها فى ذلك الصراع القديم، ترى الأحداث حية أمامك كأنما هى قد حدثت بالأمس. فقد حرص كهنة آمون على محو كل ذكر لأخناتون على المنحوتات وشاركه هذا المصير زوجته المسكينة نفرتيتى التى نرى رأسها فى كل مكان. تستطيع أن تحس بالمطرقة والإزميل وهما يعملان بهمة ونشاط كأنهما فى يديك. لقد فرغوا تماما شكل هذه الأجساد غريبة البنيان وتابعوا حدود الشكل بالمحو بكل دقة وإتقان وبحرص بالغ حتى أن الإزميل وصل بالفعل إلى قلب الحجر الصخرى الخلفى. هكذا هم أزالوا تلك المنحوتات التى كان مصيرها بالطبع الزوال مع مرور الوقت والأزمان. هنا وهناك، أعلى أو أسفل، ربما يكونون قد نسوا محو يد أو شعاع شمس منبثق من قرص الشمس، من أشعته تلك التى تهب الحياة.

أعلم أنه صدر خلال السنوات القليلة الماضية عدة اتجاهات مضادة لأخناتون، أو لعلها إعادة تقييم. كان أول الموحدين، صوفيًا وعبقريًا دينيًا، أما الآن فهناك قول منتشر يؤكد أنه كان دكتاتورا، فكرته عن الإله مادية بحتة وتنحصر فى قرص الشمس فقط، وقيل أيضا إنه قد أله نفسه، وهذا لا يدعو للعجب لأن هذا الوضع كان هو السائد بالنسبة لكل الفراعين، وأنه أعلن بأنه لن يستطيع أى إنسان أن يتقرب للإله آتون دون تدخله ووساطته. لكنى أعلم أيضا أنه فى العام

الماضى، تم اكتشاف نص ترجم وفيه إشارات واضحة عن الحقائق الروحية التى تختبئ تحت المظاهر المادية. هذا سوف يضع أخناتون مرة أخرى فى الصف كمفكر دينى من الطراز الأول، وصوفى متدين أكثر من كونه رجل سياسة. مع ذلك، نعلم أن علماء الآثار يحرصون على عرض أنصاف الحقائق، ولا أعتقد أن نصا مفردا بقادر على أن يجيب بدقة على مسالة معقدة ومتشعبة. كانت تحدونى رغبة ملحة فى أن تحدث مواجهة مع مكتشف النص عندما أقابله فى الأقصر.

استمرت مدام إكس فى إلقاء محاضرتها وقد التفت مجموعتنا حولها. كنت مستغرقا فى التفكير فى آتون وآمون، وقررت أننى أعلم القليل عنهما حتى أفاضل بينهما. رفعت فجأة عينى نحو الظلال التى تكتنف سقف المكان. كانت الأيادى الفضلى، مانحة الحياة ممتدة إلى أسفل، معبرة عن ذلك الخير العميم، حتى الشعاعات المفردة كانت إلى أعلى أو تهبط إلى أسفل ممتدة بالأيادى لتصل إلى مصدرها؛ لكن أحدهم وبدقة بالغة محا قرص الشمس تماما.

أصيبت الشمس بالعمى.

بالطبع يمكن لك القول، إذا حرصت على تجزيء المسائل، بأن الشمس ليست هى بشكل دائم مصدر الخير لمصر، حيث يجب أن يتجنبها الفرد تماما فى فصول معينة، هى أحيانا تشجع على نشر بعض الآفات، لكن على الرغم من ذلك، يعلم المصرى أن الشمس هى مصدر الخير والنماء والحياة. إذا ابتلى شخص بالمرض أو الموت أو فقد البصر، حسنا، ما الذى تتوقعه من الإله ما بين الحين والآخر؟ أليس من يصاب أو يتعرض لسوء إنما يحدث هذا له بإرادة الله؟ ألم يحدث مرة أن جفت شجرة تين لأنها لم تثمر، أو أن رجلا حاول أن يسند تابوت العهد خوفا عليه من الوقوع، فوقع ميتا فى الحال كما ورد فى الكتاب المقدس؟ لكن هنا، تجرأ إزميل آثم أن يحفر عميقا داخل قلب الحياة ذاتها، وبشكل ما أعطى قرص الشمس الممحو بقوة أن يخرس كل نقاش وينهى ذلك الصراع الذى نشب ما بين آتون وآمون. هو فعل يوضح جليا مدى التعصب والكفر والنوايا السوداء القاتمة، كأن كهنة آمون قدموا ليتعبدوا لقرص شمس مظلم.

خرجنا ومشينا كصحبة ندق أرجلنا فوق العتبات الحميرية متجهين إلى مقطورتنا العتيدة مرة أخرى، تاركين خلفنا أخيتاتن المهجورة، متجهين إلى القرية المجاورة للنيل. كنت أنتوى وأتمنى أن أسير قليلا فى الاتجاه الجنوبى المجاور للشاطئ، وهو مكان الطريق الملكى الذى طالما سلكه أخناتون وفى صحبته الملكة وبناتها الصغار يمشون فى عربتهم الملكية متمتعين بأطايب الحياة، متنسمين ما تحفل به من حب وخير، لكنى لاحظت أن جماعتنا مقبلة على رحلة العودة، وعلمت أنه من المستحيل أن أطلب منهم أن يسيروا معى أو ينتظروننى حتى أعود. عبرنا نهر النيل مرة أخرى، وما زالت الأسئلة تنهال على رأسى، فأجبت عنها بقدر إمكانى. سمعت اقتراحا أن ينعقد مؤتمر يحضره عدد من الكتاب ويأتون إلى المنيا، لكنى اعتذرت عن ذلك لأن الموعد كان بعيدا ولا يناسب خططى.

توقفنا بعيدا عن المنيا أمام مصنع كبير لصناعة السكر من القصب، وقد استطاع مدير المصنع أن يتخطى عقبات عظمى حتى يسمح لنا بدخول المصنع، واضطر أن يوقع على عدد كبير من الأوراق من أجل ذلك. دخلنا أولا إلى غرفة الاجتماعات، كانت خالية تماما إلا من جهاز ضخم للتليفزيون يظهر فيه شخص يحاور مجهولين، ثم ظهر شاب أجلسنا وجلس هو وبدأ فى سرد بعض الإحصائيات. تنتج مصر مليون طن من السكر وهناك عدد كذا وكذا من العاملين فى هذا المصنع الذى تمتلكه الحكومة. خلف رأس المتحدث، لاحظت أن البرنامج المعروض فى التليفزيون قد تغير، كان عبارة عن محاضرة يلقيها طبيب للعيون. حاولت أن أبعد نظرى عنه، لكن هذا بدا أمرا مستحيلا. استمر هذا الشاب فى عرض أرقامه، إلى أن اكتشف أن هناك من ينافسه، لذا خفض من صوت التليفزيون واسترسل فى سرد إحصائياته ومعلوماته. خلف كتفه ظهرت صور مجموعة من العيون المصابة بأقسى الأمراض والتكوينات. بعد فترة، وقفنا جميعا وقادنا هذا الشاب إلى مكان آخر بينما ما زالت العيون المريضة تتوالى على شاشة التليفزيون.

يغطى هذا المصنع مساحة عدة أفدنة، وبدلا من قادوس الطاحونة الذى شاهدته مطلع اليوم فى أبو قرقاص، هنا رأيت أمامى حوضا كبيرا، تتقدم

السيارة المحملة بأعواد القصب ثم تلقى بحملها داخل هذا الحوض، ثم بكل أناقة يميل صندوق السيارة فيلقى بكل حمله فى هذا الحوض. فى الحال تتعرض هذه الأعواد إلى التهشيم مصدرة صوتا عظيما تحس به كأنما الديناصورات قد اجتمعت فى حفل للغذاء. تدخل هذه الأعواد المهشمة بين عدة تروس معقدة التكوين ينبعث منها حرارة فظيعة وبخار كثيف مع ضوضاء وخشخشة وسحق. سرنا بعد ذلك صاعدين فوق ممر شبكى من المعدن متتبعين قائدنا وسط الدانات والمراجل والأنابيب الضخمة الملتوية. كانت درجة الرطوبة تتجاوز المائة درجة. هناك، وبالصياح العالى، تم استدعاء شاب آخر، اتضح أنه هو مهندس المصنع. كل الخطوط فى وجهه تشى بالحماس، عاطفة محتدمة، استغراق كامل فيما يفعله يؤثر فيه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. عينه لا ترمش أبداً ، نظراته ثابتة ومركزة أمامه نحو حقيقة واحدة وحيدة، هى عمله. خطرت كل هذه التصورات عند مقابلتى الأولى له، مدركا أن هناك قبسًا من روح أخناتون قد استقر هنا. هذا الشاب لا يرمش أبدًا. قبض على يدى وساقنى سوقا أمامه لأتعرف على نظام العمل وأشاهد أدق تفاصيله، مخترعا لغة إنجليزية جديدة على مسامعى أتمعن فيها أثناء قيامه بالشرح لى. هنا يفور العصير عندما نضيف إليه هذا، ينتج عن ذلك أنه يبتعد عن ذلك، العصير لا يتأثر أبدًا بالبخار، وأنه يتوجب علىّ أن أفحص هذا المقياس بدقة، فهو عندما يتحرك من درجة كذا إلى كذا يحدث كذا، وهنا فى هذا المكان يضاف الجير (هيروكسيد الكالسيوم). كان موقفا غريبا ومؤثرا فى نفس الوقت. استوعبت شرحه وانفعاله بعد لأى، فقد بدا لى من الوهلة الأولى أن تصرفه عامة غير معقول. لقد استوعب داخل كيانه كل ما هو ميكانيكى مع كل دقائق العمل، بحيث إنه ابتلع المصنع وتوحد معه فى كيان واحد داخل مرجل داخلى من عواطف محتدمة لها مسار واحد وحيد. إنه ليس مهندسا، هو مجموعة من آلات التكرير. سحبنى إلى مواقع البخار، والأدنان التى يفور ويبقبق فيها العصير، واحدة منها يصدر منها بليب بليب، والأخرى بلوب بلوب، ثم بعدها دفعنى لأشاهد عملية التبريد واشاهد المبردات، أخيرا أوقفنى أمام بعض الطبول المتحركة التى يتساقط منها حبيبات السكر الكريستالية، ثم

أدخل يده فى جوال وأخرج بعضًا من السكر الذى صبغ جسمه كله بلون أبيض زاهٍ متلألئ:

«انظر. خذ. كل»

بعد ذلك، قدمنا الشكر وسرنا وسط جوالات السكر، آلات وغلايات قديمة مهجورة، أشكال معدنية لا نعلم طبيعة عملها، ضوضاء وحرارة تتناقص حدتها تدريجيا، إلى أن خرجنا من نطاق الضوء الصناعى للمصنع إلى النور الحقيقى.

أنا، الآن كنت فى منتهى الإرهاق ومرحبا بأن أشاهد المينى باص مرة أخرى، لكن يبدو أن اليوم لم ينته بعد. رأيت على الشاطئ الآخر رجلا يستخدم الشادوف، وهى تلك الآلة البدائية ذات التوازن العكسى ويتم بها رفع الماء إلى الحقول. هى تكاد أن تختفى تماما بعد شيوع استخدام الطلمبات الميكانيكية التى تعمل بالديزل. شادوف يعمل على بحر يوسف!.

شاهدت على الجانب الآخر خطًا ضيقًا لسكة حديد المصنع، كان يجر وراءه عربات مكدسة بأعواد قصب السكر وتصل حتى قمم هذه العربات، رأيت بعض الأولاد يسابقون القطار ويسحبون من أعواد القصب. توقف المينى باص، فلاحظت أن كل مرافقى قد هبطوا ليسحبوا ما يشاءون من أعواد القصب، بالطبع لم أشاركهم بل اقتصر دورى على التقاط صورة لهم، لكن للأسف، لم يعمل زر آلة التصوير. لكن أكثر الأشخاص سرورا لما يحدث لقطار العيدان كان هو سائق القطار نفسه.

أخيرا وصلنا إلى مركبنا. شكرت كل مجموعتى وشكرت أيضا ذلك الشاب الذى أعتقد أنه قد ملأ كراسته عن آخرها. توجهت إلى قمرتنا، لاحظت أن زوجتى لم تسعد تماما بما كانت منهمكة فى رسمه. كان لدىّ الكثير لأسجله فى يومياتى، لقد بذلت جهدا جبارا هذا اليوم، فإلى جانب الظواهر ـ سكرتير عام المحافظة، الفلاح «الفقير»، أخناتون، مهندس المصنع ـ لم يكن أى شىء سعيت لعمله بنفسى لم يستحق عناء الجهد.

(٦)

لم أسمع صوت الأذان، لكنى استيقظت على صوت موتور مركبنا الذى نشط الساعة الخامسة والنصف صباحا. ما إن ارتديت ملابسى، حتى كنا قد غادرنا المنيا مسرعين. لاحظت أن سرعتنا قد زادت بقدر محسوس بفضل بركات طلمبة المياه المستصلحة. أخيرا اقتنع رشدى وعلم أنه لكى يستحق لقب طباخ، فعليه أن يلتزم بمواعيد تقديم الطعام بقدر الإمكان، لذا أحضر لنا إفطارا أصيلا الساعة السابعة والنصف مكونا من العيش والجبن والمياه المعدنية. طلبت منه أن أشرب القهوة مستخدما لغتى العربية المكسرة، وحصلت عليها فعلا ما بين الساعة الثامنة حتى التاسعة. ما كدت أن أنتهى منها وأنا أراقب النيل من نافذتى، حتى فوجئت أنه يلاحقنا ذيلا طويلا من الدخان الكثيف. الخاطر الأول الذى بدر إلى ذهنى هو أننا قد اقتنينا بمركبنا مطبخًا عائما نعد فيه طعامنا. لكن بإمعان الفكر أدركت أن هذا التصور السابق دائما ما يتشكل فى ذهن الإنسان عندما يكون فى عرض البحر أو النهر أو حتى الترعة، إلا أنه دائما ما يكون استنتاجا خاطئا، فالمشكلة دائما ما تكون فى قلب القارب الذى يستقله الفرد. لكن هذا القارب - وقد حرصوا على تنبيهى لذلك - ليس تحت إمرتى إطلاقا. إذن هناك شىء ما يحدث، دعنا نر... صعدت إلى السطح، نعم بالتأكيد، هناك ذيل من الدخان الكثيف ينبعث من مركبنا ويخفى تقريبا كل معالم ضواحى المنيا. أشرت إلى شاذلى الواقف فى غرفة القيادة الزجاجية، فهز رأسه مبتسما. نحن نسير بسرعة غير عادية، ربما تصل إلى ثلاثة أرباع الإحدى عشرة عقدة التى وعدنا بها. لوحت بيدى مستفسرا للمهندس أحمد، لكن هذا اكتفى بهز كتفيه مشيرا

بيده إلى أعلى. ما الذى يعنيه بذلك؟ هل هو يشير ناحية شاذلى أم هو يشكو لله سبحانه، أم للجهتين؟ أدرت رأسى منزعجا أراقب هذا الدخان، لكن ما إن فعلت ذلك، حتى برز من النطاق الكثيف للدخان لنش يتبع شرطة المسطحات المائية يطاردنا. شتمت شاذلى فى سرى واصفا إياه بأنه غبى، ظنًا منى أننا ربما نكون قد خالفنا إحدى القوانين البحرية بسبب هذا الدخان، وبينما أبحث فى مخيلتى عن شتائم أخرى تليق بقائدنا، تحول تأزمى وتوترى إلى موجة من عدم التصديق والإنكار. رأيت سيد النوبى داخل لنش البوليس يلوح بعدد من المنافض.

خفض شاذلى من سرعة المركب قليلا، فتمكن اللنش من محاذاتنا واستطاع رشدى وأحمد أن يلتقطا سيد الذى كان يرتعش من البرد. بعد ذلك استطاع الشرطيان البحريان أن يربطا اللنش الدائر فى مركبنا وقفزا كلاهما عندنا. ظهر علاء، فحصلت على تفسير كامل للأحداث. لقد تم تكليف سيد بشراء عدد من المنافض، لكن يبدو أنه تاه فى مجاهل المنيا، لذا عندما وصل إلى نقطة البوليس كنا نحن قد غادرنا. بإيمان راسخ بقدر وأهمية هؤلاء الناس الذين تشرفوا بمقابلة سكرتير عام المحافظة وعادوا سالمين غانمين، استطاع هو أن يجند اللنش الحكومى لمصلحتنا وقام بمطاردتنا. لكن لأن هذا اللنش من النوع المفتوح تماما، كاد أن يتعرض هو والشرطيان إلى التجمد فى جو الصباح القارص البرد، لذا أشار علاء أن يتوجهوا إلى أسفل حتى يتمتعوا بالدفء. فى الحقيقة، كل الأمور سارت حسنا إلا بالنسبة لفاروز. حسنا، لكن ما الذى حدث لفاروز؟ لقد كُلف المسكين أن يبحث عن صديقه سيد فى أسواق المنيا، وفاته بالطبع اللحاق بنا، لكن من المتوقع أن يلحق بنا فى مرحلة أخرى من رحلتنا. لكن، وهذا ما صرح به علاء، ليس هناك أى داع للقلق. بقوله هذا، هبط إلى أسفل ليطلع على أحوال سيد والجنديين ويتأكد أنهما قد حصلوا على الدفء اللازم والمشهيات أيضا. ظللت وقتا فوق السطح أحاول جاهدا أن أقنع نفسى بأن هذه الأمور جميعا من الممكن أن تحدث مع أى إنسان على وجه الأرض. انشغلت بعد ذلك فى تفحص مسارنا. تحت آثار الدخان الذى بدأ ينطلق مجددا، كان شاذلى مسرعا بمركبنا، ليست بالسرعة القصوى بالطبع، مراعيا سرعة اللنش المرتبط بنا.

اكتشفت أخيرا سر سرعته الأولى عندما لاحظ لنش الحكومة يطارده، لعله حينئذ قرر أن يكفر عن خطاياه وخطايانا وخطايا الطاقم كله وأن يهرب بعيدا. تلذذت بهذه الفكرة وأخذت أتمعن فيها.

مررنا بشيء غريب يتخبط فى الماء ويتحرك هنا وهناك بفعل الموج الذى يصدر من مقدمة مركبنا. فكرت، «إنه ليس سمكة ميتة»، لكن أغرب ما فى الموضوع هو أن هذا الشيء له أربعة أقدام، شيء مذهل، هل صادف إنسان من قبل سمكة بأربعة أقدام؟

هبطت إلى أسفل القارب، لاحظت أن الثلاثة المتجمدين قد أسعفوا وفى أفضل حال الآن، اثنان منهما قفزا إلى اللنش الحكومى وابتعدا عنا. هنأت سيد على تفكيره السديد، ثم عدت إلى كابينتى شاعرا بالبرد يخترق جسدى وأخذت أتأمل العالم من خلال نافذتى الواسعة. فعلا، حصلت للتو على تكريم بالغ بمشاهدتى لمنظرين متتاليين. الأول عندما اقتربنا من قرية الروضة. انشرح قلبى وأنا أراقب فلوكة صغيرة بشراع واحد تجر وراءها مركبا شراعيا ضخما بعدد من الأشرعة خضراء اللون. إذن فهذا الذى أراه أمامى هو موضوع يختص بالإبحار والقطر! تدفقت الرؤى والأخيلة مسترجعا فى ذهنى مدى قوة إيمانى بالطبيعة وأفعالها العجيبة فى مساعدتنا. المنظر الثانى كان عند قرية الروضة ذاتها (حيث وضعت أحجار بيضاء تعمل كحواجز، إلا أن البعض منها كان منهارا) ويتخللها عدد كبير من الأشجار. هى أشجار ضخمة منتشرة على مدى ميل أو أكثر. كانت هذه الأشجار تحفل بالطيور التى تدعى باسم "صديقة الفلاح" وهى تعشش فى هذه الأشجار. ذكرتنى هذه الطيور على الفور بالببغاوات الصفراء التى طالما شاهدتها وأنا فى أستراليا. أخذت أفكر فى هذه الأشجار، أعتقد أنها أشجار الجميز التى يشتهر بها الصعيد، أو لعل عينىّ قد خدعتانى. لكن بمشاعر مرهفة تتفوق على مشاعر الببغاوات، قررت أن أراجع تصوراتى وتشبيهاتى، انتهيت إلى أن طيور أبيس (أبو قردان) هذه تشبه أزهار المانوليا البيضاء الجميلة.

كان المشهدان كلاهما سببًا فى اعتدال مزاجينا أنا وزوجتى حتى بقية اليوم. كنت قادرا أن أصف لها كل دقائق زيارتى للمقابر الفرعونية التى شاهدتها خلال

اليومين السابقين. وصفت لها تلك الفتحات المربعة المحفورة فى منتصف هضاب الصحراء الشرقية. لكن ما إن وصلنا إلى حدود منطقة أخيتاتن ـ أظن اسمها تل العمارنة ـ حتى لاحظت أن الجرف قد اقترب كثيرًا من النهر وانتشر صانعا أشكالا جيولوجية مختلفة الأشكال والألوان، بعضها ذات لون طحينى، الأخرى بلون أصفر أو بنى خفيف، بينما هناك زراعات قليلة لا زالت صامدة على الشاطئ الشرقى تحت هذه الهضاب. فى الحقيقة، لمحنا فقط الأجزاء الأخيرة من منطقة أخيتاتن (التقطنا صورا حقيقية وليست خيالية). لاحظنا هنا وهناك وجود تلك الفتحات السوداء المنحوتة داخل الجبل، البعض منها مربع الشكل، مثل تلك التى شاهدناها فى بنى حسن وتل العمارنة، البعض الآخر يصعب تحديد شكله، عبارة عن فتحة كهف، ربما يشغلها بعض المتعبدين أو مليئة بالجثث أو كليهما، هى مداخل تصلح لجميع الأغراض، لعلها أيضا ملاجئ لبعض الهاربين، من يعلم؟ بالطبع كلها معروفة الغرض، وهناك من يدرى بذلك، ويمكن لك أن تعرف وظيفة أى منها إذا توفر لك مزيد من الوقت والصبر. على أية حال، هى مجموعة من الألغاز تتكون من حفر مربعة، ومستديرة، وجانبية وأحيانا تشاهد هنا وهناك نقاطًا سوداء كأنما هى أعشاش طائر السنونو، أحيانا ترى طريقا منحوتا فى الجبل يؤدى إلى مدخل حفرة سوداء.

ازدانت السماء بزرقة عجيبة فوق هذه الهضاب، أما الجانب الآخر من النيل فهو عبارة عن بساط من المزروعات يانعة الخضرة، أما ملامح الصحراء الغربية فهى غائبة دائما عن الوجود. فى الحقيقة، منذ غادرنا القاهرة، ركز فى أذهاننا أن هذه الخضرة ممتدة إلى ما لا نهاية، أو على الأقل حتى حدود المحيط الهادى. أما مياه النيل فى هذه المنطقة، فهى ذات لون أخضر مصفر مع بعض من اللون الأزرق المنعكس، ودائما ما نرى مجموعات ورد النيل الخضراء فى رحلتها الأبدية إلى الشمال.

شرقا، بدأت بعض المزروعات تظهر مرة أخرى، وكل حوالى مائة ياردة تشاهد فلوكة راسية على الشاطئ، وهى ذات شكل مختلف، صغيرة الحجم ذات بناء خفيف، تشعر كأنما هى قدت من جلد مصبوب فوق قائمة مستوية وقليل من

الأخشاب. مرة أخرى، وقعت أنظارى على مجموعة من تلك الأكواخ الخرافية ذات الزوايا العجيبة، وعلى جانب استقر كوخ خشبى شكله عجيب. رأيت أيضا فلاحة أمامها قاعدة من ثلاثة أعواد خشبية متحدة الرأس معلق بها قربة من جلد الماعز تخض فيه اللبن لتصنع منه الزبد، كانت تعمل بكل جد ونشاط جيئة وذهابا. هنا وهناك تناثرت بعض المنازل المتميزة، أعتقد أن كلاً منها تحتوى على طلمبة مياه يدوية لأنها بعيدة عن النهر.

فجأة، زعق موتور مركبنا بأكثر من المعتاد، أخذت أحدق ورائى، فعلا لقد ازداد حجم ذيل دخاننا، أصبح كثيفا ومغرقا فى اللون الأسود، اندفعت خارجا، عثرت على علاء الذى بادرنى بالقول:

«إذن فقد رجعت مرة أخرى للتخطيط، استرح قليلا، أنت تعلم أنه ليس بمركبك»»

«هو أيضا ليس مركب شاذلى!»

لم نستمر طويلا فى النقاش، طالما لا يمكن أن يحدث نوع من الإقناع المادى، كذلك ليس هناك وسيلة لوقف شاذلى عن التصرف فى إدارة القارب بالطريقة التى يهواها، فكرت فى ابتكار جملة تصلح أن تكون من الأقوال المأثورة وهى: وراء الطباع اللطيفة التى تميز الإنسان المصرى، هناك عزم لا يلين وتصميم قاطع على أن لا تحاول مطلقا أن تحوله عن أسلوبه المتهاون المعتاد. وهكذا.

بجوار ملوى، شاهدنا رجلا غاطسا فى الماء حتى ركبتيه يلوح لنا بقميصه المخلوع. إنه فاروز. التقطناه، علمنا أنه كان ينتظرنا منذ عدة ساعات بعدما كان قد استقل تاكسى من المنيا. الساعة الآن الخامسة مساء، بعدما سرنا مسافة ميل واحد، اقتربنا من الشاطئ الغربى مرة أخرى وحاذينا فوجا من المراكب والقوارب. نحن الآن فى المنطقة المشهور عنها أنها تحفل بالقراصنة. لاحظت أن طاقمنا قد تسرب واحدا بعد الآخر متخطين المراكب الراسية حتى يصلوا الشاطئ. اكتشفنا أن رصيدنا من ماء الشرب قد نفد. على أية حال، لن يُتاح لنا أبدًا أن نتمتع بحمام كامل، فدائما لدينا ما يكفى بالكاد. شرحوا لنا بعد ذلك أنهم كانوا يبحثون

فقط عن مياه للشرب، أما نحن ذوو الأجساد الواهنة الرقيقة فقد اكتفينا بالمياه المعدنية المحفوظة داخل زجاجات من البلاستيك.

حل الليل، شعرت به وقد هجم علينا واقتحمنا. صنع لنا رشدى القهوة فاحتسيناها؛ أخبرنا أنه أحضر لنا ماءً نقيا أحضره من مكان ما على الشاطئ، ثم بعد تفكير، أضاف «عندما يغلى الإنسان الماء، فإنه يقتل فى الحال كل شيء!»

لعل هذا الشيء يكون سمكة أو ضفدع، لكنه ليس تمساحا بالتأكيد.

حضر إلينا علاء ممسكا بفنجان قهوته ليحتسيها بصحبتنا، أخبرنا بأن سيد سوف يقضى وقتا مع أهله عندما نذهب إلى أسوان.

«لكن نحن لن نصل حتى أسوان يا علاء، أنت تعلم ذلك، سوف نكون محظوظين لو وصلنا حتى الأقصر بهذا القارب الغلبان».

«حسنا، هذا سوف يناسب فاروز»

«لماذا؟»

«بلدته تقع بالقرب من الأقصر».

«ماذا عن شاذلى؟»

«إنه من قنا...»

«أى أنها فى طريقنا إلى الأقصر. ماذا عن أحمد؟»

«هو أيضا مولود فى قرية صغيرة على بعد بسيط من هنا على الجانب الشرقى».

ألا ترى معى أن المصريين بارعون جدا فى التخطيط، كلهم هكذا، ابتداء من الدكتور حمدى حتى أصغرهم، هم يحرصون على قتل عدة عصافير بحجر واحد.

فجأة سمعت صوت موتور مركبنا يزعق ونحن وقت الغسق.

«ما الذى حدث؟»

«لا أعلم»

اتضح أن شاذلى يناور بالمركب لكى يهجر موقعه الحالى ويسير ليقف محاذيا لصندل ضخم مملوء بعيدان القصب التى تصل فى ارتفاعها حتى أعلى مكان فى مركبنا. تذكرت فى التو كيف أن الجميع اندفعوا ليحصلوا على قصب القطار، الآن هو ذا القصب فى متناول اليد وبلا عناء، لكن لا أحد اهتم بذلك. انهمكت أنا فى تدوين يومياتى على ضوء فرجة صغيرة، فكرت، لا يهم، إذا كانت تلك هى المشكلة الوحيدة، فكم من أعمال خالدة ظهرت للوجود وكتبت على ضوء الشموع.

المكان الذى وقفنا فيه ليس له اسم محدد، لعل هذه الصنادل جميعا التى استنامت هنا بجوار بعضها بعضًا، قد فعلوا ذلك ليتجنبوا القراصنة واللصوص. على أية حال، قيل إنه فى المياه الصينية يقوم رجال البحر ببيع سلسلة المرساة لك عند المؤخرة، بينما هم يقايضون عليها عند المقدمة. إنها مهنة خالدة تتسم بالشرف والكلمة الواحدة، لذا ربما يكون "قراصنة النيل" لهم ذات الأخلاق هذه أيضا.

نمت فى سريرى مرعوبا، ليس من القراصنة، لكن بسبب البرد. لقد اعتدت أنا وزوجتى أن نستلقى على أسرتنا وفوقنا كومة من الملابس. فى الفجر، ارتديت ملابسى وأخذت أحملق خلال نافذتى، لاحظت أننا نتحرك فعلا مبتعدين عن صحبتنا الجليلة نشق طريقنا إلى الأمام، كان هناك أكوام هائلة من ورد النيل قادمة نحونا، بينما الهضاب الجبلية واضحة المعالم على الجانب الشرقى. على ضوء الشمس البرتقالى، لاحظت أن الجو ملبد بالغبار أو الدخان المعلق فى فضاء السماء، لا أعتقد أن طبيعة ما أراه مصدره مائى، لكن لم الغبار؟ الآن طلعت الشمس وبدأت المناظر تتوالى على الهضاب وتضنع معى بعضًا من لعبة الضوء والظلال وتخلق أشكالا مختلفة من التكوينات على الصخور. كانت هناك وجوه رجال وحيوانات تتغير فى التو إلى شكل مدن وأشجار تتهاوى. تخيلت شكل شخص راقدًا مسندا رأسه على عدد من الوسائد، ما إن سرنا قليلا حتى سقط وجه النائم وأصبح عبارة عن قبضة يد مطبقة، ثم اختفت نهائيا. تلألأت الشمس الآن وانهمكت فى صنع تشبيهات على الصخور تتوافق مع ما تفعله دائما من

الصور. أوه، نعم، كان محور قرص الشمس من الرسومات القديمة أمرًا مروعًا حقًا.

اقترينا كثيرًا من الشاطئ الغربى الذى يتفجر بالخصب والنماء، لكن تيار الماء الذى كان يجرى بجوار الشاطئ كان هادرا. هناك عدد من التحدبات والثنيات عند الشاطئ ذات تكوينات من الحجر الجيرى، يدور داخلها كميات كبيرة من ورد النيل. أرسل لنا الريس شاذلى إشارة يعلمنا فيها أننا الآن داخل نطاق القرية المشهورة بالقرصنة، لكن وضح لى أن هذه القرية تبدو وكأنها خالية من السكان. لم أشاهد سوى قارب صغير ملقى على الشاطئ الطينى.

صعدنا إلى سطح المركب لكى نشاهد قناطر أسيوط وهى تمر بنا، كان منظرا جديرا بالمشاهدة. هذه القناطر عبارة عن طريق ممتد عبر النيل، رص تحته مائة بوابة. فى نهاية القناطر، استقر ونش هائل متحرك. هذه الآلة يبلغ ارتفاعها عمارة من أربعة طوابق. فى الطابق الأول، جثمت عند مستوى سطح الطريق فتحة تكفى لمرور لورى ضخم. هذه الآلة الضخمة تتحرك على قضبان للسكك الحديدية ممتدة فى الجهتين وتبدأ من أول القناطر حتى آخرها، بذلك يستطيع هذا التكوين الرهيب، أن يتحرك من فتحة بوابة إلى أخرى، بحيث يستطيع أن يفتح أو يقفل أية بوابة من البوابات المائة كما هو مخطط له. عندما اقترينا أكثر من القناطر. كان واضحا أن النهر لم يجهز بعد لاستكمال نظام آلى معتاد، لذا كان يصدر من البوابات بعض الرغاوى المائية فقط. كانت هناك بعض البوابات المغلقة تقف أمامها الصنادل والبواخر النيلية إلى حين أن تفتح لتمر عبر هذه القناطر. عملية الدخول عبر هذه البوابات هى عملية مرهقة وتستغرق وقتا طويلا، وقد عبرنا نحن بعد ثلاث ساعات طوال. تذكرت حينذاك المثل القائل، "من يرد أن يسير فى بحر النيل، فعليه أن يفرد شراعا قوامه الصبر". هنا يذكر المثل النيل باعتباره بحرا، إذن هو مثل يهدف إلى السخرية ليس إلا، لكن ما الذى يمكن أن تستدل عليه من لغة أنت لا تدرى عنها شيئا؟

ما إن تنفسنا الصعداء، خارجين من البوابة ومسرعين فى طريقنا، يلاحقنا كالمعتاد ذيلنا الدخانى الطويل، لاحظنا أن هناك لنشًا تابعًا لشرطة المسطحات

المائية يطاردنا، فى الحال ركبنا الهم والقلق، فمهما كان تصرفك سليما، فأنت تشعر بالقلق عندما يوقفك الشرطى وأنت داخل سيارتك. لكن خطاب علاء صنع المعجزة كالمعتاد، بل وزادت كفاءته ونحن نتوغل جنوبا مبتعدين عن القاهرة، كانت رغبة اللنش الوحيدة هى أن يلبى لنا أى طلب نرغب فيه، لذا قام شاذلى، وهو الذى لا يفوت أبدًا أية فرصة، بالحصول على الماء النقى والوقود من محطة لنشات الشرطة البحرية.

لاحظت أن عرض النيل فى اتساع ما بعد أسيوط. معظم الأنهار تتسع وهى تصب فى البحر لأن الروافد التى تتحد بها تزيد من درجة تدفقه، لكن النيل ليست له هناك روافد تتحد به بعد شمال الخرطوم، لذا نجد أن التدفق المائى، بعد ألف ميل وهو معرض للتبخر والرى، يبطئ فى سيره وهو يلج منطقة الدلتا. فى الواقع أحاول هنا أن ابسط موضوعا هو فى واقعه فى منتهى التعقيد، بل يمكن القول، إن تصرفات النهر لا يمكن أن تفهم بكاملها حتى بالنسبة للمتخصصين فى دراسات الموارد المائية وتوزيعاتها. مثلا، هناك كميات من المياه المجهولة المقدار تتسرب إلى داخل الأرض، ثم تتحد بالنيل فى منطقة أو أخرى شمالا، وهذا بالطبع يجعل عملية الإحصاء والقياس غير دقيقة بالمرة. ولكى يزداد الأمر تعقيدا، يوجد ما يسميه الجيولوجيون "المياه الشاردة"، وهى تلك المياه التى تتبع عبر فوالق لا تنتهى تفصل ما بين ضفتى الأطلنطى ـ ربما تكون قد احتبست خلف الكتلة الإفريقية المتهالكة، أو تكونت حتى قبل شيوع مظاهر الحياة على الأرض أو يمتد بحر فى أى مكان على البسيطة. لكل هذه الاعتبارات، من المحتمل أن تكون هذه المياه لها مجار معينة تحت أعماق الصحراء الكبرى، وأعتقد أن هناك غوامض كثيرة سوف يتم الكشف عنها على يد أحفادنا، حتى ولو كان الأمر مختصا بنهر نحتار حاليا فى تحديد مساراته الحقيقية حتى الآن.

لذا هنا، ولأى سبب معروف أو غير معروف، يجرى النيل بكل جلال وعظمة، وكما يمكن قياس حالة الرخاء بمدى تدفق النهر، لاحظت أن الشاطئ جنوب أسيوط تتناثر فيه الفيلات الفاخرة بالمقاييس المصرية، أما الجو فقد انتشر فيه دفء واضح. بدأت أشعر بالانتعاش والمرح، شاعرا بأننا نواصل تقدمنا فى يسر،

لكن هذه الفرحة لم تكتمل عندما لاحظت أننا قد رابطنا عند مدينة صغيرة هى «أبو تيج». لم يخبرنى أحد بذلك، لكن لدهشتى البالغة، وجدت أن علاء ورشدى قد حضرا إلىّ يدعوانى لزيارة هذا المدينة. هناك ظاهرة مدهشة لاحظتها، سوف تؤثر قطعا فى الرجل الغربى- أقصد الشمالى، هى أن الأطفال هنا منتشرون فى كل مكان، يبدون فى ناظرى أنهم مكتملو الصحة، مشابهون فى ذلك معظم الناس هنا على وجه الإجمال. لم يعد هناك عرج مشوهون يطلبون الصدقة وهم قاعدون على جوانب الطرق، ليس هناك أطفال مقعدون خائرو الهمة. لاحظت أيضا أن الأطفال قد توقفوا عن ممارسة ألعابهم المعتادة ونحن نقترب منهم وانتظروا بعيدا. لم يزعجونا، لكنهم من مسافة معقولة استمروا يتفحصوننا، هذا تغيير ملموس حدث خلال العشر سنوات الماضية، لم يحدث هذا لأن علاء ورشدى كانا فى معيتنا، أعتقد أنها جهود الحكومة التى سعت بكل جهدها أن تخفى ظاهرة الأولاد الذين يتكاثرون حول السياح طالبين البقشيش. منذ عشر سنوات، عندما حضرت للمرة الأولى، كانوا يطاردوننا بلا هوادة، وهى ظاهرة كانت مستمرة منذ أجيال سابقة، لكنى الآن وأنا أسير فى شوارع أبو تيج، أوقن أن أطفال البقشيش قد اختفوا إلى الأبد، لذا أصرح بأننا سرنا فى أرجاء هذه البلدة بكل حرية ولا شىء يمكن أن يعوقنا. الشوارع لم تكن منظمة، لكنها نظيفة. رأينا محلات صغيرة بها القليل من البضائع، لكن كشك السجائر كان متخما بكل أنواعها. عادة ما يدخن المصريون باستخدام أنبوبة من البامبو داخل علبة (الجوزة)، أما القادرون فيستخدمون الشيشة، وربما يهجرونها ليدخنوا بالأسلوب الغربى، لكن المصرى المتوسط، إذا لم يكن معتادا على الجوزة، فإنه يقدم على تدخين السجائر. الجميع يدخنون الحشيش، وبصفة رسمية من المفترض أن يمنع البوليس ذلك، لكن تجاهل.

خلف كشك السجائر، أتينا إلى منتزه ناصر. هو مكان متميز فى هذه المدينة الصغيرة، هناك ممرات متقاطعة تحت الأشجار وكلها مصبوبة بالأسمنت ونظيفة، على الأشجار وضعت لمبات كهربائية صغيرة ملونة. رأينا أيضا حديقة للحيوانات بها عدد من الحيوانات المكدسة داخل الاقفاص. وبدا على الطيور المحبوسة

أعراض الاكتئاب. ما أعجبني حقا في هذا المكان هو هذا الكم من التماثيل «الفرعونية» المقلدة، جميعها مصنوع من الحجارة الجرانيت والبازلت والحجر الجيرى والكوارتز. كان تأثيرها علىّ يصعب وصفه، فخارج القاهرة والإسكندرية، من النادر أن يزدهر موضوع صنع وعرض التماثيل. لعلى بهذه المناسبة أتذكر "العمل الفني" الذى شاهدته في أسيوط ويمثل تذكارا للحرب، ذاك الذى بدا أنه مصنوع من الألمونيوم، لكن بنظرتي التي لا أدعى أنها خبيرة، أقول إنه لا يمت بصلة للفن. لكن على أيه حال، أليس كل تذكار للحرب هو هكذا؟ لعل مشاعرى المشوشة عندما شاهدت تماثيل «أبو تيج» المقلدة هي أننا في بلادنا لدينا بحوث جادة وأصيلة، ودائما ما تنسب المصريات المزيفة إلى الأفلام السينمائية التي يقال إنها عظيمة، أيام العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. لا أستطيع أن أعبر بشكل دقيق عن مقدار حيرتي واندهاشي إذا شاهدت يوما عددًا من تماثيل رمسيس أو أمنحتب وقد حشروها داخل ملابس الحرس الروسي القديم. استولت هذه التماثيل على كل تفكيرى لدرجة أنني اكتشفت أننا على بعد خمسين ياردة من مركبنا، لذا تسلقنا سياجا بشكل غير قانوني وعدنا إلى القارب. الوقت كان مبكرا. آن في الكابينة الوسطى تتعلم الأرقام العربية، لكن بلا أمل. الوقت تجاوز السادسة مساء بقليل والظلام بدأ يرخي سدوله، لم يعد أمامي سوى أن أقرأ في كتاب من كتبي القليلة أو أن أنهمك في كتابة يومياتي. ميعاد نومنا لن يحين قبل التاسعة وهناك وقت طويل يفصلنا عن ذلك. ما زلت جاهلا بأسباب توقفنا في «أبو تيج» وقد نسيت أن أسأل علاء عن ذلك، لقد أصبحت الآن قدريا على الطريقة المصرية عند وقوع حدث ما، وهذا نوع من التراجع وليس التقدم.

في الصباح، بدأ الموتور يعمل حوالي السابعة والربع صباحا، لكننا لم ننهض من السرير إلا الساعة السابعة والربع. كان النيل غزير المياه كما لو أننا قد اجتزنا النقاط الرئيسية التي يتدفق عندها ماء الرى المسحوب من المجرى الرئيسي. أحسست أيضا أن الهواء أصبح أكثر دفئا. كان هناك إغراء جميل يدعوني إلى أن أستريح وأستمتع بالدفء وأن أنسى تماما أو أبالغ في اهتماماتي بأى شيء. كان شاذلي يدفع مركبنا بقوة كما أظن، وما زلنا نجر خلفنا ذلك الذيل

الدخانى الكثيف، مما جعل يومنا كله إزعاج فى إزعاج ويسىء لكل من يخاطر ويسير خلفنا مباشرة، أما الصيادون القابعون فى قواربهم يمارسون مهنتهم وتصادف أن مررنا بجوارهم، فإنهم كانوا يرمقوننا بنظرات غاضبة. أقول بكل أمانة، كنت مستعداً أنا وزوجتى أن نقدم كل شكرنا وامتناننا إذا أتيح لنا الآن أن نجلس فى بهو فندق واسع، تحت تصرفنا حمام بارح، ثم نسرع نحو أسرة واسعة مغطاة بملاءات نظيفة منعشة. على أية حال، هذه الأمور جميعا تنتظرنا فى الأقصر، لكن الطريق ما زال طويلا أمامنا. فى الوقت نفسه، تذكرت مهمتى الأساسية، وشغلت نفسى بمراقبة المراكب التى تسير فى النهر، تلك التى أعتبرها أكثر إثارة من زيارة المعابد أو تلك المقابر المحفورة فى وسط الجبال. لاحظت أن النهر بعد أسيوط يحفل بأنواع صغيرة للغاية من الفلوكات، هل هى عبارة عن جلد وأضلاع فقط؟ هى تفرد أشرعة خفيفة حرة الحركة يسهل التحكم فيها فتبدو كأنها ترفع القارب وتجعله منزلقا على الماء، كل منها مجهز بنوعية غريبة من المجاديف النيلية- عبارة عن زوج من الأخشاب ذات شكل معين وتعتبر مناسبة للغاية لمهنة صيد الأسماك. تجد الصياد وقد ربط حجرا فى حبل مثبت فى قاربه وينزله فى الماء ثم يجدف ناحية الشاطئ وهو يفرد شبكته خلفه حتى يصل إلى الشاطئ. وهى فعلا وسيلة ممتازة للصيد، فالسمك لا يتعلم أبداً من التجربة.

الآن، اعتاد أفراد الطاقم، بما فيهم علاء، أن يتناولوا طعامهم فى منتصف الكابينة بدون استخدام الموائد والمقاعد والوسائد. هم يجلسون على الأرضية المغطاة بالسجاد وأمامهم عشرات الأطباق التى تحتوى على أنواع الطعام كافة وقد قعدوا متشابكى السيقان. شعرت أن أسلوبهم هذا غريب وشاذ؛ لكن عندما قمت بتحليل أفعالهم تلك، اكتشفت أنه ربما أنا هو الغريب الشاذ وذلك عندما أطلب وأرغب فى نصب كل هذه التجهيزات الثمينة لكى أؤدى هذه المهمة اليومية، الا وهى تناول الطعام. كانوا جميعا فى حالة من الحبور والمرح، لكن طالما أن كل تعاملاتنا كانت تتم باستخدام الإشارات، إلا فى حالة توسيط علاء لكى يقوم بمهمة الترجمة، ظل الباقون جميعهم هم الغرباء الآخرون. لكنى أعتقد أننى لو كنت قد اتبعت تعليمات ونصائح مورهيد وستارك فربما كنت قد استطعت أن

أنفذ إليهم وأعرف المزيد عنهم. الحقيقة الناصعة التى لا مراء فيها هى أننى إنسان خجول. إذا دعوت الفرنسى ليعبر عن حالتى تلك، فربما قال عنى إننى reserve أو timide لكن كلا الكلمتين لا تعبرا تماما عن حالتى. اليونانى سوف يخبرك بأننى deilos والألمانى سوف يخبرك بأننى Scheu لكن ولا واحدة مناسبة تماما طالما أنها لا تصل وتعبر عن مفهوم خلاصته هو «أننى أود إن استطعت، لكنى لست بقادر». هذه الحالة لا يمكن التعبير عنها سوى بالكلمة الإنجليزية .shy ليس من المناسب أن تسأل الإيطالى لأن يصور لك تعبيرا يمس الخجل، لأن هذه الحالة غير معروفة عنده، لكنى هاأنذا، لى أسبوع على هذا القارب، أعيش خدا بخد مع أفراد الطاقم، ولا تستطيع أعيننا أن تتقابل وتتحاور بطريقة ودية. لا أستطيع أن أستجمع شجاعتى لكى أحاول أن أتعلم كلمة واحدة منهم، ما عدا علاء! كل ما أفعله هو أن أدور هنا وهناك أدندن لنفسى وأهز راسى مدركا أطراف ما يجرى أمامى من أحاديث، لم أحاول مثلا أن أتعلم منهم نطق الأرقام أو تفهم طريقة عمل الخبز المصرى كما فعلت زوجتى آن. لكنى شعرت أننى متفهم لنفسية سيد النوبى أكثر من باقى زملائه، فهو يتميز عنهم برد فعله المفهوم البسيط، فنحن من جنس الإنجليز الذين لا يحبهم. ربما يفكر الآخرون بنفس أسلوبى، لكن بطريقة معقدة، أو بطريقة فيها قدر كبير من الفلسفة.

مع ذلك، تشمل حصيلتى البسيطة من اللغة العربية ترجمة لكلمة «شمال وجنوب» فى النيل. الجنوب هو «قبلى»، وهى كلمة مشتقة فى العربية من أصل غير معروف، كما لو أن الجنوب دائما ما يحوطه قدر كبير من الغموض والأسرار. لكن الشمال فهو «بحرى» الذى يعنى بكل بساطة، «فى اتجاه البحر». الشىء المثير فى هذا الموضوع هو أننا نقترب الآن إلى الانثناءة الشهيرة فى خرائط النيل، حيث يدور النيل بشكل عنيف ولا يسير كالمعتاد من الشمال إلى الجنوب، لكنه يتحرك من الشرق إلى الغرب، لكن ما هو يعتبر شرقا يطلق عليه أنه «قبليش وما هو يعتبر اتجاها غربيًا، هو «بحرى»، على الرغم أن أقرب مكان يوجد فيه بحر هو على بعد ثلاثة آلاف ميل عند المحيط الأطلنطى.

فى منتصف النهار، بينما كان رشدى يلقى علينا درسًا فى مبادئ اللغة الهيروغليفية وكنت أخشى أن تكون معلوماته مضللة - فالأطفال يتعلمون قائمة من علامات حروف الهجاء فى المدرسة - بينما كانوا يكتبون لنا أسماءنا دون حاجة إلى علامات مقطعية أو أدوات تعريف، فى تلك اللحظة انفصلت الدفة عن عجلة القيادة مرة أخرى. لذا حاول شاذلى بنصف موتور أن يناور فاستطاع بعد جهد أن يقترب من الشاطئ الغربى، وهو الأفضل لنا. وبينما كان رشدى يكتب لنا تلك الغوامض، أصبح الشاطئ الشرقى عبارة عن هضاب عالية مهددة وخلفها يستقر محجر. بينما نحن نراقب الموقف العام، سمعنا انفجار ديناميت اليوم فى المحجر، صاحب ذلك غلالة هائلة من الغبار وكسر الأحجار البيضاء، لكن كل هذا كان تأثيره على الجبل بسيطا للغاية. اقتربنا أخيرا من الشاطئ الغربى وبدأ بحثنا عن قطعة من السلك المجدول المرن نستطيع بها أن نعيد ربط الدفة بعجلة القيادة. طلبنا ذلك من صندل كان مارًا، لكن لم نعثر على ضالتنا، إلا أن هذا الصندل وافق أن نرتبط به. لذا قام فاروز الهمام، وهو المسئول عن النظافة، لكن فوق مركبنا "هانى" لا يوجد هناك ما يسمى بالتخصصات- فقد قام وهو مرتد أوفروله الأزرق المزين بالنجوم البيضاء، وعمامته المحبوكة الزرقاء أيضا، بإمساك قطعة الحبل التى أعتقد أنها الوحيدة الموجودة فى مركبنا، ثم قفز إلى الصندل من مسافة ستة أقدام. كانت تلك حركة موفقة كلها إقدام وجسارة، فقط كان يعيبها شىء واحد، هو أنه لا أحد كان ممسكا بالنهاية الأخرى من الحبل. إذن فقد أصبح أمامنا حاجة ملحة وعاجلة، هى أن لا نفقد فاروز للمرة الثانية وأن لا نفقد حبلنا أيضا. لكن نظرا لأننا بلا دفة تقريبا، كان من الصعوبة بمكان أن نقترب من الصندل، وكان واجبا أن يقوم الصندل بالاقتراب منا. أخذت أراقب هذا الموقف الطريف وكلى قلق كالمعتاد، لكنى مستمتع أيضا. أخيرا اقترب منا الصندل فاستعدنا حبلنا وفاروز المحبط، لكن هو بصراحة لا يجب أن يلام، فنحن جميعا مشتركون فى الخطأ الذى حدث. هو فى الحقيقة إنسان رائع وقد شملنا هم مقيم أن يضيع منا كما حدث مع علاء الدين المشهور.

تكرمت مدينة سوهاج مشكورة بتكليف من يرافقنا من ضباط شرطة المسطحات المائية، وذهبنا حتى إلى مركز الشرطة الخاص بتلك المنطقة. شعرت

أنه لو كان مسارنا هو الطريق البرى، فإنه بفضل الخطاب العجيب الذى بحوزة علاء، كنا حصلنا على ترحيب هائل على شكل فوج من الموتوسيكلات التى تصاحبنا حتى مقامنا ـ يا له من أمر يدعو للبهجة والسرور! الشرطة فى خدمة الشعب. سوهاج هذه مدينة كبيرة وغنية ومليئة بالمساجد. تمتاز هذه المدينة بوجود كوبرى يصل بين جزئيها، كما سوف يتحقق لمدينة المنيا عندما تستكمل صب أساسات الكوبرى على الشاطئ الشرقى، كذلك استكمال الجزء البسيط عند المنتصف. لاحظت أيضا وجود دليل آخر يوضح مدى عجزى عن التواصل مع هؤلاء الناس، فقد قضى رشدى معظم فترة ما بعد الظهر ورأس علاء مستندة على ركبتيه وهو يقرأ بصوت عال باللغة العربية ما دعاها علاء بأنها "قصة كتبها لبنانى ساذج". كانا يغرقان فى الضحك ما بين الفينة والأخرى، لكنى وجدت أنه لا طائل من وراء اكتشاف ما يجعلهم هكذا يضحكون. لا شىء أكثر إحباطا من جهلك عما يضحك الآخرون وهم يتحاورون بلغة لا تفهم حرفا واحدا منها.

رابطنا بجوار الشاطئ الساعة الخامسة إلا ربع. كنت أشعر بالإحباط بسبب ذلك الوقت الذى فقدناه وكان من الممكن أن يدفع بنا إلى الأمام، لكن هذا الوقت المهدر كان له ما يبرره – حيث جاهد الجميع فى العثور على سلك مجدول مرن يمكن به أن يتم ربط الدفة بالعجلة. ما إن مرت خمس دقائق من رباطنا حتى تسرب الطاقم واحدا بعد الآخر ولم يتبق سوانا أنا وزوجتى فى المركب. لم يكن أمامنا سوى أن ننتظر ونراقب. من الأمور التى وجدنا فيها عزاء لنا كان ذلك المنظر الرائع للمراكب والقوارب السابحة فى النيل. بينما كنا فى انتظار هبوط الغسق، رأيت صندلين قادمين قبل هبوب ريح عاصف. كلاهما كان فاردا شراعه ومحملا بحمولات كاملة من الحجر الجيرى الأبيض. لاحظت أن أشرعتهما قد اصطادت ما تبقى من ضوء بينما الماء كان صافيا للغاية لدرجة أن أشكالهما ظهرت مطبوعة طبعا خفيفا على وجه الماء. قمت بالتقاط عدد من الصور لهما ـ داعيا الله أن يحفظ لنا بطاريات علاء عاملة، مؤمنا أن هذه الصور التى التقطتها هى ذخر لأجيالنا القادمة.

كان يزعجنى شعور غلب علىّ بأننى واحد من ضمن آخر الناس الذين شاهدوا بأعينهم استخدام الشراع كوسيلة اقتصادية للإبحار، التى تستخدم بطريقة

صحية وليس فقط بغرض المتعة والفسحة أو للأغراض السياحية. فمن الطبيعى أن تتجه هذه الصنادل المجاهدة فى نقل مئات الأطنان من البضائع قرب نهاية حياتها، إلى نقل السياح والعاشقين فى رحلاتهم العاطفية. مع ذلك، ورد بفكرى خاطر يقول بأنه سوف يكون منظرا خلابا لو هبت رياح الخماسين الآن، حيث سوف نشاهد هذه الصنادل وهى تهرب بكامل سرعتها!

عاد أفراد طاقمنا محبطين. لم يعثروا على قطعة من السلك المجدول المرن، أيضا عجزت شرطة المسطحات المائية عن أن تمدنا بالوقود الذى يلزمنا، متحججين بأنه لا يوجد لديهم ما يكفى. كنا وسط موقف محرج للغاية. أخبرنا شاذلى بأنه قادر على الحصول على بعض الوقود من أحد الصنادل الكبرى إذا أمكن لنا أن نغادر موقعنا الحالى عند شرطة المسطحات المائية ونبتعد عن هذه المدينة. مع ذلك، ويا للغرابة، تمكننا من الحصول على الماء النقى لكى نغتسل، لكن لا شىء غيره.

(٧)

في الصباح، بدأ الموتور في الحركة الساعة السادسة والربع، لكني لم أنهض من سريري حالا، رقدت في مكاني محاولا استشفاف ما يحدث عن طريق السمع. كان الموقف معقدا، فبينما ظننت أننا سنواصل سيرنا وفي معيتنا ذلك الذيل الدخاني الطويل، لاحظت أن شاذلي قد أبطل التعشيق لمدة ثانيتين، ثم تحرك بعمل عدة دفعات بالموتور مستخدما جهوده اليدوية. إنه يحاول أن يقترب من شيء ما، فجأة أحسست أنه قد خبط في جسم آخر. نهضت من سريري مسرعا، أزحت ستارة النافذة، ثم أصبت بصدمة عنيفة. فوجئت بجبل جيري ضخم على بعد ياردة واحدة من وجهي. لوهلة توقفت أنفاسي تماما، خشيت وقوع الكارثة، لكن في اللحظة التالية، أدركت أن هذا الجبل محمول فوق صندل ضخم كان يتحرك ونحن مشتبكون به حتى وصلنا إلى عرض النهر. توقف موتور مركبنا عن العمل بينما يسحبنا موتور الصندل بسرعة تفوق قدراتنا الحقيقية. ارتديت ملابسي على عجل وصعدت إلى السطح لأفهم ما يحدث. لاحظت أن هذا الجبل المحمول فوق الصندل يرتفع ما بعد حافته بمقدار ستة أقدام، وطوله يتجاوز عشر ياردات على الأقل.

غرفة قيادة هذا الصندل تقع في مقدمته، أما الموتور وغرفته فتقع في المؤخرة، و«تلغراف» غرفة المكن، عبارة عن حبل يمر فوق هذا الجبل حتى غرفة القيادة، ومن المفترض أنه عندما يجذب هذا الحبل، يدق جرس بطريقة معينة فيفهم المهندس ماذا تعني. لكني على أية حال، عندما صعدت إلى السطح، لاحظت عدم وجود مهندس في غرفة ماكينة الصندل، لكنه تجمع مع ستة من

أفراد طاقمه وبرفقتهم معظم أفراد طاقمنا. لاحظت أنه اجتماع ودى مرح يسوده الحب والود البالغ. هو ذا شاذلى يساوم بشأن الوقود الذى يلزمه، أو قل إن كلاً من أفراد الطاقمين كانوا منهمكين فى موضوع المساومة تلك، وبتقديرى المتواضع أجزم أن هناك عشرة أفراد منهم يتراسون هذه المنازلة، فهمت على الفور أن الذكر الوحيد الذى لم يكن له أى دور فى هذا الموضوع هو أنا. شعرت أننى لست راكبا محترما، لكنى قطعة من الخشب العاطلة عن العمل، حضر إلىّ علاء وسط هذه المعمعة ليخبرنى:

«موضوع سهل للغاية، كل ما يلزمنا الآن هو أنبوبة لسحب الوقود ثم نواصل طريقنا، ما فيش مشكلة».

لاحظت أن مهندسنا أحمد يسير متجها إلى مؤخرة الصندل وعلى كتفه منشفة، علق على ذلك علاء: "ذهب ليأخذ حماما عندهم، لكن الماء عندهم ليس ساخنا بالقدر الكافى". أعتقد أنه كان من الأفضل لنا أن نستأجر مثل هذا الصندل بدلا من مركبنا المريض هذا.

أخيرا أنجزت الصفقة، بعدها انشغل أفراد طاقمنا وطاقمهم فى محاولة تعديل وضع الصندل لكى يمكن توصيل أنبوبة توصل الوقود إلينا. ومضى دهر قبل الانتهاء من ذلك.

«لكن لماذا استغرق منهم هذا زمنا طويلا؟»

«الموضوع صعب، صعب للغاية».

أتذكر أننى كنت عائدا من منطقة جبل طارق وأنا داخل المدمرة «أوريون» نخترق المياه بسرعة ثمان وعشرين عقدة فى الساعة، البحر كان معتدلا وناورنا حتى التصقنا بالبارجة «الملك جورج الخامس» أو لعلها كانت «آنسون» ـ لا أتذكر ـ بل ربما كانت «أمير ويلز» ـ لا، هذه الأخيرة كانت قد غرقت قبل موضوعنا هذا، لكن مهما كان اسم البارجة، أقول بأن رباننا استطاع بمقدرة فائقة أن يقترب بمقدار درجة واحدة إلى تلك القلعة الجبارة التى تتكون من دروع الصلب المسلح، وفى الحال مدت خطوط مدتنا بالوقود، وتم كل شىء بسرعة فائقة، لذا فالمقارنة بالنسبة لوضعنا الحالى تعتبر مثيرة للاهتمام.

تذكرت فجأة ما هى مهمتى التى جئت من أجلها هنا، لذا تحركت فى مخيلتى التصورات العميقة والأفكار النافذة عند مستوى أرض الواقع، أو الأصح قولا، عند مستوى الماء. كان واضحا أن مهمتى اقتصرت على مراقبة التافه من الأمور التى أصبحت ملزما بتسجيلها وتحليلها، وإلا رجعت إلى بلادى خالى الوفاض تماما. إنها فرصة متاحة الآن أن أتعمق فى موضوع الصنادل النيلية، تلك التى تعتبر هى أقوى الناقلات الميكانيكية التى تتحرك فى النهر. لذا بدأت فى طرح أسئلتى واستفساراتى، وبلا شك وقفت فى طريق الكثيرين، لكن على أية حال، هنا الجميع يقف فى سبيل الآخر! هذه النوعية من الأوعية الجبارة لا يقودها الريابنة المتخصصون أو حتى بواسطة لجنة مشكلة أو حتى بواسطة الأغلبية المطلقة، كل ما يهم هو أن تسير وتعمل وتنجز - هذه الصنادل المنتشرة فى تلك المنطقة هى ملك لشركة السكر المنتج من قصب السكر، والحكومة هى التى تمتلك هذه الشركات. مصر تنتج مليون طن من السكر سنويا، ويتم تكرير السكر فى تلك الأوانى الضخمة التى لمثلها ساقنى ذاك المهندس المهووس بعمله لكى أشاهدها وأتلمسها وأتذوق سكرها. هذه الصنادل التى أراها الآن أمامى، تتجه لكى تقوم بتوزيع مئات الأطنان من الجير الحى لتنقية العصير على عشرات مصانع التكرير بالصعيد.

«هل هى مصانع أكبر من التى رأيناها سابقا؟»

«نعم، أكبر وأحدث».

هذه الصنادل عندما تفرغ حمولتها تعود محملة بصهاريج ضخمة بها المولاس. هذه الشركة ـ فى الحقيقة هى الحكومة ـ تمتلك مائتين من هذه الصنادل. فكرت، ترى من سيدفع ثمن ذلك الوقود الذى حصلنا عليه من الصندل مجانا، بالطبع هم دافعو الضرائب.

الآن، تفتحت أمامى موضوعات متعددة، فما أفعله ليس سوى نوع من «التحقيقات الصحفية». علمت الآن الفرق بين الصندل المملوك للحكومة وذاك المملوك للقطاع الخاص. الأول تجده مدهونا باللون الرمادى لكن يحفه الصدأ فى

كل مكان، أما الثانى فهو يزرع النيل جيئة وذهابا زاعقا بنفيره طالبا الزبائن، مستعدًا أن يحمل على كتفيه أى شيء: الطوب والزلط والحبوب والسكر والتبن أو حتى جماعات الفلاحين المتجهين لحضور مناسبة دينية أو مولد. صندل القطاع الخاص يبهج النظر ويتطلع إليه الإنسان بإعجاب. هو يفعل ذلك لأن سوق عمله غير مضمون، لذا تجده مدهونا بأجمل الألوان ومزينًا ومهيأ بالرايات والأعلام، أحيانا تجده مغطى بالألواح الإعلانية أو تلك المكتوب فوقها بعض من آيات القرآن الكريم، وأحيانا توجد خلطة بين النوعين، بل وقد تجد أحيانا كلمة «الله أكبر» مكتوبة فى أكثر من مكان غير مناسب لذلك. أيضا يمكن التعرف على نوعية الصندل بموقع عجلة القيادة فى المقدمة وحجمها كذلك. موضع هذه العجلة دائما ما تكون فى أعلى مكان، لذا فمهما كان ارتفاع حمولة البضاعة، مثل أعواد القصب التى قد تصل إلى ارتفاعات مدهشة، فدائما ما يتاح للقائد أن يشاهد الطريق أمامه. مع ذلك، ونتيجة لذلك، قد تبتعد العجلة عن الدفة بمقدار خمسين ياردة أحيانا، وتوجد سلسلة حديدية طويلة تربط بينهما. هذا الأسلوب فى التصميم يستدعى من القائد أن يستخدم قوة عضلية جبارة لتغيير مسار الصندل، ولذلك أيضا تجد الطارة ضخمة جدا كأنما هى تخص سفينة عابرة للبحار، يبلغ محيطها ستة أو سبعة أقدام. عندما يضطر القائد إلى أن يغير مساره ولو قليلا، نجده وقد مال بكل جسده على الطارة، فى حاجة إلى أكبر قدر من المزايا الميكانيكية التى تتيحه هذه الطارة الضخمة. لكن التوجيه الآلى لا يعتبر اقتصاديا فى بلد مثل مصر - إلا بالنسبة لعملية رفع كميات كبيرة من المياه - فاستخدام العضلات البشرية أرخص كثيرًا . رأيت حالة واحدة لصندل من النوع الجديد، كانت عبارة عن سفينة كبيرة وغرفة قيادتها فى المؤخرة ترسو على قاعدة كوبرى جديد يجرى إنشاؤه، وقد استوردت من قبل الشركة التى كانت مكلفة بإنشاء هذا الكوبرى، وهى تمثل شكل ما سوف يأتى ويحل بدلا من الأشكال القديمة.

فى هذه الناحية من النهر، كان هناك عدد كبير من مراكب السياح تروح وتجىء، هى جميعها من النوع الحديث، ذات أسطح أربعة وشكلها انسيابى جميل.

مرة وحيدة، ونحن فى منحنى معين، مرت بنا سفينة سياحية من نوع مختلف تماما، كانت ضخمة وشكلها مخيف، لعلها تلك التى كانت مستخدمة لتصوير فيلم «جريمة قتل على النيل»، كان المنظر خاطفا، لدرجة أننى شككت فى قدراتى البصرية، أو ربما كنت أحلم. شاهدت أيضا عددًا من اللنشات التى تغطيها المظلات تعمل طوال النهار. هذا النوع من اللنشات مفضل بالنسبة للطبقة الوسطى من المصريين أكثر من السياح الذين يفضلون باستمرار أن يصطحبوا فى معيتهم عالمهم الخاص. فى الحقيقة، كما رأينا، هم لا يفعلون شيئا غير التافه من الأمور. يبدو أن كل محافظة من التى مررنا بها تفضل نوعا مختلفا من القوارب، كما لو أن قانون الانتخاب الطبيعى يود أن يفعل فعله كما هو وارد فى الكتب. مع ذلك، من الصعب بمكان أن تعثر على فروق واضحة بين حدود هذه المحافظات، الاختلاف الملحوظ يمكن أن تدركه فى النهر - وهو اختلاف تخيلى- وذلك عندما تقترب هضاب الصحراء الشرقية حتى حافة المياه ثم تبتعد مرة أخرى، وهذا بالطبع يقلل من حركة التواصل مع شاطئ معين، لكننا نقول أيضا إن الاتصال والتواصل فى مصر كان وما يزال، يتم منذ عهود ما قبل التاريخ عن طريق الماء.

أصبحت الآن، وكلى عيون، اراقب وابحث عما يمكن أن يثير اهتماماتى لأسجله مهما كان تافها. فهذه الرقعة من الأرض التى أمامنا، كانت مشهورة منذ القدم بكآبتها. نجد مثلا الرحالة القديم المرحوم ت.ج. باولز، الذى استقل يوما سفينة البوستة عابرا تلك الرقعة بالذات غير عابئ بالخطر، يكتب فى مذكراته:

أما بالنسبة للرحلة، فقد كانت كئيبة غاية الكآبة. هنالك تجد سلسلة من شواطئ منخفضة موحلة ونادرًا ما تعثر على شجرة، ولو شجرة واحدة تكسر رتابتها، والأندر أن تجد قرية، وما يزيد من الكآبة وانقباض الصدر أنك لا تجد منزلاً واحدًا فى الطريق مما قد يغريك بإبطاء السير، لن تجد غير ذلك الجمع الكبير من الصبية الفقراء انصاف عراة، وأحيانًا كاملى العرى، كلما وقفنا يصيحون فى وجوهنا طلبًا للبقشيش. حينئذ تسأل نفسك وقد تملكك العجب: من هؤلاء الذين جاءوا من صلب بناة الأهرام؟ وما هى طبيعة النظام الحاكم الذى خفض من منزلة هؤلاء المحكومين الذين يعيشون فوق أخصب أرض خلقها الله؟

قلت فى نفسى إن الحال قد تغير اليوم بشكل كبير، فخصب الأرض واضح تماما ويزحف حتى يصل إلى حافة المياه، أيضا تجد الناس مشغولين بلعب كرة القدم فى أى مساحة أرض خالية تتاح لهم.

هذا الصندل الذى ارتبطنا به كان محملا بقطع من قوالب الجير الناعم الذى جلب من الجبال الواقعة على الجانب الشرقى. علمت أنه جير ناعم، فقد قمت بكسر قطعة منه وفركتها بين إصبعين فتفتت على الفور، لذا ليس من المستغرب أن يتم اختيارها لتنقية السكر، فهى لا يجب أن تدرج ضمن الأحجار، بل هى تشبه فى الشكل بعض التوابل والمأكولات.

وصلنا أخيرا إلى بلدة البلينا وانفصلنا عن الصندل الذى سوف يتوقف هنا. أخذ شاذلى يتدافع إلى الأمام، يبدو أنه قد اشتم رائحة بلده الحبيب القريبة من مدينة قنا. فى الحال، تعذر علىّ أن أشاهد شيئا بسبب الذيل الدخانى الكثيف المصاحب لنا دائما. لذا توقفت عن تأمل ملامح البلينا والتى تبدو أنها لا تستحق سوى لمحة عابرة. هبطت إلى أسفل مركبنا، قيل لى إن سيد النوبى يعانى من التهاب فى اللوزتين. يا له من رجل مسكين، فرحلته الخالدة التى أحضر لنا فيها المنافض، كذلك رحلته التى تبعت واستقل فيها لنش شرطة المسطحات المائية المكشوف، أنهكته تماما. كان منظره يدعو إلى الرثاء، لذا شحذت كل عزيمتى وأمرت الرجل أن يذهب لينام فى سريره. هذه بالطبع ليست دعوة لأن يهمل ما هو مكلف به، فالمهام فوق سفينتنا "هانى" ليست محددة بكل دقة. فليس هناك واحد منهم مرتبطًا بعمل وحيد سوى ذاك الممسك بعجلة القيادة! لكن أيضا، لن تجد واحدا منهم خاليا من عمل يؤديه وبسرعات متفاوتة. مثلا، الشاب فاروز- علاء الدين- منصبه الرسمى هو المسئول عن النظافة، ولكنه كان يشارك أيضًا فى ثنى الشراع، بمعنى أنه كان يعيد تنظيم الوسائد الطويلة التى ترص أيام الاستجمام على السطح العلوى للمركب للمستلقين عليها، هو أيضا ينشغل أحيانا بإعداد الأكل، كما يفعل المهندس أحمد. لكن سيد المسكين، هو على العكس تماما، فهو مسن ومريض، لا يفعل شيئا سوى أنه يقف فى مكانه أو يتم بعثه ليؤدى بعض المشاوير التى لا فائدة تذكر من ورائها، ذلك إذا وقفنا قبالة مدينة أو قرية. حظه

السيئ هو الذى أوقعه بأن يتخلف وراءنا يوما ويتعرض لظروف جوية سيئة وهو فوق لنش شرطة المسطحات المائية المكشوف. بالطبع، تقتصر مهمة شاذلى على قيادة المركب وإصدار مختلف الأوامر، هذا فى منتهى العدل والإنصاف، أليس هو الريس- أما عن رشدى، فهو أحيانا يوجه المركب، يطبخ، يدرس إدارة الأعمال، يدرس مبادئ الهيروغليفية، يعزف على العود وأحيانا كثيرة يتحفنا بأغانيه، هو ملىء بالمواهب الأخرى التى لم نكتشفها بعد. لكن ما هى طبيعة المهام البحرية التى من الممكن أن ننسبها إلى هذه المجموعة من الأفراد؟ لا يمكن بالطبع وصفهم بأنهم على درجة عالية من الكفاءة والتميز، فهذا القارب لا يساعد أبدًا على إظهار أية كفاءة أو مواهب. على وجه الإجمال، هم استطاعوا أن يجعلوه عائما على سطح الماء، لكن عند الحدود الدنيا. بالنسبة للريس شاذلى، أكاد أجزم الآن أنه يقرص على مركبنا، لأن ذيلنا الدخانى بلغ طوله ربع ميل، وهكذا هو أيضا عرضه.

خرج إلينا علاء ليخبرنا أن حالة الرجل العجوز سيئة. تساءلت عن المساعدات التى يمكن أن نعثر عليها فى مكاننا هذا. من المعروف أن هناك مستشفى فى نجع حمادى وأخرى فى قنا. فكرت، واجب علينا إذا لم يتحسن أن نودعه واحدة من تلك المستشفيات، ثم نسترده فى رحلة العودة، بل وفكرت أنه من المستحسن أن نترك واحدا منا معه. أخذت أفكر عمن يمكن الاستغناء عن خدماته بشكل مؤقت. بعد تفكير عميق لم أجد أحدا مناسبا لذلك سواى. هذا اليوم، لسبب أو آخر، طبخ لنا رشدى غذاء رائعا.

بعد الغداء، انشغلت بمراقبة الشاطئ الشرقى الذى تحول وأصبح خصبا للغاية- حيث تراجعت الصحراء الموحشة مرة أخرى - حينئذ شاهدت أمامى قصة حقيقية «لعودة المواطن» (*)، كان هناك مشهد جميل. هناك هضبة طينية تحفل بعدد قليل من الأشجار التى انحشرت وسطها قرية طويلة الشكل، شاهدت جمعا

(*) رواية للكاتب الإنجليزى الشهير توماس هاردى (١٨٤٠ ـ ١٩٢٨) صدرت فى عام ١٨٧٨ أصبحت فيما بعد من أشهر أعماله الروائية. (المراجع).

من الفلاحين من رجال ونساء وأولاد وبنات، يسيرون على شكل مظاهرة وسط الأشجار، كانوا يرتدون الملابس المصرية التقليدية، وهناك الكثير من النايلون اللامع. وسط الأولاد الذين يتمايلون ويتراقصون، كان يمشى شاب أنيق يرتدى الملابس الغربية، البذلة لونها رمادى لامع والبنطلون له زوائد هفهافة تلمع. كان شعره مصففا ويحمل شنطة صغيرة، بينما يسير خلفه ولد يجاهد فى حمل شنطة أخرى. إنها لحظة خالدة فى تاريخ تلك القرية، فقد عاد أحد أبنائها من بلاد الغربة، ودعنا نأمل، إنه عاد محملا بثروة متواضعة حصل عليها من عمله فى مجال البناء والتشييد هناك فى بلاد العرب الغنية. هو ذا الآن عائد إلى قريته وكله تصميم وعزم أكيد أن يصبح ذلك الرجل الغنى العظيم. كل هذا كان واضحا أمام ناظرى كأننى أقرأ فى كتاب أمامى مسجلا فيه تلك اللمحة الصاخبة التى ترتبط بعودته، فهو ذا الشاب عائد إلى قريته وما زال حذاؤه معفرا بتراب المدينة، بينما يستمر الأتوبيس الذى أقله فى مسيرته الرجراجة سالكا الطريق المجاور للنهر. فكرت، نعم لقد وعيت وشاهدت المنظر التاريخى كله، ذاك الذى لا يميز مصر فقط، بل العالم العربى كله بطريقة أو بأخرى، احتمالا فى الطريق لبلوغ الأفضل وليس الأسوأ. لكن، هل أستطيع أنا، فى كتابى هذا الذى لم ير النور بعد أن أعطى لهذا المشهد أهميته الحقيقية، من المحتمل أننى لن أوفق. على أية حال، رأيت أيضا الجانب الآخر، رأيت ذلك العربى فى أحد أبهاء فندق شيراتون. إنه قادم للتو من الصحراء، هذا واضح تماما، لكنها تلك الصحراء الحديثة التى تمتلئ بالسيارات اللاند- روفر والطرق الحديثة والمطارات الخلابة ومياه الشرب المستوردة. حضر تأكيدا لكى يتسوق، والآن هو عائد إلى بلده مصطحبا معه كل مشترياته ، البعض منها يستقر داخل حقيبته الضخمة تلك ذات اللون الذهبى اللامع.

كانت هناك قناطر أخرى فى نجع حمادى، صورة طبق الأصل من قناطر أسيوط ذات المائة بوابة مع بوابة متحركة عند الجانب الغربى مخصصة لمرور السفن.أسرع شاذلى ليلحق المرور فيها قبلما يتم غلقها لقدوم الليل. أثنا دخولنا البوابة استمعنا لصوت رهيب صادراً من أسفل مؤخرة سفينتنا، ظللنا داخل تلك

البوابة ساعات، لكن لا أحد كلف خاطره أن يغطس أسفل ليفحص المؤخرة. عندما خرجنا أخيرا من هذه البوابة، ظل هذا الصوت الرجراج ملازما لنا. أحسست بغضب كظيم يمسك بتلابيبى بسبب ذلك الإهمال الشنيع فى تسيير هذا المركب، هذه المصيبة الجديدة تعنى ببساطة أن الرحلة عمرها قصير. أصبت بخيبة أمل قاتلة لأننى شخصت العيب، لكن لا أحد يهتم بالاستماع إلىّ، فنحن نتعرض لعيب خطير، كما بدا لى، فى مكان ما بين البرشام والموتور والاحتمالات متعددة. بينما نحن نترجرج ونستمع لخبط شديد، ناور شاذلى حتى نقترب قليلا إلى الشاطئ. أخذ الطاقم فى فحص الموتور، ثم أتى علاء بالأخبار الأكيدة، "المسامير المثبتة للموتور انفصلت". فكرت، هذا وضع النقاط على الحروف، ولم يتبق لنا سوى أن نستأجر سيارة، لكن هذا لم يحدث بالطبع، فقد قرر شاذلى أن يستمر فى طريقه، بغض النظر عن الخبط والكركبة. أفراد الطاقم جميعا على بعد قليل من بلادهم، وهم ليسوا مستعدين بتاتا أن يحبطوا بسبب أمر تافه مثل موتور يتراقص فى مكانه. كان هذا الوضع أكثر من قدرة احتمالى، بل كنت مستعداً أن أثير معركة معهم. حاولت أن أشرح لهم بأن هذا العيب الجديد أكثر خطورة مما لحق بنا سابقا، وأن الاستمرار فى السير بهذه الطريقة قد يقضى على هذا المركب كلية. بهذا التشخيص، حصلت على رد فورى من الريس شاذلى الذى كرر مقولته الخالدة، «لم الاهتمام أصلا؟ إنه ليس مركبنا». بعد نزال بسيط، توصلنا إلى حل وسط، هو أن يقوم علاء بمخاطبة صاحب المركب تليفونيا طالبا منه إرسال مجموعة من المسامير المعدنية البيضاء، وأن ترسل فورا سواء بالطائرة أو بالقطار إلى نجع حمادى. لذا أسرع علاء باحثا عن تليفون، بينما جلست أنا وزوجتى وقد خرسنا تماما.

عاد علاء. أخبرنا بأن مالك السفينة قال له: «استمروا فى السير وتأكدوا ما إذا كانت الحالة سوف تزداد سوءًا أم لا». إذا فقد حلت المشكلة، لم يتبق سوى أن نخلد إلى أسرتنا. أخيرا استطعت أنا وزوجتى أن نتمتع بالدفء الطبيعى. فى الصباح، لاحظت أن طقوس صلاة الفجر قد طالت أكثر من المعتاد، ربما كان الهدف تلك الكنيسة الكبيرة المقابلة والتى مررنا قبالتها. لاحظت أيضا، أن الريس

شاذلى، وهو الحريص على العودة السريعة لبلدته، قام من نومه قبل الجميع وتلمس طريقه فى شبه الظلام، كما كان يفعل فى أيام أخر، عندما لم تكن أشرعته قد نسجت من لحمة الصبر المصرى. الآن، يبدو أن الصبر قد نفد معينه، وما أدار شاذلى الموتور حتى بدأ محور الرفاص فى الصراخ تحت قمرتنا مباشرة. نظرت من نافذة المؤخرة، لم أشاهد سوى الدخان الأسود المعتاد. سار شاذلى بسرعة مدهشة، قد تصل إلى عشر عقد/ساعات. أصبحت المسألة عبارة عن رهان، من الذى سوف ينفجر أولا، الموتور أم الرفاص. أخذت أفكر فى السفن التى كانت تتعرض لكسر الرفاص وهى فى عرض المحيط، تلك التى تجدها تتباطأ أولا ثم تتوقف عن المسير تماما. نحن على الأقل لسنا فى عرض المحيط ولسنا بجوار هذه أو تلك من الجزر ذات الأسماء الغريبة! سوف يصطك محور الرفاص لفترة كما لو كانت أسنانه باردة وليست حارة، إنه سوف يحاول أن يقفز من مكانه ليحصل على الدفء اللازم، ويقلد "الرابسودية الهنغارية" للمؤلف الموسيقى "ليست" فى الحركة الختامية. نهضت من سريرى. بينما تحاول آن أن تجلب النوم لعينيها بدون جدوى، أو تتظاهر بأنها فى مكان آخر- ربما الوطن- لكن لا أعتقد أنها نجحت فى مسعاها هذا. فكرت، أفضل السبل هى أن أهجر هذه السفينة. فجأة لاحظت أن شاذلى قد خفض سرعته بمقدر عقدة أو اثنتين، والحركة الختامية أصبحت نوعًا من العدو، الدخان الأسود تحول ليصبح بخارا أبيض. قلت سابقا إن الريس شاذلى هو الذى خفض السرعة، لكنى أعتقد أن هذا من فعل الموتور، هو يحاول يائسا أن يحافظ على حياته. بعد ذلك، قام الموتور، أو ربما الريس شاذلى بعمل تخفيض آخر فى السرعة. لعله كان يحاول أن يعثر على السرعة التى تحقق أقل قدر من الخسران وتحقق له أمنيته باللحاق بموطنه فى أسرع وقت ممكن، بذلك استطاع أن يحقق نقطة لصالحه أثناء الاهتزازات، حيث قرر الموتور أن لا يتبدد نهائيا أو أن تنزع كل أسنانه، لكنه فى نفس الوقت أطبق فمه بعنف كأنما هو يعانى من ألم مكبوت. هذا كان أفضل لنا، كما أظن، لكن كنت على يقين كامل أن مركبنا يعانى ويشكو.

أزحت فكرى عن تأمل الحال لماذا لمركبنا، فكما أتصور، لا يمكن فعل أى شىء الآن. فكرت، إذا استمر بقاؤنا عائمين، هناك احتمال أن نعثر على حوض للسفن

سواء فى قنا أو الأقصر. فى نفس الوقت، كانت الوسيلة الوحيدة لأن نواصل تقدمنا هى أن نتجاهل تماما تلك الهزهزة والرجفة الفظيعة التى نحس بها حتى أخمص أقدامنا، وأن نستمر فى إبداء بعض الاهتمام لما نشاهده فى عرض النيل أو على الشاطئين.

لاحظت مثلا ذلك الصياد وهو داخل قاربه المبارك الذى لا يعانى أى قدر من الاهتزازات، تجده واقفا بقاربه وسط بعض الحشائش المزهرة السامقة، وأثناء مرورنا بجواره، شاهدناه وهو يرفع مصيدة السمك التى تشبه القفص والمصنوعة من السلك اللين. فعلا، استطاع أن يخرج منها سمكة واحدة صغيرة. ثم عبرنا بجوار عدد من الرجال والأولاد، اثنين اثنين، جالسين فى زورق تجديف صغيرة وكل منهما يدلى بقصبة رفيعة فى الماء، بالطبع مماثلين لكل من يستعمل هذا النوع من القصبات، لا يصطاد شيئا. كنت أفكر، وما زلت أفكر، لماذا لم أشاهد أبدًا إنسانا ممسكا بقصبة ويصطاد شيئا؟ أنت دائما ما تجده قابضا على قصبته وهو مستغرق فى حالة من التأمل والتفكير فى عالم آخر، وإذا نزعت الصنارة من الخيط، فربما ظننت أن يؤدى بعض التمارين البوذية. فى هذه المنطقة من النيل، لم أشاهد أبدًا شبكة صيد مطروحة فى الماء، لا شك أن هناك سببًا خفيًا وراء ذلك، لكن ليس من قدرتى أن أصل لواحد منها.

ظهر رشدى الآن حاملا الإفطار، المكون من الخبز، والجبن وقطع من السجق البارد المغسول بالمياه المعدنية، وقبلما ننتهى من إفطارنا أحضر لنا الشاى. سطح الأقداح مغطى بدوائر وعلامات متداخلة.

التحفنا ببعض الملابس الإضافية وصعدنا إلى السطح، الشمس ساطعة بهية لكن هناك بعض الرياح تهب. فكرت، نحن الآن ندور فى الاتجاه القبلى - جبلى حسب تعبيرات أهل هذه المنطقة- أو بتعبير آخر، كنا ندور ناحية الجنوب الذى هو فى حقيقته هو الشرق، أما "بحرى" فإنها تقع فى الغرب تقريبا بالنسبة لنا، فنحن الآن نستعد للولوج إلى الثنية الكبرى المشهورة فى النيل، وهى واضحة تماما فى الخرائط. لكن من الواجب هنا أن أضيف بأن هذا الصباح هو من الأيام

المشهودة، فقد انفتح التواليت فى كابينتنا وأصبح نظيفا تماما للمرة الأولى واستطعنا أن نضخ فيه ماء النيل بسهولة. فهذا الاهتزاز الذى نتج عن سرعتنا النزقة، استطاع أن يحقق لنا ما لم نستطع نحن أو أفراد الطاقم أن نحققه. كل سحابة ننظر إليها نراها وقد اكتست برداء أبيض لطيف، لذا جلسنا مسرورين على السطح. ازداد ميلنا تجاه «القبلى» بينما تطل علينا شمس الصباح، ولاحظت أن الرياح قد غيرت من أسلوبها المعتاد وتنفست فى وجوهنا بكل ود ولطف، لذا وبعد تردد قليل، تخففنا من بعض ما أثقلنا به أجسادنا. لم يعد هناك أى شك، فالطقس قد تبدل فعلا مع دخولنا إلى منطقة الثنية المشهورة، هل وصلنا حقا إلى النقطة التى يبدأ فيها دفء الجنوب؟

فى هذا الوقت من العام، يرتدى مصريو هذه المنطقة صديرات وكلسونات طويلة تحت الجلابية. هذه الكلسونات ليست بها الفتحة الوسطى، لذا ما إن يبادر الشخص منهم بأداء واجبات الصباح المبكر، فإنه يدفع بكلسونه حتى مستوى ركبتيه ثم يجلس معتمدا على قدميه ويدع جلبابه يغطيه من كل الجهات، وعندما يكون فى مكان ما يفعلها مستمتعا، وضوء النهار يغمره بحنان، ربما وجد بجواره آخرين يفعلون مثله. أحيانا قد تجده وقد ارتدى جلبابا آخر فوق الأول. أخبرتنى آن أن رئيسنا شاذلى هو إنسان تقدمى لأنه يعيش عادة فوق سطح سفينة سياحية، قالت إن جلبابه مصنوع من أحدث المواد التى يتخلل نسيجها الخيوط الصناعية، أضافت بقولها إن أكتافه وأكمامه على آخر طراز. ملابس النسوة لها شكل مختلف فى هذه المنطقة، أحيانا ترتدى المرأة بنطلونا يصل حتى الرسغ، لكن فوقه قميصا يصل حتى سمانة الرجل، وألوان ملابسها براقة ومبهجة، والوجوه هنا أكثر سمرة. هنا، أيضا، يوجد موضوع خيال المآتة، ليس بشكل رمزى لكن بشكل حقيقى. لذا إذا كنت قد رصدت هذه الظاهرة، أو أنها المرة الوحيدة التى تُستخدم بهذا الشكل ما بين الإسكندرية حتى قنا، فهذا يبدو أمرا عجبا؛ فكل دولة زراعية تجد عندها ابتكارات متنوعة فى مجال معركة الحفاظ على زراعاتها. ربما يكون السبب فى حدوث هذا الأمر هنا هو أن الناس فى الدلتا أكثر عددا، لذا لا تجد الطيور الفرصة المواتية لاختطاف المحصولات

من على أغصانها. منطقة الانشاءة الكبرى تنعم فى رخاء واضح، وهذا يتبدى من رؤيتى لعدد كبير من الفيلات، بعض منها تصل عتباته حتى سطح المياه حيث يرسو قارب.

الآن، وللمرة الأولى منذ غادرنا القاهرة- عندما تقف على شرفة نادى اليخت فى المعادى، تستطيع بكل سهولة أن تشاهد قمة الهرم الأكبر، بذلك تدرك أن الصحراء موجودة هناك - الآن نعلم هنا يقينا أن الصحراء الغربية ممتدة خلف الزراعات الممتدة على الشاطئ الغربى. نحن نشاهد ناحية الجنوب (الذى كان غربيا) هضاب طيبة التى تتلون بالبنى والأصفر وقد ظهرت ملامحها عند خط الأفق. أمامنا الآن كوبرى قنا العظيم ممتدا فوق مياه النيل.

ظهر المهندس أحمد مندفعا فوق السطح، ظننت أنه قادم ليخبرنا عن وقوع كارثة جديدة، لكنى وجدته قد دخل غرفة القيادة وشغل صفارة المركب. لم أفهم معنى هذه الحركة، وتعجبت عما يكون مغزاها يا ترى، ربما يكون كل من ركب بحر النيل ذلك الملمح الذى ربما يود أن يقول، ابتعد عن طريقى، لأننى غير قادر على تجنب السير فى طريقك، لكن لما يقم المهندس بتنفيذ ذلك؟

شرح لنا علاء بعد ذلك معنى ما فعله أحمد، فهذا الرجل يمر الآن بالقرب من قريته، وهو بذلك يعلمهم أنه قريب العودة إلى أحبائه. ثم، ما إن ظهرت ضواحى مدينة قنا، حتى لاحظت أن شاذلى كرر نفس موضوع زميله، لكن زمارته كانت أطول زمنا، كانت عبارة عن انفجار صوتى. الاثنان الآخران، وهما فاروز وسيد تقدما إلى الأمام وأخذا يحدقان فى التلال الطينية التى تحوى فى أحضانها قرية فاروز، بينما رسمت لسيد الطريق الطويل حتى موطنه. حضر سيد إلى الكابينة الوسطى، قبل هبوطه إلى أسفل، سألته عما إذا كان هو أفضل حالا الآن. أوه، نعم، فهو الآن قريب من موطنه. أبطأ شاذلى سرعة المركب ثم ناور مبتعدا عن عتبات واسعة نما فوقها عدد من الأشجار المزينة باللمبات الملونة الصغيرة ومثبت بها بعض مكبرات الصوت، بينما تجمع عدد كبير من الناس على الشاطئ يرمقون بفضول ذلك المركب الضئيل الحجم، فهذا المكان بالذات هو الذى فيه اعتادت

المراكب ذات السطوح الأربعة الرسو عنده. كان هناك احتفال دينى يقام والأناشيد والابتهالات تنطلق وتنتشر بفضل مكبرات الصوت.

اقترب شاذلى من الشاطئ، ثم صعد فوق العتبات واختفى عن الأنظار، قبلما أسأله عن أى شىء.

توقف الآن الموتور عن العمل، ظهر فاروز وأحمد وقد ارتديا ما يشبه المايوهات، وأمام عينىّ المندهشتين، وقفا أولا على العتبات ثم غطسا وسط المياه الصابونية الشكل، ثم عاما حتى مؤخرة المركب. كنت متوقعا أن ينهارا، أو أن يموتا فى التو واللحظة، أو أن ينتفخا أو يتجعدا، أو أن يصرخا ثم يختفيا فى أعماق المياه، بينما تظهر فقاعات الهواء على سطح المياه. لكن لا شىء من هذا قد حدث. شاهدت فاروز وهو يهز المروحة، وسمعت صوت المحور وهو يخبط فى جسم المؤخرة. نزلت إلى أسفل، رأيت سيد وقد نزع جزءًا من الأرضية، كان هناك تجمعا للمياه فى القاع. سألت علاء عن موقع حوض للسفن هنا يمكن فيه إصلاح السفينة ويمكن حينئذ أن نحصل على مسامير التثبيت المعدنية البيضاء، أو على الأقل، يقوم خبير بتقييم الأضرار التى تعرضت لها السفينة.

ضحك علاء قائلا: ها أنت عدت مرة أخرى للتنظيم والتخطيط.

(٨)

لم نرسُ إلا منذ دقائق معدودات، حتى ظهرت كوكبة من الأفاضل يخطون على العتبات بغية الوصول إلينا. هذه اللجنة تتكون من مدير شئون الثقافة بقنا ومدير قصر الثقافة ومفتش شرطة وضابط شرطة وممثلة ومخرج مسرحى. قام رجال الشرطة بعملهم الورقى لا أعلم ما هى طبيعتها ثم غادرونا. ثم دعانا الباقون إلى زيارة المدينة. بعد قليل استأذن مدير مديرية الثقافة ومدير قصر الثقافة بعدما رحبا بنا وغادرا أيضا، لكن كلا من الممثلة والمخرج استمرا فى البقاء معنا، فقد اتضح أنهما من أصدقاء الأستاذ علاء.

كنت أعلم ما الذى أنتوى أن أفعله. فصورة مصر فى عين أى فرد هى عبارة عن واد ضيق طويل يمتد شمالا من الدلتا وهو معزول عن العالم الخارجى. كانت تلك مسألة من الممكن أن تنبعث من رقادها عندما يتمعن الإنسان فى صورتين قديمتين. فمن ناحية، هناك هاتان السيدتان الإنجليزيتان اللتان كانتا مصابتين بمرض السل وفى طريقهن إلى الفناء، ثم استطاعتا أن تصلا إلى مصر ويستقر بهما المقام فى الأقصر. لقد اعتقدتا أن الطقس المعتدل قادر على شفائهن من مرض لئيم وصعب. أما الآخر فهو ينتمى لكوكب آخر. هى صورة لمجموعة من السيدات كن فى طريقهن إلى الهند، ثم توقفت سفينتهن فى مصر، بعدها عبرن قناة السويس، ثم سلكن الطريق الطويل الذى يمثله البحر الأحمر. كان من الضرورى بالنسبة لى أن أتفهم الحواجز الطبيعية التى تفصل ما بين هذين العالمين. كنت فى شوق لأن أرى تلك الصحراء الموحشة التى تفصل ما بين النيل والبحر الأحمر. هما عالمان منفصلان بينهما صحراء صفراء تطل على نهرنا،

تتسحب أحيانا وتقترب من النيل ثم تبتعد مرة أخرى، وهى صحراء مجدبة ومريعة.

هناك طرق عديدة تسلك فى تلك الصحراء وقد تعرفت عليها عن طريق الخرائط، وإذا عبرت عن ذلك بالأميال، أقول إن المسافة من هنا حتى البحر الأحمر تقل عن مائة ميل. حسنا، لقد تعرفت بالفعل على المياه العذبة، حتى وإن كانت صابونية الشكل، إذن يجب أن أتعرف أيضا على الماء المالح الدافئ. قلت فى نفسى إنه ضرب من التواصل المدهش ما بين الأماكن المختلفة حتى ولو كان ما يفصل بينهما مائة ميل. هى رحلة مكانية والمسافة بينهما ليست بهذا القدر من الإزعاج. انشغلت فى التو بالاستفسار عن إمكانية قيامى بتلك الرحلة والاتجاه شرقا من مدينة قنا. هز أصدقاء علاء رءوسهم. نعم، هى ممكنة، إذا رغبت فى ذلك حقا. اكتشفت على الخريطة أن هناك طريقا يسير موازيا للبحر الأحمر، وأن هناك طريقًا آخر يخترق الصحراء ليتقابل مع الطريق الموازى للنيل. لكن هل يمكن القيام بتلك الرحلة ذهابا وعودة؟ نعم، هى ممكنة، لكن باستخدام السيارة. طبعا بالتأكيد. حسنا، فليكن.

بذلك، تم الاتفاق على كل التفاصيل.. وسوف ننفذ رحلتنا تلك فى الصباح الباكر غدا.

عدنا إلى القارب. علمت أن رشدى مريض فى قمرته، أيضا علمت أن سيد كذلك مريض بسبب الجهد الذى بذله فى خلع الألواح التى تفصل أرضية المركب عن القاع. كذلك صرحت آن بأنها تشعر ببعض التوعك. لذا فقد كنت أنا على قيد الحياة وكذلك علاء، وأما فاروز وأحمد فقد خرجا من ماء النيل سالمين تماما. جلست أنا فى الشمس، بينما نزل علاء إلى أسفل ليطمئن على مرضاه، وجلست آن بجوارى وهى تتساءل عن المدى الزمنى الذى ستقضيه قبلما تسلك طريقها عائدة إلى قمرتنا.

لقد فزنا بالتطلع إلى منظر رائع. ظهر المهندس أحمد على سطح المركب، وودعنا ثم صعد العتبات واختفى. كان يحمل فى يده شنطة صغيرة، ويرتدى

لباسه الغربى كالمعتاد، لكن بذلته كانت تلمع فى ضياء الشمس! تعجبت لأنه لم يتعرض لجراح وهو يهم بارتدائها، أو حتى على الأقل تثلم أى شخص يكون مارا بجواره ثم احتك به. يذكرنى منظره بذلك الشاب الآخر الذى شاهدته سابقا، وهو ذلك المواطن العائد إلى قريته وهو يتبختر وسط الأولاد الصغار. فى أعماق خيالاتى تصورت أحمد وقد حف به جمع كبير من الأولاد الذين يتنافسون لحمل شنطته مسافة الربع كيلو التى تفصله ما بين الأتوبيس الذى أقله حتى بيت أهله المتهدم الذى يقع على ضفاف النيل.

ما إن اختفى أحمد عن النظر، حتى ظهر أمامنا فاروز. هو الآن لا يرتدى أوفروله المعتاد لاعبا دور علاء الدين والمصباح السحرى، لكنه الآن يمثل دور الأمير. كان يرتدى جلبابا أزرق اللون، فوقه ارتدى جلبابا آخر أكثر زرقة مفتوحا فى مقدمة وسطه، كذلك لبس فوق رأسه عمامة زرقاء رائعة جميلة. أخذ يستعرض نفسه أمامنا بالرضى الخفى الذى نحسه فى الطاوس، ثم صعد العتبات واختفى عن الأنظار. هو ليس لديه منزل للعائلة فى قنا، لذا خمنا أنه سوف يتوجه إلى جهة ما لزيارة بعض الناس.

أعتقد أن زوجتى هى التى شاهدته أولا، أو لعلنا نحن سويا رأيناه، هو طائر جميل لونه أسود فى أبيض يعمل بمنقاره فى الماء المجاور للشاطئ؛ الآن، ونحن جالسان تحت الشمس، يعمل هو فى الماء بجد ونشاط ويتنقل على العتبات والكشك - لم يكن هناك أى شك فى نوعية هذا الطائر. تأكيدا هو طائر الرقراق (صياد السمك). لا يمكن أبدًا أن أخطئه بمنقاره المستقيم القوى، ما كان مختلفا فيه هو الذيل، هو فى طول جسمه يمتد على شكل مروحة عندما يطير مجددا، لونه أيضا هو خليط من الأبيض والأسود. ظللنا فى مكاننا لا نجرؤ أن نتحرك نراقبه وهو يباشر عمله أمامنا فى اصطياد الأسماك. طريقته فى ذلك هى أنه يطير مبتعدا نحو الشاطئ بمقدار خمس ياردات فى عدة دورات، ثم يأتى سريعا ويغطس فى الماء ثم يكرر ذلك مرارا. فى النقاط التى تتحد فيها تلك الدورات، نجده وقد حلق فى الجو ثم ينقض. إنه يؤدى عمله بطريقة تميزه عن طائر سمك بلادنا، فهو يستمر فى التحليق بينما ريش ذيله يبتعد عن محوره مستطلعا كل

مكان فى الماء، ثم يبتعد قليلا على شكل دوائر أو يقف على غصن شجرة بكل رشاقة، أو، ينقض على ضحيته. عندما يهبط طائر الرقراق، تجده اخترق الماء بطريقة عنيفة كأنه بلطة صغيرة سقطت. الآن هو يدور فوق رءوسنا والشمس الرائعة تغمره ثم ينتقل ويقف على العتبات أو الشاطئ، فى كل هذا الوقت الذى قضيناه ونحن نراقبه، أقول إن ذلك يستحق تلك الرحلة التى قمنا بها.

ظهر علاء وقدم تقريرا عن حالة مرضاه. رشدى حالته أصعب، أما سيد فإنه يرفض أن يذهب إلى المستشفى، فهو ينتوى أن يزور أهله مهما كلفه هذا من جهد أو متاعب. أجبت بقولى إن موتور المركب بحالته السيئة تلك، يصعب علينا أن نتجاوز أبدًا مدينة الأقصر. قال علاء، إذا فى هذه الحالة، عليه أن يغادرنا ويستقل سيارة أجرة حتى بلدته.

عثرنا على الريس شاذلى الذى أصر أن يشترى لنا بعض الشاى. الريس شاذلى هذا هو رجل غنى، يمتلك منزلا على بعد مائة ياردة من موقعنا هذا، وزوجته تعيش هنا فى قنا. حسنا، واحدة من زوجاته تعيش هنا، فهو لديه زوجتان. واحدة هنا فى قنا والأخرى تعيش فى القاهرة. لديه ابنان من واحدة وثلاثة من الأخرى. كل من السيدتين من أهالى قنا، وقد تشاركتا يوما فى منزل واحد بدون حدوث مشاكل تذكر. بالطبع، طبيعة عمله تستدعى أن يغيب كثيرًا عن منازله، لذا عندما يكون مجال عمله فى خط الإسكندرية ـ القاهرة أو فى طريق القاهرة ـ قنا فإن وجود زوجة فى القاهرة وأخرى فى قنا تجعله يحس بالراحة والاطمئنان. وافقوا جميعا على هذا التحليل، بينما استمر علاء فى ترجمة أقوالنا له. أخذ هو يومئ برأسه أمام كل واحد منا بالتوالى كأنه يمنحنا فضلا وإحسانا.

قضينا ليلة فظيعة؛ حل الفجر ولم نهنأ بنوم. أدركت أننى لست فى حالة تسمح لى أن أواجه صعوبات ولوج مجاهل الصحراء، لكنها محاولة يجب أن تتم.

قررت زوجتى بعد تفكير أن لا ترحل معنا، لكن أفراد بعثتنا ظهروا جميعا الساعة السادسة والنصف صباحا؛ كان هذا مثالا واقعيا يصور الالتزام المصرى،

أشعل هذا فى داخلى مخاوف عديدة بخصوص تلك الرحلة المقدمين على تنفيذها الآن. مع ذلك، لاحظت أن أفراد البعثة جميعا يرتدون ملابس عادية، أما السيارة التى سوف نستخدمها فهى صغيرة وركيكة. تعجبت، كيف يمكن لها أن تصمد وسط الصخور والرمال. أيضا هى لم تكن فسيحة بحيث تسعنا كلنا. "كلنا" هذه تشمل باسم، وهو المخرج المسرحى، كذلك الممثلة عزة، وعلاء، وأنا ثم أخيرا سيد الذى سوف يركب معنا لمسافة ميل أو اثنين فقط. فعلا قمنا بإنزال سيد عند مكان تجمع السيارات الأجرة وتمنينا له رحلة موفقة، ثم التفتنا نحو رحلتنا المفعمة بالمخاطر. سلكنا طريقا يخترق مدينة قنا، وهى مدينة كبيرة لكنها ليست نظيفة، ثم سلكنا طريقا جانبيا قادنا إلى سهل أجرد مشابه لسهل أخيناتون. كانت سيارة باسم تعانى الأمرين بسبب الحمولة الزائدة، تعجبت عما يكون موقفنا إذا تعطلت بنا ونحن وسط الصحراء. كان هناك شريط للسكك الحديدية مجاورا للطريق، لكنه اختفى فجأة ولم تتبق سوى الرمال والصخور. التلال كانت تحيط بالطريق من كلا الجانبين، وهى تلال قميئة ومنخفضة. من وقت وآخر، تمرق بجوارنا سيارات ولوارى ضخمة آتية أو قادمة. وصلنا إلى محطة بنزين ثم تجاوزناها. هناك شجرة وحيدة تنمو على قليل من الماء بجوارها. الطريق المخصص للسكك الحديدية اختفى تماما.

كان هذا غريبا، الطريق مسطح وبه عدد قليل من المرتفعات. هو طريق يتلوى ويتثنى، لكن ليس بشكل متواتر. عبرنا على كشكين وبعض الآلات التى أعتقد أنها تختص بالبحث عن البترول. بجوار هذين الكشكين كانت هناك مزرعة صغيرة، لكنى لم أشاهد مصدرا واضحا لضخ المياه. كان فى إمكانى أن أطلع على خريطة الطريق بكل سهولة، فالطريق يسير ناعما بل وأفضل مما كنا ونحن على سطح المركب. حرارة الجو لطيفة. فى الخريطة قرأت كلمة "بير..." شىء ما. كلمة بير تعنى بئرًا.

عبرنا بين تلين مستديرين، ثم سرنا فى أرض سيئة والهضاب تقع فى سهول قوامها الطين الجاف. ماذا أيضا، هل يمكن أن يجف الطين عندما يمتنع المصدر المائى؟ ما كان واضحا للعيان هو ميكانيكية الكوارث الطبيعية التى حلت على مصر خلال الدهور الماضية.

عبرنا منطقة رملية ثم صعد بنا الطريق تدريجيا ليصبح تلا. أخيرا، استطاع الطريق أن يصنع شيئا، كنا نقترب من ممر صاعد، فى هذا الممر شاهدنا "الحدث الجيولوجى" الوحيد فى رحلتنا هذه - طبقات وراء طبقات تنثنى وتنحرف فجأة كأن الريح هى التى شكلتها وليس المطر وجعلت من أشكالها منظرا لا ينسى، هى تشبه تماما ما شاهدته فى "مانوويل" بالبرتغال. ثم هبطنا من هذا الممر لنفاجأ بظهور ملامح البحر الأحمر، ظهر هكذا بطريقة هادئة على شكل شريحة ليست مفرقة فى اللون الأزرق. أثناء تأملى فى منظره البعيد، استرجعت فى خيالى تلك الظنون القديمة التى كانت تزحم فكرى أيام صبوتى، حيث كنت أجزم أن لون مياه البحر الأحمر هى حمراء فعلا. تغير شكل الطريق وأصبح مسطحا مرة أخرى إلى أن وصلنا إلى بوابة مفتوحة عبر الطريق، هناك أوقفنا رجال الشرطة وفحصوا أوراق علاء، كانت هذه فى أفضل حال، لذا دلفنا إلى ميناء سفاجا.

هذا الميناء عبارة عن مستودع كئيب وفى معظمه يتكون من أماكن إقامة للبحارة ويحيط بكل شىء سياجات من الأسلاك الشائكة. هو فى الواقع عبارة عن موطن للمعسكرات. هنا اتضح لى كثير من الأمور، فهناك أكثر من طريق يشق الصحراء الشرقية، جميعها فى حالة جيدة بسبب الأغراض العسكرية أساسا، بواسطتها يمكن إرسال الجنود سريعا إلى ميناء سفاجا حيث تستقر بعض من قطع الأسطول البحرى المصرى. من هذا الميناء يمكن الدخول إلى أى مكان فى خليج السويس أو خليج العقبة. لكن فى عام ١٩٨٤، كانت معظم منشآت الميناء مهجورة أو مهملة ولا تعتبر صالحة للاستخدام. مع ذلك، شاهدت كثيراً من الحفر التى تصلح لأن تنصب فيها قواعد المدافع ضد الطيران وعليها الطواقم اللازمة لإدارتها وفوهاتها متجهة ناحية الشرق. عندما وقعت مصر وإسرائيل معاهدة السلام، توقف العمل وتركوا الطرق ليستغلها من شاء، لكن المدافع ما زالت منصوبة وفى حالة استعداد. هناك حقيقة أخرى تكشف أسلوب أى قوات مسلحة أيام السلم - فأنت مضطر إلى أن تجد شيئا يفعله الجنود، لذا تجدهم موجودين هكذا، جالسين حول مدافعهم أو يتهاتفون خلف الأسلاك الشائكة بلا اهتمام.

أخذنا نتجول على طول شاطئ ملىء بقطع الأصداف البحرية، نلتقط بعض الحصى ذى الشكل الفريد، وعاودنا السير. لقد أحسسنا بالتعب من جراء تلك الأميال الطويلة التى قطعناها، ومقدار العزلة والفراغ. إنها تشبه رحلة إلى الفضاء الخارجى بهدف استكشاف الجديد من الأمور، وفيها قد يحقق الإنسان شيئا أو لا يحقق شيئًا على الإطلاق.

عدنا مرة أخرى نسلك الطريق العائد إلى وادى النيل، إلى أن وصلنا إلى منطقة كان يستخرج منها الذهب قديما، ليست من المناطق الموضحة على الخرائط وتعتبر مع ذلك حديثة. لقد أغلق ناصر هذا المنجم، كما فعل مع أشياء أخرى، لأنها كانت ملكية أجنبية. أخبرنا حارس المنطقة أن المنجم الرومانى على بعد قليل من مكانه هذا ويقع بجوار البئر التالى. لذا توجهنا إلى منطقة بئر أبو الفواخير، وهى تتكون من منزل على جانب الطريق وكشك به رجل للبوليس على الجانب الآخر. على بعد مائة ياردة كان هناك بناء يشبه الملاجئ التى تبنى ضد الغارات. ظننت أولا أنه بناء أنشأته مصلحة الآثار لكى تحتفظ بداخله بالبئر الرومانى. بالطبع هذا صحيح، لكن من أنشأه هم الرومان وتركوه هكذا منذ الزمن القديم، ولا يوجد هناك كتاب يوضح تاريخ بنائه. جلبنا عدة زجاجات من عصير البرتقال وتوجهنا إلى ذاك المنزل الوحيد، وهو يستخدم أحيانا كقهوة، ثم توجهنا إلى البئر. بئر (أبو الفواخير) هذا يعتبر تكوينًا رائعًا، محيطًا فم البئر تبلغ خمس ياردات والعمق يزيد عن ٣٠٠ قدم. الفتحة الرئيسية محاطة بسور من الأحجار وعلى جانبه توجد فتحة أخرى محفورة فى الصخر بإتقان، بها سلالم هابطة حتى القاع، وكل خمسين قدمًا تقريبا توجد فتحة عرضية ما بين الفتحتين لتحسين الضوء لمن يجرؤ ويهبط إلى أسفل أو يصعد إلى أعلى، وهذا ما فعلته عندما وصلت فقط إلى منتصف المسافة. لا أدعى هنا أننى عالم فى شئون الأبيار، لكنى أقرر هنا أن هذا البئر هو عمل هندسى بارع وتم إنشاؤه بدقة متناهية. عندما عاد علاء من رحلة الأعماق، أخبرنى بوجود الماء فى أعماق البئر، ثم أضاف حزينا بأنه لا يوجد الآن فى مصر من يستطيع أن يبنى مثل هذه البئر. فكرت أيضا عن أسباب قيام الرومان ببناء الحوائط العالية المحيطة بالبئر،

بالطبع فعلوها خوفا من أخطار السيول التى من الممكن أن تردم البئر بالطين. عدنا مرة أخرى إلى القهوة طالما أن البئر هى ليست سوى بئر، مهما كانت ذات بناء عبقرى. تناولنا الشاى، وأعتقد أن ماء الشاى كان من ذلك البئر الرومانى.

كنت مصرا أن أطلع على منجم الذهب القديم، كذلك أن أشاهد منازل العبيد. الولد الذى كان موجودا فى المنزل، هو ولد صغير الحجم وشكله لطيف، لكنه قذر للغاية، فمن الواضح أن مهمة الماء الوحيدة هى أن تكون للشرب فقط. كان يلبس عمامة ضخمة وجانب من وجهه به بعض آثار الجروح. قال لنا إنه حاول أن يطارد غزالا وهو فوق عجلته ثم تعثر ووقع. على أية حال، هو على استعداد كامل أن يجعلنا نشاهد المنجم كذلك الأكواخ. لذا ركب معنا السيارة وسرنا. كنت أشك فى حكمة ما نفعله هذا، لكن فى الواقع هذا الولد هو الذى كان يقودنا. بعد ميل أو أكثر، طلب منا أن نتوقف، وبدلا من مناجم الذهب والأكواخ، وجدت أنه علينا أن نشاهد بعض الحفريات والنقوش والآثار، وهذا ما لم أخطط له، لكنى لا أنكر أننى سررت عندما اطلعت عليها. بعض النقوش كانت «فرعونية» مكتوبة بالهيروغليفية، سجل بها أن الفرقة هذه أو تلك قد حلت هنا فى حياة الفرعون هذا أو ذاك، وهى عموما تبدو أقل أهمية من ناحية الدراسات المصرية القديمة، ولا تقارن بما شاهدناه منذ سنوات فى أسوان من حفر منقوش على صخور جزيرة سيهيل. النقوش التى شاهدناها هنا، البعض منها كان مكتوبا باللاتينية أو اليونانية، ومعظمها لأسماء سياح قدامى زاروا تلك المنطقة الموحشة. بالطبع كان هنا وهناك بعض الخربشات الحديثة، لكن ليس من المناسب أن نتحدث هنا عن التخريب المتعمد للآثار الذى حدث من ثلاثة آلاف عام سابقة، والتى تطل علينا الآن بينما تحيط بنا تلك الصخور الدهرية. لكن منذ متى اعتبر التخريب الأثرى كأنه نوع من البحوث الأثرية؟ لكن هم السياح! هل استشعروا مثلا برغبة أكيدة أن يعبروا على وجود صلات قوية تربط ما بين وادى النيل والصحراء، حتى فى ذلك الزمن القديم؟ حسنا، وربما فى وقت مبكر قليلا عن وقتنا هذا.

أراد هذا الفتى أن يجعلنا نشاهد نقوشا أخرى تقع فى مكان ثان، لكن نحن صممنا، فقط نود أن نشاهد مناجم الذهب وأكواخ العبيد لا غير. لذا قام هذا المجرم بإعادتنا مرة أخرى إلى موقع بئر (أبو الفواخير)، ثم خرج من السيارة وأشار بيده. كانت تلك الأكواخ التى أردت أن أشاهدها لا تبعد عن مكاننا سوى مائتى ياردة. لذا مشيت نحوها، لكن الغلام أصر أن يجعلنا نشاهد بيت الكونت أو البيت الأبيض، وهو المنزل الذى كان يشغله مالك المنجم الحديث؛ لكن هذا المالك كان قد «غادر» البلاد. رفضنا عرضه بكل إباء، لذا أدار ظهره لنا قائلا إن المنجم والأكواخ التى نود رؤيتها تبعد حوالى ميل داخل الصحراء، لكنها لا تستحق أن نشاهدها فهى مشابهة تماما لما نراه أمامنا الآن. بعدها انسحب قابضا بين يديه ما منحناه إياه بكل سخاء، وكلنا معجبون من فرط ذكائه. لقد استخدم سلطانه علينا بكل مهارة، وسوف يعلو شأنه إذا لم تتكسر رقبته يوما وهو يطارد غزالة أو أن يقضى عليه أحد السياح. لكن أعظم ذكرى خرجت بها من هذه الزيارة هى مشاهدتى لبئر (أبو الفواخير)، فبينما أنت فى مجاهل الصحراء تسير بسيارتك فوق طريق معبد، سوف تقدر أهمية وجود بئر للمياه.

بعد ذلك، قادتنا السيارة مسافة أربعين ميلا أخرى لنشاهد بئر الحمامات وبئر اللقيطة. حاولت بقدر إمكانى أن أنطق حرف أل (ق) بالعربية، لكن لم أجن من ذلك سوى وجع مؤلم فى زورى. بعد انتهاء تلك الزيارة، أخذنا طريق العودة إلى قنا، وعلى بعد خمسة عشر ميلا قبل وصولنا، دخلنا إلى منطقة تحفل بالخضرة والذهب، من قصب السكر إلى النخيل إلى المحاصيل المتعددة والمياه المتلألئة. فنحن الآن قادمون من قلب الصحراء حيث الوهاد والجبال والطين الجاف وأكوام الرمال التى تتجمع فى كل مكان وركن، لنجد أنفسنا وسط هذا التعدد المحصولى الرائع للزراعة المصرية. فى مصر، يبرع الفلاح فى اختيار محاصيله (مهما كانت مساحة الأرض الزراعية المتاحة له صغيرة)، وهو أسلوب قد ينتهجه الرجل الإنجليزى أو الهولندى عندما ينسق حديقة منزله الأمامية.

وصلنا إلى مدينة قنا الساعة الثالثة بعد الظهر، هذا الوصول المبكر يوضح مدى سهولة القيام بزيارة إلى المناطق الواقعة على البحر الأحمر، لكن إذا كنت

أوروبيا معتقدا أن الحقول الخضراء هى المجال الطبيعى للإنسان، أقول لك إن الرحلة إلى الصحراء تستحق لكى ترصد ما الذى يمكن أن يفعله الجفاف، وأن تسر ناطريك بمشهد بئر رائع التصميم.

إنه بئر (أبو الفواخير) العظيم! هو استثمار جيد بالطبع، لأنه يخدم عائلة واحدة ومعهم رجل شرطة، لكن عندما فكروا فى إنشائه للمرة الأولى، كان استثمارا جيدا لأنه كان يخدم منجما الذهب ومن فيه من عبيد، وبالطبع تم عمل حساب لكل شىء. وأعتقد أنه كان هناك عدد كبير من العبيد فى الزمن القديم. كان هناك أيضا مخاطر وقوع السيول، لذا راعوا أن يكون البئر مصدرا آمنا تماما للحصول على الماء مهما كانت المشاق فى تعميقه أو فى شق الصخور. إذا اختفى الماء، إذا لا ذهب هناك. هذا البئر يماثل فى أهميته بئر البترول، إنه يفوق فى أهميته تلك النقوش التى تركوها لنا منذ العصر الإمبراطورى. وعندما انتهى الذهب من المنجم، أصبحت الفائدة من البئر شبه معدومة، كذلك اختفى هؤلاء العبيد الذين طالما استنزفوا ماء هذه البئر. أسوأ ما يمكن أن يحدث للعبد هو أن يلزموه بالعمل فى المناجم، فأمام تلك الرغبة النهمة فى اقتناء الذهب، اختفت تماما العواطف البشرية الخالصة وأجبر العبيد على العمل حتى مرحلة الموت، وهذه المرحلة الأخيرة هى ما يطلبها العبد لأنها تعفيه من العذاب المستمر والتعرض لمخاطر المناجم الهائلة. إذن فقد استمر بقاء هذه البئر فى مكانه هناك يمنح الماء، وما زال بنفس شكله الأصلى. كأنه ذكرى خالدة تذكرك بالجشع الإنسانى وعدم الاهتمام بالبشر أكثر ما يذكرك بهما تمثال أوزيمانديياس(*) .

عندما وصلنا حتى شط النيل حيث مركبنا، لاحظنا أن شاذلى قد غير مكان سفينتنا. من الواضح أن هناك سفينة سياح ضخمة مرت بجواره فتلاعب مركبنا بعنف واصطدم بالعتبات بفعل الأمواج المرتدة. نعم، «هانى» ليست فى حاجة إلى التعرض إلى محن جديدة، لذا قام شاذلى بحكمته المعهودة بتحريك سفينتنا من موقعها الأول وأبعدها عن مخاطر الأمواج الصادمة. لاحظت أيضا أن طائر

(*) Ozymandoas هو عنوان قصيدة للشاعر الرومانسى برسى شللى فكرتها أن الفناء يلحق بجميع الأشياء بما فى ذلك الملوك والملكات، ويجسد الفكرة تمثال رمسيس الثانى المتهالك. (المراجع).

الرقراق ما يزال يمارس لعبته، يدور ويناور ثم يغطس فجأة. كانت زوجتى جالسة على السطح تحت الشمس وقد استردت عافيتها، لكن رشدى المسكين لم يزل ضمن قائمة المرضى.

أدت السيارة مهامها على أكمل وجه فى رحلتنا تلك، الجميع كان راغبا فى عمل رحلة أخرى عندما تكون زوجتى فى حال يسمع لها أن تصاحبنا، لكن على الرغم من أن هذه السيارة قد تحملتنا جيدا، فإنها تبدو فى نظرى ضعيفة ومتقدمة فى العمر، بل وقد تفوقنى عمرا. تم التخطيط للقيام برحلة أخرى، لكن لن تكون ذات مدى بعيد. تساءلت: هل يمكن أن نطلع على أسلوب حياة الفلاحين المحليين؟

مركبان ضخمان محملان، يستفيدان من الريح المواتية. ما كنت أظن أن هذه المراكب الأنيقة بتصميمها البسيط وشراعها المنفرد أن تكون واحدة من تسلياتي أثناء رحلتي هذه.

المركبة هانى

بلدة المراغة. الأحجار الجيرية التى تكون الكورنيش قديمة للغاية، لدرجة أنها بدأت تتشقق فى كل مكان. وعلى جدار منخفض تراص عدد من النظارة يراقبوننا.

الفيوم: نقترب أولا من خط لونه أخضر ـ رمادى، ثم يأخذ هذا الخط فى الاتساع والانبساط ليغلب عليه اللون الأخضر الزاهى، هنا تدرك فجأة أنك وسط أرض زراعية تبدو أكثر خصبًا من أراضى وادى النيل.

بحر يوسف. «كنت قد وعدت نفسي أن أبدى اندهاشا بالغا عندما أشاهده للمرة الأولى، لكن وأنا ألاحظه على مدى عشرين كيلو متراً ، أصبح عاديًا فى نظرى، وانتهت دهشتى تمامًا.

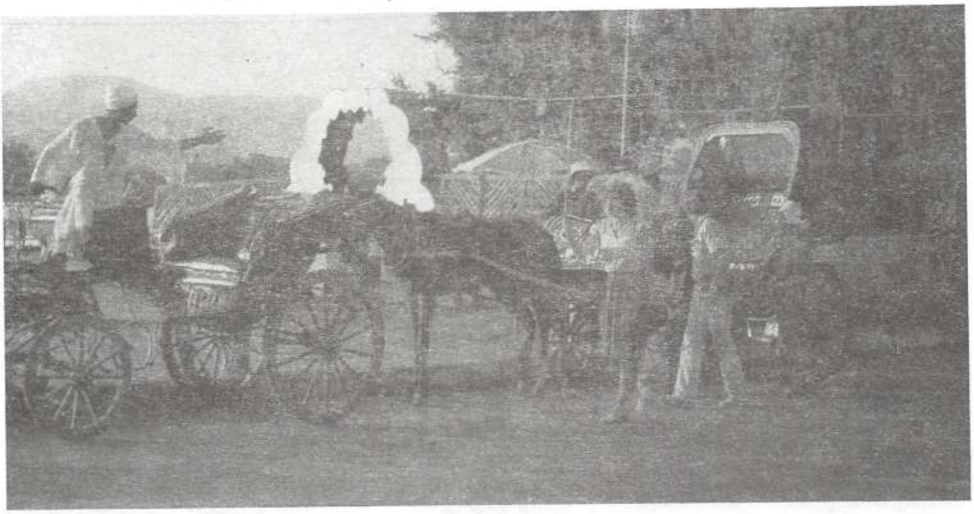

عربات الحنطور فى الأقصر وهى تلمع تحت ضياء الشمس الساطعة، بعض منها تعتبر عربات أثرية، لكنها أنيقة فى مظهرها.

كما أعتقد، لا أظن أن معبد الأقصر قد تحسن منظره عن ذى قبل، فما يزال يحيط به بعض المبانى القميئة التى تحرم المنظر من شكله الجمالى البديع.

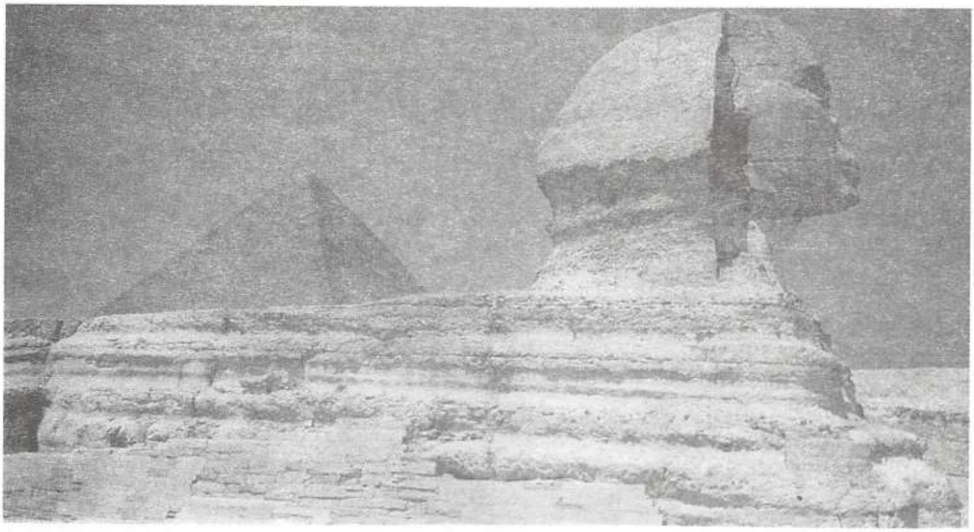

تمثال أبو الهول. عندما عاد وليم جولدنج إلى لندن، كتب خطابا نشر فى مجلة التايمز يطالب فيها بإعادة لحية أبو الهول.

معبد كوم أمبو: «بالنسبة للمعابد، لست أدعى أنه معبد سيئ بالمقارنة بأمثاله، فهو يستقر فى موقع متميز، فهو يعلو بمقدار خمسين قدمًا عن النيل، ويبعد عنه بمقدار عشرين ياردة.

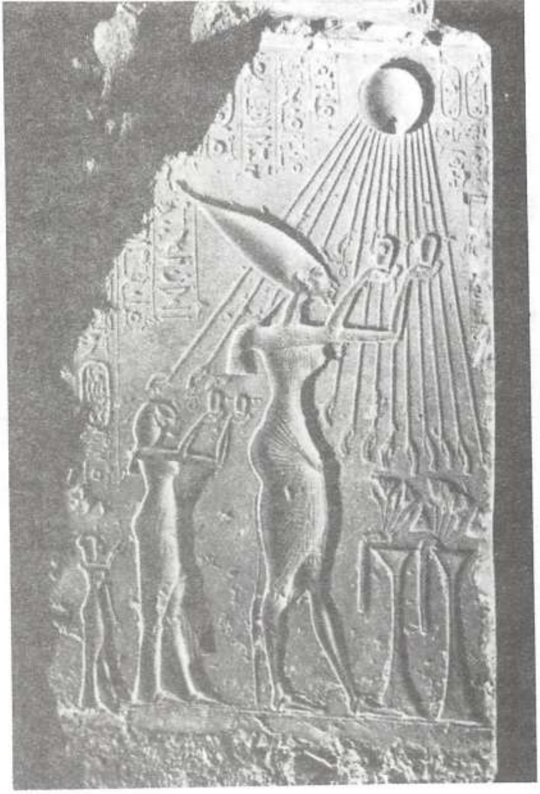

نحت يوضح أخناتون وهو فى تل العمارنة. كان يظن أولا أنه أول الموحدين فى العالم، لكن الآن ينظر إليه على أن فكرته عن إلهه هى مادية بحته، فهو فى الحقيقة يعبد قرص الشمس ذاته (آتون).

بعض الزراعات المتفرقة التى تبزغ بين الحين والآخر فى حضن هضاب الصحراء الشرقية.

الرجل المبارك مع زوجته، نلاحظ أن الرسام أوضح تماماً بريق العيون.

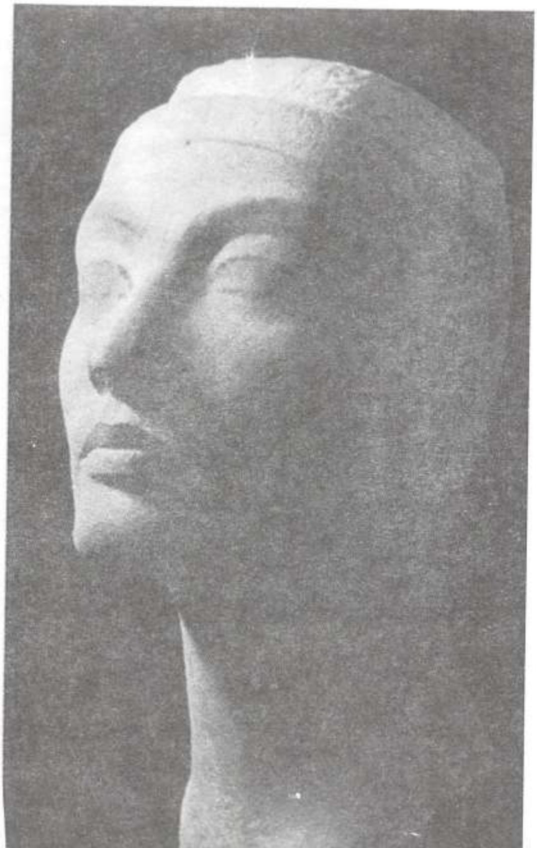

تمثال للملكة نفرتيتى.

نلاحظ هنا كتل الأحجار الجيرية التى ارتفعت بمقدار ستة أقدام فوق سطح الصندل الجرار.

هذا هو الصندل الذى ارتبطنا به، وهو ملىء بالأحجار الجيرية اللينة التى اقتطفت من هضاب الصحراء الشرقية، وقد أدركت أنها لينة عند وضعت قطعة منها بين إصبعين واستطعت أن أفتتها.

يقضى رشدى معظم وقت الظهيرة وهو يقرأ، ويشاهد هنا علاء وقد وضع رأسه على حجره.

سميد، آن، المؤلف، رشدى ثم أحمد، بينما يظهر الريس شاذلى فى غرفة القيادة. تحاول آن أن تبذل كل جهدها لتتحمل، بينما تبدو على المؤلف مظاهر الاستمتاع بما حوله.

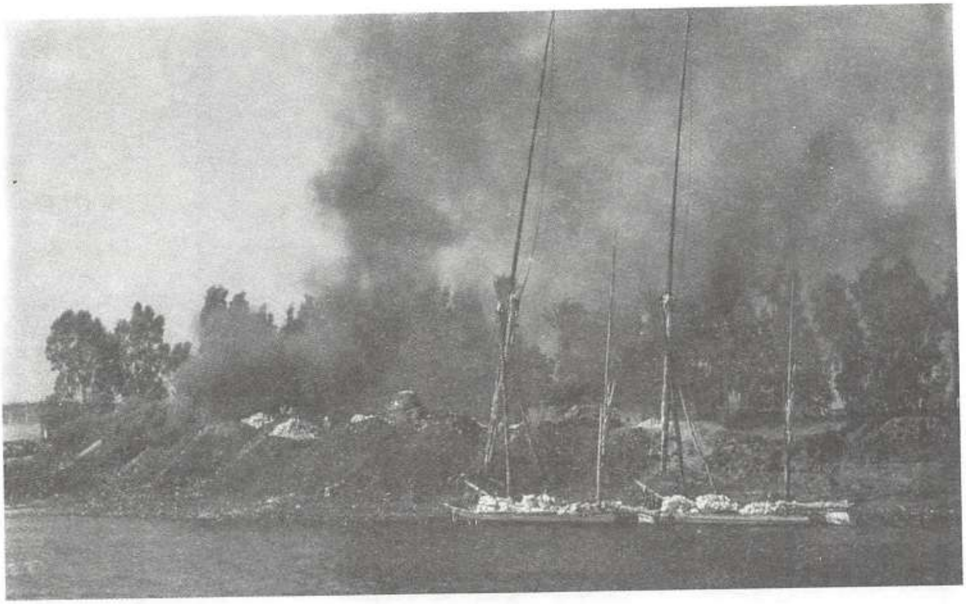

عملية حرق الحجر الجيرى

بيع السمك من فوق قارب

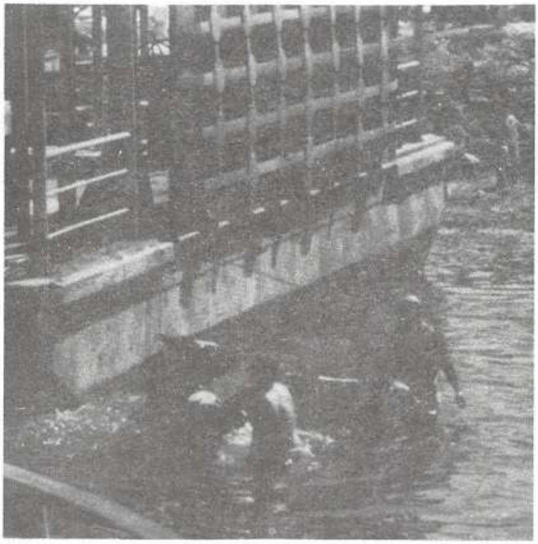

سائقو العربات الحنطور وقد أحضروا جيادهم البائسة لتستحم فى النيل، وبذلك تلتقط أمراضًا جديدة أو أنها تستبدل مرض بمرض.

محطة البوليس النهرى، تقع على شط النهر وتتكون من كشكين، وعدد من البحارة بزيهم المعروف.

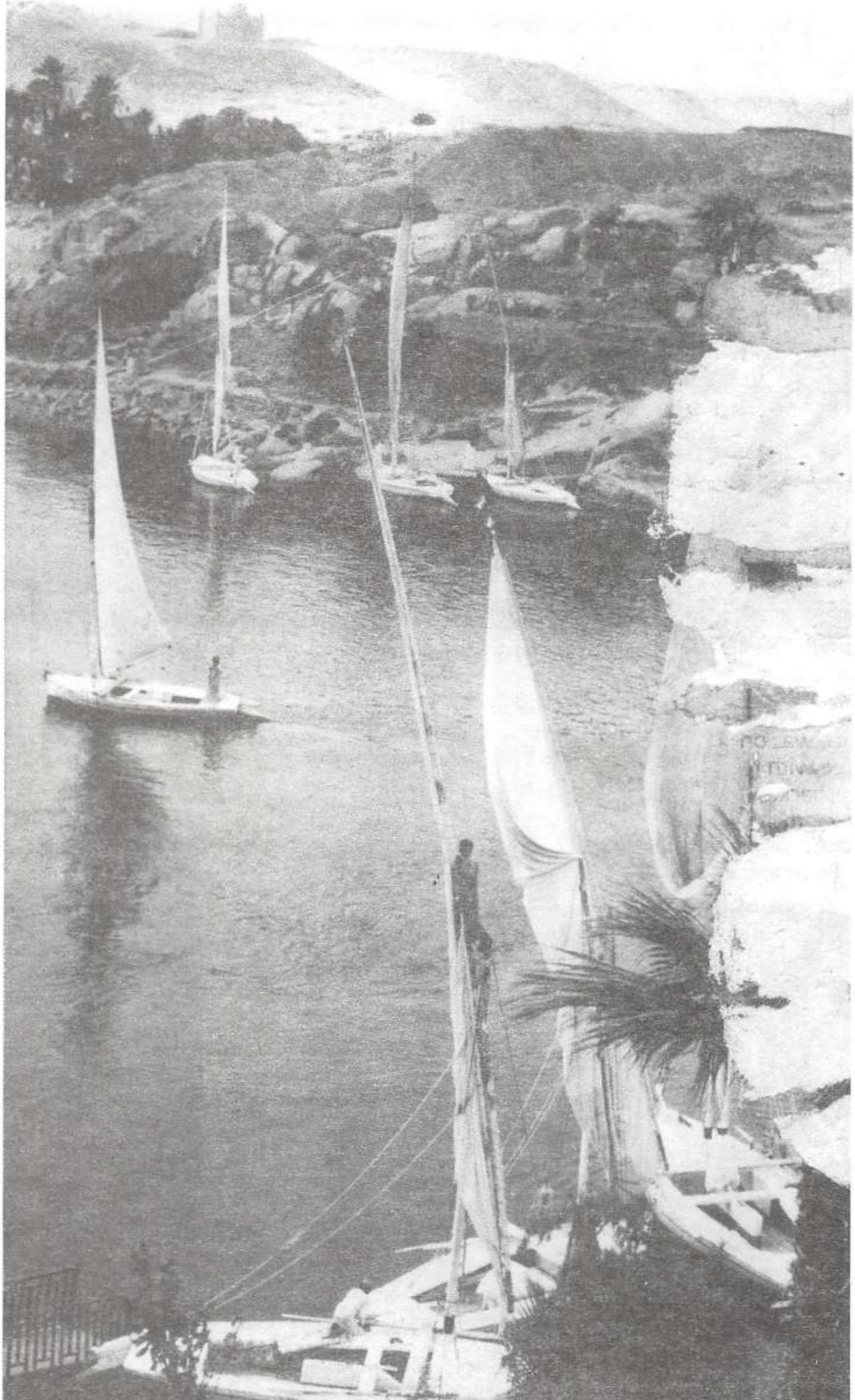

ولد يتسلق شراع فلوكة

حقل صناعة الفخار، كل المبانى مصنوعة من قطع الفخار المعيبة.

فى كل هذه الطبقات المنتظمة من الفخار التى تمثل جدران المنازل. لا تخلو واحدة منها من منفذ هوائى داخلها.

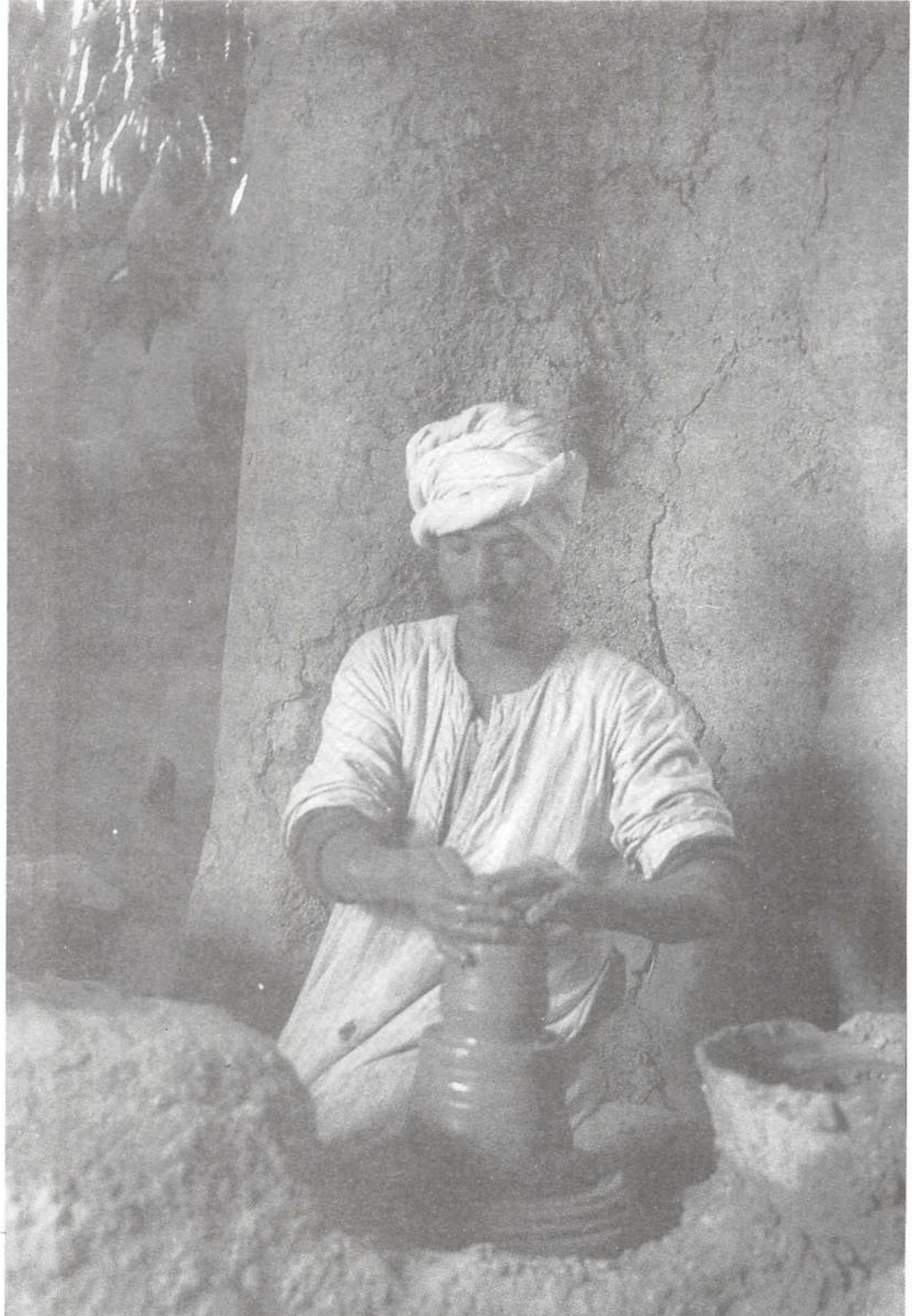

داخل واحدة من الألواح الفخارية، نرى ذلك الصانع الماهر وهو يمارس فنونه العجيبة.

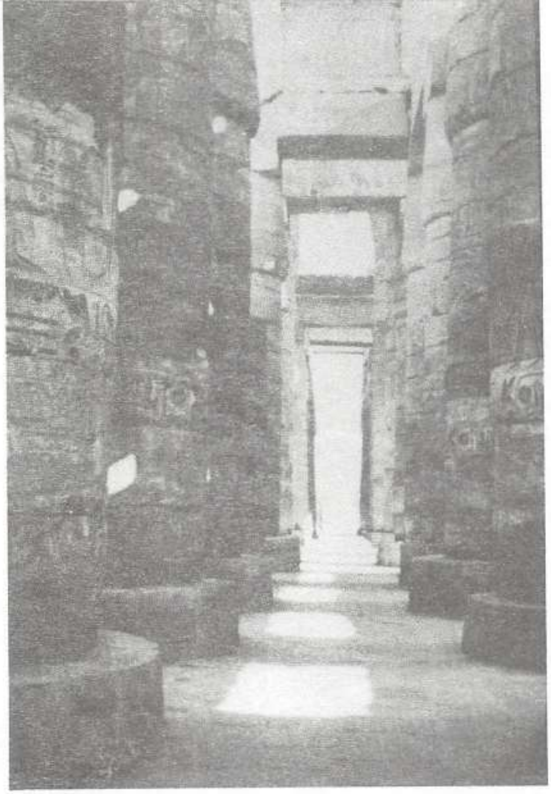

قاعة فى معبد الكرنك، حيث يستقر السقف فوق الأعمدة.

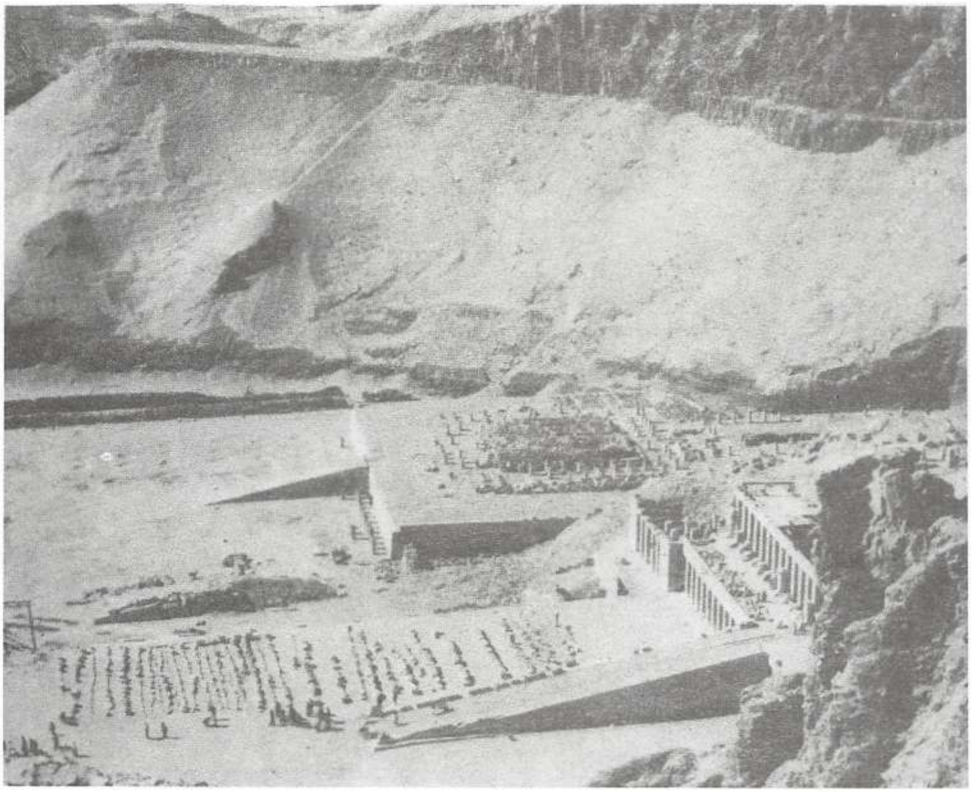

معبد حتشبسوت «إنه واحد من الأبنية الفرعونية، يستقر متواضعًا فى حضن الهضاب الجبارة المحيطة به من كل جانب.

إنه الهرم الأكبر، وبالتأكيد هو أعظمهم، ويقال إن منشئه هو خوفو، لكن لا يوجد نقش يؤكد ذلك.

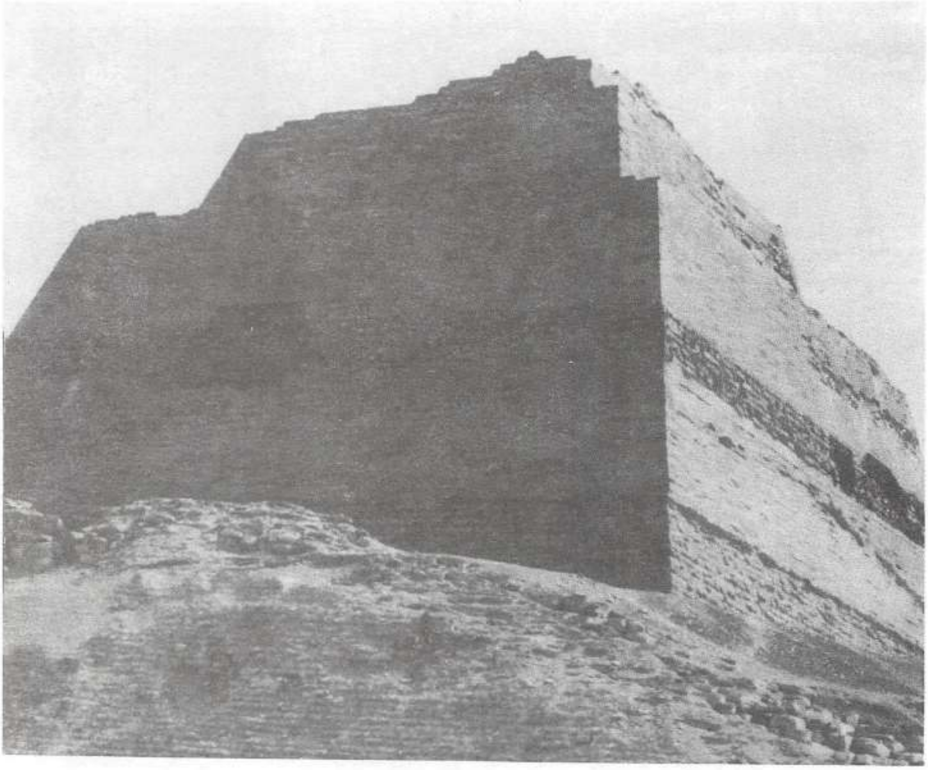

هرم ميدوم.

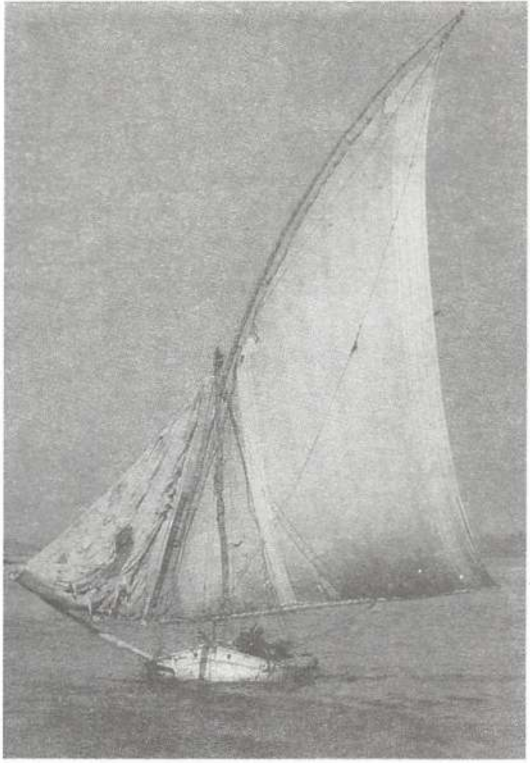

مركب مجهز بشراع صغير
إضافى لتحقيق التوازن.

على طول الطريق، كنت أشاهد النسوة قادمات إلى شط النيل. إنهن لا يجلبن الماء لكن يقمن بغسل الملابس وأوانى الطعام، فى الحقيقة، أعجز عن أن أعد كل المهام التى تنشغل بها النسوة المصريات.

(٩)

صباح اليوم التالى، حضر إلينا كل من باسم وعزة الساعة السابعة إلا ربع صباحا، لذا ركبنا السيارة الصغيرة أنا وزوجتى وعلاء، ثم اجتزنا شوارع مدينة قنا، اكتشفت أنهم قد جعلوه يوما لصناعة الفخار. لكن هذا لا يمت بصلة للفلاحين، فى الواقع لم أستطع أن أحفز المصريين الذين قابلتهم لأننى أريد فعلا وحقا أن أقابل هذا الفلاح الذى يعمل فى نصف فدان ولا يمتلك بقرة ولا جاموسة. ربما علموا أكثر منى أن التواصل والتفاهم سوف يكون مستحيلا بيننا حتى ولو استعنت بمترجم، أو أنه لا توجد أبدًا تلك النماذج التى طالما سمعنا عنها وتحكى عن رجال ونساء وأطفال بالكاد قادرين على العيش. هل يشعر مرافقى بالخجل من الفقر ويريدون إخفاءه عن ناظرى؟ هل شعروا مثلا، كما قد يخطر فى أذهانهم، أن هذا ليس من شأنى الخاص وطالما أننى لست قادرا أن أفعل شيئا إيجابيا لمعالجة ذلك؟ لكن صناعة الفخار هى للصناع المتمرسين وليست من مجالات عمل الفلاحين.

توجهنا أولا إلى معامل الفخار. ألم يقم يهوذا بشنق نفسه فى معمل لصناعة الأوانى الفخارية؟ وطبقا لخبراتى المحدودة أوقن أنه سيجد صعوبة بالغة فى شنق نفسه لو حضر إلى هنا باحثا عن شجرة، لأن معامل الفخار هنا تخلو تماما من الأشجار، وهو مجدب كأنه صحراء.

هو يقع فى إحدى ضواحى مدينة قنا ويمكن مشاهدته وتمييزه بجبل قطع الفخار، ذلك الذى أصبح هكذا على توالى الأيام والسنين. وفيما كنا نركن سيارتنا

قفزت إلى ذهنى عبارة «دار الأوانى الفخارية»، لا أعتقد أنها وردت فى الكتاب المقدس، ربما وردت فى كتاب ألف ليلة وليلة، لكن مهما كان مصدرها، فهى معبرة تماما عما أشاهده الآن. فى هذا الموقع، كل البيوت مبنية من الأوانى الفخارية وليس من قطع الفخار . إنها مبنية بوحدات فخارية كاملة أو شبه كاملة. بعض البيوت مهيأة للعيش الكامل داخلها، لذا إذا كنت تعمل على طبلية تشكيل الفخار أو على الفرن أو ملابسك ملوثة بالطين بأى شكل تشاؤه، إذن أنت لك منزل من الفخار. الحوائط عبارة عن أزيار يمكن أن تسع داخلها ما بين أربعة إلى خمسة جالونات من الماء. تعرفنا على رئيس المكان، سألته عن سبب قيامهم ببناء بيوتهم هكذا بدلا من استخدام الطوب اللبن أو الطوب المحروق، طالما أن الطين متاح لكم بهذه الوفرة. قال الرجل إنهم يستخدمون فى بناء بيوتهم الأوانى التى شرخت أو حدث بها ثقوب أثناء الحرق، لكنهم إذا استخدموا أوانى كاملة وسليمة فإن تغير الحرارة ما بين النهار والليل يتسبب فى انفجار الآنية، وهذا يفسر استخدامنا للأوانى المثقوبة.

فعلا، عندما تدقق النظر فى هذه الصفوف الموضوعة فوق بعضها بعضًا، تجد أن لا واحدة تخلو من ثقب، وهذا يؤدى إلى أن الهواء لا يدخل البيت لكنه يخرج منه. علقت آن على ذلك بقولها، هنا نعثر على الجدار المجوف الأصيل المناسب تماما للغرض منه، فهو يحقق الجو اللطيف فى الصيف والدفء فى الشتاء، كذلك يقلل من الفروق الحرارية ما بين الليل والنهار. وباستخدام سقف يعتبر المنزل الفخارى مناسبا تماما للعيش فيه، إلا إذا كان من طموحاتك أن تسكن فى فيلا. فى الحقيقة، هذه البيوت ليست سوى أكواخ، لكن بطريقة بنائها غير العادية كذلك عدم انتظامها وشخصية كل منها المتميزة، ثم تجميعها لتصنع قرية، هذا الشكل جميل للغاية ومبتكر. على كل حال، فيما عدا حالة ورود السيول المدمرة، عندما لا يستطيع أن يصمد أمام هذا البحر الهادر من الماء المشبع بالطين الهابط من الوادى، فهذه البيوت مناسبة جدا تحت سماء من النادر أن تتجمع السحب فوقها. كل هذه المنازل مسقوفة، وهذه نقطة مهمة للغاية. تلك السقوف عبارة عن عروق من الخشب وفوقها رصت طبقة كثيفة من أعواد القصب أو البوص. منذ

عشر سنوات، شاهدت العديد من الأكواخ غير المسقوفة، كنت أظن أولا أنها تركت هكذا لأنه فى المناطق شبه الاستوائية التى يندر فيها سقوط المطر، فإن الأسقف ليست ضرورية. كنت أتصور أن المصريين والنوبيين ينامون داخل أكواخهم تحت سماء مغطاة بالنجوم، كما كان يفعل البدو الذين من المفترض أنهم كانوا يقضون لياليهم منكمشين أمام النار تحت تلك الأجرام السماوية الوضاءة، شاغلين أنفسهم بابتكار علم الفلك والتنجيم. لكن لا، فالمصرى والنوبى والبدوى يبحث دائما عن سقف يظلله ولو كان من الخيش. حتى ونحن فوق مركبنا اكتشفنا أنه فى يوم حار وعندما يحل المغرب، وبسبب صفاء السماء، نجد أن الحرارة تتسرب وتغادرنا وتتركنا ونحن نرتعش، على الرغم من وجود فاصل خشبى يفصلنا عما تبثه النجوم من برد. كم هو قاس ومميت ذلك الهبوط التدريجى لحرارة جسم هؤلاء المساكين الذين تعوزهم التغذية الكافية فى معظم أوقاتهم وملابسهم الخفيفة، وليس هناك سحابة واحدة فى السماء تظللهم! إذن إذا لم يستطع المصرى أو النوبى أو البدوى أن يسقف منزله فهذا يعنى أمرا واحدا، هو أنه غير قادر على تدبير ذلك. الخشب تكلفته عالية فى مصر، ولا توجد غابات. كل أراضيها إما أرضا زراعية أو صحراء قاحلة. كان هناك عدد كبير من المصريين ليس لديهم الموارد المالية الكافية لكى يشتروا حملا من البوص يضعونه فوق أسقف أكواخهم، وهذه النوعية من الفقر يصعب تصديقها. هذا الجانب الخاص بمصر كنت أود أن أشاهده وأتلمسه وأعرف أسبابه، لكن لم أنجح فى مسعاى.

هنا، ألاحظ أن هذا السقف الكثيف يعنى شيئا واحدا، هو أنهم يعيشون فى رخاء. ومعروف عن المصريين أنهم بارعون فى أعمال الطين وتهذيب الحجارة، لكن براعتهم تتبدى أكثر ما تتبدى عندما يتعاملون مع الطين.

فى واحدة من هذه الأكواخ، شاهدت فخارى يؤدى عملا من أعمال السحر، والتى لا تفشل أن تدهش أى مراقب لها، بل وتذهل المتخصصين أيضا. تلاحظ كيف تنمو بذرة الطين، كيف تزدهر ثم تثمر وبعدها تعجن وتضرب وتشكل، إنها تبدو كأنها تؤدى العمل من ذاتها؛ مهمة يد الفخارى هى الرعاية فقط والهدهدة كأنما هو يتعامل مع طفل صغير. توجهنا بعد ذلك، أو بالأصح تم سحبنا لكى

نزور موقع الفرن الضخم، والذى يتكون أيضا من الجرار والأزيار، على الأقل من الخارج، ورأينا تلا هائلا يتكون من كسر الفخار. تذكرت للتو أسماء طالما سمعتها فى بلدى، مثل «فرقة الديوك» أو «سيراميكس»، لذا سألت عما إذا كان هذا المكان له اسم خاص به، لكن كالمعتاد، وجدت أن اللغة العربية فشلت فى ذلك، هو اسمه بكل بساطة «الكوم». علمت أن اللغة العربية تحفل بالعديد من المرادفات لتعبر عن شىء واحد- كلمة السيف، ربما لها ستون اسما آخر- لذا تجد حتى المثقف يحتار وهو يتلمس طريقه وسط هذه الأسماء العديدة، لذا فهذا هو السبب الذى دعانى أن لا أحاول أبدًا أن أبدأ فى تعلم هذه اللغة. رأينا أيضا البئر، لم أجد حاجزا يحوطها أو سلما منحوتا داخله، لكن هذا أعطانى أيضا فكرة واضحة عن القدرات المائزة التى جُبل عليها المصريون، هى القدرة على التعامل الذكى مع الخشب عندما يحصلون عليه. لاحظت أن جرار البئر ليس به أى جزء معدنى، لا فى اليد أو فى تثبيت أجزائه المختلفة، فالعجلة شكلها مستدير مربوط وملفوف عليها حبل من الليف. وهو على شكل قفص بعوارض خشبية تتشابك مع بعضها بعضًا. تبدو ضعيفة واهية، سريعة التلف كأنها قد تنفصل عن بعضها بعضًا فى أية لحظة؛ لكن هى فى الواقع مغرقة فى القدم وصالحة. هذه المقدرة على التعامل مع المواد الفقيرة، هى ظاهرة تميز أعمال الفلاحين فى مصر. لم يحدث لهم أن فكروا فى استخدام آلة بسيطة يمكن أن تغنيهم عن كثير من المشاق، ويكون من الأفضل استخدامها فى العمل. دع الشىء نفسه يؤدى ما عليه، وليس هناك شك فى أن ما تعمله، سيكون متقنا للغاية. أثناء وقوفنا، قام رجل بإدارة عجلة البئر، هنا ظهر فى نهاية الحبل، ليس جردلا مملوءًا بالماء، لكن قفصا محملا بحوالى نصف طن من الطين من المفترض أن يظل طريا وأن يتعرض للبرودة أثناء الليل. بعد ذلك، شكرناهم وغادرنا المكان بعد أن التقطنا صورا فوتوغرافية لفيلم كان فى كاميرتنا بالفعل.

سرنا بالسيارة أولا خلال بعض ضواحى مدينة قنا، ثم سلكنا عدة طرق شيقة متشابكة قادتنا إلى قرية جراجوس. هى قرية تشبه كل القرى المصرية التى شاهدتها وسوف أشاهدها. كثير من القذارة وعدم الانتظام، فمن ذا الذى يمكن

أن يهتم بفضلات البقر والجاموس الملقاة فى الطريق، أو التبن الجاف المتناثر فى كل مكان؟ حرارة المناطق شبه الاستوائية تستطيع أن تطهر كل شىء. هناك نية مخلصة أن تظل البيوت المبنية صامدة إلى أن تسقط من تلقاء نفسها، والبعض منها فعل ذلك، ليس دفعة واحدة بالطبع، لكن جزءًا بعد آخر. الحائط يتشقق، ثم تتسع الفرجة، ثم يتساقط على شكل كسر بيضاء، وهى العلامة المسجلة للقرية خارج البيت، بل وداخله أيضا. لاحظ، هذا ليس نوعًا من الفضلات، إنها فضلات نظيفة والفلاحون معتادون عليها، لا يفكر أحدهم أن هذه الكسر يجب أن تزال. كالعادة، اجتمع حولنا عدد كبير من الأولاد والبنات، كانوا جميعًا مسرورين ومبتهجين بقدوم هؤلاء الغرباء، أيضا هناك تجمع آخر من الكبار والبالغين، بل وهناك تجمع من مختلف الحيوانات. يبدو أن مصر تتميز بالخصب والنماء فى كل مناحى الحياة. أى قرية فيها تصلح لأن تكون مدينة فى أى قطر آخر. أيضا ليست العاصمة فقط هى المكتظة بالسكان، لكن تجد ذلك فى كل مدينة وقرية. لاحظت أيضا أن معظمهم من أعمار متوسطة ويبدون أصغر سنا من مواطنينا، ولعل قدراتى التحليلية ليست قوية، وهذا محتمل جدا، لكنى أقرر هنا أن علامات المرض التى تشتهر بها مصر، لم أتلمسها فى أى مكان زرته.

كما قلت، يبدو أنه يوم الفخار بالنسبة لنا. تقابلنا فى هذا القرية بفخارى لا يختلف فى شكله عن أى فلاح آخر. هو يرتدى جلابية وعمامة محكمة على رأسه. إنه قبطى مسيحى. أخذنا وسار بنا نحو زقاق يؤدى إلى ورشته. أثناء مرورنا شاهدت ذبابة طارت من على حائط على يميننا ثم دارت حول رأسى بعدها عادت إلى حائطها مرة أخرى. أقول هذا هنا لأن تلك ما كان ينقصنا من خبرات فى رحلتنا تلك. فالذباب المصرى الشهير غائب. الآن نحن فى نهاية شهر فبراير، لكن نحن أيضا لسنا بعيدين كثيرًا عن المناطق الاستوائية. تحققت بأننى لم أشاهد أية ذبابة وقليل من الحشرات الأخرى لا سيما المنزلية منها، أيضا يخلو الهواء من الهوام التى تهاجم رأس الإنسان وكل مخلوق آخر. أعتقد أن السبب فى تلك الظاهرة هو كثرة استخدام المبيدات المبتكرة مثل أل دى دى تى وغيرها، لذا اقرر أن وجود عدد قليل من الذباب والهوام هو الوجه الآخر من العملة، لكن

الوجه الأصلى يشتمل على كل أصدقاء الفلاح. رأيت الشأن ذاته يحدث فى اليونان منذ خمسة وعشرين عاما، يا له من توازن عجيب.

فى نفس الوقت، ظلت تلك الذبابة فى وقوفها على الحائط المدهون بالجير، بينما نحن ندلف إلى ورشة الفخارى. لاحظت أن لديه أشياء كثيرة مخزنة فوق رفوف خشبية. الأرض مصبوبة بالأسمنت، الرفوف من خشب ذى نوعية متميزة. أكثر من ذلك، علمت أن هذا الممر هو مقفل، فى نهايته تستقر محتويات ممتلكات هذا الفخارى ومن ضمنها فرن كهربائى، كل المحتويات هى من أملاكه، وجلبابه وطاقيته عليها آثار الطين الجاف تؤكد أنه يعمل هنا. اتضح أنه يعرف القليل من اللغة الإنجليزية، لكن يعرف الكثير من اللغة الفرنسية. أحضر لنا مقاعد لنجلس عليها وطلب إحضار الشاى. بدأت كلماته غير مفهومة بالنسبة لى لأنه كان يشير كثيرًا إلى «الآباء». القرية مسيحية أكثر من كونها إسلامية. قام ودعانا لمشاهدة البضاعة المخزنة والتى تزحم رفوفه، لاحظت أن جميعها فخاريات على شكل قديسين مسيحيين وصلبان، لكن ليس صلبانا غربية أو شرقية، لكنها "فرعونية" وهى علامة «عنخ»، وهو الصليب ذو الثنية فى أعلاه. كان هناك أيضا عديد من الأوانى والجرار والأشكال المختلفة، البعض منها مصنوع ببراعة وإتقان. خلافا لعلامة "عنخ"، لم أجد شيئا آخر له طابع مصرى أصيل سواء فى التكنيك أو المادة. كل المعروضات كانت من الطين الأحمر الذى ينتظر أن يوضع فى الفرن ليحرق. كانت ترجمة كلماته لى مربكة، فى البداية لم أفهم بماذا يقصد بكلمة "الآباء" كذلك "الغرباء"، لكن بعدها علمت ماذا يقصد. كانت هناك بعثة من الجيزويت فى القرية، فمنذ ثلاثين عاما حضرت مجموعة فرنسية واستقرت فى هذه القرية، كانوا هم أصلا فخاريين، وطبقا للتعاليم الجيزويتية، يبدو أنهم بدءوا فى تعليم الأهالى مهاراتهم. إذا ما أراه الآن أمامى ليس مجهودا مصريا خالصا، وأمامى الآن أسلوب غير مصرى، بغض النظر عن الكلمات القليلة من اللغة الإنجليزية والفرنسية. بعد ذلك، قام «سعيد» وهذا هو اسمه، وأخبرنا بأن هؤلاء «الغرباء» عادوا إلى بلادهم بعدما قاموا ببيع كل معدات مدرستهم إلى أهالى القرية. وبعد ذلك؟ استمر الأهالى فى إدارة هذه المدرسة. لكن هل تعتبر نفسك

يا سعيد واحدا من أعضاء هذه المدرسة؟ لا، لم يعد الأمر هكذا، هو أراد أن يكون سيد نفسه، ويصنع نفسه بنفسه. كان لديه مساعد، لكن للأسف. شباب هذه الأيام يصعب قيادتهم. فى نفس الوقت، هل ترغبون أن تختاروا أى هدية تأخذونها معكم؟

الآن ها نحن نتعرض مرة أخرى للموضوع نفسه الذى لا ينتهى، وهو تقديم الهدايا. هو موضوع صعب فى نظرى. فأنت بالطبع لا تود أن تحصل على شىء قيم، وأنت على أية حال لن تتمكن من السفر بالطائرة وأنت محمل بأشياء ضخمة، بالإضافة إلى اضطرارك إلى أن تحمل الهدية معك فى كل أرجاء مصر؛ لكن ما العمل إذن؟ وجدت مهربا بأن أسرف فى ثنائى وإطنابى، بلا إخلاص نحو أصغر وأرخص قطعة أراها أمامى. هى كانت علامة عنخ مصنوعة من الطين الأحمر. اندفع سعيد خارجا ثم عاد وبيده نسخة أخرى لكنها كانت قد دخلت الفرن وذات لون أزرق، وهى تلك التى أضعها الآن على مكتبى وأنا أكتب هذه الكلمات. أستطيع أن أقرأ عليها كلمة «جراجوس»، فهى هدية من قرية جراجوس، أو من مصر القديمة ولونها أزرق، هى هدية من الآباء الجيزويت والغرباء أيضا.

قادنا سعيد لنشاهد صناعات محلية أخرى. قدمنا إلى نجار، أخذنا هذا إلى منزله حيث كانت ابنته تنسج سجادة على نول يدوى. كانت تستخدم خيوطا خشنة، لذا كانت السجادة ثقيلة للغاية. على الأقل، وهذا ما خطر ببالى، لن أضطر أبدًا إلى أن أحمل هذه السجادة معى! أخبرتنا الفتاة بأن بعضًا من رسومها تقليدية، لكن ليس كلها. لقد تم تشجيعها أن ترسم أى شىء يمكن أن يخطر على فكرها وخيالها، لذا فبعض الرسوم من ابتكاراتها. هناك رسوم أخرى نقلتها من صور شاهدتها، صور سفن أو سيارات أو طائرات أو حركة معينة. هى جميعا أعمال مدهشة، لكنها ماذا فعلت بالجرائد والمجلات التى نقلت منها الصور وهى لا تستطيع أن تقرأ. سألت، من الذى صنع هذا النول؟ بالطبع هو النجار ذاته. أخذنا النجار إلى غرف منزله المظلمة الثلاث ليجعلنا نشاهد كل الأثاث الذى صنعه بيديه، بعد ذلك قادنا فى ممر انتهى بوجود حفرة. كان هناك نول مبنى فوق هذه الحفرة وسيدة تجلس داخلها. النول مبنى بنفس الطريقة التى

صنعت بها عجلة البئر التى شاهدناها عند جماعة الفخاريين. هذا يعنى أنه كان مشيدا من خشب غفل جمعت كل أجزائه عن طريق النقر والخوابير الخشبية. هو عملى جدا وبارع. هذه البراعة ذاتها شاهدتها وهى تعمل وتتجسد فى يد هذه السيدة. هى ذات عمر متوسط بوجه عار معقوف وأنف رائع، مزينة بحلى من الفضة وتغطى رأسها بوشاح قرمزى، فستانها لونه أخضر واحمر وقرمزى، هناك أساور فى يديها وخلاخيل فى رسغها. كانت غاطسة فى الحفرة ويداها السمراوان تتحركان يمينا ويسارا على النول تخلقان سحرا، بينما هناك شلة ضخمة من خيوط الصوف المصبوغة معلقة على دعامة فوق رأسها. فى رأيى، كانت الألوان أكثر روعة وازدهارا من الألوان النباتية، لكن لا أحد أخبرنى عن طبيعة تكوينها. لا يلزمهم إذن سوى الألوان النباتية لكى تكتمل تلك الصورة الفريدة من الإبداع والتى تشمل من ضمن عناصرها الخشب، والخيوط ثم السيدة، والكل من المنتجات المحلية الخالصة. سألتهم من أين حصلوا على هذا النول، تلقيت الإجابة المتوقعة، هو النجار بالطبع. الآن تجمع كل سكان القرية حولنا، تجمعوا فى هذا الممر الضيق يضغطون علينا حتى مستوى الحفرة. كان هذا مصدرا جديدا للاهتمام. كنا نحن فى نظرهم، أعجوبة من أعاجيب الزمن، بينما كانت متابعة النسج فى هذا الجو هو الأعجوبة الغريبة فى نظرى. الجميع سعداء يضحكون. بدأت أنا وعلاء فى إشهار الكاميرات، كانت هناك صعوبة بالغة لأن الجميع يقف فى سبيلنا. لا أحد منهم يود أن يقف بشكل طبيعى، لكنهم جميعا فعلوا مثل من تلتقط صورته وعليه أن يقف بوضع معين. أثناء انسحابى من منطقة الحفرة والنول، طلب منى النجار أن أعاين غرفة ما داخل منزله. داخل الغرفة قعدت سيدة عجوز كانت تغزل. مرة أخرى، كانت الآلة التى استخدمتها من الخشب الخالص من صناعة نفس النجار، عبارة عن قطع خشبية مثبتة فى بعضها البعض بطريقة ما. هو يحضر بعض العصيان ويشذب أطرافها، ثم يصنع بعض الحفر ويلصق القطع سويا باستخدام الغراء، وهكذا يصبح أمامك آلة تنتج غزلا تتجمع فى شلل طويلة من الخيوط من تلك الكتلة الهائلة من الصوف المصبوغ. هو أمر كان لازما أن نشاهده بأعيننا لكى نعجب به ونقدره، ونصدقه.

بالتأكيد، تبدو كل تلك المنتجات كأنها مخلوقة هكذا (أو من منتجات الإلكترونيات) بينما هى تلمع فوق رفوف محل الرجل! لكن لا، هى جميعا أمامنا الآن، منتزعة أساسا من ظهور الحيوانات التى تتسلمها يدى هذه المرأة العجوز لتعمل بها، ثم أخيرا تأخذ دورها إلى نول ابنة النجار الجالسة فى الحفرة، ثم يا للعجب! هذه هى السجادة أمامنا، السجادة السحرية. من الآن، لن أقف أبدًا فوق أى سجادة بلا اهتمام أو تقدير. سألت النجار، بل وسألت القرية كلها - التى تعرضت إلى فيضان سابق - منذ متى كنتم تغزلون وتنسجون الصوف وأين تعلمتم ذلك؟ الجميع أغرق فى الضحك - كل هذا يعود إلى أيام الفراعنة. لقد سمعت كلمة فراعنة تتردد على ألسنتهم. إذا كان موقفى فيه قدر كبير من الرومانتيكية، لذا كنت على أتم استعداد لأن أكتم أى تشكك يطرأ فى ذهنى، ثم وأنا بهذا القدر من الحيرة والتردد وأنا أتأمل فى تأريخ العمل الفخارى، صدقتهم جميعا.

حضر إلينا سعيد مرة أخرى، ثم قادنا إلى المدرسة التى تعلم بها صناعة الفخار وقدمنا إلى مديرها. إنه مصطفى الذى عنده أربعة من المتدربين فقط. سابقا كان عنده عدد أكبر، لكن جميعهم هربوا، إذن فهذه المدرسة فى طريقها إلى الزوال. تساءلت: "هل فعلا سوف ينتهى دور تلك المدرسة إلى الأبد؟" نعم، هذه حقيقة مؤكدة.

مصطفى هذا يتحدث الفرنسية بطلاقة. قال بأن الانطلاقة الأولى هى كانت بفضل الآباء الجيزويت والغرباء. هى كانت انطلاقة رائعة. دعانا لنشاهد المبانى الأنيقة والآلات المتقنة، كذلك الفرنان وعجلات تشكيل الفخار غريبة الشكل. الآن اختفى هذا الاهتمام بتلك الصناعة الحديثة وهؤلاء هم آخر المتدربين، بعد قليل لن أجد أحدا مستعدًا لأن يتعلم.

كان علىّ أن أتقبل كل ما لم أفهمه، فبدون هؤلاء الغرباء، الجيزويت، سوف ينتهى هذا المكان. هذا يجعل الإنسان فى حالة من الحزن، كأنه من المفترض أن يتم حقن مادة ما للتنشيط من عام لآخر.

أخذت أفكر فى البيوت التى شاهدتها ولم يتم اكتمال بنائها، فالخطط ترسم بكل دقة لكنها لا تنفذ، لكنها تعامل كأنها قد أنجزت فعلا. ما هذا؟ هل اكتشفت

أنا شيئا أم أننى أتخيل؟ هل يقوم الأجنبى، مهما كانت دوافعه الحقيقية، بإرغام الفلاح البسيط الجاهل على انتهاج ثقافات القرن العشرين، بينما هو لا يريدها ولا يحتاجها؟

كانَ مخزن الفخارى مليئا بالبضائع. نعم، البعض منها يُرسل إلى القاهرة ليُباع هناك. لكن ما القطعة من هذه المعروضات التى تتمنى أن تأخذها معك؟ كان هناك كثير من الأشكال الرائعة، بل وأكثر روعة من أن آخذ إحداها كهدية. شاهدت القديس جورج فوق حصانه مشهرا حربته فى وجه شيطان يتلوى من الألم، لكن كان هناك شيء غريب فى شكل هذا الشيطان.

قلت له بالفرنسية، "لكن يا سيدى، شيطانك هذا أنثى؟"

فرد بالفرنسية، "نعم يا سيدى، لكن لما لا يكون هكذا؟"

مرة أخرى، أخذت أصغر المعروضات، وهى عبارة عن آنية صغيرة. شكرنا الرجل وغادرنا. لكن ما الذى تود أن تشاهده لاحقا؟ حسنا، طالما أن أغلبية القرية من الأقباط، إذن أود أن أشاهد كنيسة قبطية. هذا موضوع سهل. هذه الكنيسة كانت عبارة عن منزل آخر، وليست أكبر حجما. كل البيوت هنا بما فيهم الكنيسة مدهونة بالجير الأبيض ومسقوفة بعروق الخشب. دخلنا، بينما بقى المسلمون من صحبتنا خارجا كنوع من التوقير. هذه الكنيسة الصغيرة كانت تحفل بأكثر من ١٢ صورة، كلهم قديسون بالطبع، جميعا من إنتاج المحليين، وأكثر من نصفها نسيجية. على الرغم من أن الفاتيكان اعتبر القديس جورج شخصًا لا وجود له على أرض الواقع، لكن معظم الصور كانت له وهو يحارب الوحش أو الشيطان. كان غزل الصور المنسوجة خشنا، بذلك لم يظهر أبدًا جنس الشيطان وما إذا كان هو أم هى. خامرنى شعور وأنا أتفرج على إحدى الصور أن القديس جورج يهم بطعن الفتاة التى من المفترض أنه ينقذها من الشيطان، فهل هو بيرسيوس الذى اختلط عليه الأمر ما بين حبيبته والوحش البحرى؟ من هذه الصور استطعت أن أكون رأيا فيما يختص بالنساء فى الصعيد. فالذكور هنا ما زالوا فى عصر البراءة التى تزين لهم بأن دور النسوة هو هامشى فى المجتمع ومن مصلحتهن البقاء هكذا.

سألت عما إذا كانت هناك كنائس أخرى فى القرية. طبعا، هذا ما قاله مصطفى. هناك كنيسة كاثوليكية ملحق بها عيادة طبية. هذه إذن أخبار تستحق الاستقصاء. من الواضح أن الدور الدينى للبعثة التى حضرت فى الزمن القديم، هو الذى استمر وبقى. ذهبنا إلى هذه الكنيسة فى الفترة التى كان فيها تلاميذ المدرسة الملحقة فى الفسحة يلعبون كرة القدم. صاحبتنا راهبة من نابولى تتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة وتجولت معنا لنشاهد الكنيسة. لدهشتى، فى الهيكل الذى يقع فى نهاية الحائط، كان هناك مثالا آخر للصليب القبطى، الذى هو يشبه علامة عنخ. وأقسم هنا أن من صنعه من الفخار هو سعيد، لونه من الطين الأحمر وعليه طبقة من اللون الأزرق الخفيف مماثلا لذلك الذى فى جيبى! بدأت فى سؤال الراهبة. نعم، إنها كنيسة قبطية كاثوليكية، إنها تدعى بشكل رسمى الكنيسة القبطية الكاثوليكية. إنهم ليسوا طائفة واحدة، لكنهم متحدون، وهم أيضا يستخدمون اللغة القبطية فى قداساتهم، وتلك فى الحقيقة هى اللغة المصرية القديمة. بدأت بكل الإعجاب أتفهم ما تفعله الكنيسة الكاثوليكية على مستوى العالم كله وما تتبعه من سياسات. سياستهم تتلخص فى وداعة الحمام وحكمة الحيات. إذا عبرنا عن ذلك بأسلوب آخر، أقول إنهم يؤمنون بمقولة: " إذا لم تستطع أن تهزمهم، إذن عليك أن تنضم إليهم" . أوه، لا شك عندى من أن هذه الأمور جميعا تتبنى دائما أكثر العبارات قدسية وورعًا. من أنشأ الكنيسة القبطية هو واحد من التلاميذ، وهناك عدد كبير من المسيحيين فى الصعيد، لذا تقوم الكنيسة الكاثوليكية بالتحايل وتنضم إلى الكنيسة القبطية المحلية! ثم تقوم بإنشاء المدرسة والعيادة ثم الكنيسة الكاثوليكية.

خرجنا بعد ذلك وسرنا فى حوارى هذه القرية التى يبلغ عدد سكانها سبعة آلاف نسمة. مررنا على رجل عجوز قاعداً على جانب الطريق، قال علاء إن هذا الرجل يبلغ من العمر مائة وثلاثين عاما. يبدو أن العيادة الطبية قائمة بواجباتها على الوجه الأكمل. الحقول حولنا يانعة وجميلة المنظر، وينتابك شعور بأن هناك صعوبة سوف تنشأ إذا قررت أن تمنع هذه المحاصيل من النمو، حتى البرسيم تجده منتصبا هكذا بلون أخضر زاه، فهو ليس من الزرع الزاحف. أما النخيل فهو يزحم كل مكان، لدرجة أنك ربما تظن أن السماء لونها أخضر.

ظننت أننا قد قضينا يوما كاملا مع الفلاحين، وبدأت أقتنع أنه لا يوجد ما يسمى بالفلاح الفقير، أو لعلهم أفلحوا فى أن يخبئوهم عن عينى. سرنا مرة أخرى فى اتجاه القرية، يحيط بنا نماء متفجر يصعب تصديقه. كان هناك مجار ومسالك للمياه وممرات ينمو على أطرافها النخيل بجانب حقول القمح وقصب السكر والسبانخ والبصل والفول والكرنب والقرنبيط وكثير غيرها يصعب حصرها.

إذن أين هى تلك الأقذار المهلكة التى وعدنا بعض الأصدقاء الأمريكيين بأن نشاهدها؟ هل أنا أيضا، بمعاييرهم تلك قذر ولست على قدر من الوعى بحيث أتلمس القذارة فى مصر؟ فى تلك القرية، اتفقنا جميعنا أننا أحسسنا براحة عميقة منقطعة النظير. مع ذلك، نعرف نحن بعض العلماء السيكولوجيين الذين قضوا يومين فقط فى مصر وقالوا إن القرية المصرية تحفل بقذارة لا توصف! فى الحقيقة، أقرر هنا أن هناك كثيرًا من الأمور لم تكن فى أحسن حالاتها فى القرية المصرية، يمكن أن نطلق على الكثير فيها بأنه مكسور أو مشروخ أكثر من كونه متآكلاً أو عفنًا.

كانت هناك مساحة من الأرض لا يزيد حجمها عن ١٢ ياردة، وعلى جانبيها رأينا نساء كبيرات فى السن، وأولادًا، وفراخًا، وكلابًا، وبقرة، وحمارين وجملاً! الطريق لم يكن كامل الاستواء، يحفل بقدر كبير من أكوام التراب والسباخ، تلك التى قامت الشمس مشكورة بتجفيفها وتطهيرها. القرية كلها تبدو وكأنها قد تعرضت إلى قنبلة، ثم تركت الأمور كما هى لكى تعود إلى طبيعتها، ثم تلعب الشمس دورها المعتاد، والناس متقبلون للنتائج مهما كان شكلها أو صورتها.

كنت أتوقع أن نعود إلى السيارة فورا، لكن لا. فقد أصر سعيد، وهو ثانى الفخارين الذين قابلناهم على دعوتنا للغذاء. إذن فنحن نتعرض لنفس المشكلة التى وقع فيها فيشر صاحب جزيرة فيشر. دلفنا داخل ممر يقع بين بيتين ظننت أنه سالك، لكن عندما أدركت أن نهايته مسدودة، بدأت فى التراجع. أمسك علاء بيدى قائلا: «هذا منزله!»، فتوقفت فى مكانى. فى التو واللحظة تغير شكل هذا المدخل غير المسقوف ليصبح غرفة للمعيشة ومطبخًا أيضا. كانت هناك مائدة

طويلة منخفضة مركونة على الجانب الأيمن. ولاحظت بعد ذلك أن هناك نسوة وأولادًا بل وأطفالاً يطبخون عليها. على اليسار، من الناحية الأخرى من المدخل، كانت هناك عتبات تصعد بنا إلى طابق أعلى ثم دخلنا إلى غرفة شبه مظلمة بابها خفيض. تشتمل تلك الغرفة على ثلاثة أسرة رصت أمام حائطين، بينما أزاح سعيد مائدة قريبة من سريرين منهم، ثم قام هو ومعه قريب له بإحضار مقاعد وضعها فى الجهة الأخرى للمائدة. على الجانب الآخر للغرفة، كان هناك سرير آخر لكنه مبنى بالطوب وعليه أكوام من مخلفات الفخار، وفى نهايته كومت كسر أخرى مبعثرة هنا وهناك، وهذا أضاف إلى عدم انتظام واستواء الأرضية الترابية للغرفة. جلسنا على المقاعد والأسرة، بينما أحضر لنا سعيد واثنان من أقربائه حوضا للماء وإبريقا وبعض الفوط. واحد منهم أمسك الحوض بينما الآخر كان يصب الماء على أيدينا على طريقة الكتاب المقدس. قام سعيد بعد ذلك ومعه أقرباؤه بإحضار الطعام. كانت كمياته هائلة، مكونا من طبق عظيم من الفراخ، والشوربة، والدمعة، والفطائر والخبز الشمسى. أكلنا على قدر استطاعتنا وبطريقة غير عادية. أحضر سعيد قدحا من الماء وضعه على المائدة. حاولت أنا وزوجتى أن نتجنبه بدون أن نلفت الأنظار، ثم أحضروا لنا الشاى الحلو فشربناه شاكرين.

كل هذا كان مبهجا ويدعو للسرور، لكن ما كان يحبطنا هو كل ما يختص بالذوق، فوجود الإنسان وسط أكوام المخلفات والكسر والأحجار هو أمر صعب ويصعب هضمه. هى جميعا ليست قاذورات، لكنها جميعا أدلة قاصمة للإهمال، نوع من الضياع ينغمس فيه أجيال وأجيال. السرير الطوبى هذا، كان مغطى تماما بقدر كبير من كسر الفخار، وأشكال لم يتم بعد حرقها، بالإضافة إلى بعض الأدوات الصدئة وغبار ومخلفات، أعتقد أن لا أحد التفت إليها منذ غادرهم الآباء الجيزويت. من ملاحظاتنا فى هذه القرية أنه لا يتم أبدًا إصلاح أى شىء، حتى ولو أن محتاجا لأقل قدر من التكنولوجيا البسيطة التى تتفوق بالقطع عن الجهود البشرية: تجد مثلا أسلاك كهربائية عارية تتلوى فى كل مكان، فيش كهربائية برزت من الحائط وتترك هكذا دهورا.

قدمنا تشكراتنا الجزيلة، تقدمنا حتى وصلنا إلى المدخل. هناك انتظرت جماعة النسوة اللاتى سوف يعقبنا ويأكلن ما تبقى منا من طعام. هذا الفعل يبدو وقعه سيئا على الأذن، لكن طبقا لعادات الكرم المصرية، أقول إن سعيداً قدم لنا طعاما أكثر كثيراً عن طاقتنا فى الالتهام، لقد بالغ فى كرمه ولعله ظن أن كوننا غرباء، إذن فنحن فى حاجة ماسة لذلك.

غسلنا أيدينا فى الطلمبة اليدوية الموجودة فى الحارة التالية. هذه الطلمبة تجلب الماء من على بعد ياردات قليلة فى باطن الأرض. هذه النوعية من الآلات سوف تسهم إسهامًا كبيرًا فى الحفاظ على صحة الناس هناك، وربما تكون هى السبب فى أننا لم نشاهد عددا كبيرا من المرضى فى القرية كما يدعى بعض الرحالة. كل الأطفال فى قرية جراجوس مملوؤن حيوية ونشاط، البهجة تملأ وجوههم ويبدون فى كامل صحتهم، وربما يعيش كل واحد منهم ليبلغ المائة وثلاثين عاما! المرض لم يلحق سوى أفراد طاقمنا، لكن حتى هذه تعتبر نسبتها إحصائيا تافهة. هناك ملاحظة دامغة تؤكد نفسها تأكدت خلال فترات حياتى الماضية، وهى أن هناك قوى خفية تعمل باستمرار، هى قوى لم أفهم كنهها أو أحدد أبعادها. هى قوى لا تمت للاقتصاد بصلة، كل عملها هو السخرية من عوامل التنبؤ، هى تقول بأنه إذا أصاب الفقر أمة ما فإن أحوالها تتحسن عن ذى قبل. نحن فقراء الآن فى بلادنا، إذن فنحن فى حال أفضل، هكذا الحال فى فرنسا وإيطاليا واليونان وكذلك مصر. هى دول وأمم كانت دائما محورا لاهتماماتى. هذا بالطبع تناقض غريب.أو لعل تفسير ذلك يعود إلى أن علم الاقتصاديات كدراسة نظرية، والاهتمام البالغ بها، والمناقشات النابعة منها، ومعاركها والانغماس البالغ فى فحص نتائجها وتوابعها، هذه جميعا سوف تلحق بالدراسات الأخرى التى لها صلة وثيقة برغبة التكهن بالحقائق مثل: عمل الفراسة، وقراءة الكف، وجغرافية الأرض و كذلك الكهانة والتنجيم.

عدنا إلى السيارة، والشمس تؤذن بالمغيب. شاهدت رجالا ونساء وأطفالاً جالسين على الأرض الجافة فى الشارع. كانوا جميعا منهمكين فى نسج سجاجيد صغيرة ويضفرون الحبال من الحشائش الجافة. فى بعض الأماكن، كانت هناك

الآلات القديمة الخربة ملقاة، ويبدو أن تلك الآلات عانت الأمرين بأكثر مما عانى البشر. لكن، هل التقطت سيارة الأستاذ باسم عدوى من هذا المكان؟. هؤلاء الأهالى كانوا ينظرون نحونا بنوع من الفضول المنشرح، بدا أن لا أحد منهم تمنى لنا سوء، بداية من الرجل ذى المائة والثلاثين عاما حتى أصغر فتاة، تلك التى كان اسمها روزلند على اسم زوجة الرئيس الأمريكى جيمى كارتر. نظرتنا إلى هذه القرية باعتبار أنها حالة غريبة، راجع إلى رد فعلنا الطبيعى وما اعتدنا عليه عندما نواجه أمورا شتى ومتنوعة. لقد فوجئنا بتلك الروح غير المبالية بالنظام والتنظيم والترتيب التى تصل إلى درجات قد تحتسب ضمن العامل الخامس، وهو الفوضى الرقيقة. صافحنا مضيفنا الكريم وشكرناه، ثم تزاحمنا داخل سيارتنا الغلبانة تحت شمس تؤذن بالمغيب، وما إن عدنا إلى قاربنا ودخلنا قمرتنا، حتى عزفنا عن تبادل أى حديث لفترة من الزمن، لكن جلسنا مقابل بعضنا بعضًا على أسرتنا، ثم اعترف كلانا بما كان يخطر ببالنا ونحن ندلف داخل قمرتنا الأسبرطية المزدحمة. يا له من نظام، ويا لهذا القدر من النظافة، ويا لحظنا الحسن بما نرفل به من نعيم ورفاهية مفرطة.

(١٠)

المسافة التى تفصل ما بين قنا والأقصر تبلغ حوالى أربعين ميلا. تحركنا الساعة السادسة صباحا وكان الهواء طلقا. بدأت التلال الطيبية فى الارتفاع التدريجى. وبدأ شاذلى فى الضغط على الموتور الذى استمر فى التراقص مكانه، أما الرفاص والمحور فقد انشغلا بأداء رقصة درويشية. لم يكن هناك مفر من أن نعتاد على هذه الضوضاء، فكل من الضوضاء والاهتزازات هما وجهان لعملة واحدة، لدرجة أنك لا تستطيع أن تحدد ما الذى تحس به، هل هو الاهتزاز الذى يدغدغ قدميك، أم الضوضاء التى تخرق أذنيك. هذا دعانى إلى أن أصعد إلى السطح. كانت الرياح الشمالية تهب كالعادة، لكن تأتى من مؤخرة مركبنا. بعد قنا يدور النيل ويسلك طريقه المعتاد، بذلك يصبح «البحرى» هو الشمالى فعلا. أشرقت الشمس عاليا وأصبحنا الآن ننتعش وسط جو شبه استوائى مرة أخرى. فجأة زاد شوقى أنا وزوجتى أن نبلغ الأقصر سريعا، هناك سوف تنتظرنا الحمامات الساخنة، الملاءات النظيفة، التسلية المختلفة، البراح كذلك الإحساس بالخصوصية. هبطنا سويا إلى أسفل هاجرين السطح المتراقص. أنزلنا شنطة كبيرة وضعنا فيها كل غياراتنا واستبدلنا ملابسنا بأخرى نظيفة ووضعنا غيرها فى شنطة أخرى. كنا نخطط لإجراء حملة نظافة ودعونا الله أن يظل قاربنا صامدا حتى يرسو بجوار الشاطئ حتى نحتك ببعض من مظاهر حضارتنا. صعدنا مرة أخرى إلى السطح، بدأت التلال الطيبية فى الانضمام إلى بعضها بعضًا على الجانب الأيمن، بينما على يسارنا شاهدنا مصنعا ضخما للسكر. على

يميننا مرة أخرى، شاهدنا مركبين سياحيين ضخمين راسيين فى كوع من النهر. المفروض أن يطلق عليهم لفظ سفن، كلاهما محترق. أحدهما، السطح العلوى متداع ومنهار تماما، والآخر كان مكوما فى مكانه لكنه محترق حتى مستوى المعدن العارى، هو يبدو كأنه لعبة أطفال وقعت فى النار ثم تم تقليبها فى الصباح وسط أشلائها. فكرت، هذا إعلان سيئ للغاية عن صناعة السياحة. تعجبت، يا ترى لماذا لم يسحبا من مكانهما هذا- كلاهما كان عائما فى الماء - وأن يوضع فى حوض بعيد مخصص للمخلفات، لكن لم يخبرنى أحد. قال لى علاء إنهما قد احترقا بسبب عيوب كهربائية، وأضاف قائلا إنه لم تحدث خسائر بشرية.

بالكاد استطعت تمييز الأقصر، فالكورنيش مزدحم بكل أنواع المراكب ومن كل الأشكال، لكن المراكب السياحية هى الغالبة. هناك زملاء للمركبين المحترقين. تعجبت، يا ترى ما هى تعليقات ركابها عندما شاهدوا المراكب المحترقة. المراكب الأصغر حجما تشمل: مراكب للعبور بين الشاطئين، قوارب ذات ماكينات مفتوحة، يخت أو اثنين، لنشات تخص شرطة المسطحات المائية، فلوكة بأحجام مختلفة، هناك أيضا صنادل يمكن أن تقل من يرغب فى هذه النوعية وتصل به إلى أماكن أبعد مثل إسنا وإدفو وكذلك أسوان.

لكن هذه الصنادل التى أتذكر أننى رأيت مثلها منذ عدة سنوات ماضية، وتشبه تلك التى تعمل فى أسفل النيل من ناحية البناء، ليست ذات لون حائل، كذلك أشرعتها ليست مهلهلة وبحارتها ليسوا فى حالة مزرية. الآن تجد أن بحارة الصنادل فى الأقصر، يتكونون أساسا من الريس الذى يخطر بجلباب أنيق يرافقه ولد صغير فقط لا غير. مهمة هذا الولد هى أن يتعرض للموت كل يوم، تجده دائما بجلبابه الوردى وعمته الوردية محاولا جلب السرور إلى قلب السياح، وذلك عندما يقوم بتسلق السارى حتى نهايته باستخدام زوائد خشبية فى أماكن مناسبة له. أعتقد أن عمله الآخر هو أن يقدم للسياح الشربات والبيرة والنبيذ أو أى شىء آخر يطلبونه. عندما ربطنا مركبنا أمام مركز شرطة المسطحات المائية بجسر يفضى إلى الشاطئ، لاحظت أن معدات وإمكانيات الشاطئ قد استغلت بالكامل. هنا وهناك بزغت عدة محاولات لزرع بعض نباتات الزينة، لكن معظم المساحة

المخصصة للكورنيش أصبحت الآن مشغولة بالمطاعم والكافيتريات والنوادى الليلية. هذا كله يعتبر تطورا هائلا تم خلال العشر سنوات الماضية، لكننا لم نتوقف لنفحص كل شىء. علينا أن نسرع، لذا اندفعنا خارجين من مركبنا بعد أن رست على الشاطئ، ربما حدث هذا بطريقة غير مهذبة، وأسرعنا إلى فندق ونتر بالاس. أخبرت راعينا أنه مسموح للطاقم أن يفعلوا ما يشاءون لفترة يوم أو اثنين، ومن جهتنا نحن، سوف نحاول أن ننسى بقدر الإمكان أى شىء يختص بالمركب خلال تلك الفترة. عثرنا على غرفة تطل على النيل والتلال، ملحق بها حمام لست فيه مضطرا إلى أن أنتظر خمس دقائق حتى ينساب الماء الساخن، لذا أخذنا حماماتنا فى منتصف النهار.

كان حماما طويل الأمد، كذلك كانت وجبة الغذاء. خرجنا بعد ذلك وسرنا هنا وهناك لفترة. هناك فنادق جديدة قد أنشئت ومبان عالية تطل على الكورنيش والمعابد الفرعونية. رفضنا شراء تذاكر الصوت والضوء، على الرغم من أنهم قالوا إن برنامجه ممتاز، لكن كلانا فضلنا أن نقضى معظم اليوم جالسين خلف الفندق فى الحديقة المعتنى بها جيدا وتشرح القلب فعلا. هنا، تحت الشمس وبعيدا عن مهب الريح، أخذنا نراقب زرافات النحل وهى تتنقل بين ورود وأزهار شهر فبراير من نباتات الخطبى الوردى والبنفسج والزعتر، بهذه الطريقة تمكنا من نسيان النيل كلية، فهذا الذى أمامنا الآن هو الذى جعل أسلافنا يحضرون إلى هنا.

كانوا يحضرون إلى هنا أيضا بهدف استرجاع صحتهم فى فندق ونتر بالاس القديم، أيضا كانوا يذهبون إلى أسوان ويحطون فى فندق كاتاراكت القديم. لكن هذا شىء غريب، فالناس الذين يعانون من «صدر ضعيف» أو الأكثر خطورة، الناس المصابون بمرض السل، كانوا دائما ما يحضرون للأقصر لينالوا الشفاء إذا كانوا فعلا محظوظين. لكن إذا تحدثت مع النسوة الأوروبيات اللاتى يعشن فى الأقصر فى أيامنا هذه ـ المهتمات بالآثار أو زوجات فنانين وعلماء آثار ـ تلاحظ باستمرار أنهن يشكين من متاعب فى الصدر، وحالتهن هذه لا تتحسن إلا إذا غادرن هذه المدينة. فى المرة الأولى التى زرنا فيها الأقصر، أصيبت زوجتى بنوبة

سعال شديدة. معظم النسوة الأوروبيات اللاتى كن يخطرن أمامنا، جميعهن كن يعانين من السعال، وكل واحدة فى متناول يديها العلاج المناسب. لذا فإن فكرة قيام رجل أو امرأة بالقدوم إلى الأقصر بهدف استرجاع صحته، ثم تحقق له ذلك فعلا، أقول إن هذا ادعاء مناف تماما للعقل. فى الصعيد بالذات، عندما تهب الرياح من الشمال تكون عادة باردة، وعندما تهب من أى اتجاه آخر، فإنها تكون محملة بالتراب والغبار. أعتقد أن كل من أتى إلى هنا ليعالج نفسه من "صدر ضعيف" أو من السل، أقول إنه مات بنفس مرضه هذا، لكن فعلها وهو بعيد عن وطنه.

مع ذلك، كلانا كان فى صحة معقولة. قبل قدوم المساء، سرنا قليلا على الكورنيش. مرة أخرى، لاحظنا أن معبد الأقصر لم يتحسن بعد، فما زال حوله تلك المبانى التى تمنع مرور الهواء، وتقف فى سبيل الترحيب الذى يمكن أن يحسه القادم لزيارة تلك المدينة، وهذه المبانى فى انتظار الإزالة بمعرفة المختصين بالهدم. هناك ثلاثة أمور تحسنت فى الأقصر، واحد منها بلا شك هو عربات الحنطور. أخيرا عثر الوجه الشرقى للتزيين والتجميل مجالا أفضل، فالعربات الآن تجدها مزينة بعقود نحاسية تبرق وتلمع فى ضياء الكورنيش، بعض منها تعتبر تحفا حقيقية، رائعة حتى فى بهرجتها، كذلك أصبحت الجياد التى تسوق الحنطور أكثر شبابا وحيوية ومزينة بعقود وخلاخيل من النحاس وربما من الفضة أيضا. هناك تحسين آخر، هو الاختفاء الكامل لأطفال البقشيش، الذين كانوا يمثلون إزعاجا لا مثيل له لأى سائح مار. التحسين الثالث هو متحف الأقصر. إذا كان وقت زيارتك محدودا، فلا تشغل بالك بالمعابد، بل توجه فورا إلى المتحف. فى رأيى هو أفضل متحف تعرض فيه المصريات زرته فى حياتى، فقد تم اختيار القطع المعروضة بعين خبيرة تقدر الجمال واستحقاقاته، كذلك الأهمية السياحية للقطعة المعروضة، وهى موضوعة فى مكانها المناسب، ومسلط عليها إضاءة نصبتها يد خبيرة. لذا أرى أنها ضرورة حتمية أن يزور السائح هذا المتحف.

بعدما حققنا لأنفسنا قدرا هائلا من النظافة والوجبات الغنية والملابس الأنيقة، أمكن لنا أن نخرج لنطلع على مركبنا العتيد. هناك وجدنا باسم وعزة

ومعهما مدير قصر ثقافة قنا. كانت سيارة باسم رابضة فى الشارع وما زالت قادرة على السير، ثم أخبرونا بأن السيارة سوف تكون تحت تصرفنا من الغد. شيء غريب، عندما تتمعن فى أن الأربعين ميلا التى تفصل ما بين قنا والأقصر، إنه من الميسور قطعها بسهولة باستخدام الطريق البرى لو قورنت بالطريق النيلى. بعد ذلك، خططنا للغد الذى فيه سوف نعبر النيل ثم نزور مكانين كنت مهتما بهما على وجه الخصوص، على الرغم من أنهما لم يكونا ضمن برنامج رحلتى. كنت كل ما أتمناه وأرجوه هو أن تصمد هذه السيارة، مع أن الطريق على الجانب الغربى جيد للغاية. عدنا إلى الفندق لنجد أن غرفتنا تعبق برائحة عطرة بسبب صحبة الورد التى تم وضعها داخلها، من المحتمل أن يكونوا قد جلبوا هذه الورود من حديقة الفندق، بعد ذلك ذهبنا لتناول عشائنا. لم يكن هناك شك بأن السياحة عام ١٩٨٤ لم تكن فى أحسن أحوالها، فهناك الكثير من الموائد التى كانت خالية. بعد ذلك، غمرنا ارتياح بالغ ونحن ندلف وسط الملاءات والأغطية النظيفة الجميلة.

نهضنا الساعة السادسة وثلث صباحا، وأحضروا الإفطار إلى غرفتنا بعد دقائق قليلة من طلبها. لاحظت أن فندق ونتر بالاس القديم قد تحسن كثيرًا، يجب الحفاظ عليه كأنه أحد الآثار المهمة لهذه المدينة. كان هناك ضباب يطفو فوق صفحة مياه النيل، لكنه انقشع تماما الساعة التاسعة. لم أحدد نوعية هذا الضباب، لكنى كنت متأكدا أن الغبار كان واحدا من عناصره، هو يشبه السحابة السوداء، لكن سحابة سوداء فى الأقصر؟ أعتقد أن عام ١٩٨٤ هو من الأعوام المشهودة، فيه وصل العالم إلى حدود نقطة حاسمة وفاصلة وخطيرة، وأن الجو فى العالم كله قد حدث فيه تغيير حاسم فى ليلة واحدة لكى يظهر وجها قبيحا هو التلوث، ذاك الذى حدث فيه تغير فجائى، كما يتغير لون سائل ما عندما يتعرض لتجربة كيمائية. مع ذلك، ما إن قررنا الخروج، حتى لاحظنا أن الضباب قد زال تماما ونسيت كل مخاوفى الغريبة الشكل. هذا اليوم له أهمية خاصة فى نظرى، وبالمنطق والفكر اتسع مجاله، لكى يشير أو لكى يحوى داخله اعتبارا لأمور وهموم كثيرة: مثلا ذلك الطوب الأحمر المنتزع من الأراضى الزراعية الخصبة

بينما يمكن عمل الطوب من الطين المتوفر بكثرة؛ زوايا البناء الموغلة فى القدم التى فُنيت، والمبانى المصرية الواهنة، وأشياء أخرى كثيرة، دعها جميعا إذن أن تخرج بينما الأحداث تسير فى مجراها الطبيعى.

ذهبنا لمكان وجود السيارة، اكتشفنا أن هناك خمسة أفراد سوف يتمتعون بالركوب داخلها: أنا و زوجتى و علاء، وباسم بالإضافة إلى شخص جديد هو حسن،الذى يعمل مفتشًا تابعًا لمصلحة الآثار. كان ينتابنى شعور مرح، لأننى انتويت أن أبتعد قليلا عن الآثار القديمة، بل وإن دعت الضرورة، لا نشاهدها إطلاقا. عبرنا النيل بالمعدية القديمة الخاصة بعبور السيارات. طلبت أن لا نسلك بالسيارة فى طريق وادى الملوك، لكن أن نسلك طريقا جانبيا يصل بنا حتى أطراف تلال طيبة. هناك، تقع قرية القرنة الملتصقة بالمنحدر غير المنتظم الغارق فى الحفر والصخور وكسر الأحجار. أهل هذه القرية، هم أكثر سكان مصر جلبا للاهتمام، لكنهم ليسوا بالضرورة أن يكونوا الأكثر جاذبية. هم أحفاد سارقى القبور الذين استعمروا تلك المنطقة منذ العصور الوسطى، وعاشوا هنا كمجموعة متحدة متعاونة منذ القرن الثالث عشر. إلا أننا من الممكن أن ننحرف عن توصيف نوعية تجارتهم إذا قلنا إنها نوع من العبث بجثث الأقدمين. ومهما كانت الأقاويل التى لها أساس قوى وصادرة من أفواه علماء المصريات، بأن أهالى القرنة يعرفون الكثير عن مقابر البر الغربى أكبر مما هم مستعدون للاعتراف به. ثم تزداد نبرة الأقاويل وتردد بأكثر قوة وتأكيدًا أن هناك «أشياء» ظهرت، ومازالت تظهر فى السوق، لا يمكن تفسير وجودها إلا إذا كانت هناك مقابر مجهولة لا يعلم أحد بأمرها سوى أهالى القرنة، وإنهم يختارون ما يسلبونه منها ويحتفظون بها لأنفسهم. أكثر من ذلك، تدعى تلك الأقاويل أنهم بغرض الاحتفاظ بسر هذه المقابر، فقد ابتنوا منازلهم فوقها وعاشوا هكذا، حيث ترقد ثروة العائلة تحتهم على شكل قبو قديم. قرأت عن أهالى القرنة، كلما ازداد شغفى بأن أعرفهم أكثر، طالما يبدو أنهم لكى يحافظوا على ثروتهم تلك، كانوا على استعداد دائم أن يجلسوا فوقها، جيلا بعد جيل وهم فى أسوأ حالات الحرمان والبؤس الظاهرى. بل هناك أكثر من ذلك، فهم قد تعرضوا لتجربة وامتحان معين، وما زالت الأدوات

التى استخدمت فى تلك التجربة ملقاة فى البر الغربى بجوار تمثالى ممنون. الآن، ومعى علاء كمترجم، رغبت فى أن أتحدث معهم، وكنت قد حضرت لهم بعض الأسئلة ذات مدلولات قوية وبها قدر من الدهاء. لكنى لم أتوقع أن أعرف الكثير، فقط وددت أن أتحدث مع واحد أو اثنين منهم وأتشبع بروح المكان. على الرغم من أن توقعاتى كانت مغالية، لكن لا بأس من الدخول فى تلك التجربة.

سرنا فى هذا الطريق الصعب المليء بالأحجار والغبار. وتذكرت أنا وزوجتى النعيم الذى كنا نتنعم به فى فندق ونتر بالاس القديم. استطاع علاء ببعض الاستعلامات أن يحدد المنزل المناسب الذى يجب أن يطرق بابه. كان هناك حوالى نصف دستة من نوعية هذا المنزل ومعلق على أبوابها إعلان لبيع نسخ طبق الأصل لقطع أثرية مشهورة. ويُقال إن كل منزل من هذه المنازل يستطيع أن يُظهر "قطعًا أصلية" للبيع سرًا وبشكل غير قانونى بالطبع. تم إرشادنا إلى منزل معين، وطلب منا صاحبه أن نجلس فى غرفة الضيوف، حيث كانت هناك أريكة تدور حول الغرفة كلها. تم تقديم الشاى إلينا، بينما ذهب أحدهم ليستدعى الرجل الأول فى القرنة. كان رجلا ضخما جليلا عليه هيبة، يرتدى الجلباب والعمة المعتادة، عزم علينا لنتناول الطعام معه، لكن علاء استطاع أن يهرب من تلك المسألة بلباقة. دعانا الرجل إلى أن نجلس معه فى الممر الرئيسى للبيت، وطلب إحضار مقاعد لنا، بعد ذلك عرض علينا أحدهم كيفية تشكيل مادة الألابستر لعمل آنية. تم تقديم دفعة شاى أخرى لنا، اتضح أن كبيرهم قد حج وذهب بالفعل إلى مكة المكرمة، وهو الآن ذاك الرجل التقى الورع. طلب منى الحاج أن أحدد طلباتى، قلت له إننى علمت الكثير مما يعانى منه أهالى القرنة، هل تسمح لى أن أسأل هذا الفنان الذى يشكل الألابستر بعض الأسئلة؟ وافق الحاج.

من أين أتيت بهذا الألابستر؟

هناك مكان معين نستخرجه منه يبعد عن هنا بمسافة خمسة أيام، فى رحلة تتم على ظهور الحمير.

هل هو نفس المكان الذى كان يستخدمه قدماء المصريين؟

لا أعلم.

هل هى رحلة صعبة؟

هز الرجل رأسه ورفع يديه إلى أعلى:

حسنا، هل أستطيع أنا أن أذهب إلى هناك! أو بالأصح، هل يمكن لهذا الشاب علاء أن يذهب إلى هناك إذا أراد؟"

نعم، لكن هذا يتحقق إذا ذهب معه أحد منا ليرشده على الطريق. هى ليست رحلة سهلة، وفى موسم الخماسين، هى رحلة مهلكة.

هل أنت دائما ما تستخدم هذه الأدوات المصنوعة من الصلب؟

نعم.. دائما ما أستخدمها.

قيل لنا إن الفراعنة لم يستخدموا أدوات حديدية فى هذا الشأن، هل تعلم كيف صنعوا أوانيهم؟

أعتقد أنهم استخدموا أدوات أخرى، ربما من الخشب أو الحجر الصلد.

من أحضر هذا الألابستر؟

أغرق الرجل فى الضحك قائلا: «أنا»

هل مكان هذا المنجم يعتبر سرا من الأسرار؟

ضحك مرة أخرى قائلا: «لا».

هل أنت تحب معيشتك هنا فى قرية القرنة؟

«طبعا».

ليس هناك شيء مزروع لعدة أميال حولكم، ولا حتى البصل! كل شيء تحضرونه من أماكن بجوار النيل، لكن هنا...

هنا قاطعنا الحاج قائلا:

نعم، الأمور هنا فى أفضل الأحوال لولا تدخل الحكومة المستمر، إنهم يحاصروننا.

لقد أرادت الحكومة ترحيلكم منذ زمن بعيد، وهناك قرية شُيدت لكم بجوار النيل. هناك فى أرض خصبة، لكن لا أحد منكم يود الرحيل من هنا، وحتى إذا فعلها أحدكم فإنه يعود مرة أخرى إلى هنا حيث لا يوجد أى شىء، لذا نشاهد القرية الجديدة وهى خالية تماما من السكان".

قال الحاج: حدث هذا منذ زمن قديم، كذلك كانت المنازل الجديدة سيئة.

كيف؟

كانت مصنوعة من الطوب اللبن.

وماذا يعيب الطوب اللبن؟

إنه مسكن الفلاحين الفقراء.

لكن ما هى نوعية المسكن التى ربما يرحب بها سكان القرنة؟

نريد بيوتًا مناسبة، بيوتًا مصنوعة من الأسمنت والطوب الأحمر مثل تلك التى نشاهدها فى المدن، وليست مبنية بالطوب اللبن.

سمعت أنكم رفضتم الانتقال من هنا لأن هذا سوف يؤثر على تجارتكم.

أى تجارة تقصد؟ أى نوعية من التجارة تقصد؟

هذه، عمل النماذج الفرعونية من الألابستر.

نحن نستطيع أن نستمر فى تجارتنا هذه فى أى مكان نعيش فيه، وسوف يأتى إلينا السياح. لكن فى الحقيقة، سوف تنقلنا الحكومة هذه الأيام إلى مكان جديد بمنازل جديدة.

أنا لم أسمع بذلك.

إنهم بالفعل يشيدون مدرسة لأولادنا.

ومتى ينتهون من بنائها؟

من يعلم؟ إنهم ما فتئوا يرددون أنهم سوف ينشئون كوبرى عبر النيل منذ خمسين عاما. تعالى معى، سوف أجعلك تشاهد هذه المدرسة.

لذلك تكومت أنا وزوجتى وعلاء وحسن وباسم وكذلك الحاج داخل تلك السيارة الصغيرة، سلكنا أولا خلال سهل خال مرتفع يدعونه باسم أرمنت، وهو تكوين جيولوجى اقتبس هذا الاسم من شكل آخر يشبهه يقع شمالا، ومساحته تبلغ ما بين ميل إلى اثنين مربعين- هو بالطبع أقل ارتفاعا من التلال الطيبية، لكنه ما زال أكثر ارتفاعا من الأرض الخصبة المجاورة للنيل، وهو لا يصلح للزراعة. وفيما عدا الممر الطبيعى، تناثرت حفر استكشافية كثيرة، وهى حفائر قديمة، كما أعتقد. هذا السهل المرتفع وكذلك الحفر الاستكشافية مليئة بكسر الصخور الجيرية والتى قد يبلغ سمكها قدما أو أكثر. اعتقادى الجازم أنه يستحيل أن تسلك هنا أى سيارة، فيما عدا الجرارات الزراعية، فهى بادية يصعب اختراقها وتزيد فى مصاعبها عن منطقة بنى حسن أو تل العمارنة. قاد باسم السيارة العجيبة وسط هذا الخراب المهلك، فترنحت السيارة وخبطت ثم ضربت الصخور حوض الزيت فحدث انفجار كأنه قنبلة. بعدها سقطت ماسورة العادم. نزل كل من باسم وعلاء وشبكوها ببعض الخيوط. تحركنا قليلا فخبطت السيارة مرة أخرى وانفصلت الماسورة. بعد ذلك، حتى باسم اعترف بالهزيمة. على بعد ربع ميل منا، كان هناك شكل بناء من المسلح ويظهر الطوب الأحمر فى بعض حوائطه ويقع وسط فضاء من الأحجار والرمال. هذه هى المدرسة ولم نشاهد أى نشاط إنشائى بها، إنها لم تكتمل، وبالكاد ظاهرة على وجد الأرض.

منذ متى بدأت الحكومة فى بناء هذه المدرسة؟

منذ عام تقريبا.

كيف يمكن لأولادكم أن يذهبوا إلى تلك المدرسة؟

باستخدام أتوبيس تابع للمدرسة.

أتوبيس يسير وسط تلك الأحجار؟.

أشار الحاج بيديه بحركة دائرية كبرى قائلا:

كل ما تراه أمام عينيك، سوف يزال.

إنه جهد مبذول يقاس مقداره ببناء الهرم الأكبر، لم يعد أمامى شىء آخر ممكن أن أضيفه.

أخذنا نترنح ونحن نعود إلى قرية القرنة، ثم شكرنا الحاج وودعناه، فمنحنا تفسير الوداع قائلا: "نحن على أتم استعداد لأن نغادر هذه المكان فى أى وقت. نحن نعلم أن الحكومة تريدنا أن نرحل من هنا. كل سنة يفكرون فى سن نظم جديدة تجعل الحياة صعبة بالنسبة لنا، وليس مسموحا لنا أن نبنى أى شىء جديد هنا ولا أن نصلح بناء قديم، بل ولا تسمح حتى قيامنا بحفر مكان نستخدمه كتواليت، كل ما نفعله الآن"، ثم فرد يديه على اتساعها وابتسم ابتسامة عريضة، هو أن ننتظرهم حتى يشيدوا لنا هذه القرية الجديدة التى وعدونا بها على أن تكون بالطوب الأحمر والخرسانة المسلحة حول هذه المدرسة الجديدة.

كل ما حولنا، كان يسبح فى هدوء شامل، بل إن المنظر أمامنا يجعلنا نصفه بأنه «لا يمت للزمن بصلة». غادرنا الحاج متجها إلى منزله، اشترى حسن بعض الفطائر لنا. أخذت أستعرض قرية القرنة القديمة بناظرى ببيوتها المتناثرة بشكل عشوائى، تشبه فى ذلك تلك المقابر الفرعونية المتناثرة خلال الطبقات المختلفة للتلال المجاورة. كان واضحا أن تلك «البيوت» لا تستحق حتى لقب أكواخ، معظمها ذات أشكال هلامية وضعت هكذا بهدف المطالبة بحق ما. هذه القرية تعتبر غنية بالمقاييس المصرية. مع ذلك، هناك من مبانيها ليست سوى خرائب لم أشاهد مثيلا لها خلال مئات الأميال التى قضيتها فى الترحال والسفر. كان مستحيلا أن لا يتملك الإنسان العجب عما يمكن أن يكون مختبئا تحت تلك الأشكال الغريبة من السكن. هناك قوى غيبية معقدة تمسك بتلابيبى وتجبرنى على أن أشق طريقا بالقوة الجبرية، واحد من تلك القوى يختص بالأقاويل التى انتشرت بخصوص هذه القرية فى عالم التحف المهربة والمزيفة، لكنى للأسف، لم أصل لنتيجة ما، ولم أتوقع حدوث ذلك، فهو حائط مصمت لا يمكن عبوره أبدًا . على أية حال، لست بأى حال متحمسا لتعضيد وجهة نظر أى جانب فى النقاش الدائر بشأن تلك المسألة، فأنا أؤمن أن التحف المزيفة هى غير قانونية أكثر من كونها عملاً خاطئًا. لكن من ناحية أخرى، وهذا ما جذب انتباهى، هو ذلك العناد

الغريب الذى اتصف به أهالى قرية القرنة، أو بمعنى آخر، استماتتهم فى البقاء ببيوتهم تلك وألا يطردوا منها عنوة، وهذا كان له أثر شديد على كل سكان مصر. هذا العنصر الأخير، كان سببا فى تدمير واحدة من أهم المشاريع المصرية، وهزم عمل رجل كان فى إمكانه أن يغير من شكل هذه المبانى المجنونة، بزواياها الشاذة وطوبها الأحمر البارز وقبحها الفنى المريع.

لقد نشبت حرب عشواء ودارت رحاها تحت ظلال هذه التلال، ذلك عندما تمسك أهالى القرنة وتشبثوا بالشىء الوحيد الذى عرفوه واعتادوا عليه. لكن ربما كانت فكرة نقلهم الآن لا تستحق كل هذه الجهود، حتى على مستوى موضوع التنقيب على الآثار، فاكتشاف مقبرة عظيمة وكاملة هو حلم لن يتحقق، فكل ما سوف يكتشف سوف يكون خاليا من الآثار. أيضا أعتقد أن أهالى القرنة هؤلاء قد تم تشجيعهم على الصمود فى موقفهم الرافض للانتقال بمساندة رجال على مستوى عال، رجال من السلطة، رجال سوف يخسرون الكثير إذا رحل هؤلاء، رجال لهم خبرات متميزة فى مجال التعامل مع البيروقراطية المصرية.

قال علاء: «الآن، ما هى وجهتنا التالية؟»

قلت، «أريد أن أذهب وأرى ما تبقى من أعمال المهندس حسن فتحى».

(١١)

كان المهندس حسن فتحى فى وقت كتابتى لهذه اليوميات، واحدا من أبناء الطبقة العليا المصرية. طبقا لأقواله يقول إنه كان يحلم فى طفولته بأمرين: واحد منها هو أن يطوف العالم كله بحرا فى يخت ملىء بأوركسترا تعزف الموسيقى؛ الثانية هى أن يبنى قرية يستطيع أن يسكن فيها الفلاح مستريحا محققا النظافة والجمال. والده كان إقطاعيًا كبيرًا، لكنه كان يكره البقاء فى الريف، وحسن فتحى ذاته اعترف بأنه إلى أن بلغ السابعة والعشرين من عمره، لم تخط قدماه داخل واحدة من عزب والده. مع ذلك، درس هو الهندسة، بعد تخرجه أُسنِد إليه الإشراف على بناء مدرسة فى طلخا، وهى قرية فى الدلتا. قال إن الحالة السيئة التى كان يعانى منها المكان قد أزعجته. إحدى عزب والده كانت قريبة من مكان إقامته، فذهب إليها وشعر بغصة فى حلقه مما شاهده هناك.

بعد ذلك، قرر أن يصمم شكلا فى البناء يكون متاحا للفلاحين ولا يكلفهم سوى القليل، فتكلفة شراء الطوب الأحمر مرتفعة، و كما رأينا، ولحظنا الحسن، عرفنا هذه النوعية من الطوب قبيحة الشكل والمنظر. لذا أجرى حسن فتحى تجاربه على الطوب اللبن واكتشف، كما هو معروف على مر آلاف السنين، لكنه سقط من التناول الهندسى، أنه مادة مناسبة لكى تستخدم فى البناء فى جو معروف عنه أنه تقريبا جاف، ولا تفوقه أى مادة أخرى فى هذا الشأن. أكثر من ذلك، فمادته متوافرة أمام الفلاح بكثرة سواء فى حقله أو بجوار الترع والمصارف.

عرف حسن فتحى أن استخدام الطوب اللبن لن ينهى استخدام الطوب الأحمر النفيس الذى يستقطع من طين الوادى. لكنه لأنه يؤمن بالنظريات، أخذ يفلسف فكره لتصميم مبان بسيطة باستخدام الطوب الطفلى، ولكى يتحقق ذلك، عليك أن ترتبط بأمور بسيطة، مثل الشمس والماء والأرض، بذلك تستطيع أن تشيد منزلا جميلا بمساعدة العناصر التى يعيش فى ظلها الإنسان.

مع ذلك، عندما قام بوضع هذه الأفكار الجميلة موضع التطبيق، تعرض لعائق واضح، فقد بنى بيوتا قوامها الطوب اللبن، لكنها ملك للأغنياء! هذه المنازل كانت أرخص بالطبع من تكلفة إنشائها باستخدام الطوب الأحمر، لكن التناقض الحادث هو بسبب الطبيعة الخاصة التى تميز مصر، فهى دولة ليس بها غابات تقتطع منها الأخشاب، وقد شاهدنا من قبل مدى تلك الجهود المضنية التى تقع على عاتق الفلاحين لكى يسقفوا منازلهم باستخدام منتجات النهر كالبوص، تلك التى توضع على شكل كومة فوق سقوف بيوتهم المبنية من الطوب اللبن. كانت المنازل التى صممها حسن فتحى للأغنياء، لأن الأخشاب اللازمة للتسقيف، كانت دائما مرتفعة الثمن. لذا ما حاول أن يحققه للفقراء كان معرضا للخطر وأصبح طرازا يعشقه الأغنياء. لذلك فكر، كيف يمكن للفلاح أن يبنى منزله الطينى، كيف له أن يتحمل تكلفة شراء الخشب اللازم لسقفه، بينما حتى استخدام البوص فى تسقيف منزله هو فى حد ذاته فوق طاقته. فوق كل هذا، كانت الحرب العالمية الثانية مشتعلة فى كل مكان، وأصبح الحصول على الأخشاب أيضا متعذرا.

كان الموقف غريبا؛ لكن حسن فتحى أعاد اكتشاف الأسقف المقوسة. اكتشف أن هذا الأسلوب من البناء يعيش بنجاح بالقرب من أسوان، عند الشلال الأول فى القرى النوبية غرب أسوان.

الآن، وقد أعاد اكتشاف هذه المنحنيات المبنية بالطوب اللبن، نكتشف أن مشكلة استخدام الأخشاب فى السقوف قد انتهت. لذا صمم هو أن يحتفظ بكل ما هو جيد فى طريقة البناء تلك، وأن يتخلص من تلك الأكواخ السيئة التى يعوزها تماما سقوف تحميها، بينما هناك رجال ونساء وأطفال يرتعشون طوال الليل ويموتون فعلا من البرد، إذا لم يكونوا بالفعل قد تسمموا بسبب استخدام المياه غير النقية التى يجلبونها من النيل أو الترع.

بعد ذلك، ولعل الحظ الحسن كان بجانبه، فقد صدر أمرا ملكيا بنزع ملكية الأرض القائمة عليها قرية القرنة، حدث هذا بسبب حادثة سرقة واضحة لمقبرة، لا يمكن غض النظر عنها حتى فى مصر. ثم تبع ذلك صدور قرار وزارى بنزع ملكية البيوت التى يسكن فيها أهالى القرية، بذلك يضطرون غصبا إلى أن ينزاحوا بعيدا عن المقابر الفرعونية القديمة، وخصص لذلك مبلغ مليون جنيه مصرى لكى تبنى لهم قرية بالطوب الأحمر التقليدى. لكن حسن فتحى كان مقتنعا أن البناء بالطوب اللبن هو الأفضل والأرخص. تم تعيينه مهندسا لهذا المشروع، بينما اختارت اللجنة قطعة أرض مجاورة للنيل بعيدة عن مقابر ملوك الفراعنة. ثم تم شراء هذه الأرض من مالكيها بالأمر المباشر.

كانت فكرته حسنة تهدف للمصلحة؛ فمن الجانب الآخر من البحر الأحمر اشتق طريقة نظام التهوية الذى سوف يطبق فى هذه الأكواخ المبنية بالطوب اللبن، وذلك باستخدام طريقة الحمل فى تبريد الهواء. إنه نظام يعتمد على استخدام قباب الهواء أو مسالك الهواء، تلك التى كانت تستخدم يوما فى مجال الإبحار الشراعى ويتم بها تهوية السفن وهى عابرة فى المناطق الاستوائية.

كان هو ينتوى أن يحفر حوضا كبيرا للمياه، لكى يمنع الأطفال من شرب المياه الملوثة؛ أيضا أراد أن ينظم البيوت حول ميدان مجتمعى، فالمصرى بطبيعته لا يستطيع أن ينتزع نفسه من مجتمعه، حتى ولو لم يصرح بذلك. هذه القرية الجديدة التى سوف تضم فى جوانبها سبعة آلاف نسمة من غير المتعلمين، سوف يكون لهم مسرحهم الخاص، أيضا سوف يكون، وهذا ما خطط له، حمام تركى، ومركز للشرطة كذلك عيادة طبية. سوف يكون هناك أيضا مركز اجتماعى كبير يختص بالنسوة فقط، بالإضافة إلى سوق وخان.

لكن ما هو عدد المبانى التى نفذها بالفعل؟ نجد أن كل قصته مذكورة فى الكتاب الذى أصدره، لكن عندما تقرأ تلاحظ أن هناك شأنًا مثيرًا من الأمور الغامضة التى لم يشرحها جيدا، وهذا يذكرنى بالسكرتير العام. بالطبع، الصور التى بقيت تظهر شكل بيوت أنيقة وجميلة، لكن هو لم يعمل حسابا للمصرى المتوسط. من جهة، كان يضع أهالى القرنة أساسا فى حسبانه، ومن جهة أخرى

يتعامل مع من يتحكمون فى صرف مليون جنية مصرى على المشروع. كانت الحكومة واقفة له بالمرصاد، وتبرع دائما فى تعطيله فى كل خطوة يخطوها، وشاركها فى ذلك المقاولون والعمال والبناءون، وأخيرا أهالى القرنة أنفسهم، الذين داوموا بعد فترة فى تخريب وتدمير جهوده. بنى حسن فتحى سدا أمام النهر ليحمى القرنة الجديدة من فيضان النيل الموسمى. لكن على الرغم من كل العقبات المختلفة مثل الرشوة واللؤم والمؤامرات، بالإضافة إلى الجهل والتكاسل فى العمل، فإنه كان يتقدم حثيثا. اهتم القصر الملكى بهذا المشروع، وهو أمر له شأن كبير فى تلك الأيام، بالفعل تم استدعاؤه لكى يشرح للملك فكرة مشروعه، يقول فى كتابه إنه أثناء عودته من المقابلة الملكية، شاهد إعلانا لفيلم سينمائى أجنبى باسم «الوحلة الكبرى»، هذا الإعلان أزعجه وكدر مشاعره، اعتبره كأنه رسالة تنتظره عندما يعود إلى عمله. فعلا، فقد تم كسر السد الذى أنشأه وأصبح موقع القرنة الجديدة كله غارقا فى مياه الفيضان، لذا أسرع بالعودة إلى الأقصر. اكتشف أنه قد تم عمل حفر عميق فى السد يبلغ عرضه حوالى ثمانية أمتار. لاحظ أيضا أن أهالى القرنة يرفضون العمل على إصلاح السد، حتى عندما غصبوا على ذلك، كانوا يعملون على توسيع الفتحة بأرجلهم، بدلا من أن يعملوا بأيديهم فى إصلاحها. وكما يقول حسن فتحى، جميعهم كانوا يطيعون رؤساء العائلات، فهم جميعا يعتبرون من لصوص مقابر الفراعنة. هم ليسوا على استعداد أن يهجروا منازلهم المتهالكة التى تجلب لهم كل تلك الفوائد والأرباح داخل نطاق الجبانة الفرعونية التى تقبع تحت أرضيات منازلهم، لكى ينتقلوا إلى قرية جديدة صحية، لكنها بعيدة عن منطقة المقابر.

سريعا تم التعرف على القرنة الجديدة، حيث طبعت بأسلوب حسن فتحى الخاص، ففى كل مكان تنتشر فكرة الاستخدام الحسن للطوب الطفلى، كذلك فكرة استخدام معابر الهواء والقباب، كان هناك شعور سائد خلاصته أن هذا المشروع جيد ونافع وعبقرى.

وُجهت إلينا الدعوة لزيارة أحد منازل القرنة الجديدة، كان المالك، أو قل هو المحتل، لأنه لا يجب أن يسكن هنا سوى أهالى القرنة، بينما هذا الرجل قادم من

القاهرة. جعلنا أولا أن نشاهد واحدة من الغرف التى تعتبر واحدة من مبتكرات حسن فتحى. السقف فيها على هيئة قبو معقود، وهو ليس على هيئة قوس بسيط، لكن على شكل نصف بيضاوى، ويمكن لهذه الأشكال أن تتكرر حسب الأذواق، ومن الممكن أن يصنعها أى رجل قدميه مغموستين فى الطين. هنا نلاحظ وجود أربع وحدات تواجه أربعًا أخرى. الواحدة من الممكن أن تكون سكنا لإنسان فقير. هى لا تحتاج أبدًا للأخشاب، وإذا انتعش حال المالك، فمن الممكن أن يضم إليه وحدة أخرى. لكنى لا أعتقد أن كل الوحدات الثمانى كانت كلها مشغولة بالسكان. الوحدة التى دخلناها كانت مليئة بالأخشاب. دعانا المضيف أن نشاهد جزءًا آخر من منزله، هو حوش المنزل حيث زُرعت ست نخلات، وطلمبة يدوية رُكبت داخل الحوش، ثم قادنا لنصعد سلما يصل بنا إلى سطح المنزل الموازى لسعف النخيل. شاهدنا، ونحن فوق السطح عملاقى ممنون عبر الحقول. كان هناك عدد من السياح متجمعين حول التمثالين العملاقين، لكن لم يكن أحد منهم يهتم بالنظر إلى القرنة الجديدة. هذا السطح، الذى كان محتاجا إلى تدعيمه بعروق الخشب لكى يتحمل أوزاننا، هو مكان متميز يصلح لأن ينعس فيه الإنسان أيام الحر تحت مظلة. المنزل الذى له امتداد هو بالتأكيد يعتبر صالحا لإيواء أفراد عائلة كبيرة أو رجل موسر، أكثر من صلاحيته لسكنى رجل فقير. هناك أيضا ممر يدور حول ثلاثة أضلاع الجزء العلوى وينتهى بغرفة معيشة صغيرة- هى تقريبا أفضل غرف هذا المنزل، تمتلئ بكل المقتنيات النفيسة لتلك العائلة. ما إن خطوناها، حتى تقابلنا مع الزوجة وأختها (أو لعلها الزوجة الثانية)، ورحبتا بنا وهما مزهوتان، ثم أخذ الجميع فى عرض كنوزهم. الأثاث فخم مزركش بأشكال مرحة، هناك أيضا مائدة على جانب من خشب الورد، وقرآن كريم فى صندوق ثمين مفتوح، وصور فوتوغرافية معلقة وخلاخيل. كل هذه تضاد تصورات وأفكار حسن فتحى، لكن كل تلك البهرجة التى شاهدناها فى تلك الغرفة لا تقارن بذاك الجمال الذى يتبدى فى الحوش بنخلاته الست، والفكرة العبقرية فى إنشاء ممر يدور حول الحوائط العليا للحوش. ثم قدموا لنا الشاى فى أقداح من البورسلين فوق أطباقها المخصوصة، لذا أصرح هنا أن مضيفنا هذا يعتبر من الأثرياء.

ما بين بيوت حسن فتحى وعملاقى ممنون، شيدت الحكومة مدرسة جديدة، وبالنسبة لأى مبنى حكومى، كانت هذه المدرسة مشيدة بالخرسانة المسلحة والطوب الأحمر. هو فى الواقع بناء كئيب، فليس فيه شىء من فنون البناء، لكنه على الأقل تعد منتظمة الشكل، بحوائط مستقيمة، وكل زواياها تقريبا معتدلة من الناحية الإنشائية. على بعد مائتى متر منها، تقع المدرسة الأصلية التى بناها حسن فتحى بالطوب اللبن. فى الحقيقة، على الرغم من مظهرها المتواضع، فإنها ذات شكل جذاب متماسك. بالنسبة لى، وعلى أى مستوى، أقول إن هناك نوعًا من الأناقة والشياكة فى كل أعمال حسن فتحى، لدرجة أننى كنت محتارا، كيف يمكن لى أن أفصل ما بين المادة وبين حسن فتحى. كانت فكرتى النهائية أن المادة هى الأسلوب، هى الرجل ذاته واختياراته التى تنبئ عن عبقرية نادرة. مع ذلك، هُجرت مدرسته تلك، فقد ادعت السلطات أن واحدًا من حوائطها قد تشبع بالرطوبة وتحته مياه كثيفة، وتلك ظاهرة غير متوقعة فى السهل الفيضى المصرى. مع ذلك، منذ أن تم بناء السد العالىّ بأسوان، فإن الفيضان قد امتنع تماما. لكن السلطات، سارعت فى لحظة قرار حاسم بأن تهجر المدرسة القديمة وتبنى واحدة أخرى جديدة، ولعل المسئولين شعروا براحة عميقة وهم يفعلون ذلك.

فكرة إنشاء القرنة الجديدة، والقليل الذى تم تنفيذه منها، لم يحقق أبدًا طموحات حسن فتحى، لذا نجده يصرح بأن كل المشروع كان عبارة عن فشل ذريع، لكنى لا أفهم كيف يفشل عمله هذا طالما أن ما تم بناؤه فعلا يبدو ظاهرا وواضحا وسط تلك الآثار الخالدة لذاك السهل العظيم، هو فى الحقيقة يعطى مثالا قويما لمن له أذن للسمع.

لا شك أننا أصبحنا ندقق فى اختياراتنا للأماكن المعمارية التى يجب أن نزورها. فالأقصر بها مساحات تقاس بالأفدنة الكثيرة التى تناثرت عليها المبانى المعمارية البالية، وهى لا تستحق الزيارة قياسًا إلى ما معى من نقود قليلة. الآن ابتعدنا عن مشروع حسن فتحى «الفاشل» واتجهنا نحو موقع رائع آخر، يقع فى خلاء مشبع بالأحجار المقدسة وغير المقدسة، إنه معبد حتشبسوت، ذاك الراقد وسط طبقاته الأفقية المتدرجة، وخلفه بانوراما من الهضاب العظيمة.

هذا المعبد هو واحد من عدد قليل من الآثار الفرعونية التى تتسق مع وجود المشاهد الطبيعية خلفها، ومع تلك الهضبة الجبارة كأنه يقلدها دون أن يفوقها. إنه يشبه فى ذلك المبانى الفرعونية الأخرى مثل أهرامات الجيزة وهرمى زوسر وميدوم. تتميز أهرامات الجيزة بضخامتها البالغة وسط فضاء يصعب تحديده، كأنهم كانوا يريدون لمن يقف إلى جوارها يبدو تافهًا هزيلاً. أكثر من ذلك، عندما يراقب المرء هضاب الصحراء الشرقية وهى تمر ما بين القاهرة حتى السد العالى، على مدى مئات الأميال جنوبا، يلاحظ وجود أشكال هرمية عدة، ناتجة عن تراكمات صخرية. فى الحقيقة، أحيانا ما تنفصل قطاعات ضخمة من تل ضخم صانعا زاوية قد يرتفع طولها إلى ألف قدم وتتشابه فى شكلها مع الهرم الأكبر. لذا يمكن القول إن أفضل الأعمال الهندسية المصرية القديمة، كانت الطبيعة ذاتها هى الملهمة ولم يكن عليهم سوى أن يقلدوا فعالها. الآن أشاهد أمامى معبد حتشبسوت الذى هو تقليد يتماشى مع طبيعة الأرض أمامه وخلفه، فيه تم تقليد صفات الصخور الطفلية. هو فى الحقيقة يعبر عن لمسات المرأة بعواطفها القوية الجياشة.

سارت بنا السيارة متجهة إلى المعبد، أو الأصح قولا: كأننا كنا داخل قربة يخضها السائق خضًا. كانت سيارة باسم كأنها ملاكم خسر مباراته بالنقاط، وأعلن أنه لن يستمر حتى يكمل الخمس عشرة جولة. عندما وصلنا إلى المنطقة التى تسبق الدخول إلى نطاق المعبد وهى تلك المخصصة لمشتريات السياح من الآثار المقلدة، اكتشف باسم أن سيارته لا يمكن أن ترتد إلى الخلف. وكانت تلك مأساة حقيقية؛ لأن علاء أيضًا اكتشف أنه كان يريد أن يحضر لنا تذاكر للدخول من مكان يبعد خلفنا بما يقرب من ميل عن الطريق الذى جئنا منه. جاهد كل من علاء وباسم وحسن فى العمل على إرجاع السيارة مستخدمين كل ما أوتوا من جهد عضلى، بينما وقفت أنا وزوجتى جانبا نحتمى فى كبر السن. عثر حسن على بعض أصدقائه وثرثر معهم، بينما رجع علاء وباسم ممتطين تلك السيارة المسكينة ليحضروا لنا التذاكر. جلست أنا وآن فى الشمس خلف الجدران المنخفضة لأحد البازارات وانتظرنا. على الفور، هجم علينا عدد كبير من بائعى

الأنتيكات، واتضح لى أنها تجربة لذيذة فعلا. بالطبع باشروا معنا كل حيلهم. بشكل تآمرى متتابع، أخذوا يعرضون علينا آثارا أصلية! أبرز الأول من بين أكمامه وجه طينى لأحد النبلاء، قال لنا إنه أصلى لأن الأوساخ ما زالت عالقة به. الثانى عرض علينا جعرانين كبيرين من الحجر الحرارى، بينما ما زالت آثار المنشار الحدادى واضحة فيهما. بعد ذلك، عرض علينا ثالث أن نشترى أى قدر نشاء من الخرز الأزرق، بالصدفة البحتة علمت أن المادة الخام لهذا الخرز تستورد من ألمانيا وتصنع فى الأقصر. أفضل وسيلة للتعامل مع هذا الهجوم التجارى هو أن تتعامل معه كأنه نكتة نشارك بها البائع. ثم حضر إلينا الجهد النهائى، الأكثر تأثيرا فى رأيى، عندما أتى نحونا متسللا رجلا وأخرج بشكل سرى من بين جلابيبه خرطوشة ذات حروف مهشمة لتبدو عليها آثار القدم، بينما ترك فى الوسط مسافة كافية ليظهر محفورا بها الملك والملكة يواجهان بعضهما. وضع هذا الرجل تلك الخرطوشة واقترب من وجهى هامسا، تريد أن تشم المومياء؟.

استمر بقاء السيارة غائبة عن أنظارنا فترة طويلة، أخذنا نتجول هنا وهناك نتفحص أشياء أخرى، وما إن عادت السيارة، حتى شعرت أن لا أحد منا له رغبة قوية فى زيارة المعبد، بما فيهم نحن أيضا، فهناك حدود سيكولوجية تقف دائما فى سبيل ما يمكن أن تشاهده أو تفكر فيه أو تقدره فى يوم واحد. مع ذلك، كانت هناك تذاكرنا نحن الاثنين، لذا اضطررنا إلى أن نقوم بزيارة ينقصها الشوق والحماس. نصف المعبد كان محظورا بسبب قيام بعثة بولندية بعمل ما فى الاستكشاف أو الترميم. فى الحقيقة، هذا المعبد يتم الحفاظ عليه جيدا، هذا وقد صدرت منى عدة صيحات غاضبة وجهتها إلى أحد المرشدين أو الحراس، والتى أشعر الآن بالخجل منها ولا أود هنا أن أذكر أسبابها. لذا عدنا وقد تثبت يقيننا أن رؤية هذا المعبد من بعد وهو أمام تلك الهضاب العجيبة أفضل كثيرًا ويمكن الإعجاب به. وما إن رجعنا قليلا حتى اكتشفنا أن السيارة قد اختفت تماما. ذهبنا إلى موقع "توماس كوك" وتناولنا عصير البرتقال مرة ثم أخرى. أخيرا عادت السيارة وهى تكركر كالمعتاد. اكتشفوا أن هناك ثقبًا فى كل جزء من أجزائها. لكن يا ترى ما الذى تود أن تشاهده بعد ذلك؟

عصير البرتقال استطاع أن يرفع من معنوياتى، وعندما أخبرتهم بأننى غير راغب فى زيارة وادى الملوك، ارتسمت مظاهر السعادة على وجوههم. لكن أنا فى الحقيقة لم أشاهد وادى الملكات من قبل- ظهر القلق على الوجوه- يجب أن نحقق مبدأ المساواة بين الجنسين، وللنساء حق غير منكر بأن يكون لهن مقابر خاصة بهن، لكن هذا هو كل شيء ولن يتلوه أى طلب آخر، هذا كان وعدى الأكيد لهم، بعد هذا يمكن لنا أن نطلق على هذا اليوم بأنه يوم حقيقى. لذا كركرت السيارة بحملها لثقيل وأخذت جاهدة تشق طريقها الصعب تحت تلك الظلال وتلك الهضاب العجيبة، ثم تسلقت مرتفعا حتى وصلت أخيرا إلى وادى مقابر الملكات. لم نشاهد هناك سائحا واحدا، فقط الحارس المسئول عن التذاكر. كل المقابر كانت مقفلة ما عدا اثنتين، لذا قمنا بزيارتهما كأداء واجب. الأول كان مليئا بنقوش جميلة على الجدران، وكانت مشاهدتى لتلك النقوش من بعد كبير. المقبرة الأخرى لا تستحق أن يدفن بها أحد، ونسيت لمن تكون هذه أو تلك، مع ذلك، أقول بأننا بالفعل قد زرنا وادى الملكات.

أصبحت السيارة الآن تصدر ضوضاء تتشابه مع تلك التى استمتعنا بها فى مركبنا عندما انفصلت روابط الموتور. لكن عندما يكون هناك منحدر فى الطريق، الاحظ أن السيارة تسير هادئة لكن أيضا بصوت مزعج. أعتقد أن علبة العادم قد انفصلت مرة أخرى، ومع ذلك لم يتم استبدالها وتابعنا أيضا ذيل من الدخان- لعله الدليل على وجود جولدنج فى مصر؟ هذا الدخان كان يلوث كل منطقة وادى الملكات. مع ذلك، كنا محظوظين، فكل الطريق حتى المعدية عبارة عن منحدر، لكن عندما اعترضنا مطلعين فقط فى طريقنا، بدت السيارة كأنها سوف تلفظ أنفاسها الأخيرة، كانت تفعل كأنما تواجه أمواجا عالية بينما دخانها يزداد سوادا. كنت أتوقع فى كل لحظة أن يظهر سيد ممتطيا سيارة شرطة وهو يلوح بالمنافض بين يديه. ليس هناك ما يضاهى قضاء يوم طائش مثل هذا وسط مقابر الملوك والملكات. استطاع باسم بكل تؤدة وحرص أن يصل بالسيارة أخيرا حتى مكان رسو العبارة، أوقف الموتور لكن السيارة استمرت فى الارتعاش. ما إن نزلنا منها حتى قال لنا علاء بأن نعبر إلى الجهة الأخرى بينما سوف يظل هو وباسم بجوار

السيارة، لكن لأن ترس الرجوع فى السيارة أبى أن يتحرك، لذا قاما بدفعها واستعدالها لكى تدخل العبارة. أما نحن الاثنين ففى سن يسمح لنا أن نطرد من تلك الموقعة بكل هذا اللطف. فى جملة تلخص كل الموقف، أقول إننا ندرك تماما كل المشقات التى تعرضا لها ونأسف لذلك، لكننا فضلنا أن نتركهما لشأنهما.

كان اليوم مرهقا للغاية، على الرغم من أننا لم نسر على أقدامنا كثيرًا ، لذا ما إن وصلنا إلى الفندق، حتى اندفعنا فى استغلال كل ما يمكن أن يقدمه لنا من منافع. أخذنا حماما، وأكلنا، وجلسنا مستريحين فى شرفة حديقة الفندق حيث نهلنا من روائح الزهور خلال هذا المساء الدافئ. لقد أصبحت التجربة المصرية الآن أكثر تنوعا. لكن كيف يمكنك أن تجمع كل الأشياء تحت قبعتك؟

فكرت، فعلا هناك نقائص كبرى يتعرض إليها المرء عندما يتوسع فى تعاطفاته. لا أستطيع فى أى وقت أقضيه فى فندق ونتر بالاس القديم دون أن يخطر ببالى بعض الذكريات، ليست خاصة بمصر القديمة، لكن إلى أيام الملكة فيكتوريا وإدوارد، حيث كانت مثل تلك الفنادق الغريبة مليئة بأناس مختلفين تماما! ثم انتقل فكرى ناحية المتحف الجديد ومومياء الوحيدة، التى حركت فى مشاعرى رعب أيام الطفولة وخيالاتها الجامحة. كذلك فى المعبد المجاور لهذا المتحف، الذى يتآكل بشكل بطىء، لكن ليس بهذه الدرجة من البطء، فمن باطن الأرض، ترتفع الأملاح من تلك الوهاد بطينها وتربتها وحجارتها وما تصبه من بخر. فكرت أيضا فى حسن فتحى الذى أمسك مفتاحا بين يديه راغبا أن يقود المصرى إلى مقام افضل، لكن المسكين أُحبط فى كل خطوة خطاها إلى الأمام بمصرية المصريين... هناك أيضا هؤلاء النوبيون، وددت لو شاهدت قراهم، وقابلتهم. هم أيضا سيضيفون إلى معارفى الكثير.

(١٢)

استعدت نشاطي في اليوم التالي، وأرسل باسم سيارته للورشة لإصلاحها، ولم يعد أفراد طاقم المركب "هاني"، فإما كانوا يزورون ذويهم أو كانوا يسعون إلى إصلاح محور الرفاص بأن يكسوه بطوق مطاطي! شعرت آن أنها راغبة في أن تقضي يومها هذا في حديقة الفندق، لذا قمت بتأجير سيارة لأستقلها أنا وعلاء لعلي أستطيع زيارة مكان أو اثنين حسبما تقضي الخطة. أنا لم أشاهد معبد كوم أمبو من قبل، على الرغم من أنني لم أعد من هواة زيارة المعابد الآن، لكن هذا المعبد بالذات يحتل مكانا ممتازا على ضفاف النيل. فكرت أيضا أنه من الممكن أن ندمج هذه الزيارة بأخرى نزور فيها قرية من قرى المهجرين النوبيين، تلك التي بنيت لهم عندما غطت مياه بحيرة ناصر أراضيهم وبيوتهم. كنت قد شاهدت واحدة من تلك القرى من بعيد. لذا ومعي علاء كمترجم، كنت أرجو أن أعثر على أحدهم وألقي عليه بعض الأسئلة. هناك الكثير من هذه القرى، لكن أقربهم إن لم تكن أكبرهم هي قرية كلابشة التي تبعد ١٠٠ كيلومتر من الأقصر بمحازاة النهر. بدأنا رحلتنا العاشرة صباحا. كانت نقطة اهتمامي الأولى هي مصنع الفوسفات الذي يشبه تماما ذلك الموقع على الجانب الآخر على شاطئ البحر الأحمر. إذن هم ينوون استخدام المخصبات الصناعية لتعويض فقد الغرين، ذلك الذي امتنع عن مصر واستقر كله في قاع بحيرة ناصر، ولم يزل الحساب الختامي مفتوحًا فيما يتصل بالسد العالي وبحيرة ناصر، ولا أحد يعلم بالنتائج، ولا أحسب إلا أنها نتائج متواضعة. فبحيرة ناصر تلك بحيرة ضخمة، إذا حدث وانفجر السد أو كسر عمدا، فإن وادي النيل أو قل مصر كلها سوف تغرق في البحر الأبيض

المتوسط. هذه البحيرة تغطى الآن كل الأراضى النوبية القديمة التى كانت موطنا لمئات الألوف من النوبيين، وجميعهم رحلوا ليستقروا فى أماكن أخرى.

فى إسنا، شاهدنا سوق الجمال الشهير. مئات من الجمال كانت تُباع وتُشترى، قليل منها للاستخدام فى العمل لكن معظمها للذبح. هناك تجد الكثير من اللوارى المنتظرة، ولعل وجهتها النهائية هى القاهرة أو الإسكندرية. كما هى العادة فى بلاد العالم الثالث، فإن البائعين، وكذلك الزبائن لا يفكرون إطلاقا فى راحة هذه الحيوانات. أسوأ مشهد رأيته هو مشهد جملين شُحنا داخل سيارة نصف نقل فى مساحة صغيرة لم يستطيعا معها وقوفًا أو بركًا. يبدو أن التجار قد عرفوا أنهما ليسا إلا كومة من اللحم وكفى.

على مسافة أبعد قليلا، تقابلنا مع قطيع هائل من الجمال يسير فى اتجاه الشمال. لقد صنعت تلك القطعان طريقا طويلا هو الوحيد على مستوى العالم، وهو طريق يشق الصحراء بدءًا من جنوب الخرطوم. المشرفون على القطيع هم عدد من أبناء الصحراء الأصليين الذين يصلحون لأن يكونوا أبطالا فى قصص ب.س. رن. كانوا جميعا يمتطون جمالهم، يمسك كل منهم بعصى طويلة، بديلا عن بنادقهم التى نزعت منهم عند الحدود. قائدهم له منظر خلاب، فهو وطابور الجمال من خلفه قطعوا الطريق وعطلوا المرور، على الرغم من أنهم كانوا بعيدين عنه. ففى الحال ظهر عدد من راكبى السيارات، وشرعوا يلتقطون الصور الفوتوغرافية للجمال وقوادها. ما إن حدث هذا، حتى تقدم القائد أماما وأخذ يطلق سبابا مقذعا، ويلوح بعصاه فى وجه المصورين. إنه الوحشى الشهم، وقد بث الذعر فعلا فى قلوب المصورين، لذا تراجع هؤلاء سريعا واحتموا بسياراتهم.

وصلنا كلابشة الساعة الثانية عشرة ظهرا. هى فى الحقيقة عبارة عن عشر قرى تتجمع حول مركز إدارى واحد، وهذا التجمع تم تصميمه بمعرفة الحكومة المصرية عام ١٩٦٣. كان حظنا حسنا. اليوم هو عيد المولد النبوى. كل شخص يتمتع بالإجازة. وجدنا أن العمدة، أو رئيس المنطقة كلها على استعداد كامل لأن يتبادل الحديث معنا. جلسنا فى مكتبه، قدم لنا الشاى، أيضا كان هناك عدد من أعضاء مجلسه، أحدهم كان ناظر مدرسة يتحدث اللغة الإنجليزية بشكل جيد.

سألت أولا: ما هي نسبة عدد من كانوا صغار السن عندما بدأ موضوع التهجير هذا ولا يتذكرون هذا الحدث الجلل. بالطبع أى فرد منهم كان يقل عمره عن عشرين عاما، قطعا لا يتذكر حركة التهجير إلى مكان مختلف. أجاب العمدة قائلا بأنه فى الحقيقة هناك عدد كبير لا يتذكرون ذلك، لكن ليس لديه تلك الإحصاءات الدقيقة. مع ذلك، لاحظت أنا أن هناك عددًا كبيرًا من الأطفال هنا! فعلا، قرية كلابشة مزدحمة بالأطفال بالمقارنة بأى قرية مصرية أخرى. سألت، هل يتذكر الكبار فى السن بلادهم القديمة بنوع من الأسف وهم يشاهدون الحكومة وهى تبنى لهم مساكن جديدة. آه، نعم، قالها الرئيس ببساطة متناهية، فعلا يتذكر الكبار بلادهم بكل الحسرة، لكن المياه بدأت فى الارتفاع - توقف عن الحديث وبحلق بعينيه - ثم ارتفعت وارتفعت، ولم يعد فى مقدورنا أن نفعل شيئا، لا شىء بتاتا. أكد ناظر المدرسة على هذه الأقوال مضيفا بأنها كانت مأساة حقيقية، لكن ما باليد حيلة، أنت لا تستطيع أن تتفاهم مع المياه المهاجمة، وكان هناك أيضا الحكومة. هنا حدث توافق مع الرئيس بشكل متواتر، نعم: هناك الحكومة. إنهما لا يوجهان انتقادا لأحد، لكنهما فقط ذكرا وجود تلك المياه الغازية ومعها الحكومة. سألت، عندما كنتم فى النوبة القديمة، هل كان عندكم أنابيب تنقل المياه من النهر إلى المساكن بشكل أوتوماتيكى. لا، هذا ما نطق به العمدة، النسوة كن مكلفات بأن يجلبن المياه من النيل. لكنى كنت على صواب وأنا أوجه هذا السؤال، وقد فهم هو أيضا مقصدى من ذلك. لقد أحسنت الحكومة عملا وهم ممتنون لذلك، فكلابشة والقرى المحيطة، بها أنابيب لنقل المياه، وهى مياه نقية ترد من الأبراج العالية الواقعة فى كوم أمبو. أيضا هناك حنفيات عمومية فى كل مكان، هناك أيضا عائلات كثيرة تصلها المياه حتى منازلهم. قلت إننى أقدر تماما أن يتمتع الإنسان بالمياه النقية، فعلى مدى طول النيل، كثيرًا ما كنت أشاهد النسوة وقد حضرن إلى الشاطئ ليحصلوا على الماء منه. هن لا يقتصرن على جلب الماء، لكن أيضا يغسلن الملابس وأوانى الطبخ. فى الحقيقة، لا أستطيع أن أعدد المهام التى تقوم بها النسوة بمياه النيل. هذا جعل الجميع يضحكون. حسنا، أضفت بقولى، أعتقد أن شاطئ النيل هو المركز الرئيس لاجتماع النسوة مع

بعضهن البعض، هو ليس مكانا للعمل فقط، لكن فيه تتناثر الأقاويل والأحاديث المرحة وتتبادل الأخبار. مكان يستطيع فيه أن يلعب الأطفال بينما عيون أمهاتهم تراقب، إنه من أهم الأماكن للنسوة الريفيات على وجه العموم. الا تعتقدون أن تلك الحنفيات المنصوبة فى الشوارع، كذلك تلك المياه التى تصل حتى المنازل أفقدت النسوة شيئا مهمًا كن يتمتعن به؟ زاد معدل الضحك. النسوة هن النسوة، هذا ما صرح به الرئيس، والنساء النوبيات سوف يجدن قطعا ما يثرثرن به مهما كان مكان وجودهن. الفرق الوحيد هو أنهن الآن قد صنعن أماكن لهن أمام صنابير الشوارع وأمام أبواب بيوتهن، كل ما فُقد هو قيامهن بحمل الجرار من النيل إلى البيوت، أيضا تم تخصيص صالة لهن يجتمعن فيها عندما يرغبن فى ذلك، لكن هل يرغبن! بالطبع نعم!

سألت عن نوعية العمل الذى ينشغل به النوبيون هنا كوظائف ومهارات. قال العمدة إن هناك حوالى خمسين فى المائة منهم يعملون فى هذه الصناعة أو تلك، وخمسة وعشرون فى المائة يعملون فى الحقول التى منحتها لهم الحكومة. لكن، هل لديهم أرض زراعية كافية؟ لا أحد لديه ما يكفيه من الأرض! فى الحقيقة، لم تخصص الحكومة لأحد منا أرضا زراعية كافية، بالإضافة إلى أن المزارعين لا يسكنون بجوار أراضيهم الزراعية. المحظوظون منهم قد يمتطون ظهور حميرهم لمسافة كيلومتر أو اثنين حتى يصلوا إلى القطعة المخصصة لهم. لكن على أية حال، أرى أن الصحراء هى فى متناول أيديكم، أليس كذلك؟ أجاب بقوله إنه لا توجد أى أراض قابلة للإصلاح مجاورة لقرانا، وفى الحقيقة، هناك عدد من القدامى هجروا كلابشة وعادوا إلى قرب مساكنهم وقراهم القديمة. وعكس المتوقع، حتى الصغار فى السن يشتاقون إلى الذهاب إلى النوبة القديمة.

سألت عما إذا كان هذا هو الاتجاه العام السائد فى قلوب النوبيين. أجاب الرئيس بنعم، حتى إنه يوجد بالفعل جمعيتين هدفهما هو تسهيل عودة النوبيين إلى بلادهم الأصلية، لكن الموضوع صعب للغاية.

لكن أرضكم القديمة قد أغرقتها البحيرة التى تمتد مئات الأميال طولا وعدة أميال عرضا. أجاب العمدة: لا، المكان لا يشبه أبدًا ما تشاهده على الخريطة، أرضنا القديمة كانت خصبة، ولا تزال هناك مساحات خصبة كثيرة فى النوبة. باختصار: هنا المساحة محدودة، ولكن هناك الأرض واسعة رحبة تتسع لجميع الذين لا يجدون مبتغاهم من الأرض هنا. هذا هو لب المشكلة، أنا مضطر إلى مقارنتهم بالنوبيين الذين رحلوا إلى السودان.

ابتدأت أدرك أن النوبيين لم ينقلوا من مكان إلى آخر فى مصر فقط.

«تقول السودان؟ هل تعتبر نفسك نوبيا أكثر من كونك مصريا؟»

ران عليهم صمت شامل، كان علىّ أن أكسر هذا الحاجز بنفسى.

«أستمحيكم عذرا، بالطبع أنتم نوبيون ومصريون فى نفس الوقت، كما أننى إنجليزى وبريطانى فى آن واحد».

أصبح واضحا أمامى أن النوبيين يعتزون بهويتهم القومية، وما حدث لم يكن هجرة أكثر منه ضربًا من الشتات.

«حسنا، ما الذى حدث مع النوبيين السودانيين؟»

«إنهم لا يرغبون فى العودة إلى أراضيهم القديمة، لأنهم مُنحوا أرضا زراعية تكفيهم وتزيد».

عندما أمعنت النظر خارجا، كان فى استطاعتى أن أشاهد حدود الصحراء عبر الطريق مباشرة، لكن الفضول ورغبة عارمة دعتنى أن أستمر فى إلقاء أسئلتى المحرجة. هل هذا ناتج عن مرض السكر الذى أصبت به، أم كان أثرًا تركته الخمر التى كنت أحتسيها فى الماضى، أم هى لمسة طائشة من بقايا تلك الأيام حين كان ربع خريطة العالم يدين بالشيوعية؟ الشىء الغريب أننى بدأت فى إدراك ذلك وكذلك النوبيون الذين جلسوا أمامى الآن، وأضيف عليهم سيد النوبى، ذاك الرجل العجوز فوق ظهر مركبنا، هذا الذى حكى لى قصة فيشر وجزيرته، وهو الذى سوف أذكره طالما حييت وهو يلوح بيديه الممسكة بالمنافض

البلهاء فوق ظهر لنش شرطة المسطحات المائية المكشوف ـ الشيء الغريب الذى يميز النوبيين هو أنهم ودودون للغاية، وهذا ما أحسه يحدث أمامى. إنهم مرحون يضحكون أثناء حديثهم عما يعانونه من متاعب ومعاملة. هى ليس شكاوى لكنها إقرار لحقائق وكلها أمور محرجة. سألت نفسى، ما الذى أفعله أنا هنا، أقول: إننى كنت أجرى حديثا صحفيا مع الغير ـ أنا الذى طالما كرهت كل المقابلات الصحفية، الآن أتقدم لهؤلاء الناس الطيبين موجها لهم أقسى الأسئلة ـ حاول دائما أن تتعامل مع من توجه له الأسئلة كأنه ضيف عليك، لكن تذكر دائما، هو ليس ضيفا، أنا الذى تحملت العديد من المقابلات واعتبرتها جزءًا من عمل الكاتب! إنها ليست سوى صاع بصاع، مغموسة بقدر كبير من أمارات الانتقام والتشفى. ترى كم عدد من أجروا معى مقابلة وأحرجتهم، والبعض الذين رفضت مقابلتهم، أو طردتهم من حضرتى! مع ذلك، أجد الآن هذا الرئيس ومعه ثلة من مستشاريه كبار السن يبتسمون بكل الحبور، بل وأزيد بأنهم كانوا ينظرون نحوى كأنه من حقى الخالص أن أوجه لهم كل هذه الأسئلة. لعلهم اعتادوا على قدوم رجال الحكومة بإحصائياتهم، والاجتماعيين بأبحاثهم والمتخصصين فى علم الإنسان محاولين أن يجعلوهم متكاملين، كذلك رجال يحملون الكاميرات باحثين عن زوايا مبتكرة ـ ولعلى أنا أيضا، لست سوى ذبابة إضافية تقع فى شرابهم.

«لدىّ سؤال آخر، ربما يكون سؤالا عبيطا».

«من فضلك، تحدث».

«هل هناك إمكانية لكم لأن تصطادوا من بحيرة ناصر؟»

«نعم. الكثير».

هو فى الواقع سؤال تكتيكى، وليس هناك مبرر للعجز عن الإجابة عليه.

ـ «أنتم معتادون على الصيد من النيل، والآن هو ذا بحيرة ناصر تمتد أميالا طولا وعرضا، وبالطبع عندما تهب رياح الخماسين، سوف تحدث أمواجا رهيبة، هل فكر أحد فى ذلك؟ هل هناك قوارب قوية تتحمل هذا النوع من الأجواء؟ هل تم تعليم أهلكم أى شىء فى هذا الشأن؟»

حدثت وقفة جديدة. ثم أجاب المدرس بلغته الإنجليزية الحريصة، "هم ليسوا مستعدين لذلك بعد، حسب علمى لا يوجد مثل تلك القوارب الكبيرة، لكن هم يستخدمون نفس قواربهم القديمة بأحجامها الصغيرة ويصيدون بجوار الشواطئ، فهناك مياه هادئة فى الأكياس bags

«فى الخلجانbays، غرضك تقول فى الخلجان bays"

«نعم، أشكرك، فى الخلجان والأخوار»

«بالطبع كانت هناك خسائر كثيرة فى الأرواح».

«لا، لم يحدث شىء من هذا».

لكن الرئيس تدخل بقوله، «هناك شىء ما، هل يمكن أن تساعدنا فيه؟»

«من فضلك أذكر ما تريد»

«كل ما نحتاج إليه هو إنشاء طريق يمكن أن يستخدمه الأهالى لزيارة النوبة القديمة، نريد طريقا يبدأ من أسوان ويسير فى الصحراء حتى المكان الذى كانت فيه قرانا. طريق أتوبيسات، هذا كل ما نتمناه».

على الفور فكرت فى الطرق الجيدة التى تغطى الصحراء الشرقية حتى البحر الأحمر، كذلك الطريق المنشأ للأغراض العسكرية.

قلت، «أعتقد انه يوجد طريق يصل حتى أبو سمبل، أليس كذلك؟»

«هو ليس طريق أوتوبيسات، نحن فى أمس الحاجة لهذا الطريق، فإذا رغب احد من أهلنا فى الرجوع...»

«هذا طلب أقدره ولكم الحق فيه، وأعتقد أنه لازم عليكم أن تتقدموا به إلى الحكومة».

حدثت كثير من الإيماءات وأصوات تأييد.

قلت، «أنا لست من رجال الحكومة المصرية، هو ما استطيع قوله هنا هو أنه ربما يحدث يوما ويقرأ رجال الحكومة ما سوف أكتبه، ولا أدرى ما الذى سوف

يفعلونه بطلبكم هذا. سوف أذكر فى كتابى أن النوبيين فى قرية كلابشة طلبوا إنشاء طريق جيد يصلهم بالأماكن التى كانوا يعيشون فيها سابقا، هذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلكم».

عندما تشاهد مظاهر السعادة المرتسمة والضحكات على وجوههم، تعتقد أن الطريق قد أنشئ فعلا فى التو واللحظة. قمنا بعد ذلك بمصافحة الجميع وغادرنا.

ربما يكون الموضوع كله سخيفا، نعم ربما يكون كذلك. لكن مع ذلك، أسجل هنا طلبا واضحا تقدم به مضيفونا النوبيون، وسوف أسجله فى الكتاب مع صورة لقرية كلابشة وربما صورة لرئيس مجلس القرية النوبى ونوابه أيضا. لكن، هل سوف يكون له التأثير المطلوب؟ فسلسلة رجال الحكومة لم تكن متاحة لى أبدًا، ولم أتعلم كيف أتواصل معهم فى يوم من الأيام، ولا أعلم حتى أين هو مقرهم.

الآن، قامت الجماعة بمصاحبتنا فى جولة تفقدية لنشاطات القرية وتوابعها. شاهدت مركزا لتعليم الحرف والمهن الصناعية، هناك قامت سيدة سوداء بوجهها اللامع بتقديم هدايا لى من الخوص الملون المشغول. كان هناك أيضا قاعة للمطالعة مليئة بالأطفال وعشرات من الكتب. شرح لى الرئيس بأن لديهم لغتين يتفاهمون بها، اللغة النوبية التى لا تكتب أبدًا، ثم اللغة العربية التى يتعلم الأطفال قراءتها وكتابتها، لكن فى بيوتهم هم يتحدثون النوبية.

ركب معنا فى السيارة كل من الرئيس والمدرس، حيث كانت وجهتنا هى القرية التالية، هناك قدمنا إلى عائلتين فى منزلين مختلفين وقال لهم إننا قد شربنا الشاى من قبل، لذا قدموا لنا المشروبات الباردة. تلك المنازل بسيطة للغاية، الحوائط مدهونة، لذا لم أتعرف على تكوينها، لكن لا يبدو أنها مبنية بالطوب اللبن. الأثاث كله بسيط، وليس بها شىء من كل شىء التى شاهدت مثلها فى منازل أخرى، لم أشاهد أيضا كسر الأحجار والدبش، ولا الفقر أيضا. يبدو الناس هنا وكذلك أطفالهم راضين وسعداء. أعتقد أن بشائر السعادة هى خلقة إلهية خص بها الله النوبيين، هم يبدون سعداء مهما كانت أحوالهم، وأولادهم رائعون.

غير وجلين ومرحين. كان اليوم إجازة رسمية والجميع سعداء لأنهم يرحبون برجل غريب.

التقطنا بعض الصور، وأطلقنا بعض عبارات الشكر ثم غادرناهم. فى الطريق، اكتشفنا أن طريق الجمال هو طريقنا، هنا وهناك ترى سيارات عابرة محملة بالجمال، علما بأن سوق جمال إسنا يقع على الطريق. ومدينة إسنا هى مدينة كبيرة وتمتلك كوبرى على النيل، لكن الطريق الرئيسى للجمال لا يمر عليه.

عند كوم أمبو، اتجهنا إلى الطريق المؤدى للنيل. فى الحقيقة، لولا معبد كوم أمبو المجاور للنيل، فإن حركة السياحة والسياح ربما كانوا يتجاهلون هذه المدينة، لأنها مدينة صناعية، والغبار والقبح يفوق ما شاهدناه فى قنا.

قطعنا التذاكر ودخلنا المعبد، كدت أقول إنه قد حالفنا حظا سيئا، لكن هذا التعبير يبدو غبيا، الأصح قولا هو أن الحظ السيئ كان لنا بالمرصاد.

من جهة أخرى، اكتشفنا أن نهاية المعبد البعيد عن النهر غير متاح للمشاهدة. بدا الأمر كأنما هناك مسرحية ما تعرض، ففوق الواجهة العليا للمعبد تجمع رهط الممثلين. الجميع فى الأعلى يرتدون ملابس براقة، وملابس الطبقة العليا فى مصر تلفت النظر. اكتشف علاء بالتحدث مع أحد المرشدين أن هناك سائحًا قد سقط من فوق واجهة المعبد وتوفى فى الحال، لكن متى حدث هذا، منذ عشرين دقيقة فقط لا غير.

يا لتلك السرعة التى يتجمع بها الناس فى مصر! وبالنسبة لتلك الحادثة التى أمامنا الآن، لاحظت أن هناك عشرات من السيارات التى تجمعت من كل صوب وحدب! بينما جسد هذا السائح المسكين يتلقى اهتماما وتوقيرًا يفوق ما يمكن أن تنعم به شخصية مرموقة.

سألت، «هل هو رجل أم امرأة؟» قلت هذا لأننى توقعت انه رجل.

قال علاء، «المرشد لا يعرف».

تملكتنى رعدة وأنا أتأمل فى تصريف القدر، ذاك الذى شد هذا السائح ليحضره إلى مصر، نعم، أنا متأكد أنه رجل وليس امرأة. لقد تحمل هذا الرجل تكلفة محترمة، ثم هناك ما عاناه من مشاق أو مسرات السفر، ثم يدعوه قدره أن يزور هذا المعبد بالذات. ترى هل زوجته أتت معه، أم هى فى انتظاره فوق ظهر السفينة السياحية الراسية هناك؟ لا يا حبيبى، لن أذهب معك، دع ذلك حينما نقوم سويا بزيارة معبد آخر، اليوم عندى صداع، ثم هو - بشكل متعاطف - إذن سأبقى معك! لكن هى ترفض ذلك وتصر على أن يذهب بمفرده، وهكذا فعل القدر، فقد أمسك بيديه ودفعه لأن يصعد فوق الواجهة...

المشكلة التى تواجه القاص هى أنه لا يستطيع أن يحس بالحزن والانقباض، بدون أن يلاحظ نفسه وهو يدخل هذه المنطقة، إذن كيف يمكنك أن تتوقع قول الحقيقة الصافية من مخلوق مثل هذا؟

أما عن المعبد، أو الجزء الذى سمح لنا أن نشاهده، وما كنا متشوقين لمشاهدته، لن أقول هنا إنه لم يعجبنى. أوه، نعم. هو معبد موقعه جيد، حيث يرتفع عن منسوب مياه النيل بحوالى ٥٠ قدما، ويبعد عنه بمقدار عشرين ياردة. بجواره، كان هناك عدد من الصنادل تحمل كسر الحجارة التى غطت مساحة كبيرة تبدأ من المعبد حتى حافة المياه. كان غريبا أن أشاهد شكل هذه الصنادل من تلك الزاوية التى وقفت عندها، بدا منظرهم ضئيلا لا يتسق مع ضخامة المعبد المهيبة. بدا لى أيضا أن هناك شيئًا غير طبيعى فى هذا المعبد، لكن ما هو؟ فهناك الحوائط المعتادة المليئة بالحروف الهيروغليفية، لكن مدخل المعبد يبدو من أسلوب بنائه أنه بطلمى، ويبدو أن الإله سوبك يشارك الإله حورس فى هذا المعبد بالذات، هذا جعلنى أتذكر مكانا يدعى (حورس) فى مكان معين بمصر. وتعجبت، هل هذا هو ذاك؟

هؤلاء السادة الذين كانوا يرتدون الملابس البراقة عند موقع الحادثة، بدءوا الآن فى الانفضاض.

سألنى علاء عما إذا كنت راغبا أن أتسلق قمة المعبد الأخرى، حيث لقى السائح المسكين مصرعه، هززت رأسى رافضا. أخذت أتأمل النيل لفترة بينما كنت جالسا على كومة من كسر الأحجار. هنا تلاحظ أن عرض النيل أكثر ضيقا ولذلك يجرى التيار سريعا. قاربنا يستحيل أن يصل حتى هنا، هذا أنا متأكد منه تماما. أخذت أحاور نفسى متفقا معها بأن ما شاهدته من المعابد فيه الكفاية، ولا أرى جدوى من رؤية المزيد. لكن ترى، منذ متى بدأت تلك المعابد تفقد قدسيتها؟ هل حدث هذا بعد انتشار المسيحية مباشرة؟ فى ذلك الوقت، كان هناك قدر هائل من جهود الترميم والإصلاح لهذه المعابد. فجأة، دار بخلدى خاطر معين: ترى، لماذا لم يدع هؤلاء الناس تلك المعابد لكى تتآكل مع مرور الزمن؟ إنهم مهمومون بترميمها، بينما يتركون مدرسة حسن فتحى تتآكل وتنهار.

فى النهر كان هناك ونش بحرى وشوكته غاطسة فى الماء. طلبت من علاء أن يخبرنى عما يفعله هذا الونش هنا، حيث برز ركن صدئ من حطام فوق وجه المياه. أخبرنى أخيرا أن هذا هو حطام سفينة سياحية. يبدو أن كوم أمبو هذه يعمل فيها سوء الحظ بكل جد ونشاط. لكن هل كانت هناك إصابات؟ لا، لا إصابات. هذا هو ثالث حادث أشاهده أثناء مسيرتى فى النيل ولا توجد إصابات بشرية! لكن على أية حال، بينما تعتبر السياحة هى المصدر الثالث للدخل، لذا تملكنى العجب العجاب، هل فعلا لا تقع حوادث للسياح؟ بينما تجدنى وقد وصلت فى الوقت المناسب لأشاهد هؤلاء الممثلين بملابسهم البراقة فوق قمة مدخل المعبد وممنوع الاقتراب منهم.

عدنا إلى التاكسى وركبناه، فى الطريق بدأت الموسيقى العربية تصدح من راديو السيارة، أثناء مرورنا خلال مدينة كوم أمبو، التقط السائق عددا من الركاب الفقراء غير المستعدين لدفع أجرة. قال السائق إننا أناس طيبون، وهم أيضا مجموعة من الطيبين، ونحن بالطبع لن نعترض أبدًا على اصطحابهم معنا. لذا جلست منكمشًا فى مكانى أستمع للموسيقى والحوارات العربية التى لا أفهم كلمة منها، مضيعا مرة أخرى فرصة سانحة لأن أتعرف على الناس. بدلا من ذلك، أخذت أفكر فى ذلك المعبد الذى لم أهتم كثيرًا بمعاينته. تملكنى العجب، لماذا لا يبدو هذا المعبد كما كان يصفه رايدر هاجرد، فى رواياته هناك دائما

صرير الرياح التى تهب بلا سبب، ضوء باهر يظهر فجأة يصاحبه صوت روحانى جرسه عال ونقى. فكرت أيضا فى ذلك المعبد الذى كرس لكل من سوبك وحورس - صقر وتمساح - بالطبع، وطبقا لأقوال المؤرخين المتعاطفين، لم يكن الناس فى ذلك الزمان فى الحقيقة يعبدون التمساح، لكن يتعبدون لفكرة وجود كائن بدائى فى مياه بدائية. أما الصقر فهو رمز الروح، مماثل فى ذلك النسر النحاسى الذى يرمز إلى شىء ما، وكنا نشاهده محفورا فى منابر بعض الكنائس. فى الواقع، من الممكن أن يتفق المرء مع اعتقاد ما إذا نظر إلى جزئياته وتركيباته البسيطة. ولعل الناس عموما فى حاجة إلى شىء يتعلقون به. حتى البوذية التى تدعى أنها ليس لديها ما تتعلق به، نجدها وقد جعلت معابدها حافلة بكل علامات الفن الراقى التى تحيط بهذا اللاشىء الذى يدعونه.

عدنا مرة أخرى إلى فندق ونتر بالاس. لاحظت أن زوجتى قد نالت أكثر من كفايتها من الراحة، لذا سرنا ليلا فى شوارع الأقصر، واعين أن تلك هى آخر مرة نطلع على هذا المكان. وهذا موضوع مختلف بالطبع، أنت بكل سهولة يمكن أن تقول بأنك تشاهد موقعا للمرة الأولى والأخيرة، لكن أن تقول إنك تشاهده للمرة الأخيرة، فهذا موضوع غريب.

مع ذلك، حالفنا حظ حسن أسعدتنا للغاية، فقد عثرنا على مكتبة تبيع الكتب الأوروبية، وليس فقط كتب الإرشاد السياحى، لذا دخلنا هذه المكتبة وأخذنا منها كومًا من الكتب قررنا أن نقرأها أثناء عودتنا إلى المركب. من عيوب الرحلات بالطائرات صعوبة أن تأخذ معك ما يكفيك للقراءة أثناء مقامك فى البلد الذى تقصده بالزيارة. كثيرًا ما كنت أشتاق إلى الوسائل القديمة فى الترحال بحيث أستطيع أن أصطحب معى كتبا لم أقرأها من قبل مثل: يقظة فينجانز أو كتاب موتلى: قيام الجمهورية الهولندية.* هى بصراحة كتب لا أستطيع أن أقرأها فى غرفة نوم الفندق، أكثر من أقرأها فى غرفة نوم منزلى، لذا تجدنى دائما متشوقا

* كتاب فينجانزويك هو رواية لجيمس جوليس كتبها فى باريس ونشرها فى عام ١٩٣٩، أى قبل عامين من وفاته، كتبها فى أسلوب صعب للغاية يتحدى به حتى المثقفين. وأما قيام الجمهورية الهولندية فهو كتاب ألفه جون لو ثروب موتلى عام ١٨٥٥ . (المراجع).

للحصول على الكتب الصغيرة التى لم أقرأها من قبل. أما فى الطائرة، فأقتصر على قراءة التعليمات على ظهر التذكرة أو أتصفح جريدة صدرت منذ عام مضى. تلك الكتب التى اشتريناها من الأقصر صغيرة الحجم، لذا سوف أسميها مطبوعات.

كانت ليلة شبه استوائية ورائعة، لكن ظل هذا الضباب المعلق فى الجو وقد تسلطت عليه أضواء مدينة الأقصر، أو لعلها إضاءة ذاتية ذات تأثيرات لها علاقة بالأحوال الجوية. ذهبنا إلى أسرتنا ونحن فى شوق بالغ أن نتصفح "مطبوعاتنا". لذا قبلما أستغرق فى النوم، قرأ كل منا كتابا صغيرا من كتبنا الجديدة، بذلك نستطيع أن نتخلص منه، فهو ليس قيما بحيث نحتفظ به. أتذكر أيضا أننى رأيت كتبا كثيرة فى قرية كلابشة، وهذا لم يحدث فى أى مكان آخر.

(١٣)

تناولنا طعام الإفطار فى الفندق الساعة السادسة صباحا، فعلنا ذلك حتى نعطى مثالا للريس شاذلى فيسرع بالمركب أثناء رحلة العودة إلى القاهرة. كنت حزينا لأننا لم نتجاوز مدينة الأقصر، الآن أمامنا عودة سريعة بقدر ما يمكن أن يتيحه مركبنا هذا، حيث سوف نستفيد من حركة التيار المواتى الذى سوف يعمل لمصلحتنا، بذلك نستطيع أن نسلم هذا القارب لصاحبه الذى أخبرنا أنه فى حاجة إليه وحدد تاريخا لذلك. لذا فكرت أنه فى إمكانى إذا كنت حازما بما فيه الكفاية أن أحافظ على تقدمنا السريع، على أن نتوقف فقط لنلقى نظرة على أوكسرينخوس، لكن خلافا لذلك، فنحن فداء السرعة. لذا كنا فى المركب الساعة السابعة صباحا.

شاهدت أحمد وهو يداعب الموتور، من الواضح أنه قضى وقتا ضئيلا فى قريته، بدلا من ذلك ظل يومين مشغولاً بوضع جلبة مطاطية حول الموتور بدلا من المثبتات المعدنية! كنت محرجا أن أمدح عمله هذا، لكنى شخصيًا أعطيت لهذا القميص المطاطى عشرين دقيقة قبلما يلتحم مع المحور. أيضا بدا لى وجه فاروز أكثر شحوبا. مع ذلك، لاحظت أن رشدى قد عمل جاهدا فى قمرتنا ونظفها ورتبها فبدت أكثر أناقة وقبولا. جلسنا بعد ذلك مع علاء نتحدث فى هذا وذاك، إلى أن ظهر الريس شاذلى قادما الساعة العاشرة صباحا. لقد قضى ليلته فى قنا، ويبدو الإرهاق والتعب على أساريره. دار بين زملائه لغط فاسق مدعين أن شاذلى قضى الليلتين المنصرمتين مع زوجتيه اللتين كانتا فى قنا فى تلك الفترة. أخيرا تحركنا وسرنا مع التيار. لقد اعتاد المصريون على تشغيل الآلات الصغيرة

باستخدام قطع من السلك المعدنى أو خوازيق خشبية أو استخدام الخيوط المطاطية. لكن موتور المركب لا يصلح معه مثل تلك الاختراعات، ولا أعتقد أن الكساء المطاطى قد أسهم فى تخفيض الصوت المزعج للموتور، إلا أنه استطاع أن يغير من درجة الاهتزاز الذى نتعرض له. ثم، ما إن سرنا ميلا أو أقل، حتى اخترق المحور ذلك القميص المطاطى وبدأ العزف القديم، أى سماع صوت احتكاك المعدن بالمعدن. الشىء الوحيد الذى يمكن أن يقال فى حق هذا المركب بالذات هو أنه يصهل ويتهندم عندما يشعر أنه سائر فى اتجاه موطنه، كما يفعل الحصان عندما يشم رائحة إسطبله، فقد استطاع أن يضيف عقدة أو اثنتين لسرعته المعتادة، فالتيار المواتى لم يضف فقط على معدل سرعتنا، لكنه أيضا كان يشجع الموتور. كنت ما زلت محبطا وغاضبا، ولست بقادر على تفهم الأسباب التى لم ينتهجها أحدهم ويطلب مجموعة مثبتات الموتور المعدنية من القاهرة، على أن ترسل إلى الأقصر بالطائرة. فكرت بعد ذلك، لعل هذا الموتور قديم العهد ولم تعد مثبتاته الخاصة تُنتج الآن.

ونحن فوق السطح، سمعنا صيحات ألم تصدر من مقدمة المركب. قال علاء وهو منزعج ويهز فى رأسه، "إنه رشدى .. يعانى من آلام فى الكلى. سوف أهبط لأرى ما الذى يمكن عمله".

صدرتصميحقة أخرى، لكن بنبرة أعلى. لقد شغل الريس شاذلى قطعة الموسيقى العربية «ثلاثة فئران عمياء». اختفى علاء فى كابينة المقدمة بينما استمر تتابع الهضاب الطيبية وأخذت تسير معنا بسرعة مريحة. فى الحقيقة، يبدو فعلا أن التيار المواتى قد أحسن للموتور - سرعة أكبر بجهد متواضع - لكن هذا غير معقول، هل حصلنا على مدد من تأثيرات المياه الخفيضة؟

ظهر علاء قائلا: «سوف يتحسن رشدى. هو يعانى من تلك المشكلة منذ طفولته».

بالإضافة إلى ريسنا المتعب بسبب مجهودات زوجية عويصة، وذاك الطباخ الذى يعانى فى كابينته، لاحظت أيضا أن زوجتى ليست على ما يرام، أيضا هناك

سيد الذى سوف نلتقطه فى قنا، هو أيضا ليس بصحة جيدة، وربما لا نشاهده أبدًا، لكن أكثرهم صحة وحيوية هو علاء، الذى نادرا ما يمرض، كذلك الاثنان اللذان هبطا فى مياه النيل بمياهه المخيفة، وهما فاروز وأحمد. صعدت إلى السطح فوجدت أحمد جالسا فى مواجهة الريح. لقد أحس بإجهاد شديد وهو يثبت تلك الجلبة المطاطية، والذى سرعان ما أعلن فشله مما نال من معنوياته، قال:

«المرة القادمة، من فضلك احصل على قارب أفضل من هذا».

«بنفس طاقم بحارته؟».

«لا طبعا، ليس من ضمنهم الريس شاذلى، لكن أنا وفاروز ننفع».

فعلا، كلاهما عمل بجد ونشاط، لا سيما فاروز. أيضا يستحق رشدى أن ينضم، أما الريس شاذلى، فقد ارتطم بالأرض مرة واحدة فقط، لكن هذه الحادثة فى نهر النيل الطويل والبالغ فى انخفاض علو مياهه، هذا يعتبر إنجازا يستحق الإشادة.

كانت الرياح تهب بقوة، ولأن وجهتنا شمالا، لذا فإن هذا أضاف إلى قوتها. نزلت إلى قمرتى، لاحظت أن زوجتى قد انتهت من قراءة ثلاثة أرباع كتابها الثانى. لكن ما قد يُعد أداة مهمة فى جعبة المثقف (وهى المقدرة على الإحاطة بصفحة كاملة بلمحة واحدة) تعتبر عيبا خطيرا إذا انتهج الراكب هذا السبيل. رجوتها أن تبطئ قليلا، لكنها أجابت بأنها غير قادرة على فعل ذلك. لم أشعر فى داخلى أننى راغب فى أن أقرأ شيئا، لذلك جلست على سريرى وحاولت أن أحقق بعض التنظيم فى خبراتى المجنونة فى تلك الرحلة، كيف بحق الشيطان، يتيسر لى أن أكتب كتابا أدمج فيه كل هذه الخبرات؟ فنحن نتبع الآن المسار نفسَه الذى سلكناه سابقا، ونكرر نفس الرتابة السابقة. من جانب آخر، هناك تلك السرعة التى نعود بها. لقد أقسم الريس شاذلى أننا سوف نعود فى زمن قياسى، قد يصل إلى نصف الوقت الذى قضيناه فى رحلة الذهاب. من جانب ثالث، هناك ضرورة

قصوى إلى أن أعثر على خبرات جديدة أهتم بها وبالتالى أكتب عنها. لا تزال أمامنا أوكسيرهنكس. (*)

حسنا، نحن الآن نقترب من موقع السفينتين السياحيتين المحترقتين. مشاهدتهما للمرة الثانية يطفئ تماما الحاسة الصحفية؛ هى بكل بساطة تقف حائلا أمام التمتع بخبرات جديدة. إذن فاكتشاف الجديد قد انتهى أوانه فى مركبنا هذا. بوجه مكتئب، أخذت أعدد كل الأمور التى عاهدت نفسى أن أحققها. كنت قد خططت أن أذهب حتى أسوان وألقى نظرة ثانية على السد العالى. كنت مصمما على أن أعثر على المسلة العملاقة الناقصة، بل وخططت ما الذى سوف أكتبه عنها، لكنى وضعتها فى باب تماثيل مايكل أنجلو للعمالقة المقيدين. خططت أن أكتب كتابًا عن انشغالنا الحديث بالأعمال الفنية التى لم تكتمل، وعن الأعمال الموحية، فهناك من آمن بأن الحقيقة الكاملة قائمة فى مكان ما، لكن يصعب القبض عليها أو طول النظر فيها؛ والواقع إذا أتيح لنا أن نرى الحقيقة فسنراها على الطريقة الفسيفسائية أى المركبة من عناصر شتى متفرقة، حيث لن نرى وجه الحقيقة مكشوفا، بل نشاهد ظهر الحقيقة من فرجة شق صخرة قد غطته يد، أو لعلها جالسة فوقها، ربما وربما. لكنى أنا لم أعثر على المسلة غير المكتملة، لذا على الرغم من أننى خمنت كم هى مبهرة وذات بهاء وجلال، لكنى فى الواقع لا أستطيع أن أعبر عن ذلك.

كنا قريبين من الشاطئ الغربى، نسير بجانبه بسرعة قد تبلغ ١٠ عقد بحرية، هى بالطبع سرعة مدهشة بمركبنا هذا. كانت ردة الأمواج التى نحدثها تصدم الشاطئ بقوة، هنا وهناك تخبط فى قطعة من الطين فتفصلها عن الأم، أو تفيض مدمدمة تغرق بعض النباتات الخضراء. كانت هناك مساحة من الأرض مزروع فيها البصل وتبرز أوراقه الخضراء بكل فخر إلى العلا، وهل هناك شىء يفوق روعة من أرض مزروعة بالبصل؟ أمواجنا أيضا تسللت لهذا الحقل. كانت هناك سيدة قاعدة بجوار هذا الحقل، ما إن شاهدت الأمواج المهاجمة، حتى قفزت مبتعدة خلفا، ثم وجدتها تمسك بحجر وتقذفه علينا وهى تزعق. كانت رمية

(*) مدينة البهنسا فى المنيا (المراجع).

جيدة، لكنها قصيرة نوعا، ثم أخذت تشير نحونا بإشارات غاضبة ونحن نبتعد عنها. كانت سيدة جميلة ووجهها غير مغطى. كان من الممكن لنا أن نشاهد عينيها وهما تطقان شررا، حتى بعدما بعدنا عنها وأصبحت شكلا غير محدد المعالم. فعلا، من الممكن أن تطق الأعين الشرر، على الأقل هذا يحدث كثيرًا في مصر. مرة تلقيت نظرة خارقة من فتاة من وراء يشمكها، أو كيفما كان اسمه، هذه النظرة لم تكن موجهة لى بالطبع، بل المقصود بها هو شاب صغير. حتى مع ذلك، لم يلاحظ هذا الشاب تلك الرصاصة الموجهة إليه، وهذا ما أدهشنى حقا. الآن نحن هنا، نتلقى نظرة وراء نظرة، وشتيمة بعد أخرى ـ ليس كلها من صنف واحد، أبدًا أبدًا .

كانت المصريات تعتمدن على سحر العيون فى بث الفتنة فى القلوب منذ آلاف السنين. فلا بد أن العيون السليمة فى مصر كانت نادرة، وعلامة على الصحة الجيدة. حتى الملكة نفرتيتى الشهيرة، الرائعة، الفقيرة، التى تزدان بصورتها الجدران، لها عين شاحبة خالية من المعنى لا تديرها ناحية الكاميرا كما تفعل مع العين الأخرى بشكل ممتاز.

النقوش والرسوم فى المقابر، تعطى لروعة العين وجمالها شأنا أكثر من أى ملمح آخر. وهناك ما يزال جدار معين أتذكره تماما، إنه ليس مرسوما عليه، بل منحوتا فيه بأسلوب النقش الناتئ، وهو سجل خالد ومدهش للجمال الأخاذ والذوق الرفيع. بالطبع، أنا لست على يقين بأن تلك الأفكار الخاصة بالعيون سوف تستغرق وتستولى على كثير من اهتماماتى، مع أننى كنت قد أهملت العودة إلى ذلك الجدار والتحقق من جمالياته، لكنى أتذكر أننى التقطت له عددًا من الصور الفوتوغرافية منذ عدة سنوات سابقة. عندما تبتعد قليلا عن هذا الجدار، يمكن لك أن تتحقق بأن كل تلك العيون تحملق فيك بينما باقى ملامح الوجه يصعب تحديدها.

مع ذلك، شىء مؤسف ما حدث مع تلك المرأة التى رمتنا بالحجارة، كان من المتعذر أن نقدم لها اعتذارا، وبينما تزخر مصر بالأحجار والطوب، لم تجد أمامها سوى حجر واحد لتلقيه علينا! بينما عالمها كله طينى بالإضافة إلى تلك التلال

الطيبية والوهاد الواسعة التى تمتد لمسافة ميلين أسفلها. هى بالطبع لا تدرى شيئا عن ذاك الوادى أو هذا المرتفع المتوسط الذى يقف خلف التلال مباشرة، إذن أرمنت ليس فقط اسم مكان معين، لكن هو أيضا تكوين جيولوجى معروف.

أحضر لنا فاروز الغذاء، بينما رشدى ما زال فى سريره يئن بين الفينة والأخرى. سألت علاء عما إذا كان فى استطاعتنا أن نرسل رشدى إلى مستشفى فى قنا، لكنه أكد لنا أنه سوف يتحسن قطعا، فعلاء يمتلك صيدلية متنقلة وهو يثق بمفعولها.

فى قنا، أسرع شاذلى ليزور زوجته، أو ربما زوجتيه مرة أخرى، وأغرق من تبقى من أفراد الطاقم فى الضحك. ثم حضر إلينا ذلك النوبى العجوز والذى كنت موقنا أننا لن نراه مجدداً. ومن الواضح أن فترة غيابه عنا قد رققت من مشاعره، فالابتسام كان يستغرق كل وجهه وشرع فى مصافحتنا جميعا بحرارة منقطعة النظير. هذا الرجل الطيب، أبرز قطعة من السلك المجدول المرن، فكر أنها ربما تصلح لربط بعض الأجزاء الميكانيكية فى مركبنا هذا، كان أيضا يبدو أكثر مرحا من أى فرد آخر على سطح القارب. لم يستمر بقاء الريس شاذلى بعيدا عنا طويلا، فقد شاهدناه عائدا بعد فترة قصيرة وتسلق على الفور مكانه المعتاد أمام عجلة القيادة. يبدو أن حياته العائلية تمر بمنعطف خطر، لكن لم نتمكن من معرفة طبيعة هذه الأزمة. أبحرنا مرة أخرى، ودخلنا مرة أخرى فى زمام الثنية الشهيرة، حيث يصبح الغرب هو البحرى وهكذا. أخذ علاء يحكى لنا مغامرات باسم مع سيارته العتيدة، وأقسم بأن نصف الأقصر انشغلت بمشكلة هذه السيارة، ثم أضاف بقوله: «لكن الآن أصبحت تلك السيارة أفضل حالا، أصبحت كأنها سيارة جديدة».

كانت تصدر منا ضوضاء مزعجة، حيث يصدر من محور الرفاص صوتا كأنه الجنون ذاته. كنت أنا مهموما بتصوراتى القاتمة، ماذا لو انكسر المحور واندفع فى بطن المركب محدثا ثقبا كبيرا تنفذ منه المياه بغزارة؟ وما العمل إذا حدث ذلك؟ وإذا كانت إرادة الله أن يكون لدينا موتورات داخل قواربنا، إذا لما جعل النيل يسلك بالطريقة التى اعتاد عليها. الجميع يعلم أن مهمة الموتور السخيفة هى توفير

الوقت، لكن ما الذى يهم إذا كان لديك وقت تختار أين وكيف تقضيه؟ حركة التيار فى النيل تظل تسعة شهور خلال العام وهى تعمل ضد الريح، ثم أحيانا يتوازنان مع بعضهما بعضًا، حينئذ يمكن لك أن تبرز مهارتك فى إدارة أى قارب شراعى، مثلا يمكنك أن تجعله يقف ضد التيار، أو تجعله ينساب أماما وخلفا كما تشاء. فى حالة العبارات التى تعمل ما بين الشاطئين، قد لا تكون فى حاجة إطلاقا إلى أن تستخدم شراعا كبيرا، ربما قد تحتاج إلى صار بسيط عليه قلع متوسط يلتقط ريحا تجعله قادرا أن ينقلك من الشرق إلى الغرب أو العكس، حينئذ لن تكون فى حاجة إلى تلك الموتورات المباركة التى تصنع أمواجا فى النهر، علما بأن القوارب الشراعية والميكانيكية تصنع نفس الجهد والعمل الذى يتم بذلك بقسوة تشجع على الكسل. عندما لا يكون الريس شاذلى مشغولا بنقل المعلومات والنصائح من أو إلى زملائه من راكبى بحر النيل (*) تجده غير مهتم إطلاقا بما يحدثه من أمواج، وهذا بالطبع يسبب لنا إحراجا لا مثيل له.

عدنا مرة أخرى إلى بلاد قصب السكر. كان هناك عدد كبير من الصنادل الملحق بها مقطورات مليئة بأعواد قصب السكر وهى تسرع فى طريقها. أحيانا يكون الصندل فى الوسط وملحق به عدد من المقطورات بحيث يبدو كأنه جزيرة متحركة. فى منتصف الثنية المشهورة، شاهدنا مصنعا ضخما لتكرير السكر، لم ألحظ وجوده فى رحلة الذهاب، ويظهر أننى كنت أراقب الجانب الآخر على طول الخط، والتى كانت تظهر على ما يبدو جوانب سلبية فى النيل أكثر من إظهاره للجوانب الإيجابية، وذلك يوفر نقطة قوة بالنسبة للسياحة. لكن هذا المصنع مشيد بالألمونيوم وبه صهاريج ضخمة تلمع فى ضوء الشمس لتخزين المولاس داخلها، بينما هناك حركة صنادل نشطة تضج أمامه. مع ذلك، هذا المصنع يعمل لمدة شهرين فى السنة فى موسم حصاد قصب السكر، وما إن ينتهى الموسم حتى يخلد هذا المصنع إلى نوم عميق. أعتقد أن هذا نوع من الضياع، وأرى أنه فى عالم منتظم، يجب أن يدرب القصب لكى يتم حصده فى مواسم أخرى أيضا.

(*) يشير الكاتب هنا من بعيد إلى مسرحية للكاتب الأيرلندى جى. إم. سينغ بعنوان «الراكبون إلى البحر»، والتى عرضت على المسرح فى عام ١٩٠٤ (المراجع).

أعتقد أنه فى هذا المكان اكتشفت أن طائر الرقراق النيلى، الذى هو من الطيور النادرة، ليس بهذه الندرة القاطعة فى تلك المنطقة، علما بأن منطقة بالنيل لها طيورها المهيمنة. فى لحظة واحدة، شاهدت ثلاثة من طيور الرقراق. تعجبت، هل هم فى حالة عراك بغرض الدفاع والهيمنة على هذه المنطقة، أم أنهم فى حالة تزاوج. معظم الوقت كنت أراهم وهم يصنعون تلك الدورات المدهشة والحركات اللولبية وهم يصطادون الأسماك بقرب الشاطئ، ثم تجدهم وقد اقتربوا كثيرًا من الماء حتى يصلوا إلى مستوى ست بوصات من السطح عبر النهر. هناك الكثير من الطيور التى تعشق النيل، منها النورس البحرى، ويمكن أن تشاهده على حدود مائة ميل من القاهرة، كذلك طائر دجاجة الماء الرمادية، أيضا السنونو والعصفور الدرى. أحيانا يمكنك أن تشاهد صقرا معلقا فوق الحقول بعيدا بمسافة كافية عن منطقة امتياز طائر الرقراق. هناك أيضا طائر (أبو قردان) الساخر الذى يعتبر هو والرقراق الأبيض والأسود من طبقة الطيور الأستقراطية التى تنتمى إلى النيل.

كنت أود أن نبلغ نجع حمادى ونعبر قناطرها فى ضوء النهار، لكن للأسف رابطنا قبلها مباشرة. اكتشفت أنهم فعلوا هكذا لكى يتيحوا لرشدى أن يذهب لعيادة متخصصة هناك ويعمل أشعة على كليتيه. مرة أخرى قضينا أمسية فى الانتظار ثم ليل دامس، لكن الجو كان يسوده الدفء. اكتشفت أننى قد تعرضت للدغ الناموس فى فندق ونتر بالاس. وعلى الرغم من أننا كنا معرضين للناموس فى القارب، لكن لم يحدث أن قرصنا. هذا شىء عجيب. هذه اللدغات جعلتنى مستيقظًا طوال الليل. حاولت أن أشفى نفسى من الرغبة فى الحك المستمر بطريقة ساذجة، وذلك بأننى قمت بعمل إشارات عميقة مكان اللدغ بأظافرى الطويلة، لكن هى بالطبع لم تنجح، لذا قضيت ليلة أخرى لا يزورنى فيها النوم. رقدت فى سريرى أفكر وأتأمل متجنبا قدر الإمكان أن أحك جلدى. سألت نفسى: ترى من مئات الأشياء التى مرت أمام عينى فى تلك الرحلة، ما الذى يمكن أن يطلق عليه أنه حقيقى ومتميز؟ هل هو ما شاهدته داخل بيوت الفلاحين؟ قرية أو اثنتين؟ ما الذى يمكن أن أصنعه أفضل من ذلك؟ أن أشاهد

قرى وبيوت أخرى؟ كيف أعمم معارفى القديمة أو معارفى الجديدة التى اكتسبتها خلال هذه الرحلة؟ وهل تحتاج كثير من الأمور إلى وقت أطول حتى تكتمل ملامحها فى ذهنى؟

هرشت مرة أخرى، هم يقولون إن الملاريا قد انتشرت مرة أخرى فى مصر عن طريق بحيرة ناصر. هذا، كما فكرت، كل ما أنت فى حاجة إليه؛ وهو أن تحضر إلى مصر لأن تكتشف شيئا دون أن تعلم ماهيته، ثم تعود إلى بلدك مصطحبا مرضا. حسنا، المرض هو أيضا نوع من أنواع المعارف، لكن الصحة فى مصر قد تحسنت، أعتقد أن هذا حدث بسبب انتشار استخدام المياه النقية.

أن أقول بأن من طباع المصريين الكسل والتوانى، لكن هذا يمثل نصف الحقيقة، فتحت السطح هناك كثير من التوترات التى تظهر على السطح بين الحين والآخر، ثم تتحول تلك إلى انفجار وثورات قد تتحول إلى مرحلة العنف. هناك مثلا ذلك الفوران الذى يحدث أحيانا بين المسيحيين والمسلمين، كذلك تلك المشاعر العدائية التى يصبونها على بعض الأجانب، والتى حدثت بسببها مآس كثيرة أثناء سنوات الخمسينيات من القرن العشرين. معظم المصريين كانوا بلا حول أو قوة لآلاف السنين، يُستغلون ويُعذبون ويجبرون على العمل حتى مرحلة الموت، وذلك إذا لم تحصدهم الأوبئة. الشيء العجيب أنه ما إن أتيحت لهم الفرصة، حتى حاولوا أن يسددوا كثيرًا من حصاد آلاف السنين السابقة، لذا لا عجب أن يكون سلوكهم السيكلوجى متراوحا ما بين الاسترخاء الكامل إلى الهستيريا. لقد شاهدت اليوم بأم عينى تلك المرأة وهى تنفذ ذلك، مستخدمة كل نشاطاتها وهى تهددنا وتمطرنا باللعنات ثم تطوحنا بحجر، بعدها أخذت تلوح بيديها كأنما هى قادرة على جلب حجر آخر لتلقيه علينا! ونحن المارون بجوارها، نهين أرضها بتلك الأمواج الغازية، والتى كانت بالنسبة لها هى القشة الأخيرة فى مدى احتمالها لكل هؤلاء الأغنياء الذاهبين والغادين بسفنهم السياحية الضخمة.

النشاط والحركة يمكن أن تُمتحن إذا مُنحت لها الوقت والإرادة الصلبة. يوما كنت مارا داخل سيارة على طول طريق قناة السويس، هناك شاهدت بعيني واحدة من أنجح نتائج العمليات العسكرية الحديثة، ففي الناحية الأخرى من القناة، وباستخدام مدافع المياه في حرب أكتوبر، تمكن الجنود المصريون من كسح تلال الرمال الرهيبة وهم تحت خط النار، وذلك لكي يمكنوا قوات الصاعقة من مهاجمة العدو. لقد أصيب من أصيب منهم لكنهم استمروا مع ذلك في عملهم، حتى تمكنوا من خلق طريق استطاعت فرق المشاة أن تتحرك فيه، ثم بعد ذلك عبرت الدبابات. في الحوليات الحزينة للبطولات العسكرية والتضحيات، تقف هذه العمليات منتصبة عاليا بكل المجد والفخار. وعند الضرورة تتضاءل العموميات، وتقف المواقف الخاصة شامخة.

استمرت السماء الصافية في تخفيض درجات الحرارة داخل كابينتنا. لذا بدأت أحس بالبرد، لذا كمشت في نفسي محاولا قدر الإمكان تغطية منطقة لدغ الناموس. في مكان ما، تنسمت صوتا خافتا يروح ويجيء، هو مؤذن يؤذن من مكان بعيد، ربما في مدينة نجع حمادي ذاتها، فقد استطاع الرجل أن يميز الخيط الأبيض من الأسود. حي على الصلاة، حي على الفلاح! واستمر الأذان بعد ذلك كما سمعته مرارا من قبل، لكنه كان طويلا هذه المرة، كأنما في هذا اليوم الذي يجاهد أن ينبثق من قبضة الليل، هناك عيد يستعدون للاحتفال به، علما بأن اليوم ليس يوم جمعة، أما عيد المولد النبوي فقد مر بنا فعلا. هذا الصوت كان يصل متقطعا يحمله إلينا ريح الشمال، وعندما تيقنت أنه قد انتهى، عاد يستكمل مرة أخرى، ثم عندما أيقنت أنه سوف يستمر، توقف نهائيا، هذا دعا أذني أن تبحث من حنايا الصمت متوقعة سماع الصوت. حسنا، هذا النداء يدعو المؤمنين للصلاة، لكن ألست أنا من المؤمنين بشكل أو بآخر؟ إنه استفسار جيد! هذا المؤذن الذي أدى مهمته بنجاح ذهب بعد الصلاة ليستأنف نومه، بينما أنا في سريري. قمت من سريري وعملت زيارة إلى التواليت غير المرضي، بعدها انشغلت في ارتداء ملابسي محاذرا أن لا أهرش. بكل حرص صعدت إلى السطح، فتقابلت مع برد أشد وقعا. ضممت نفسي على نفسي ولاحظت أن الضباب قريب

منى، وشعرت أن الندى ينزل أيضا، لكنه ليس محملا بالغبار. عثرت على ركن ظننت أن البرد سوف يكون فيه أقل شأنا ووقفت أراقب. كانت هناك قعقعة بعض الأسماك التى كانت تلعب وتقفز فى مكان ما. تحول الضباب ليصبح لونه أبيض، كأنما هو أصبح ذلك الخيط الأبيض الذى يبحث عنه المؤذن. شاهدت بعد ذلك شيئا داكنا يطوف فى الماء مقتربا نحونا ببطء. كان قاربا بمجاديف داخله شكل أسود منكمش فى المؤخرة ورأسه مغطاة بالكامل. هناك أيضا شكل غلام صغير مكوم فى المقدمة حيث عادة ما يرقد صبى القارب. هل قام التيار بسحبهم هكذا وهم مستغرقون فى النوم، أم ماذا؟ أم هى إحدى العادات القومية هنا، وهى أن يجدف الشخص طوال نهاره، ثم يترك التيار يجرفه ليلا وهو نائم؟. فجأة، صدرت من قاربنا هزة قوية، لقد قام شاذلى بتشغيل الموتور.

ما زلنا داخل نطاق بلاد السكر، وكان شاذلى يندفع منطلقا بسرعة. وصلنا إلى نجع حمادى وبدأنا فى عبور القناطر الساعة السابعة والنصف صباحا. الهواء كان يشع فيه الدفء تحت أشعة الشمس الساطعة، بينما هناك كتل وأرتال من نبات ورد النيل محجوزة وراء القناطر والبوابات. جعلنا شاذلى ننتظر بجوار صندل محملاً بمخلفات عصر القصب، وهو الذى إذا لم يستعمل كوقود، فله استخدامات أخرى. هى المادة الخام لصناعة الورق ويشبه كتلاً على هيئة ألواح ليست محددة الشكل. اكتشفت أخيرا أننى أكن لقصب السكر احتراما عظيما، فهو ضرورى للغاية فى مصر، ويشبه فى أهميته الزيتون بالنسبة لليونان، أيضا جريت يدى لأحصل على بعض من هذه المصاصة، لأحصل على الوصف المناسب لها قبلما يبعد عنا هذا الصندل.

هذا الصباح، عندما انقشع الضباب وبعد عنا، لاحظت أن هناك درجات من الظلال تنعكس فى الماء. ظهرت أولا هضاب الصحراء الشرقية متدرجة والصحراء من خلفها، ثم شاهدت أهداب النخيل التى تنمو بقرب الشاطئ بلون أسود فاحم وتغلب على باقى الظلال. كنت أنظر إلى تلك الأشكال كما لو أننى واقف أمام مرآة دهنت خلفا بطبقة من الفضة القديمة.

بوابة مدخل السفن فى قناطر نجع حمادى قديمة عمرا. هى ضخمة لكن يتم تحريكها يدويا، تعود فى تاريخ إنشائها إلى منتصف القرن التاسع عشر. كل جناح

من البوابة له الرافعة الخاصة به المجهزة بأربعة قضبان لتحريكها. وهناك ثمانية أفراد موكل إليهم فتح وغلق البوابات، لكن فى الواقع، هما اثنان اللذان يعملان ويحركان الروافع التى تتحكم فى البوابة التى سوف نعبر منها. أحدهما دفع إليه عمودا بينما استند الرجل الآخر على عمود ثان وجعله يدور به ومعه. الرجل الثانى هو رئيس الرجل الأول، بينما جلس الستة الباقون تحت الشمس، يهرشون، يقلوظون العمة أو يفكونها، يدخنون، يبصقون، قاعدون مشغولون بأمورهم وهمومهم الخاصة، أو هائمون فى عالم الأحلام.

عندما تفتح بوابة حتى منتصفها، يدور الفاتحان حول الهويس ويتجهان ناحية الرافعة الخاصة بالجناح الآخر للبوابة، بينما يرمقهما الستة الباقون الذين بالقرب منهما. عندما يفتح الاثنان الجناح الثانى ننتقل نحن داخل الهويس بينما يدور خلفنا نفس العملية على شكل عكسى ويقوم بها أيضا العامل الأول ورئيسه فقط، أحدهما وقد لمع وجهه من العرق المتساقط منه يقوم بفتح كوات بوابة الخروج واحدة تلو الأخرى، وعندما يصبح الماء فى خط التوازى، تحدث فجأة شعلة من النشاط، أحد الرجال الجالسين يقف، وآخر يلوح بيديه. ثم يقوم اثنان من الجالسين أيضا لمعاونة العامل ورئيسه فى زحزحة رافعة الخروج ويضعون كل أجسادهم عليها لتحريكها، ثم يقوم الرجل الوحيد بإدارة الرافعة والعرق يتساقط منه مدرارا. أخيرا نخرج من الهويس، بينما يعود الثمانية أفراد الشجعان إلى عالم التأمل والأفكار. الوقت اللازم للخروج من الهويس ساعة وثلاثة أرباع الساعة.

وجدنا أنفسنا مرة أخرى فى متسع من المياه، وأعتقد أن الأسماك هنا وفيرة لمن يريد أن يصطاد، فقد لاحظت أن طيور السماك قد تآلفت مع بعضها البعض، وهذا ما أستبعده لأن هذا الطائر يفضل أن يعمل بمفرده، أو لعلهم رغبوا فى العمل داخل نطاق مسافات أقل من المياه عما يحدث فى مناطق أعلى النيل. لقد رأينا أربعة من طيور السماك فى وقت واحد، حيث وجدناهم ينزلقون سريعا فوق وجه المياه طائرين بكامل سرعتهم لمسافة قد تزيد عن ربع ميل، يرتفعون وينخفضون ثم ينحرفون بشكل حاد، كما لو أنهم يطيرون وسط سحابة من الهاموش والناموس، وإذا لم يكن هذا ما يفعلونه حقا (بالطبع لا توجد زرافات من

الهاموش أو الناموس)، إذن سوف ننقاد إلى الافتراض اللاعلمى وهو أنهم فرحون بمدى سرعتهم ومهارتهم وجمالهم.

لاحظت الآن أن أفراد الطاقم قد انتشلوا بعض المهمات من خزين متراكم فى المؤخرة، ثم جمعوا هذا على تلك، النتيجة هى الأداة اللازمة لشوى الكباب لزوم غذاء اليوم. هذا غريب فعلا. لهب مكشوف يتصاعد داخل قارب خشبى به الكثير من المهام القابلة للاشتعال السريع، مثل الحبال والأربطة السائبة! لكن، لم يحدث الضرر، كان الكباب، الذى يصعب أن أقارنه بمستويات شارع شارلوت، جيدا بقدر ما تسمح بذلك لحوم الضأن. هذا العرض المدهش- وهو بالفعل عرض - استغرق الصباح كله ومعظم وقت الظهر. أعظم ما اكتسبناه فى هذا التجربة هى ضرورة أن نتعلم كيف نقدر الخبز العربى، الذى هو أفضل كثيرًا من الخبز الإفرنجى الذى حاولوا به أن يقلدوا الخبز الأوروبى، لكنه بلا طعم ومماثل لكل الخبز الذى تصادفه فى الدول الفقيرة، لكنه كان ممتازا وأعجبنى.

عندما ظننت أننا سوف نسجل رقما قياسيا فى مسيرة اليوم، فوجئت بأن قد رابطنا بجوار مدينة المراغة. عندما سألت عن السبب، أخبرونى أننا لو سرنا حتى شمال هذه البلدة، فنحن بذلك ندلف فى منطقة المياه التى يسيطر عليها القراصنة. الساعة الآن الرابعة وعشر دقائق بعد الظهر، كان بإمكاننا أن نسير ساعتين إضافيتين! عندما أبديت احتجاجاتى، صرح شاذلى بأنه لا توجد مدينة أخرى يمكن أن نصل إليها قبل الغروب لنرابط عندها، أيضا فإننا سنرابط فى الظلام! وهكذا كان مصيرنا أن نرابط على كورنيش مدينة المراغة. رمى الطاقم بخطاف مربوط فى حبل إلى الشاطئ، فانزلق بزاوية قدرها ٤٥ درجة وبالكاد وصل إلى حدود الأرض الجافة، أو الطين الجاف. لاحظت أن الكورنيش المشيد بالأحجار والأسمنت كان مغرقا فى القدم ومشروخًا فى أكثر من مكان ومليئًا بالحفر. كان هناك حائط منخفض فوق القمة، ونسبة محترمة من سكان مدينة المراغة تراصوا فوقه يتفرجون على العرض الذى هو أمامهم الآن. اكتشفت أن اليوم هو يوم الجمعة، إذن هو يوم إجازة وبذلك يحق لهم أن يفعلوا هكذا، ولعل يوم الجمعة هذا يقع فى يوم مختلف بالنسبة لكل محافظة بالمقارنة بالأخرى، أو

ربما يصل يوم الجمعة هذا حسب رغبتك، أو عندما يأمر بذلك سيادة السكرتير العام. إذا لم يكن هذا مبعثا للدهشة، فقد تلقيت مجالا لدهشة أعظم عندما بدأ الكورنيش افتتاح عروضه الحيوانية. ما إن استقرت الضوضاء المصاحبة لوصولنا، لاحظت أن عدداً كبيراً من الفئران قد خرج من حفر سد الكورنيش وزحفوا لينتشروا على الشاطئ كله. عندما وقع بصرى على الدفعة الأولى منها، خطر ببالى على الفور أن التلاحم مع القراصنة أهون من ذلك بكثير، لكن لم أجد أحدا يناصرنى فى هذا الرأى سوى زوجتى. الأدهى من ذلك، أصبحت كلمة «زحفوا» غير مطابقة لواقع الحال. فى الحقيقة هى فئران ذات روح عالية وممتلئة مما يدل على أنها تحصل على أفضل أنواع الغذاء، لذا ما إن اعتادوا على وجودنا، حتى أخذوا فى اللعب على الملأ بنشاط وهمة تحسدهم عليه القطط الصغيرة، لكن بالطبع بأقل رشاقة. كانت سرعة تحركاتهم ونشاطهم مزعجا للغاية وأنا أرمق الخطاف الملقى على الشاطئ. لقد شاهدت من قبل مثل تلك الفئران وكنت أعلم أنهم يستطيعون أن يتسلقوا الحبال ويتسللوا داخل السفن، قبلما تصدر صيحة تحذير واحدة من فم المراقب.

شرحت كل هذا لعلاء، الذى وعدنى أن الطاقم سوف يفعل شيئا بهذا الخصوص. فى التو، شاهدت سيد النوبى يزحف بحذر وأنزل نفسه، أخيرا جلس بجوار الخطاف المربوط فى مركبنا. كان جمهور المشاهدين يراقبون الموقف وهم صامتون، لكن ما إن استقر بسيد المقام، حتى صدرت من أفواههم جميعا صيحة "آه" طويلة. أعجبنى هذا المنظر فأحضرت الكاميرا وانهمكت فى تصويرهم، ويبدو أن هذا بعث قدرا من السعادة إلى قلوبهم، فجأة ظهر رجل عليه مسحة من الوقار وأخذ يزعق فى وجهى. سألت سيد عما يريد هذا الرجل، أخبرنى أنه يطلب منى أن ألتقط صورة أخرى.

فكرت حينئذ أن أحاول تجربة رصيدى المتواضع من اللغة العربية، لذلك هتفت:

«نهارك سعيد».

أجابوا: «نهارك سعيد».

ثم حدثت وقفة طويلة.

قلت، «هل هناك أحد يتحدث الإنجليزية؟»

أجابوا، «لا».

ثم حدثت وقفة أطول.

قلت: «سلام»، أجابوا: «سلام».

بعد ذلك هبطت إلى كابينتى، بينما كان شاذلى، من دون أفراد الطاقم كله، يحث زوجتى أن تنزل إلى الشاطئ! قال لى علاء إن شاذلى فخور بأسيريه الأجنبيين، فهو عندما كان يعمل فى السفن السياحية، لم يكن له أى صلة بالركاب، كل مهمته كانت توجيه مسار السفينة. فى نفس الوقت، أخذ سيد يغفو قليلا وهو جالس بجوار الخطاف، بينما كانت الفئران تقفز وتنط وتلعب على الشاطئ الطينى، بينما الجمهور كله مشغول بكل ما يحث فوق مركبنا ولا يبدى أى اهتمام بالفئران، أيضا الفئران لم تكن مهتمة بالناس الذين تجمعوا فوقهم، ولأن الهبوط من الكورنيش حتى الشاطئ هو عمل مجهد، لذا فاللغة السائدة بين الناس هنا والفئران هى، «عش ودع غيرك يعش».

أحس رشدى بالمرض يداهمه مرة أخرى، اقترحت أن نوصله حتى القطار ليسافر إلى القاهرة، حيث يمكنه أن يحصل على أفضل علاج فى مصر، لكن هو رفض هذه الفكرة، فقط أراد أن يتركوه لينام. وبطريقتى فى التفكير بالمخاطر المحتملة فى أى شىء يعرض علىّ، فكرت أنه طالما لا توجد مدينة من هنا حتى أسيوط، أى لمسافة ثمانين ميلا من هنا، إذن هو يخاطر فعلا ببقائه داخل السفينة. مع ذلك، هو رجل بالغ وليس لى عليه سلطان لأغصبه على فعل أمر ما. لذا غضضت النظر عن التأمل فى أحوال مرضانا وركزت جهدى على الفئران. بالطبع لن يتمكن سيد أن يقضى ليلته بجوار الخطاف، أيضا لا يجب أن نترك الخطاف بدون حراسة وإلا صعدت الفئران الحبال ودخلت مركبنا. لاحظت أن علاء كان مستعداً للخروج إلى الشاطئ، زاعما أنهم سوف يفعلون «شيئًا»

بخصوص هذه الفئران. فى الحقيقة هم فعلوا. فقد نقلوا طرف الخطاف بمقدار ست بوصات داخل المياه. لكن فكرت، بالطبع تستطيع الفئران مع ذلك أن تزورنا وأن تصل إلى الحبل.

وأنا شاعر بالهزيمة، عدت إلى كابينتى، حيث كان لازما أن نضىء النور. بعد ذلك تناولنا عشاءنا، الذى أعده أحمد وساعده عليه فاروز. هو فى الحقيقة كان جبنًا من ألبان المعز، أو لعله من ألبان النعاج، لست متأكدا أيهما، مرفق به العيش العربى، وجميعها تم إزاحتها باستخدام المياه المعدنية. أنا عن نفسى ما كنت أتمنى طعاما أفضل من ذلك. قمنا بعد ذلك بقراءة كتبنا وأخذنا نتنصت على الفئران مقنعين أنفسنا أنه يتعذر عليها أن تصعد إلى مركبنا. سمعنا جلبة، فانتفضنا، لكن هذا لم يكن سوى أن علاء قد صعد إلى الشاطئ. بشكل أو بآخر، لم أستطع أن أركز جهدى فيما أقرأ، كنت مستعدًا الآن أن أحدد مقدار ما فقدته، وأن أعود إلى القاهرة وأجرى بعض الرحلات القصيرة التى كنت أخطط لها، وتعتبر إضافة جيدة إلى تلك الرحلة النيلية. مثلا أن أزور الفيوم وأتقابل مع الناس، وأقوم ببعض الجولات فى الدلتا.

وضعت آن كتابها جانبا. وأطفأت النور ونامت فى الظلام. حسنا، ليس هو إظلام كامل، لأن هناك أنوارًا تصلنا من طريق الكورنيش. ليست مصر فقيرة فى مجال إنتاج الكهرباء بفضل السد العالى، وبفضل محطات توليد الكهرباء. ليس هذا ما ينقصها. أخذت أفكر فيما انتويت أن أفعله، وتذكرت الموضوعات التى كنت أنوى الكتابة عنها؛ كنت أنوى الكتابة عن مصر بطريقة أشمل: من ناحية علوم الجيولوجيا وعلوم الآثار والفلك والعقيدة والعلوم الاجتماعية وأى علوم أخرى. حاولت فى ذهنى أن أتذكر موضوعات اختلافات القياسات الزمنية كذلك الأحاجى والغوامض والمشاكل والتسجيلات التاريخية والروائية بدءًا من رواية جوتيير «حكاية المومياء» حتى آخر القصص الخرافية التى تدخل مصر فى شعابها. حاولت أيضا أن أربط ما بين ذلك الجرف الذى تعلقنا فيه مع افتراضات غاية فى القدم تعود إلى ما قبل عصر الأسرات. بالطبع كان هذا فى حكم الاستحالة. شعرت كأن مخى قد تجمد، لكن ثبت بالدليل القاطع أن تلك الأحاجى هى أفضل وسيلة لجلب النوم العميق.

(١٤)

لقد اعتدت على قضاء عدة ليال متتالية بلا نوم، لكنى فى الواقع استغرقت فى نوم عميق. فى الحقيقة كنت معلقا فى منطقة اللاشعور، واعيا بأصوات فى الليل، لكن لعلنى ظننت أنه صوت المؤذن الذى لا أفقه كلمة من صيحاته، لذا وأنا فى حالة وعى جزئى بأننى مستيقظ، كنت أصل إلى نقطة أفعل كما يفعل الدولفين الذى يلتقط الأكسجين التقاطا، بعد ذلك غطست مرة أخرى إلى حالة من النوم العميق، إلا أننى طفوت مرة أخرى مع الصوت المزعج للموتور! ترنحت فى سريرى، فتحت عينى، الليل كان حالك السواد. لم يحدث من قبل أن استيقظ موتور مركبنا فى هذا الوقت المتأخر من الليل. أحسست بهم وهم يسحبون الخطاف بجلبة واضحة، وتحتنا بدأ الرفاص يدور سريعا ثم أسرع. هذا شىء غير معقول بالمرة. جذبت ستارة النافذة ونظرت. ما هذا؟ إنه فاروز. شاهدته يجرى فوق سطح مركبنا، هذه الحالة ليست بالطبع هى أعراض «إيقاع النيل». هل حدث غزو فئرانى؟ هل وقعنا فى يد شرطة المسطحات المائية؟ تذكرت فجأة القراصنة. إنهم هم إذن. نحن نهرب، لذا نسرع حتى نجتاز منطقة نفوذ القراصنة، نسرع حتى لا يلحقوا بنا.

إلا أن شاذلى كان يزيد من سرعته. حاولت أن أرتدى ملابسى، لكن الاهتزاز المتواصل جعل من تلك العملية الميكانيكية أمرا صعبا للغاية. تمكنت أخيرًا من سحب ملابسى علىّ وحاولت أن أسجل تلك الحادثة فى يومياتى، لكن القلم كان يتراقص فى يدى، لذا لم أتمكن من كتابة كلمة واحدة. فجأة توقف الرفاص عن حالة الخبط والدق التى اعتدناها منه، لكنه كان يرتجف. خيل إلىّ أن القارب

سوف يتفكك من بعضه فى أية لحظة. الآن استطعت أن أميز بعض بشائر الفجر القادم. استطعت أن أميز الشاطئ الذى كان يمر سريعا أمام عينى أكثر من أى مرة سابقة. فجأة ندت صرخة عظمى من النهاية الأخرى للقارب. ذهبت للباب لكى أفتحه لكنى عجزت عن ذلك. هناك شىء ناعم وثقيل تحرك من أكرة الباب واستقر على الجانب الآخر للباب. استطعت أخيرا أن أفتح الباب، فوجئت بسيد منحنيا فى المنطقة الوسطى يحاول أن يخلع بعض ألواح الأرضية.

«سيد... ماذا حدث؟»

توقف الموتور عن العمل، لكنه استمر فى رعشته المتكررة بين فترة وأخرى. ثم حدث صمت رهيب. هذا أحبطنى تماما. على السطح كان هناك نشاط ملتهب. وفى ذلك الفجر الوضاح استطعت أن أميز الشاطئين وهما يتمايلان بين الحين والآخر، بينما القارب يترنح بلا وعى وسط التيار.

«سيد، ماذا حدث للموتور؟»

ما فيش بنزين.

بكل هدوء اتجهت لغرفتى. أقفلت بابى. جلست على سريرى.

إذن فقد فرغ منهم الجاز، ويحدث هذا وسط منطقة القراصنة !

بدأ القارب يتأرجح حول نفسه، بينما التيار يتلاعب به. وأنا أتطلع من نافذتى، استطعت أن ألمح علامات انخفاض عمق المياه، ظهرت علامات الجزر على شكل الأضلاع، وبعض منها يقع فى عرض النهر. استطاع قاربنا بمشاعر ديناميكية مكنونة أن يتجنب الثلاثة الأول، بينما هناك صراخ يتصاعد فوق السطح. بعدما رفع سيد ألواح الأرضية، شاهدته وهو يخبط على الموتور بحركة عصبية، كأنما هو قادر على خلق الوقود لكى يدور الرفاص. الصراخ ما زال مستمرا فوق السطح. كل مكونات إحساساتى المصرية، تلك التى كنت أفكر فيها وأحللها من ساعات قليلة محاولا فهمها وترجمتها فى جملة شاملة حاوية مفهومة، لم تشتمل أبدًا على هذه الحالة التى أراها الآن أمامى!

قالت آن: «هذا كله من عمل شاذلى، لعله أراد أن يصل إلى مكان معين قبلما ينفذ منه الوقود».

لا أفهم هذا الذى يحدث الآن.

فعلا صعب.

غلب حمارى.

حاولت زوجتى أن تبدو مستمتعة بما يحدث وليست قلقة، لكن، ما الذى سوف نفعله الآن؟

كان هذا سؤالا جيدا، فبالإضافة إلى العلامات التى تدل على انخفاض عمق المياه، هناك تهديدات أخرى. بعد لحظات، شعرنا بخبطة شديدة لدرجة أن المركب انحرفت قليلا ثم عدلت مسارها بينما تأرجحنا نحن بقوة. الصراخ فوق السطح ما زال مستمرا. من نافذتى الجانبية، استطعت أن أرى أحمد ممسكا بالخطاف الوحيد بالمركب يحاول أن يدفع به قاع النهر. نحن بالفعل نتعرض لخطر داهم، يمكن بكل سهولة أن نصبح أسرى داخل منطقة منخفضة المياه وبذلك يدفعنا التيار ويهاجمنا بقوة، ثم يقلبنا فى حفرة على الجانب الآخر.

أعتقد أنه واجب علينا الآن...

خبطنا مرة أخرى وانسحبنا فوق ما أعتقد أنه صخرة، ثم عدنا إلى مسار التيار ثانية.

سيد... سيد، قل لهم أن يستخدموا الهلب الملعون.

كانت تلك طريقة معروفة منذ القدم، ويمكنك أن تشاهدها فى نهر التيمز عندما يتحرك قارب بفعل المد وبدون استخدام الموتور إطلاقا، حيث تقوم بإنزال تاج الهلب إلى القاع، والجذب الذى تتعرض له يعطيك قدرة كافية تمكنك من أن توجه مركبك وتتحكم فيه، وهى طريقة طالما استخدمت فى النيل من قبل عصر الأسرات.

لم يظهر علاء فوق سطح المركب، خبطنا مرة ثالثة وانحرفنا لكن اعتدلنا أيضا، كنا محمولين حملا تجاه الشاطئ الغربي، هناك بين الحشائش، كان هناك قرصان مقرفص داخل قاربه الصغير ويبدو الاهتمام على وجهه. شاهدنا صندلا قادما من الجنوب. حدثت أصوات مجلجلة وانطلق نفير مركبنا زاعقا يطلب النجدة، كذلك ارتفعت أصوات طاقمنا وحدث نشاط محموم غير منتظم. خفض الصندل من سرعته، بل وتوقف تقريبا، لكن نحن كنا فى منطقة منخفضة المياه لا تصلح للصندل. لاحظت الآن أن القرصان استخدم مجدافيه الغريبين ثم التقط حبلا أنزل من مؤخرة مركبنا وبكل مهارة أوصله حتى الصندل، تراجع القرصان والتفت ملوحا بيده.

صحت بأعلى صوت: شكرا، أشكرك جدا ثم باللغة العربية: شكرا جزيلا.

كان فم القرصان يفتح وينغلق، لم أتمكن من سماعه، لكنى خمنت ماذا قال، لذا أجبت بالعربية:

عفوا.

ثم لوحت بيدى تحية وداع ومحبة.

تأرجحنا بجوار الصندل ونحن نصدر صوتا غريبا، ثم تقاربت مقدمتنا مع مؤخرة الصندل. بدأ أفراد طاقمنا فى القفز إلى الصندل، مرة أخرى يبدو أننا سوف ندخل إلى سوق الإمداد بالوقود. حسنا، ألم يقل السكرتير العام أننا ضيوف على الحكومة؟ لم تمر سوى دقائق معدودة إلا ودار محركنا مجددا، وانفصلنا عن الصندل، وتحركنا بأقصى سرعة أسفل النهر. مع ذلك، كان يتبعنا أطول وأكثف وأثخن ذيل من الدخان. كان المسمار الرئيسى يلعب فى مكانه كالصاجات، والقاعدة التى جلسنا فوقها كانت تقفز إلى أعلى وإلى أسفل. كانت الضوضاء شبيهة لما عهدناه فى مصنع السكر، ثم عندما تيقنت أن المحرك سوف ينفجر لا محالة، أبطأ شاذلى السرعة.

وصلنا بالفعل إلى بلدة أبو تيج ورابطنا هناك. اندهشت عندما شاهدتهم يحملون رشدى وهو يتلوى وينزلون به إلى الشاطئ. كان هناك صمت طويل.

ذهبت إلى الكابينة الوسطى حيث أعيد تثبيت غطاء القاعدة. أخذت بعضا من قطع الخبز والجبن، بالإضافة إلى زجاجة مياه معدنية جديدة.

ما إن عاد الطاقم، حتى حكى لنا علاء كل القصة. كان هو مندهشًا، كما توقعت، من أننا لم نفهم ما الذى حدث منذ وقت قليل. الأصوات الغريبة التى وصلت لمسامعى، كانت هى الصيحات المتوجعة للمسكين رشدى، الذى كان يعانى من آلام لا تطاق من كليتيه، وأقرب مستشفى هى فى (أبو تيج)، إما هى أو لا شىء. لذا اندفعوا سيرا بالمركب على أمل أن يصلوا إلى تلك المدينة قبلما ينفد الوقود؛ لكنه هو نفد بالفعل قبل عدة كيلومترات من بلوغنا (أبو تيج). ولو لم نصادف هذا الصندل الكريم، وذاك القرصان أل...

رشدى الآن تحت تأثير المسكنات وهو تحت الملاحظة، هذا ما أخبرنا به علاء. كان هذا الشاب غاضبا، وخمنت أنه تعرض لمجادلات كثيرة وقرارات فورية يجب أن تتخذ، حتى لغته الإنجليزية بدت مرتبكة نوعًا ما. أضاف كيف أنهم حملوا رشدى إلى الشاطئ وأجهدوا أنفسهم بحثا عن سيارة تاكسى لتنقلهم حتى المستشفى، أخيرا عثروا على واحد، لكن هذا وقف بهم خارج المستشفى. كانوا قلقين للغاية، لذلك لم يكن لديهم الوقت الكافى لأن يخبرونا عن حقيقة الوضع.

سألته، لماذا لم تجريوا مدينة المراغة، لكن يبدو أن هذه المدينة ليس بها التجهيزات الطبية المناسبة.

حل السلام على قاربنا، تزودنا بملابس أثقل وصعدنا إلى السطح، لكن يبدو أننا قد انتقلنا من حدود المنطقة شبه الاستوائية، وبدأت الرياح الشمالية الباردة تهب علينا، لذا هبطنا مرة أخرى إلى كابينتنا. اضطررنا إلى أن نتسلق دعامات الكابينة الوسطى لأن أحمد وسيد نزعا كل الواح الأرضية مرة أخرى. شىء مدهش هذه الأرضية التى سرعان ما تفك ثم تعاد. وقفنا برهة نراقب ماذا يفعلون، لأن هذا هو الطريق الوحيد المؤدى إلى قمرتنا. واضح أن الاثنين كانا يستبدلان دليل ذراع الدفة باستخدام قطعة السلك المجدول التى أحضرها سيد معه من أسوان، وهو موضوع دائما «ما يفتقد فى مسرح المراكب» عموما. بينما

هذا يجرى، كان فاروز يوازن نفسه على دعامات السطح؛ إنه يطبخ. لم يعد أمامنا سوى أن نعود إلى موقعنا الأصلى وننتظر مصيرنا بصبر نحسد عليه.

بعد فترة، عاد رشدى، أو بالأصح، أعيد رشدى. لقد حقن بمواد قوية وبدلا من أن ينتظر فى (أبو تيج)، قرر أن يتحمل حتى وصولنا إلى المنيا، هناك لديه بعض الأصدقاء الذين من الممكن أن يرحلوا به إلى القاهرة بسيارة.

لذلك شرعنا فى استكمال قراءة كتبنا السيئة، وبدأ المحرك يسير بنا شمالا معززا ببعض جالونات الوقود التى استعرناها أو قل شحتناها أو سرقناها من ذلك الصندل الكريم. كان تقدمنا الآن رصينا. توقفنا بعد ذلك جنوب أسيوط على بعد قليل من قناطرها لكى نتزود بالوقود. هذا الموقف كان مزدحما بالصنادل الراسية المحملة بأحجام هائلة من الأحجار والطوب التى يتم تفريغها إلى الشاطئ، والرجال العاملون عليها لا يعدوا من كثرتهم. كان يقف فوق تلك الصنادل أيضا بعض الرجال المهمين، واحد منهم كانت مهمته الواضحة هى أن يفتح ويقفل كوات السطح ليتأكد أن هذا ممكن من عدمه. هو رجل عجوز، لا يرتدى شيئا سوى خرقة تدور حول حقوه وعمامة فوق رأسه، لكنه بدا كما لو كان أوروبى الجنسية، فى الحال استخرجنا من ذاكرتنا الخافتة بعض مناظر رواية "الريشات الأربع"(*) وأيقنا أن هذا يمثل شخصية "كاروزر"، إذا كان هو الاسم الحقيقى الذى ورد فى هذه الرواية حقا.

عندما مر الوقت أمامنا سهلا، قضينا وقتا نخترع حوارات مختلفة. الحقيقة هى أن مدنا بالوقود قد استغرق وقتا طويلا، لأنهم لم يرحبوا باستلام الثمن نقدا، وبكل لطف أرسلوا نقودنا إلى مدينة أسيوط وعادوا ومعهم قسيمة الشراء، عندها انتهت كل مشاكلنا، وكانت عملية ملء خزاننا بالوقود سهلة للغاية ولم تستغرق سوى أقل من دقيقة.

(*) رواية من أدب المغامرات ألفها إيه إى دبليو ماسون عام ١٩٠٢، وتحكى قصة ضابط بريطانى يدعى هارى فيفر شام يستقيل من مهمة كلف بها فى عام ١٨٨٢ أثناء الحملة البريطانية على مصر للقضاء على ثورة عرابى باشا. (المراجع).

تحركنا ورسونا بجوار مركز شرطة المسطحات المائية. الوقت مبكر. لقد استنتجت أن هناك نوعًا من قوانين باركنسون النهرية تعمل هنا بنشاط، فضرورات الحياة النهرية تجدها وقد امتدت بشكل متصلب لكى تشغل أى وقت تبقى لنا، أفضل ما يمكن أن أفعله هو أن أحاول التأكد بأنهم لا يزيدون من ضياع الوقت أكثر من ذلك. قررت زوجتى أن المصريين يعملون بإيقاع مختلف تماما. فنحن نعمل حتى وقت معين، ثم لا نلمس العمل أبدًا بعد انتهاء مواقيته، أما المصريون فلا يؤمنون بهذه التحديدات، لكنهم يتوقعون أن يعملوا أو يستريحوا فى أى وقت يشاءون، لذا تجد طاقمنا يصنع كل ما هو غريب فوق ظهر مركبنا ـ مثلا نجد فاروز، يظهر ربما خارج نافذتنا فى أى لحظة أو ساعة، فقط ليلمع الزجاج سريعا ـ من جهة أخرى، فإنه من المحتمل أن يظل أفراد الطاقم كله نائمين فى أسرتهم طوال فترة الصباح إذا لم يكن هناك شىء محدد يمكن عمله، وهم مسرورون بذلك. إنهم، أقصد الطاقم، لا يعرفون ما نتوقع منهم، كذلك نحن. وتعمل النسوة من الصباح حتى المساء خلف هذه الحدود أيضا، يعملن بكل خفة ولطف مع أوقات مقتطعة للثرثرة والراحة، فليس هناك تمييز بين أوقات العمل والراحة.

مع ذلك، هناك أعمال أخرى يقوم بها التعساء من الرجال، واحدة من تلك الأعمال كانت تجرى أمام أعيننا الآن. كان الأسمنت ينقل من الصندل إلى الشاطئ فى أكياس ضخمة، كانت تنقل على أكتاف عدد كبير من الرجال المتجهين إلى الشاطئ ويسيرون ببطء شديد، أما الغادون فهم كانوا يفعلون أفضل ما لديهم، وقد اختفت ملامحهم تماما وسط غبار الأسمنت. كل لحظة، هناك ست زكائب من الأسمنت تنقل إلى الكورنيش بينما هناك سيقان تسير خلفها. إنه عمل يشبه نشاط النمل، ثم شاهدت رجلا ضخما يتعثر ويقع من السقالة بحمله، ومن المؤكد انه قد تعرض للأذى. كنت أتوقع أن يتم تجاهله، لكن لا. توقفت العملية كلها، تم رفع الرجل إلى الصندل، ولعلهم جعلوه يرقد فى سرير أحدهم. إنها عملية غريبة، يختلط فيها الهم مع القسوة الوحشية. على أية حال، أقول إن هذه النوعية من العمل لا تمت للإنسانية فى شىء.

أتى علاء إلينا ليخبرنا أن رجال الشرطة وعدونا بزيارة «الضابط» الذى سوف يزورنا الساعة السابعة والنصف. كنا نتوقع أن تكون مواعيد هذا الضابط متماشية مع العادات المصرية وأن يظهر بعد الساعة الثامنة والنصف، لكن هذا الرجل كان دقيقا فى مواعيده، فقد ظهر أمامنا فى الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة. طلب أولا أن يطلع على جوازات سفرنا وهو على الشاطئ، ثم صعد وقدم نفسه لنا فعرفنا أنه بدرجة لواء فى شرطة المسطحات المائية. شرح لنا أن سلطاته تمتد من حدود سوهاج حتى المنيا. لباسه الكاكى كان مهندما وظريفا، أما قبضة يده وهو يصافحنا فهى من النوع الذى يطقطق العظام. كان مرحا وبارعا فى استخدام محصوله اللغوى من اللغة الإنجليزية، يتحدث بنوع من التأكيد والعزم، بينما يساعده علاء بين الحين والآخر بكلمة أو بأخرى. إنه أسلوب جيد عندما يتوافر لك خاصية الإقدام وهناك أيضا من يساعدك. أحسست بالمرارة وأنا أتلمس عيوبى فى نطق الإنجليزية وما تحدثه لى أحيانا من إحراج - فقد عشت فترة من حياتى فى فرنسا وتحدثت بلغة مزيجة من الإنجليزية والفرنسية، ثم وجدت نفسى مضطرا إلى أن أذيع مواجهة. لذا أقول إنه بدون التمكن الجيد من التعبير اللغوى لتحقيق أدنى مراحل التواصل التخاطبى هو فى حد ذاته تهاوى البائسين! إنه يشبه تلك المعادلات الكيمائية التى تكتب لكى تعمل من خلال شقيها، وحتى إذا وصلت إلى مرحلة التحدث بلغة ما، فهذا ليس ضمانا أنك قد توصلت إلى النقطة التى تقول فيها إنك تفهمها عندما تسمعها منطوقة. وهناك ملاحظة مهمة تجدها مسجلة فى كل محاضرات تعليم اللغات الأجنبية المتقنة، حيث يشيرون إلى أنك سوف «تستطيع أن تجعل نفسك مفهوما للآخرين الذين يتحدثون تلك اللغة». أيضا يمكنك أن تتلاعب بالمهمة الضرورية الأخرى المتمثلة فى فهم تلك اللغة عندما ينطق بها الآخرون! مع ذلك، هنا يقف أمامنا مدير إدارة شرطة المسطحات المائية بمنطقة أسيوط ويتحدث معنا بنجاح منقطع النظير. إنه ممثل للسلطة، لذا لاحظت أن كل أفراد طاقمنا يظهرون له كل الاحترام. رسخ فى داخلى شعور أكيد بأنه ولا واحد منهم كان معتادا على مثل هذا التماس الاجتماعى مع كبار رجال البوليس، وكل معارفهم

تقتصر بالنسبة لهذا المجال على هؤلاء الجنود ذوى البنادق اللامعة، أما الآن، فقد وقف أمامهم لواء فى البوليس يرتدى حذاء ذا صرير وكتفيه مزينة بشارات المجد. هو كان مصرا أن يفعل معنا واجبا وأن يحقق لنا ما قد نطلبه، فى تلك النقطة بالذات كان واجبا أن تنطق ألسنتنا قائلة بأن مجرد زيارته لنا هى أعظم هدية تلقيناها اليوم، وهل يشرفنا سيادته بتناول الشاى معنا؟ وافق هو على هذا الطلب، قام فاروز على الفور بإعداد الشاى وصبه وهو فى حالة غير عادية من التوتر، كما أظن. كانت هى تسلية شريرة تتصور فى ذهنى، وذلك عندما أتخيل أعضاء طاقمنا ـ ما عدا سيد ـ وكل منهم يفحص ماضى حياته، وكل تلك الهفوات التى يتمنى مخلصا أن يتناساها. لحسن الحظ، كأى زائر يأتى إلينا من كوكب المريخ، تجد أن أفكارنا وأفعالنا نحن المسافرين غير نقية أو خالصة. كدت أن أتجاسر وأستخدم وعود السيد اللواء وأثير موضوع ضرورة حصولنا على مثبتات الموتور من القاهرة، لكن وأنا أفكر كيف أبدأ، رأيته يضع فنجانه ويقوم ثم يشد على يدى، فأسمع طقطقة عظام أصابعى وهى بين يديه، ثم خرج. بدأ أفراد الطاقم على الفور فى نصب جلسة من الثرثرة والضحك، فعلوا تماما كما يفعل التلاميذ عندما يغادر المدرس الفصل.

ذهبنا إلى قمرتنا لنواصل قراءاتنا، عندما حضر إلينا علاء الساعة التاسعة مساء ليقول لنا: هل من الممكن أن تحضروا حفل عيد ميلادى؟ لذا عدنا مرة أخرى إلى الكابينة الوسطى وفى منتصفها وعلى مائدة منخفضة، كانت هناك تورتة رائعة مغروسًا فيها ست وعشرون شمعة! من الواضح أن العادات المصرية مختلفة عنا بشكل واضح، لأن كل ما نفعله فى بلادنا هو أن نشبك أيدينا مع بعض ثم ننفخ، وبذلك ننفث ريحا قد تطير أى كيكة صغيرة موجودة فوق المائدة. جرت بعد ذلك مراسم تقطيعها والتهامها مع بعض الحلويات الأخرى و«السفن ـ أب» والبيرة المصرية، كان يحضرنا أيضا ثلاثة أو أربعة من البحارة الآخرين بالإضافة إلى رشدى الذى بدا على وجهه الشحوب لكنه كان متماسكا. كانت حفلة رائعة، إلا أنه إذا لم تكن البيرة المصرية فى حالة تجمد، فلا أوصى بها. مع ذلك، لاحظت أن أفراد الطاقم أبدوا أقل اهتمامًا بالتعاليم الدينية التى تحرم

شرب المسكرات. كنت أظنهم سيظلون ساكنين، لكن المنظر أمامى أصبح يبدو كما كان يذكر فى كتب إرشادات القرن التاسع عشر، أصبح "مفعما بالحيوية الجياشة". ذكر لنا علاء تلك الأيام التى فيها أصدرت الحكومة مرسوما فيه أن كل الكحوليات ممنوعة بحكم القانون، وأيضا أن تنزع من واجهات المحلات وتدمر. لكن لم يحدث شىء من هذا كله. حدث بعد ذلك ضحك صاخب، مع اتفاق جماعى أن لا أحد يهتم بما تصدره الحكومة من قوانين. أما عن الشرطة، فهذا موضوع آخر! كان الضحك فيه قدر كبير من الشقاوة.

بدأ رشدى فى عرض بعض حيله فى أوراق اللعب، وبعض من زارونا فعلوا الشىء نفسه. أحدهم جرب معى لعبة "أين البنت"، وفيها خسرت عددًا من الجنيهات المصرية. ثم تقدم رشدى، ذاك المملوء بالمواهب والأمراض أيضا وعزف على العود وغنى أيضا - وقد قيل لى - إنه ارتجل أبياتا شعرية تصف كل واحد منا. هل نحن فى المدرسة؟ كنت أود أن أعرف ماذا قال عنى، لكنى خشيت السؤال، ففى تلك الحالات، نادرا ما تحصل على حقيقة ما قيل. بعد ذلك، وكما يفعل الكبار عندما يتكفل الصغار بعمل حفل ما، شكرنا علاء وكل واحد منهم وعدنا إلى قواعدنا سالمين. استمر مولد السفينة منصوبا وأصبحت نغمة الضحك أكثر علوا مع تقدم الليل، لكنها كانت أصوات مليئة بالبهجة والمرح. فكرت، حبذا لو كانت حفلة علاء هذه قد تمت فى بداية رحلتنا وليس عند قرب نهايتها، ولو كنت ذكيًا بما فيه الكفاية، إذن لاحتفلت أيضا بعيد ميلادى.

رقدت فى سريرى أفكر فى زيارة السيد لواء شرطة المسطحات المائية، وكيف أن مغادرته لنا قد حررت أرواح أفراد طاقمنا وتنفسوا الصعداء، كما تفعل الحشائش عندما تجزها آلة جز الحشائش. هذه الضوضاء الصادرة منهم ليست من شيمة نهر النيل، هذا النهر الوقور البطىء، بل قل هو النهر النائم وخدامه المتراخون! لكن على أية حال، هناك تاريخ مؤكد وطويل لحفلات عديدة أقيمت على صفحات هذا النهر - حفلة مائية لنبيل وزوجته داخل زورق يسع اثنين فقط، وهى تتعلق بساقيه بينما هو يصوب عصاه المعقوفة على إوزة توشك على الطيران فيصيبها. كذلك هناك الحفلات الملوكية التى فيها تتهادى قوارب الأمراء وتحف

بالسفينة الرئيسية. هناك أيضا قصة ذاك الرجل الحكيم الذى حضر ليعالج .. لكن لا، هذه قصة حدثت فى بحيرة لا أذكر اسمها، على الرغم من أن القصة محزنة لكنها جميلة. أيضا نجد الإسكندر الأكبر الذى طالما صنع حفلات من هذا النوع، فهو كان من المغرمين بإقامة الحفلات؟ لكن ليس هناك سجلات توضح أنه أقام حفلات أبعد من مدينة منف، ويبدو أنه عبر الدلتا وسار فى الصحراء حتى وصل إلى واحة سيوه. أما كليوباترا، فهى التى صنعت حفلا رائعا لأنطونيوس وشربت تلك اللؤلؤتين المغموستين فى الخل، لكى تتباهى أمامه، لكن أهم حفل أقامته هو عندما احترقت سفينتها فى المياه، بينما مؤخرة السفينة "تلمع بضياء ذهبى" وهكذا. لكن هذه القصة الأخيرة لم تحدث فى مصر، ربما تكون قد حدثت فى مكان ما بآسيا الصغرى. أيضا نجد الإمبراطور هادريان الذى حضر إلى مصر وركب النيل حتى الأقصر، وأقام عدداً من الحفلات احتفاء بحبيبه أنطينوس، على الرغم من أنه كان رجلا وحيدا لا يهتم كثيرًا بالحفلات، لكن ويا للأسف، قام هذا النهر البطىء بإغراق حبيبه، أو أن حبيبه أغرق نفسه، لا أحد يعلم الحقيقة بكل تفصيلاتها كما يحدث دائما فى حالات الغرق. ألم يحدث أن صنع يوليوس قيصر حفلاً على النيل؟ لكن لا يوجد سجل لذلك. أما أغسطس قيصر، فهو الخبير بالحفلات على وجه العموم، لكنه كان يعرف أقل القليل عن مصر، واهتمامه الأعظم كان منصبا على مدينة الإسكندرية التى تقع على البحر المتوسط. فى معظم الحفلات التى تقام على صفحة مياه النيل، سوف تسمع الأغانى والطرب مثلما فعل رشدى. إذن فنحن نحيى عادات قديمة قدم التاريخ. الآن أسمع اثنين يرغيان فى الكابينة الوسطى، لكن الضحك لم ينقطع- وهى من أكثر الحفلات براءة تنعقد على صفحة النيل فى تاريخه كله! هناك أيضا سيد، ذاك الذى رفض أن يتناول البيرة واقتصر على شرب السفن ـ أب، لكنه كان يبتسم بكل الود، بينما هو قاعد على ساقيه يتمايل هنا وهناك.

ربما غبت فى نوم عند لحظة معينة، لأننى صحوت على صمت شبه كامل، والظلام حل وانتصر. المولد ساكن تماما و... لم يكن هو ليل كامل. هناك بصيص من ضوء الفجر بدأ يلمع فى السماء. هذه هى المرة الأولى التى لم أسمع

الأصوات المعهودة في الكابينة الوسطى. أحدهم كان يغط غطيطا عاليا. بعيدا، من قلب أسيوط نفسها، بدأ المؤذن يدعو المؤمنين للصلاة. أعتقد أن هذا النداء قد مر بمركبنا دون أن يلبى أحد.

بين الساعة السابعة والثامنة صباحا، أعتقد أن مركبنا تحرك وما زال النوم يغالبه، لعله ما زال دافئا بسبب حفل الأمس. أما عن طاقمنا، فليس هناك شك فى قدرتهم على التحمل ـ حيث يبدو عليهم بشكل واضح مدى التعب الذى حل عليهم. مثلا، عندما قرر فاروز أن يعمل، لاحظت أن نظراته كانت خضراء. أما أحمد، فما إن رآنى حتى اغتصب ابتسامة ثم أمسك بدماغه. لكن كانت هناك رياح تهب ويجب عمل شيء ما ونحن فى طريقنا الآن للمرور من الهويس. كانت المائة بوابة مقفلة بينما يتجمع خلفها كتل من نبات ورد النيل. عندما خرجنا من الهويس، كان التيار معقولا، أما رياح الشمال فإنها كانت تهب بقوة. بدا على قاربنا أنه هو أيضا يعانى من الصداع، لكن يبدو أن شاذلى قد انتوى أن يصل بنا إلى بنى سويف قبل نهاية هذا اليوم، وإلى القاهرة فى اليوم التالى. لقد استيقظ شاذلى متأخرا، طالما أن التأخير أصبح سمة تلازم الجميع، على الرغم من أنه لم يزدرد قدرا كبيرا من البيرة كما كان متوقعا من شخص يهنأ بزوجتين فقط فى وقت واحد، لذا هو فى وعى كامل بما يناسب شهيته. كانت تحيته لى هذا اليوم جافة نوعا ما. أما عن نفسى، فإننى شعرت بفضائل الرجل الذى يجد نفسه وسط كل هذه المسكرات، ثم لا يجد فى معدته القدرة الكافية إلا أن تهضم نصف زجاجة من البيرة المصرية. مع ذلك، استطاعت الرياح الشمالية أن تكنس معها البخار الذى انتشر فى مركبنا، وسحبت معها أيضا الدفء. مع انتصاف النهار، طلب أحمد أن يتم إيقاف تشغيل المحرك لكى يقوم بتغيير فلتر معين، بينما فاروز كان مشغولا كالمعتاد بإجراء عمليات تنظيف لا تنتهى بالمركب.

استقبلتنا الصحراء الشرقية مرة أخرى، وأخذت الهضاب تميل وتنسحب نحو النهر. عدنا مرة أخرى إلى الهضاب التى تثير الاهتمام بسبب تلك الحفر السوداء المنتشرة خلالها، كان من الصعب علىّ أن أتفهم مدلول تلك الخربشات البيضاء التى تقود إلى تلك الحفر، ربما تكون ناتجة من نشاطات حيوانية، أو أحجار

منزلقة، لكن بالطبع معظمها من فعل البشر. مع القليل الذى يمكن أن يثير اهتماماتى فيما يختص بالنهر، أخذت أطيل الفكر فى موضوع هذه الحفر السوداء. فى هذه المنطقة بالذات - أو تلك التى مررنا بها فعلا وكنا نبحث عندها على مستشفى تألم رشدى: اكتشف بعض البدو الإنجيل الذى تشك الكنيسة فى صحته والخاص بالقديس توما. هناك كلمة أجنبية أخذت تطوف فى تلافيف مخى لكنى لم أكن قادرا على تذكرها، كنت قد قرأتها فى كتاب لم أشاهده منذ سنوات وكان يتحدث عن مصر، جعلتنى أغرم بالمكان منذ أيام الصبا المبكر.

سباخ!

نعم، هى الكلمة، إنها كلمة عربية. إذن أنا أعرف كلمة عربية، كانت مخزنة كل هذا الزمن الماضى، دون أن أميزها داخل مخزن مخى الشحيح - أمتلك تلك الكلمة منذ أن كانت مصر بعيدة تماما عن تناول يدى، كما هو القمر الآن. هؤلاء البدو الذين اكتشفوا إنجيل القديس توما، هم كانوا فى الحقيقة يبحثون عن نوع معين من التربة تعتبر مصدر كسب لهم. هو ذا أنا الآن أحدق فى نفس تلك الحفر السوداء وخريشاتها المتصلة بها ومواقعها التى يصعب الوصول إليها. لقد وضحت الصورة فى ذهنى الآن تماما، كل هذه الحفر كانت مأهولة بأناس من نوع أو آخر لمئات أو ربما من آلاف السنين. أليست هى صالحة تماما لإيواء اللصوص وقطاع الطرق، يطلون على الوادى، شغوفين بالسطو على أحد الفلاحين البؤساء الذى يشق طريق حياته على أهداب ما يزرعه. بعد ذلك، أصبحت هذه الحفر مأوى لأتباع هذا الدين أو ذاك، هذه الطائفة أو تلك، رهبان، ومتوحدين، وقديسين. كل واحدة من هذه الحفر سوف يتجمع داخلها كثير من المخلفات والبراز والذى سوف يتحول مع الزمن إلى نوع معين من التربة (السباخ)، وهى نوعية خصبة للغاية ومطلوبة للأرض الصحراوية غير الخصبة. لأن تفكر وتتخيل أن مئات السنين من الفقر المقدس سوف ينتهى بها لتصبح سباخا! هذا كان فكرا غريبا وغير دقيق. هذا يهتك الزمن. كل ما فعله القديسون، أو كانوا مقدمين على فعله، له على علاقة بزمنهم، أما السباخ فهو يخص الآن. لكن أن يتجمع عاما بعد آخر، كما تفعل الطيور البحرية فوق الصخور، ثم تكون النتيجة فى النهاية هى نوع

من السماد! هذا الفكر عاد بى فورا إلى أن أحلل تلك الخاصية التى تتميز بها مصر. جيل بعد جيل، خلقت أعمالاً لها طبيعة خاصة، ليست مثل البحث عن الآثار أو الكنوز، لكن ما يدعونه باللغة العربية «السباخ». إنها نوع من الكلمات التى من الممكن أن يتذكرها ولد صغير، وهو فى الحقيقة سماد غنى بالنتروجين ومخصب عظيم للأرض.

هؤلاء البدو والمصريون الذين انشغلوا بالتنقيب عنه، كان يُنظر إليهم دائما بأنهم أقل من أقل طبقات المجتمع، واسمهم يدل عليهم، فهم "السباخون"، أى الباحثين عن المخلفات القديمة. بالطبع هم لم يكونوا مهتمين بأى شىء آخر يحتويه الكهف، سواء كانت عظامًا قديمة أو أوان. ليست المسألة متصلة بالكهوف فقط؛ ففى الأجواء التى يندر فيها المطر، وأينما وجد البشر فهناك طبقات من السباخ، سواء كانت تلك فى القرى، أو المدن، أو الكهوف أو المزارع. تلك المادة الخام سوف تجدها فى كل مكان، ومهمة السباخين هى البحث عنها واستغلالها. أحيانا ينقبون عنها وبين أيديهم أوراق اعتماد من الحكومة حتى لا يقعون تحت المساءلة، لكن فى أحيان أخرى ينقبون عن السباخ بطريقة غير قانونية، لذا إذا وجدوا سباخا أو كنوزا، فهى مصيرها النهائى هو السوق. فى وقت مبكر، أحدثوا أضرارا جسيمة بكل الآداب المصرية المسجلة، لأنهم ما إن يعثروا على لفائف من البردى فإنهم يمزقونها إلى أجزاء، طالما أن بيعها بهذا الشكل سوف يكون مربحا أكثر من بيعها كاملة. هذا ما توضحه هذه الخربشات التى تؤدى إلى تلك الكهوف، فهى لا تخص الحيوانات، لكنها تخص الإنسان أيضًا. ليس القديس، لكنه رجل السباخ باحثا عن غنيمته الغريبة.

إنه لأمر جدير بالنظر أن تفضل أوراق ممزقة من البردى عن جرة مملوءة ذهبا، لكن لأن السباخين كانوا مهتمين بالحفر البعيدة عن المدن على حدود الصحراء، فليس غريبا أن تصلنا معظم الأصوات عن مصر عن هذا الطريق. بالتأكيد، هناك الكثير الذى ضاع، ربما ٩٠ فى المائة، لكن هناك رأى يقول بأن ما تحصلنا عليه بالفعل هو أكثر من اللازم. هناك عشرات الألوف من أوراق البردى التى لم تنشر لأنها لا تستحق ذلك، لكن هى مع ذلك ذات قيمة عظمى ولا يمكن

الاستغناء عنها. فربما، وهذا ما فكرت به، أنه باستخدام فلتة إحصائية يمكن لنا يوما أن نقوم بإصلاح حفرة ما فى مستند آخر لم نعثر عليه بعد.

هذا الجانب من البحث الأثرى كان يروق لى وأنا صبى صغير أكثر من أى شىء آخر، أكثر من اكتشاف الأوانى المليئة بالذهب. تعلقت بمدينة فى مصر اسمها «أوكسرينكوس» وهى ضاحية من مدينة قديمة تقع على حدود الصحراء الغربية، هى الآن تبعد حوالى عشرة أميال عن المجرى الرئيسى للنيل. كنت مشتاقا أن أزورها خلال النصف قرن الماضية أو هكذا تقريبا، وقد قمت بالمرور بالقرب منها ثلاث مرات ولم تتحقق أمنيتى، فعند مرورى فى رحلة الذهاب هذه والتى تمت منذ عدة أسابيع ماضية، قضينا ليلتنا فى مكان قريب منها، لكن كان هناك الظلام وقنوات كثيرة يجب أن نعبرها ومحاصيل مزروعة وفلاحون سوف يضربون الغريب على أم رأسه بالشومة ليلا، ثم يطرحون أسئلتهم بعدها. هذه الأرض الزراعية الفاصلة تمتد لمسافة عشرة أميال حتى أصل إلى حدود الصحراء، هى مسافة يصعب على رجل فى عمرى أن يحققها فى ذلك الوقت المتأخر من الليل وبهذه المخاطر الجسيمة، إذا حدثت، فهى تسمى عملية حمقاء بلا شك. لكن المرتين الأخريين كانتا أثناء مرورى بسيارة أثناء زيارتى الأولى لمصر، وقتها كنت أجاهد أن أهرب من صبية البقشيش، ولم أكن متوافقا مع عديد من الضغوط. الآن، نحن نقترب نحو الموقع نفسه حيث جثمت أوكسرينكوس على حافة الصحراء وتطل على بحر يوسف القديم، المصريون يدعونها الآن البهنسا. فى القديم، كانت عاصمة لمديرية أو محافظة. وفى عام ١٨٩٧، بدأ كل من الأستاذين جرينفيل وهنت، وهما أستاذان وباحثان فى الآثار بالعمل هناك. هو مكان لا يمكن أن تتوقع أن تعثر فيه على ذهب أو جواهر، لكن ما إن استمر عملهم بضعة أيام، إلا وعثروا على كنز، بل وأفضل من كنز، إنه يبهر الأذهان فقط. لسبب غير معروف، قام أهالى أوكسرينكوس فى الزمن القديم بإلقاء كتبهم القديمة ولفائف البردى وأوراقهم مع قمامتهم العادية. أكوام من الأوراق - وورق البردى، جميعها ألقيت فى القمامة، أحيانا كانت هذه تلقى وهى داخل سلالها المصنوعة من القش، ثم يرتفع كوم السباخ ويظل يرتفع، ويبتلع داخله

كل الأوراق التى لم يغطها التراب والمخلفات. كان هذا سببا آخر دلنى عليه ذهنى، من الجزء العاقل منه، من أن زيارتى لهذا المكان لن تكون ذات معنى. فالمكان الآن ليس فيه ما يمكن أن يشاهده المرء، لن أجد سوى آثار حائطين قديمين أحدهما لونه رمادى والآخر أسود، فمن ضمن كل المواقع المصرية المهمة، يعتبر هذا الموقع أقلها استحقاقا للزيارة بالنسبة للعيون الخارجية.

أتذكر أنه أثناء قيام الحرب العالمية الثانية، كان هناك جبال من الكتب جمعت لمصلحة الفرق المتحاربة، ودائما ما كان العثور على مكان لتخزينها متعذرا، لذا ألقيت هذه الأكوام بجوار محطة قطارات الغرب الكبرى وتعفنت بسبب الأمطار وأصبح منظرها مؤلما. لكن أوكسرينكوس لديها الشمس العفية، لذا لا شيء يتلف أو يفسد. عندما خطا هذان العالمان فوق أكوام التراب، أصبح ميسورا لهما أن يدركا أين موضع أوراق البردى بتحسس مدى مرونة التراب تحت أقدامهما. كانت السلال بكل محتوياتها موجودة وما زالت، وتحتوى حمولات من السجلات الرسمية. هنا وهناك، كان مطلوبا منهما فقط أن ينبشا التراب بأحذيتهما لكى يعثرا على طبقة من ورق البردى. كانت مدينة المتعلمين أو المثقفين، والإداريين الذين كانون يتحدثون لغة الدبلوماسية والمال والأعمال، فكانت اللغة القبطية لأهل البلد، واليونانية للأجانب، وفيما بعد أصبحت اللاتينية لغة العالم قاطبة.

لكن ما الذى يجعل اللغة اليونانية لها هذه الجاذبية؟ على الرغم من أننا لم نتعلمها فإن معظم حروفها معروفة لأنها هى المستخدمة فى أبجدياتنا الحديثة؟ هل البروباجندا قد أثرت فينا؟ هل الأسماء التى قدموها لنا فى مقتبل عمرنا أمثال هوميروس، وأفلاطون، وأخيل وسوسيديس تجعلنا نحنى رءوسنا إجلالا، كأنما نحن أمام هيكل لإله مجهول؟ بالنسبة لفتى صغير، نعم هى كانت كذلك. أعتقد أننى لم أتجاوز سن العاشرة حتى كنت أقرأ بعضًا من القصص اليونانية. كنت معتادا فى وقت مبكر على الكلمات ذات الأصل اليونانى مثل هيدروجين، وهيدروكسيد، والأخيرة تعنى «الماء هو الأفضل»، لذا أجد أن اليونانية القديمة تتحدث معى بلسانها.

معظم ما وجد فى أوكسرينكوس كان مكتوبا باليونانية، وبشكل ما وجدوا أن معظم لفائف البردى منفصلة عن بعضها، فلم يكتف القدماء بإلقاء أى كتاب فى القمامة، لكنهم أيضا «اغتالوه»، كما فعلوا بأوانى الأهرام عندما اغتالوها وحطموها. هذه اللفائف من ورق البردى، كانت تحوى فى قلبها على مقدرة سحرية، كما لو أنها كانت هى الروعة التى توضح بجلاء أعمال المصريين الذهبية، كان مقدرا لها أن توجد شبيهة باستخدام الحبر السرى! أحيانا كانت توجد لفائف قضت عليها حرارة الشمس وأحرقتها، ولعل سافو هى التى قالت:

يقول بعضهم إن أجمل ما على هذه الأرض الحالكة هو مشهد حشد من الفرسان، ويزعم بعض آخر أن أجمل مشهد هو مشهد الأبطال وهم يمشون، أو مشهد السفن المتهافتة على صفحة الماء، ولكنى أقول: إن أجمل مشهد على وجه البسيطة هو رؤية وجه الحبيب.

وقالت أيضًا:

أتذكر أناكتوريا البعيدة عنى، والتى خطوتها الرقيقة، ونظراتها الوضاءة، هى كل ما أعشقه، وأفضل عندى من قدوم الليديانيين أو هجمة الرجال فوق ظهور الجياد، مدججين بالسلاح.

لذلك كله كنت، كما تقول، تحت تأثير عادة أو التزام التذكر لمكان لم أره أبدًا، نوعًا من الآديلستروب(*) فى العقل، أوكسرينكوس المطوقة بالقداسة.

مع ذلك، هناك ما يمكن أن يدعوه المرء بالبلاهة الموروثة خاصة بهذا المكان بالذات. فهذا الاسم اليونانى يعنى "الأنف المعقوف" أو (السمكة). فعندما قام «تايفون»، والذى يدعوه المصريون القدماء باسم "ست" بقتل "أوزوريس"، قطع جسده إلى قطع صغيرة وألقى به فى النيل، ذلك النهر الرمادى الأخضر الذى نتحرك الآن فيه، بينما مسمار مركبنا الرئيسى المفكك يتأرجح هنا وهناك. كانت أهم المراكز الدينية العظمى على النيل تنتظم جميعا حول معبد به قطعة من

(*) هى قرية وابرشية مدنية فى جلوستر بإنجلترا (المراجع).

جسد أوزوريس، كان هذا ساريا فى ثلاثة عشر معبدا من إجمالى أربعة عشر. مع ذلك، كانت طبيعة العبادات المصرية الغريبة والمعقدة يمكن التعبير عنها بتفاصيل أكثر، لذا لأن أوكسرينكوس هو المكان الرابع عشر، إلا أنه لم يكن يحتوى على جزء من جسد أوزوريس. اتفق الجميع حينذاك على أن الجزء الرابع عشر من جسده كان هو قضيبه الذى قامت بابتلاعه سمكة، بالطبع، كان هذا هو السبب الذى من أجله دعى هذا المكان باسم "السمكة"، ويبدو أن القصة حقيقية، لأنه لم يكن أى كاهن فى الزمن القديم ليجرؤ أن يأكل السمك، لأنه أصبح نجسا من الناحية الدينية! وكثيرًا ما كنت أتعجب عما يظن المسيحيون بهذه القصة العجيبة.

لا شك أنه كان هناك بعض المسيحيين المتعصبين والمتحمسين، وأناس منهم كانوا يرغبون فى عبور النهر ويتوجهون إلى كهوف الصحراء الشرقية ليعيشوا داخلها منقطعين عن العالم. بالنسبة لهم، وقد اشتعلوا حماسا لهذا الدين الجديد، اعتبروا أن كل ما عداه هو العدم. بالنسبة لهم أيضا، لم تعد تلك الأسطورة المسهبة عن أوزوريس مقبولة أو معقولة، ويرفضونها تماما باعتبارها إحدى خرافات الوثنية.

كان هناك مسيحيون آخرون فى هذا المكان، لكن أهلها لم يكونوا بهذه الدرجة من التعصب ولا يرحبون قطعا بالعيش فى هذه الكهوف. نحن نعلم الكثير عنهم وقرأنا عنهم الكثير فى البرديات التى تم العثور عليها. يقال إن المسيحية فى مصر قد ارتوت بدماء الشهداء، وهؤلاء هم الذين رفضوا أن يتوافقوا مع الظروف السائدة حينذاك. يا لها من جمهرة مشاكسة تجمعت فى ذلك الزمان. لقد تكاثروا فى كل مكان، يتميزون بالعناد ويرحبون بتحمل كل صنوف العذابات، لهم بطولات مجنونة وليست مفهومة بالنسبة لمن يرددون النصائح القائلة، "لكن يا أخى انظر! ليس عليك سوى أن تضع حفنة بسيطة من البخور التى تحرق على هيكل الإله الإمبراطور أوغسطس! إنها ليست سوى تصرف سياسى، ليس مطلوبا منك أن تؤمن بشىء يخالف إيمانك الحقيقى!

لا شك أن تلك الأمور كان يختلط فيها الرفعة والعظمة مع الخسة والدناءة. نقرأ أيضا فى البرديات التى تم العثور عليها على الجانب الآخر من القصة، نقرأ كلمات من لم يكن إيمانهم كاملا ووثيقا من الذين لم يصدقوا أنهم مستعدون أن يضعوا أعناقهم تحت حد السيف أو أن يكونوا طعاما للوحوش المفترسة، لكى ينالوا فى النهاية النعيم الأبدى. لكن فى أيام الاضطهاد، عندما كنت تقدم أضحية أمام تمثال الإمبراطور الرومانى المعبود، هذا يعنى على الفور أنك خاضع لقوانينه وولايته، ومن كان يظن أنه مسيحى من رعايا الدولة، فمفروضا عليه أن يظهر ويعلن مدى إخلاصه. وقد استطاع المنقبون أن يحصلوا على شهادات بعضهم وجدت فى كهوف أوكسرينكوس حيث قامت السمكة بابتلاع قضيب أوزوريس، وهذه واحدة منها:

لمن تم اختيارهم لكى يحضروا تقديم الأضاحى فى قرية جزيرة إسكندر، أنا المدعو أوريليوس دياجونيس، ابن ساباتوس، المقيم أيضا فى قرية جزيرة إسكندر(هو يبلغ من العمر ٧٢ عاما وهناك علامة إصابة قديمة فوق حاجبه الأيمن) وإنه دائما ما كنت أقدم الأضاحى للآلهة، وأنا الآن فى حضرتكم وطبقا للمراسم الإمبراطورية أقر هنا أننى قدمت بالفعل هذه الأضاحى المفروضة وصببت ما أريق وتذوقت من العطايا، وأريد منك أن تؤيد ما كتبته أنا هنا، وأرجو أن تنعم بالسعادة دوما، أنا أوريليوس دياجونيس الذى تقدمت بهذا الطلب.

ثم تجد بعد هذه الشهادة الرسمية المتبوعة بالتوقيع، التعزيز المكتوب أسفل الشهادة:

أنا، أوريليوس سيرس، كمشارك فى هذه الشهادة، أقر أن دياجونيس قد قدم الضحايا معنا وبرفقتنا كلنا.

هذه المستندات التى كانت معرضة للفقد ليست كل ما فى الأمر، فهناك لحظات مرت فى مغامرة العالمين جرينفيل وهنت، كانت مثيرة للغاية. واحدة منها حدثت فى اليوم التالى من بدء حفائرهما. الدكتور هنت هو سعيد الحظ. فعندما

كان يفحص ورقة بردى مطبقة ومكرمشة عثر عليها فى اليوم السابق، استرعى أنظاره أن بها بعض الكلمات غير المفهومة. واحدة منها كانت الكلمة اليونانية القديمة (كارفوس)، لكنه ما تمعن فيما تنطق به باقى الجملة، حتى تملكته رعشة وصلت حتى أخمص قدميه، أدرك أنه حصل على كنز. كلمة (كارفوس) هى كلمة نادرة الاستخدام فى اليونانية، هى تعنى (القذى) أو الشىء الهين البسيط، لذا بدأ فى قراءة الجملة بأكملها، لكن بدايتها كانت ناقصة، وتقرأ هكذا ... وبعد ذلك سترى جيداً فتنزع القذى فى عين أخيك.

لقد كانت هذه الجملة، كما يعلم العالم كله الآن، واحدة من أقوال المسيح، وما هو مسجل أمامه الآن هو أقدم تاريخيا بمئات السنين عن الزمن الذى فيه كتبت الأناجيل، كان يظن فى ذلك الوقت أن تلك "الأقوال" نسخت من البشارات الأصلية المفقودة الآن، لكن الباحثين فى عصرنا الحديث يميلون إلى وجهة النظر القائلة بأن الأناجيل الأربعة استعانت بمثل هذه المأثورات من الأقوال.

إلا أنه مهما كانت حقيقة الأمر، فمصر ما زالت مصدرا مهمًا للعثور على وثائق ما زالت مفقودة. مثل تلك الأقوال التى كانت بالنسبة لى كوسيلة تخيلية تجعلنى متشوقا لأن أحدق فى عين الزمن الماضى وأعيش فيه، لأننى ظننت، وقد أكون مخطئا، أن هذه الأقوال قد سبقت كل ما تمثله تلك المناظرات الدينية ومطاردة الهراطقة والتعصب الشنيع الذى يبديه طرف، بينما يتلقى مزيداً من التهكم والسخرية من الطرف الآخر. ومثلا، فى مناقشة الشعر، هناك حد أعلى يمكنك أن تستخدمه للدفاع عن شاعر معين، فأنت ربما تقول: "على أية حال، هو على الأقل وقع نظمه جميل". إذن فهذا هو لب الموضوع، يبدو هذا كأنه ذاك الصمت الذى يسبق العاصفة، هو صوت لا يمكن لنا أن نتجاهله لذاك الرجل (يقصد شكسبير) الذى كان شاعرا عظيما وخطيبًا مفوها، ومهما كانت صفاته الأخرى، اسمعه وهو يقول:

ارفع الحجر وستجدنى هناك، شق الشجرة فتجدنى موجوداً أيضا!

إن تشابه شاطئ النهرين (النيل والتيمز) لا تجعلنى سوى أن أستغرق فى التفكير. هل تلك الزيارة التى انتويت أن أقوم بها، هل سوف أكون على قدر من

الحظ؟ لأنه يجب أن أركز على نقطة مهمة، هى أن الموقع حاليا ليس به الآن ما يستحق المشاهدة. الموقع موجود على الخريطة، هو هناك على حدود الصحراء الغربية، والأماكن التى وجدوا فيها تلك الكنوز هى الآن مغطاة بالرمال، أما الحفر السوداء فى المحجر القديم، فقد اختفى منها كل شىء وأصبحت فارغة، وأصبح أمل حياتى ليس سوى حلم سخيف، نعم سخيف! عندما تخيلت أننى سوف أذهب إلى هناك ثم أعثر على تل معين، وعندما أسير عليه أحس بخشخشة الرقائق أسفل قدمى، بعد ذلك، أسحب من طيات الرمال سلة مليئة بالرقائق وأوراق البردى، ثم أحضره إلى قاربى وأبدأ فى فحصه وتبويبه ومحاولة قراءته، حتى...

لكن ما الذى سوف أجده حقا فى تلك السلال التخيلية! فكرت أنه ربما يكون منها أعمال الشاعرة سافو الكاملة، وبعض أعمال الشعراء اليونانيين القدامى أمثال يوريبيدس، ثم فى فورة خيال أخرى، تخيلت أننى سوف أعثر على ما لم يجده الباحثون الذين سبقونى، بل وأعثر على ما لن يجده غيرى، أعثر على لفائف تحكى كل التاريخ المصرى القديم؛ فالتاريخ - كما نعلم - هو فى الواقع اختراع لوقائع حدثت فى الزمن الماضى. أعترف هنا أيضا أنه خطر ببالى أننى سوف أعثر على بعض السجلات التى توضح أحوال الناس عند بداية ظهور المسيحية فى مصر والمخاطر التى تعرضت لها. لماذا لا يكون هناك سجل يوضح تفاصيل الأيام الأولى التى قضاها المسيح وأمه مريم فى مصر؟ ولماذا لا يكون هناك سجل آخر فى مكان آخر يوضح تفاصيل السنوات التى قضاها شكسبير فى إيطاليا أو الأراضى المنخفضة (هولندا)؟ لعل شكسبير وهو ما زال صبيًا صغيرا يكون قد حضر إلى الإسكندرية، جعلته فى خيالى ينضم إلى مدرسة الإسكندرية الشهيرة، أو أنه يبحث عن علم الفلسفة عند سقراط، فيضطر إلى أن يرحل إلى اليونان. ما الذى خطر على بال شكسبير وهو يصف الأهرام بأنها بيضاء ناعمة الملمس؟ هل سافر فى أرجاء مصر حتى وصل إلى البهنسا؟ ولو كان حدث هذا فعلا، فأعتقد أنه سوف يتعمد أن يأكل السمك هناك، كما فعل لاحقا فى فلسطين. فى القاهرة، يمكنك الآن أن تشاهد القبو الذى عاش فيه المسيح فترة من الزمان، ويمكن أن تشاهد أيضا المكانين اللذين ربما تكون قد رست فى

أحدهما السلة التى وُضع فيها موسى النبى وهو طفل صغير! لكن إلى أى مدى سافرت فيه هذه السلة؟ وإلى أى مدى واصل بها المسيح تطلعه على القرى والمدن المصرية؟ هل ركب قاربا حتى وصل إلى الأقصر وأسوان ثم بداية المجهول؟ لذلك كنت فى شوق بالغ أن أتغلغل فى معرفة تفاصيل تلك الحياة بالذات، والتى كانت حياة فاضلة. أحيانا، عندما تدور فى ذهنى أفكار تناطح المسيحية وأن بها أمورًا غير قابلة للتصديق، تتلاعب فى خيالاتى مناظر متنوعة قد تبدأ بآدم (أبو البشرية)، وبطريقة مشاكسة أبدأ فى تقليب لفائفى المتخيلة التى عثرت عليها، فأدرك أنه ليس سوى قصة ملفقة. كم حلمت أن أمتطى هذا النهر بقارب ليس بداخله موتور يجعله دائم الارتعاش! ويا لها من مشاهد سوف أملى بها عينى، ويا لها من تماثيل ونصب ومعابد تحفل بكل ما ذكره عنها الكاتب هاجرد، يا لها من مقابر تبث الخوف والرعب فى القلوب.

أتذكر أننى رحلت فى أحلامى إلى ممفيس منذ عدة آلاف من السنين، وهى تقع بالقرب من القاهرة التى لم تكن قد ولدت بعد. ثم الاحظ أن كل شوارع ممفيس مضاءة بأنوار جميلة رائعة؛ ثم أفعل مثل أوديسيوس بسبب فضولى الشائك، أتسلل من قاربى وأسير فى شوارعها وأنا أحس بحكة فى جلدى، لاحظت أن فوق قمة كل باب هناك فانوسا من الفخار به شعلة من نور، لذا كانت كل الأماكن تحفل بضياء باهر، لكن لا أحد موجود هناك، جميع ساكنيها ليسوا سوى أرواح هائمة تسير فقط فى الظلام، أما ذاك الصبى الذى تجرأ وسار فى شوارعها قابضا على سيفه البرونزى، تجده الآن وقد هرب صارخا عائدا إلى قاربه مرعوبا من هؤلاء الأموات المنكبين حوله.

أما الآن، فنحن نلطم نهرا مختلفا تماما، ونخترق مياهه بعنف، بينما هناك ذيل طويل يتبعنا ملوثا الجو بدخان أسود قذر. نحن الآن نبتعد عن موقع البهنسا، تلك البقعة التى أدركت الآن أننى لن أراها أبدًا.

فاروز، «نحن نظن أنه من الممكن بكل سهولة أن يمثل دور علاء الدين المشهور».

علاء ورشدى وقد احتلا مؤخرة المركبة
وأخذا يلعبان الموسيقى ويغنيان باللغة
العربية.

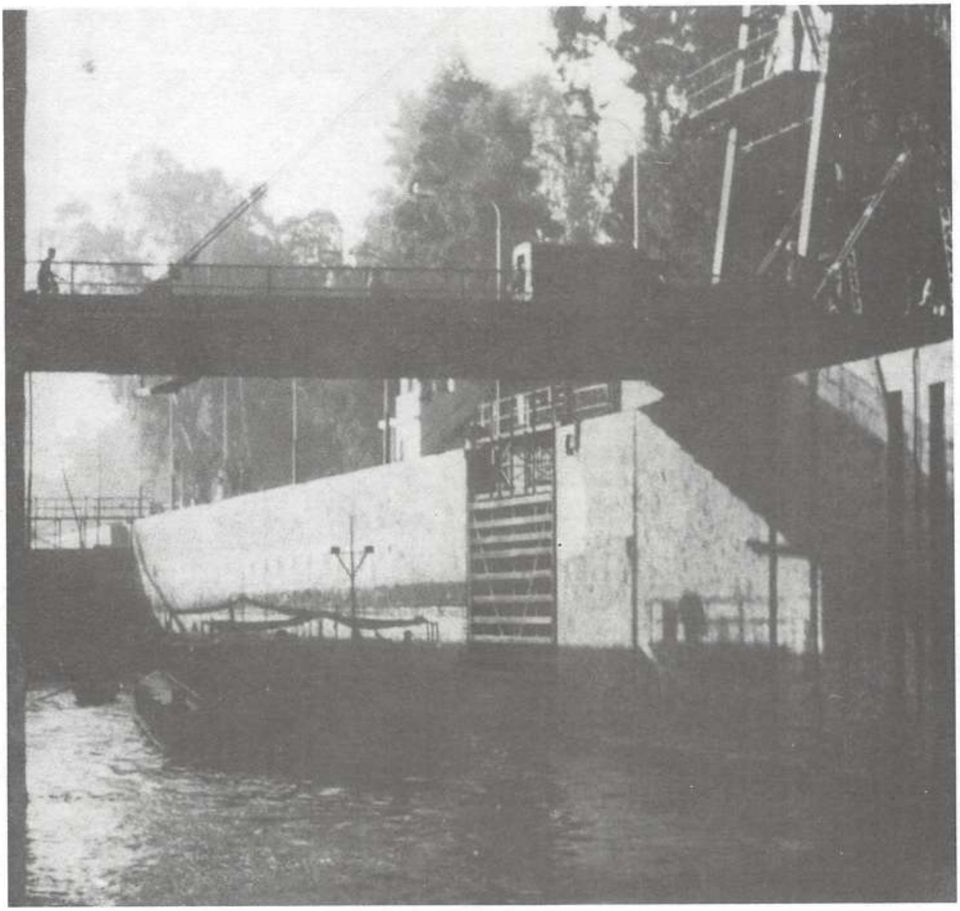

هويس أسيوط

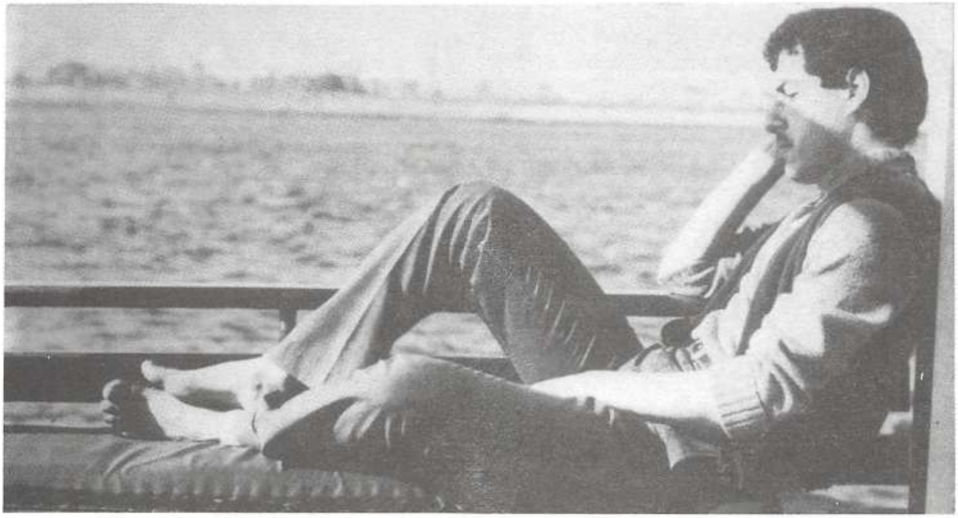

رشدى «نلاحظ أن رتم النيل ينحصر فى عدم القيام بأى شىء. إنها وسيلة جيدة للحياة إذا استطعت أن تتلاءم معها».

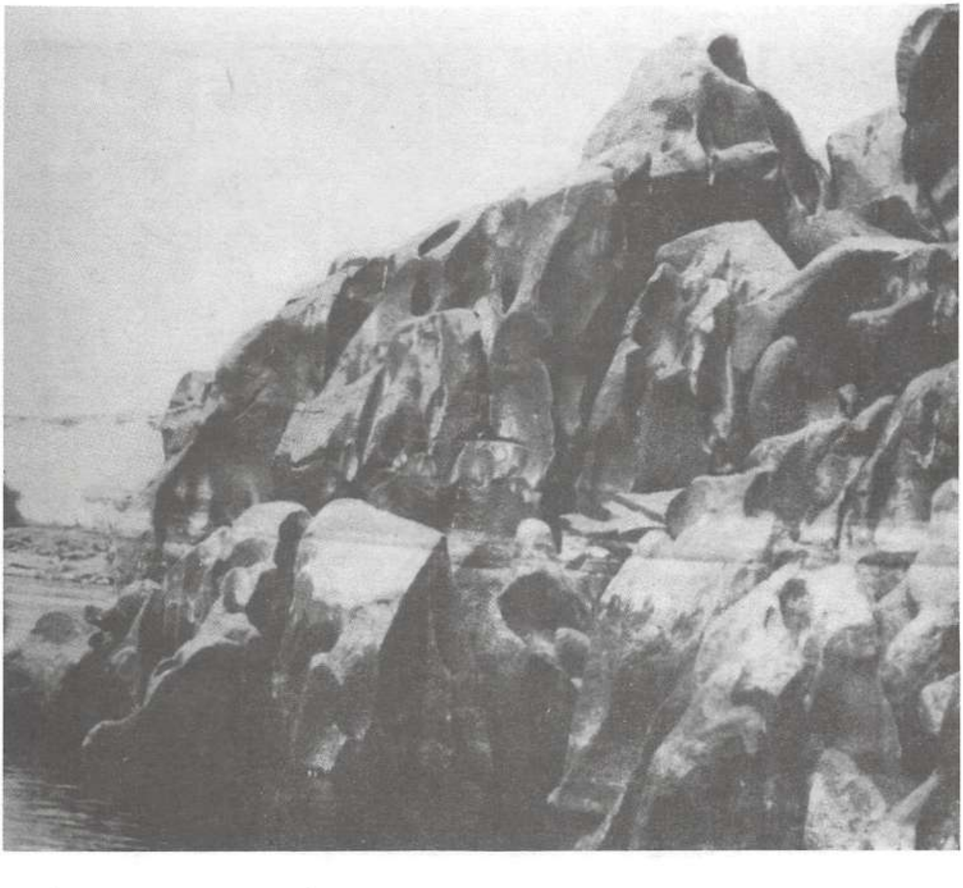

كل المناظر هنا هى النهر والشاطئ، هنا لا يشبه المنظر نيل أقصى الشمال، حيث نشاهد الطمى ومساحات صناعة الطوب. لا نشاهد هنا شيئًا سوى الصخور والماء.

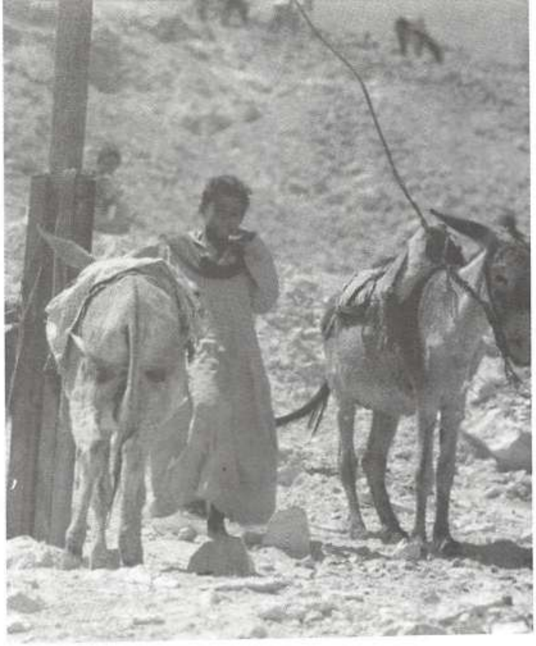

ولد صغير وبصحبته عدد من الحمير. «شيء غريب أن نشاهد حميرًا تفعل ما تشاء وعلى حريتها ولا تستغل حتى الموت»

عيدان نباتات البردى محملة فوق لورى. وقد شجعت وزارة الثقافة إنبات البردى فى بعض الحدائق المجاورة للقاهرة، بذلك يمكن استخدام عيدانها لتحويلها إلى ورق بردى بنفس الأسلوب الصناعى القديم.

فى الطريق، شاهدنا الكثير من اللوارى المحملة بالجمال التى تتجه شمالا وقادمة من سوق الجمال فى إسنا.

قطيع من الجمال تساق شمالا من إسنا، وهى تسير فى أطول طريق قطعان فى العالم، يسلك الصحراء جنوب الخرطوم. قادة هذه القطعان لهم خبرة رائعة بالتعامل مع الصحراء والجمال أيضًا.

سوق إسنا للجمال، حيث يتم بيع المئات منها، البعض لاستخدامها فى العمل لكن معظمها للذبح، وهناك لوارى متعددة للتحميل والبعض منها قادم من القاهرة أو الإسكندرية.

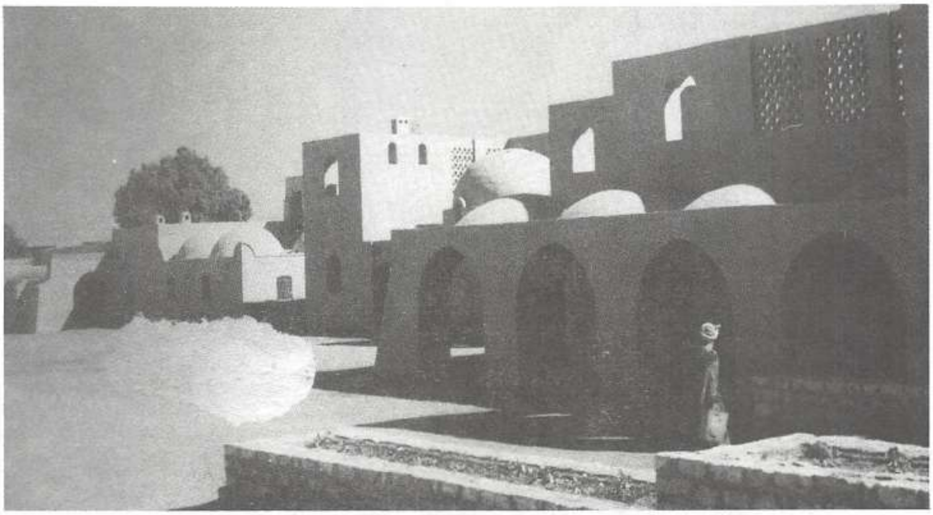

القرنة الجديد التى أنشأها المهندس حسن فتحى، «إنها مصممة طبقًا لرؤيته الخاصة. فى كل مكان نجد الاستخدام الأمثل للطوب اللبن كذلك الإفادة من القباب والأبهاء».

فى كلابشة: المنازل بسيطة، لكن الجدران مغطاة بحيث يتعذر على معرفة مما تتكون، لكن لا يبدو أنها مبنية بالطوب اللبن».

تمثالا ممنون.

بيت فلاح فقير «إنه إن لم يكن قذرا، فهو غير مرتب، وبالطبع لن يخلو من مجموعات الجلة (فضلات الحيوانات) الملتصقة بالحوائط من الداخل لكى تجف».

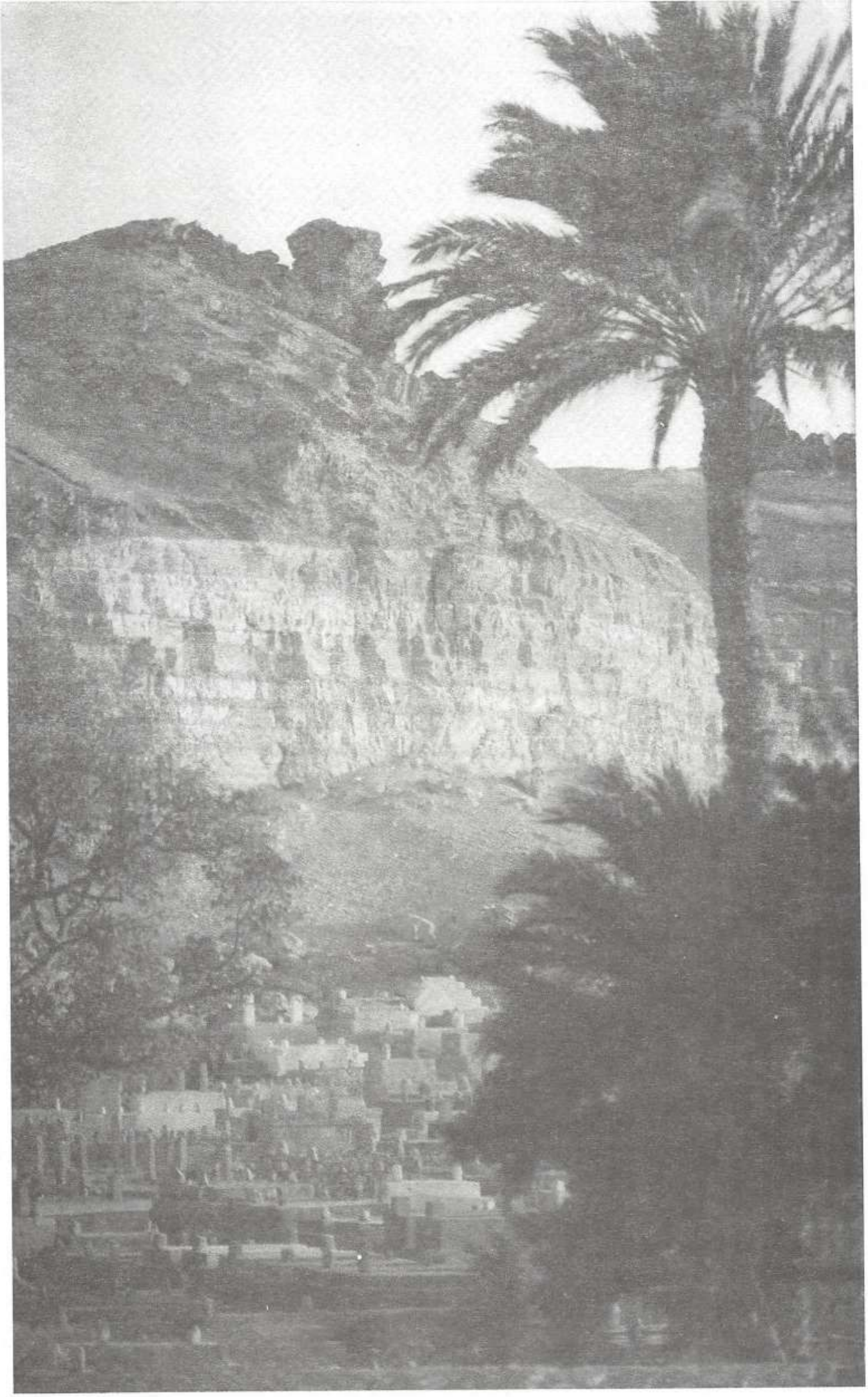

بالقرب من الجيزة

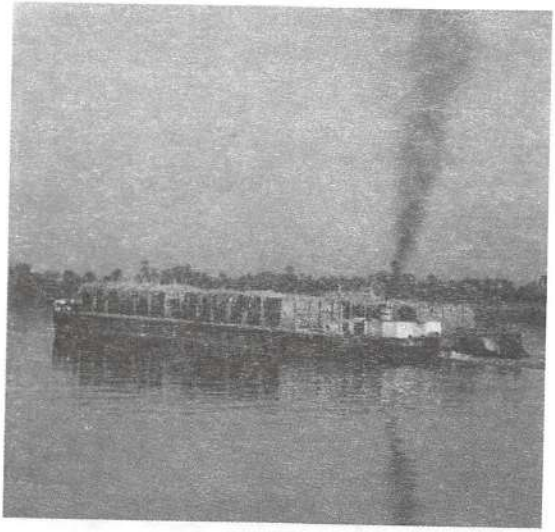

هناك الكثير من مقطورات الصنادل
المجرورة المحملة بأعواد قصب السكر.

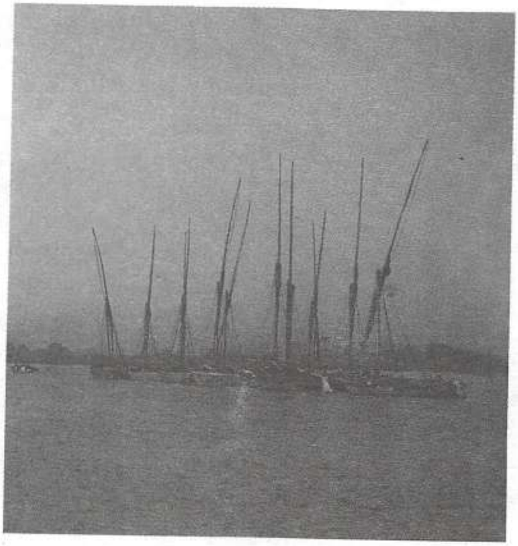

قطيع من الفلوكة

طائر السماك النيلى

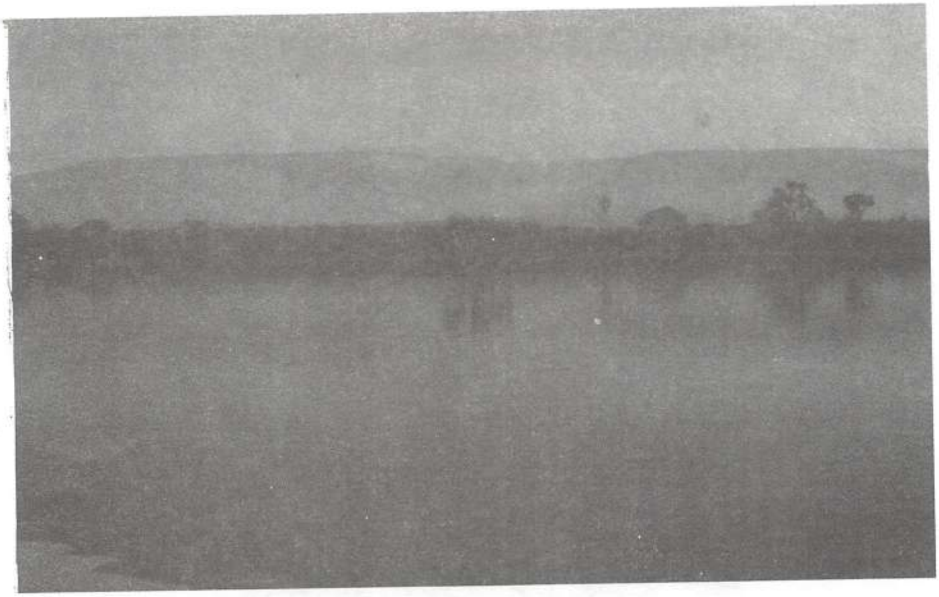

مرة أخرى كنا على موعد مع مشاهدة آثار الليل، وهى تنزاح تدريجيًا لكى تترك للحركات المتأنية لبزوغ الفجر.

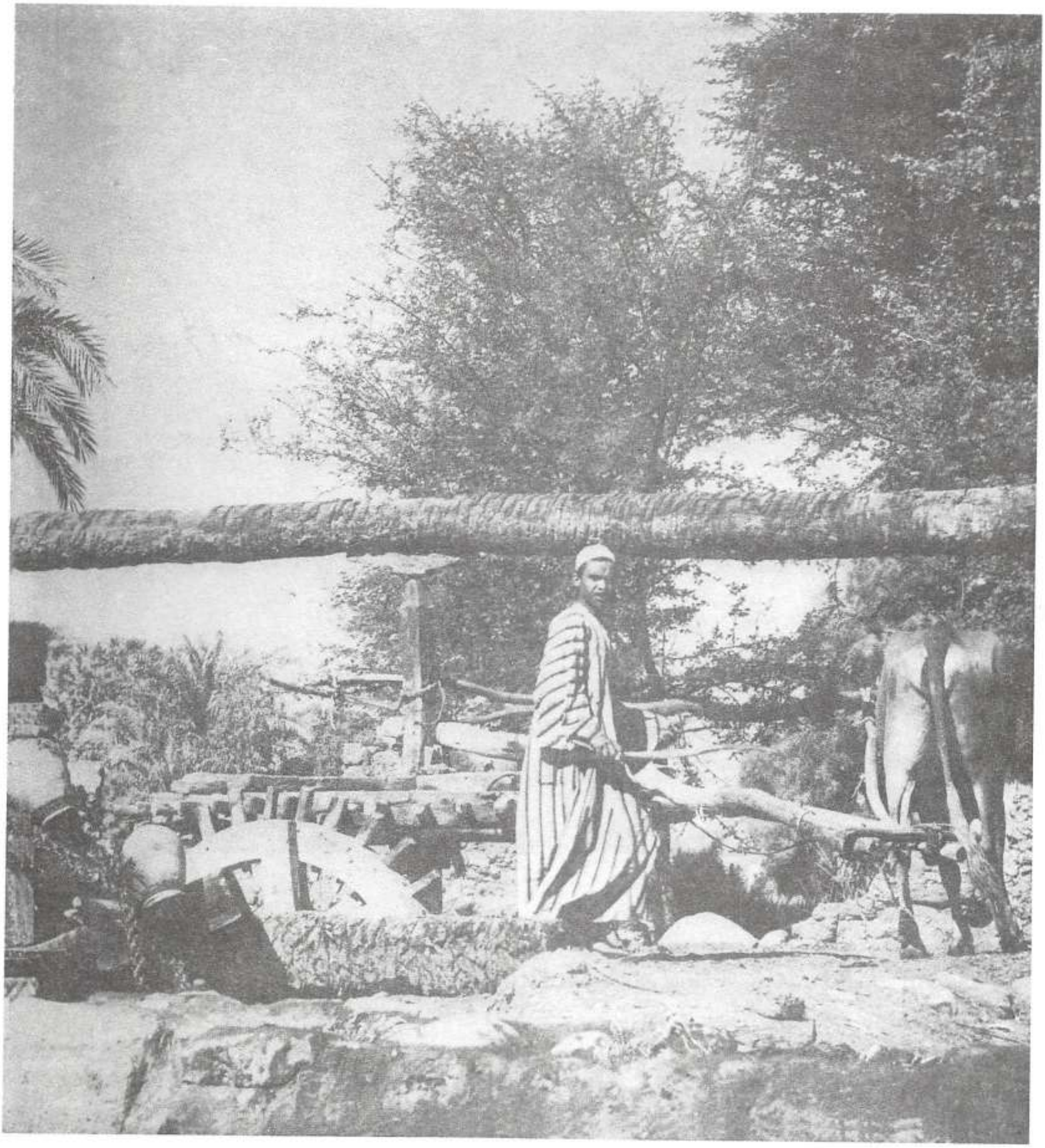

إنها السواقى العادية التى مازالت تستخدم فى مصر للرى.

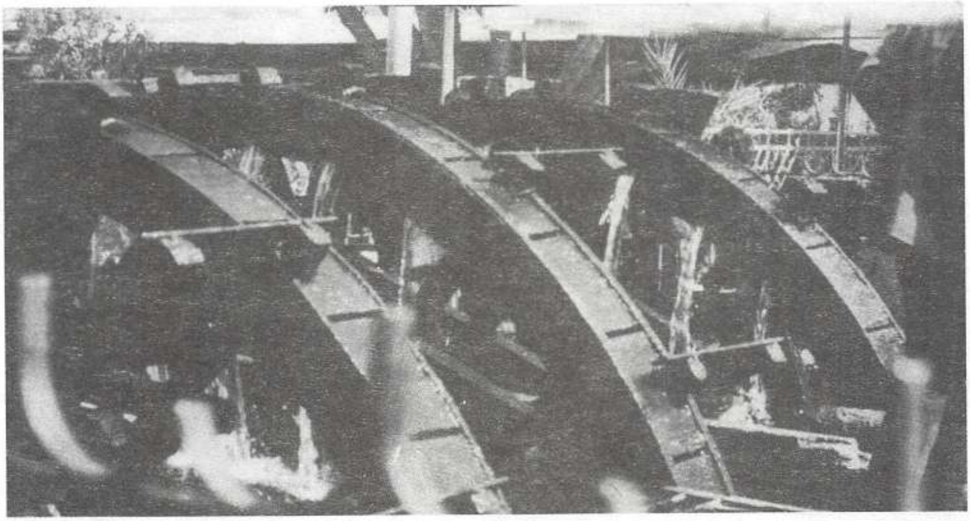

داخل الفيوم نشاهد منظرًا طريفًا ونستمع لصوت ساحر يصدر من السواقى المتعددة، وهى تتكون من عدد من العجلات المتحركة المترابطة.

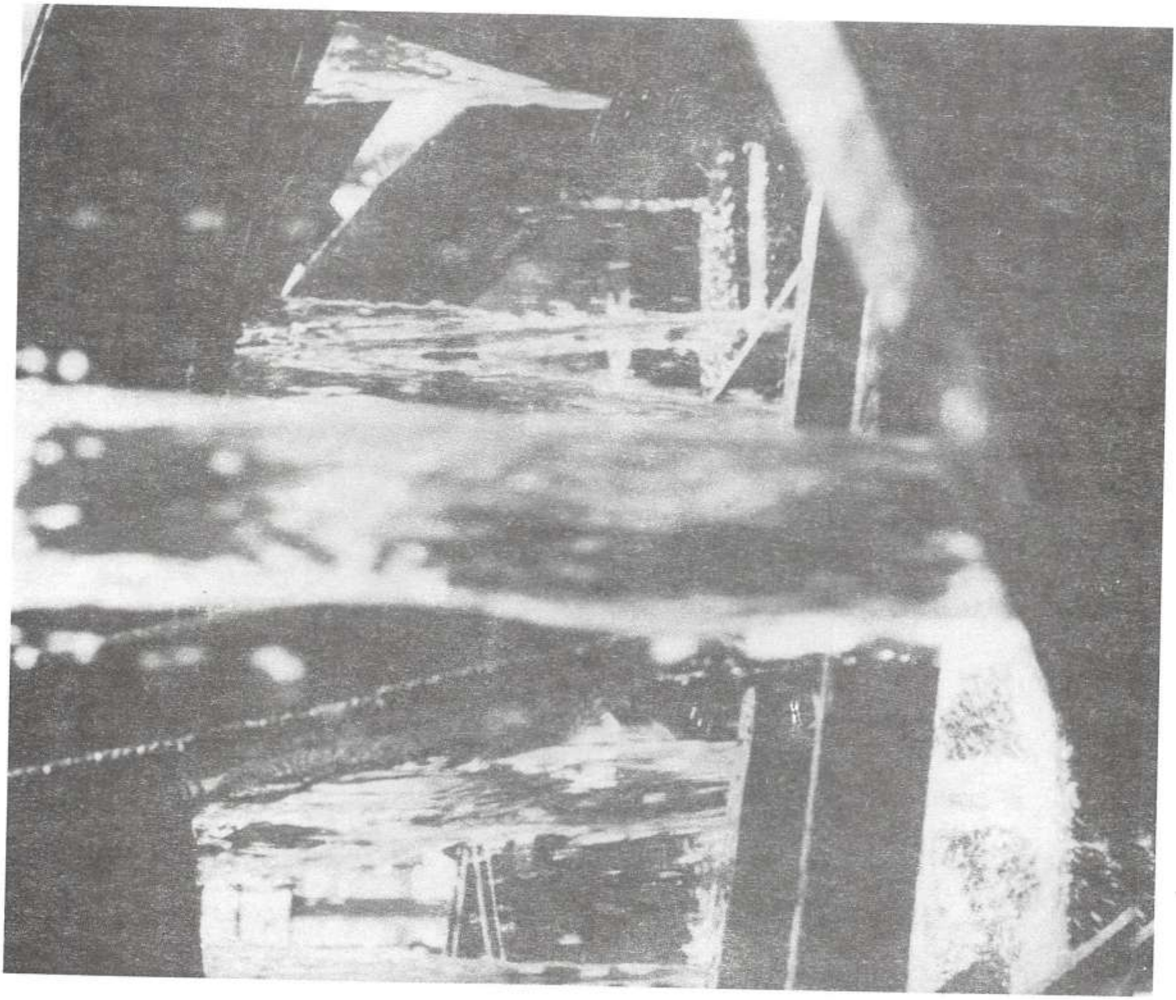

تبدو الضوضاء الصادرة من هذه السواقى كما لو أنها فى حالة من الانسجام والتوافق فهى تصدر لحنا شجيًا، كما لو أنها تود أن تندفع لتبذل جهدا نهائيًا وهى مصممة أن تناضل ضد الكون كله لكى تستمر فى الغناء.

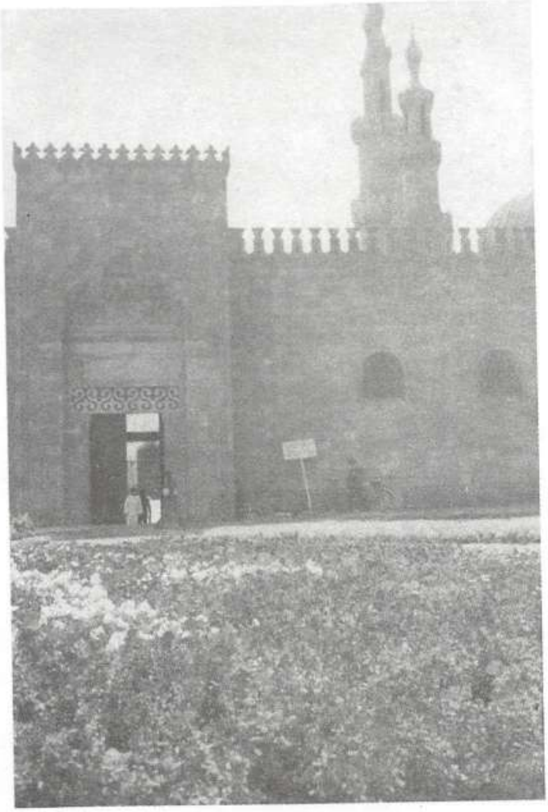

الجامع الأزهر فى القاهرة

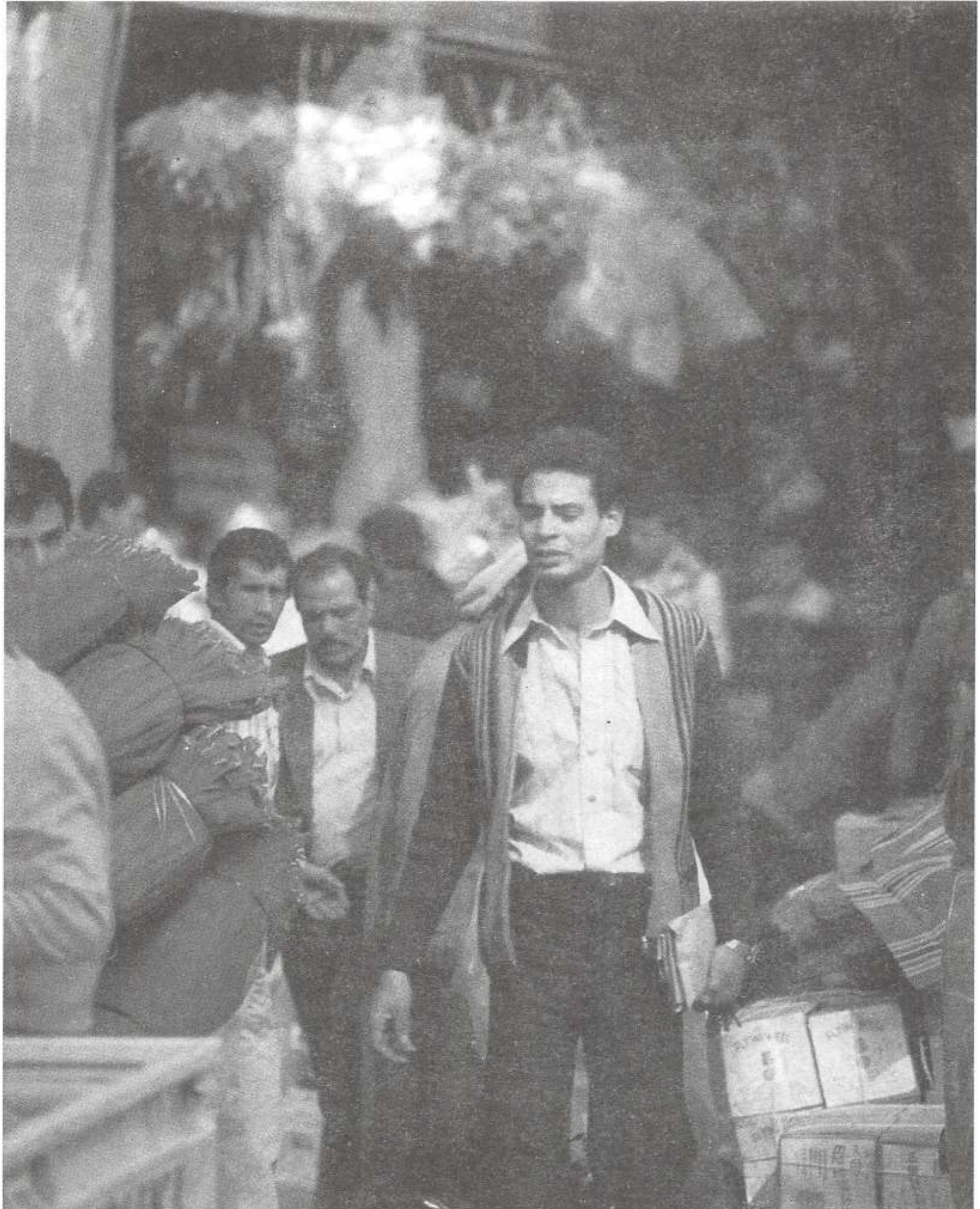

سرنا مع علاء فى عمق القاهرة، كما لو كنا من علماء النبات، وقد توغلنا فى غابات سوسكى لكى نعثر على نبتة لم يكتشفها أحد من قبل.. لذا دخلت المنطقة السياحية الأكثر جذبا للسياح وهى منطقة السوق القديم.

ونحن نخرج من البوابة القديمة، انتقلنا على الفور من قاهرة المعز إلى القاهرة الحديثة، حيث تمتلئ الأتوبيسات بركابها الذين يسرعون لكى يحتلوا مكانا داخلها.

بجوار بئر أم الفواخير . «أخبرنا الولد أن نتجه إلى مكان أبعد، وبدلا من أن نشاهد مناجم الذهب والأكواخ المجاورة نحن نقف الآن نلاحظ النقوش التى لم تكن فى خطتى أن أطلع عليها».

نقوش على الطريق الصحراوى

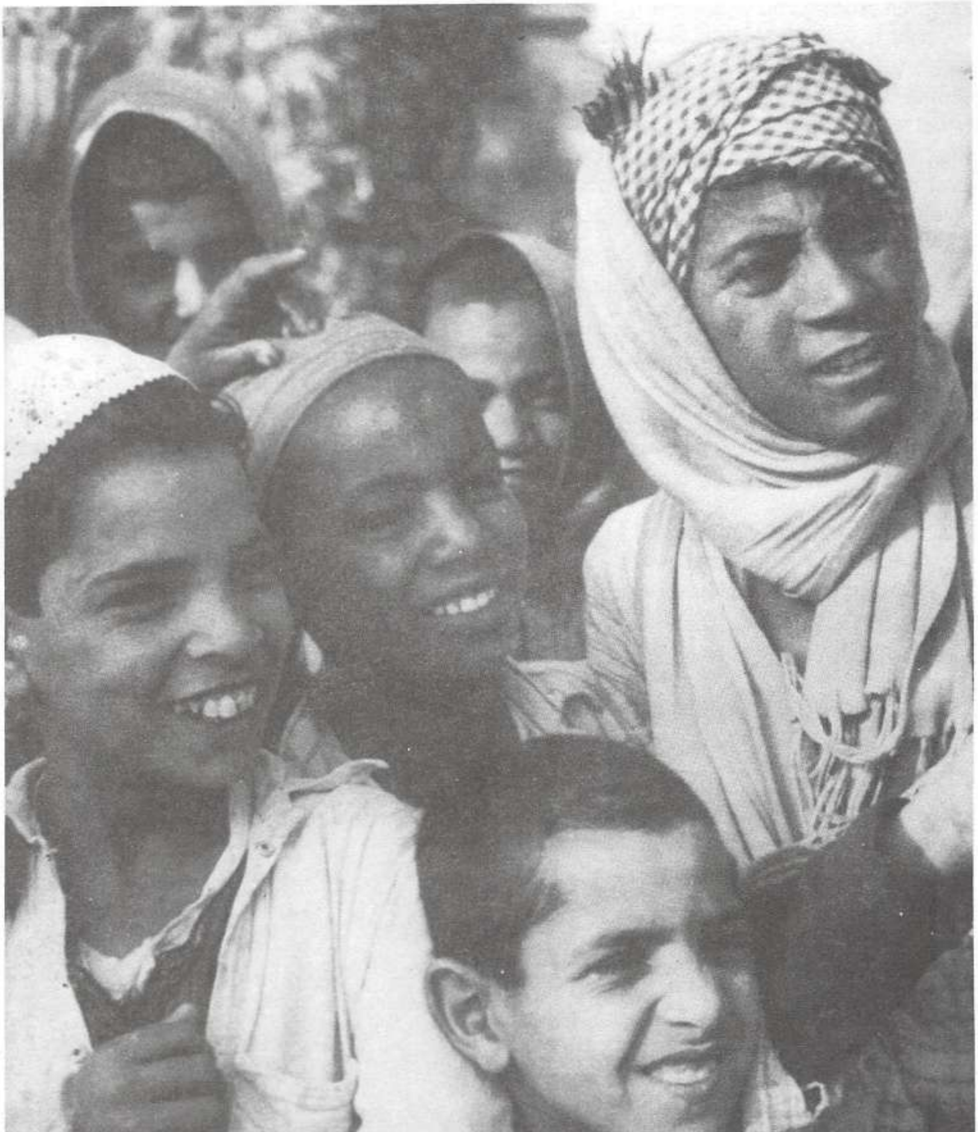

أحد المظاهر قد تدهش السائح الغربى هو أن الأطفال موجودون بكثرة فى كل مكان، وتبدو عليهم مظاهر الصحة، وهكذا الحال مع كل السكان بوجه عام.

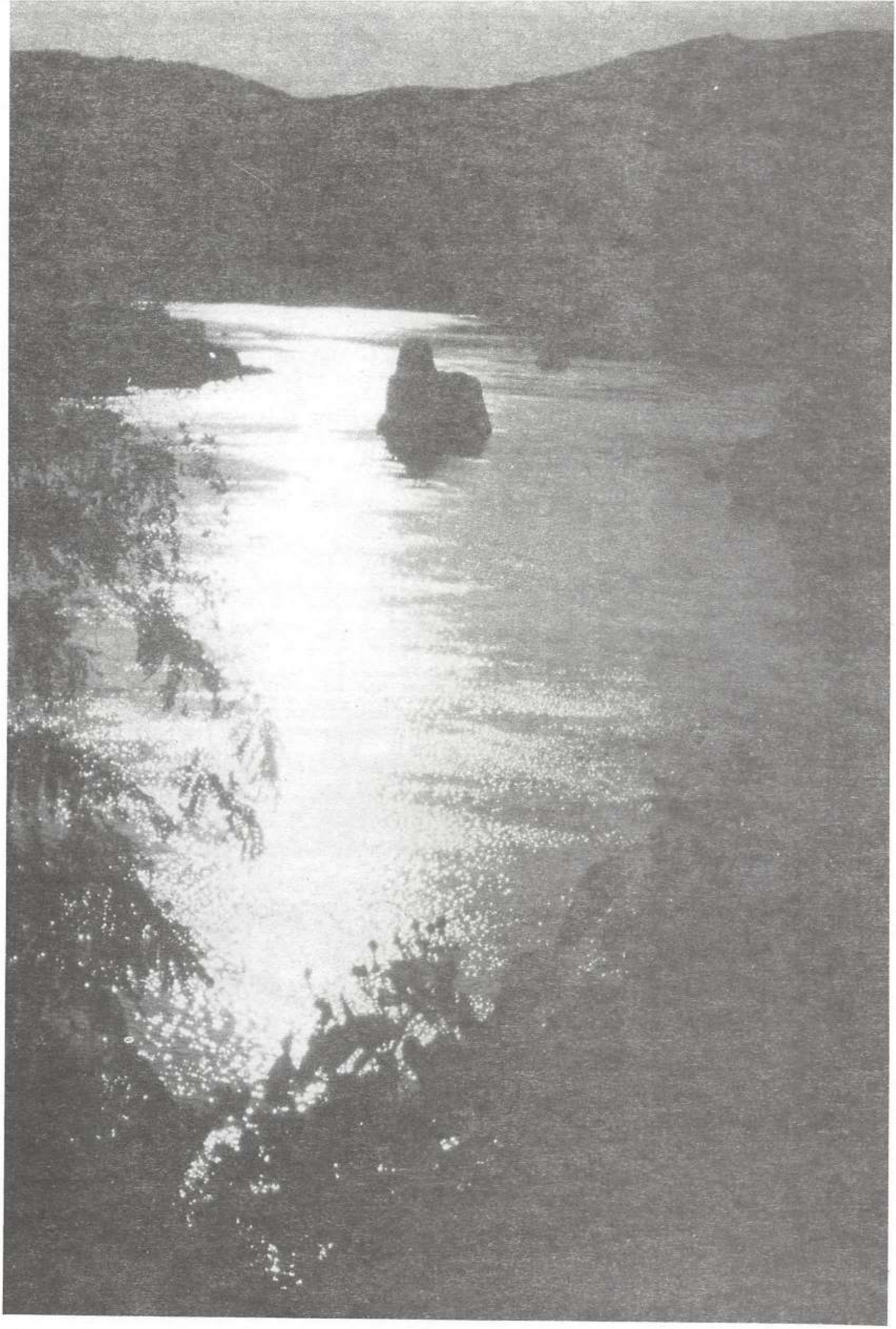

الغسق على صفحة النيل

(١٥)

مرة أخرى، تحرك شاذلى بالمركب الساعة السادسة صباحا. لم تكن تلك حالة طارئة. كان هذا عبارة عن رغبة صادقة من جانبه لكى يصل إلى القاهرة ليبحث عن موعد التحاقه بسفينته السياحية. واضح أن أفراد طاقمنا لم يحوزوا أبدًا على رضائه السامى، وأن استعدادات مركبنا ليست مناسبة لمركزه. يا له من رجل مسكين، هذه الكرامة ذاتها هى التى منعته من أن يتشارك مع باقى أفراد الطاقم فى النوم بكابينة مقدمة السفينة، لذا كان يتفنن فى ابتكار أماكن لينام فيها، أحيانا يلجأ إلى ظهر صندل عند أحد معارفه، أو يستخدم غرفة الضيوف فى أى قرية نكون قد رسونا بالقرب منها، مرة أو مرتين نام فى غرفة القيادة الزجاجية، وهى فى مقاييسها أقصر من طوله، بالتأكيد أحس بضيق شديد وهو نائم مقرفصا داخلها. حتى فى حفلة عيد ميلاد علاء، فضل هو الوحدة على أن يشارك الآخرين مرحهم. لكن مع كل هذا، هو كان القائد الحازم، فهو ليس من النوع الذى من الممكن أن يصادق واحدا من الطاقم ثم يملى عليه أمرا فى اللحظة التالية أو يعنفه، لذا ليس من المستغرب أن تكون رغبته الجامحة هى أن تنتهى تلك الرحلة بأسرع وقت ممكن. الآن ونحن نتحرك جنوب المنيا، كان يصبو بكل ما أوتى من عزم أن يصل سريعا إلى مقره الرئيسى، وهو مقر نادى اليخت بالمعادى جنوب القاهرة. أما نحن الراكبين، فقد كنا نتشوق فعلا إلى التمتع بالحمامات الحقيقية والتمتع بكل ما تقدمه لنا التكنولوجيا الغربية العالية المستوى، ولا سيما التواليتات المريحة الجميلة. قضيت فترة الصباح أسجل بعض نتف المعلومات الغريبة، كنت قد نسيت أن أسجلها فى يومياتى من قبل. سجلت أنه فى يوم من

أيام عطل مركبنا، وكنا نرسو بجوار شاطئ ملىء بالحشائش، أن برز فلاح فجأة ناهضا من وسط الحشائش، كما يبدو أن تلك هى العادة لديهم، ثم قطف بعض الحشائش ولوح بها قائلا إنها بردى، لكن هى بالقطع لم تكن كذلك. لقد شاهدت البردى فى حديقة اختبارات فى سيراكيوز بجزيرة صقلية. أعتقد أن كلمة بردى أصبحت هى الكلمة التى تطلق فى مصر على أى نوع من الحشائش تنمو بجوار النهر. والشىء الغريب الآن هو إطلاق صفة فرعونى على كل شىء قديم عندهم، لدرجة أن هناك نوعًا من النبيذ لم يختمر إلا لمدة أسبوع فقط ويدعى باسم نبيذ الفراعنة!

لا شك أن إغلاق القناطر كان له تأثير بالغ، فبينما نحن نسرع فى الثنية السابقة، لاحظت أن هناك أكتافًا معينة كنت قد تذكرت رؤيتها عندما مررت بها وأنا قادم أولا، لكنى الآن أشاهد محاكاة لما كان يسببه الفيضان القديم حيث أجد أن منسوب الماء قد ارتفع وأصبحت الشواطئ الطينية مختفية، بينما تبرز قمم الحشائش منتصبة فى المياه المنخفضة عن الشاطئ، بينما الجاموس يعوم فى الماء ثم يسير حتى يصل إلى الأرض المرتفعة. هذه الحالة تذكرنا بما كانت عليه أحوال مصر فى السابق، وهى لهفة النهر الموسمية لأنه يمتع مصر بالخير والنماء، لكن هذه الظاهرة لن تتكرر إلا إذا ملأ الغرين كل بحيرة ناصر، ويستطيع الناس أن يشاهدوا ذلك بأعينهم تلك «الظاهرة الجيولوجية» إذا بقى واحد منهم!

كانت هناك أيضا أحداث صغيرة تجرى فى تلك المناطق الريفية التى لا تتغير أحوالها إلا ببطء شديد. فى منطقة معينة، لاحظت أن الحيوانات التى تخدم هنا هى الحمير البيضاء فقط، وهى من النوع المرح، ودائما ما تعقل ساقيها الأماميتين عندما لا تكون محلا للاستخدام. رأيت واحدًا منها فوق ظهره حمل ثقيل وأيضا يعتليه فلاح متوسط الحجم، بينما تمسك امرأته بمقود الجحش. عندما حان وقت المسير، انحنت المرأة وفكت قيود ساقى الحيوان، فما شعر هذا بالحرية حتى قفز إلى الأمام وأخذ يبرطع هنا وهناك بجنون، بينما انقلبت المرأة رأسا على عقب، ثم أسرع الجحش بالركض واختفى داخل حقل من الفول. ثم، كما يحدث كثيرًا، ما إن نظن أن تقدم مركبنا بطيئا، حتى يسرع مركبنا فى مساره، لذا لم نتحقق من باقى قصة الجحش وراكبه المسكين.

وضعت ملاحظة فى يومياتى تعزز مدى تفهمى لتصرف هذا النهر وحركة المرور فيه. فى تلك المنطقة التى تكاد أن تخلو من الأمطار، يكون فيها الهواء جافا، لذا بالتالى يصبح ثقل الهواء خفيفا عند السير بسرعة معينة. لهذا السبب، نجد أن المراكب الشراعية فى النيل تستطيع أن تقطع مسافة أطول بالمقارنة بمثيلتها التى تعمل فى مناطق مشبعة بالبخار. لذا فكرت أنه من الممكن استخدام تلك الأشرعة الممزقة، ليس بسبب الفقر ولكن للتوفير والتدبير. لماذا يجبر المراكبى نفسه أن يستخدم شراعا جيدا فى ذلك الهواء الخفيف، بينما من الممكن أن يحقق المراد بشراع ممزق؟ فكرت من أن هذه النظرية ممكنة بعدما غادرنا البلاد فى بداية الصيف، بينما بدأت هبات رياح الخماسين الواردة من اتجاه الجنوب الغربى. فكرت حينئذ أن حركة السير فى النيل لن تتوقف، لكن سوف يتم تدعيم المراكب بأشرعة جديدة وصحيحة تستطيع أن تتحمل حركة الرياح بدون أن تتعرض للتمزق، فى ذلك الوقت سوف يصخب النهر وترتفع أمواجه وسوف تحتاج العبارات إلى ارتفاع أكثر من البوصة التى تفصلها عادة عن المياه.!

الفكرة العامة عن النيل - لا - أقصد تصوراتى المسبقة كانت هى، أن قاع النيل هو طينى. لماذا لا يكون هكذا بعد تلك الدهور الطويلة التى تعرض فيها لعدد هائل من الفيضانات السنوية المشبعة بالغرين؟ لقد كنت على خطأ فادح. فأينما شاهدت مراكبيا وهو يدفع بعصى طويلة قاربه ليصل إلى الشاطئ أو حتى وهو يفعل ذلك فى منتصف النهر، ألاحظ أنه يدفع فى وسط أكثر قسوة من الطين. مرة، عندما نفد منا الوقود وسحبنا التيار، رأيت بعينى فى منطقة ما فى عرض النيل القاع بلونه الفاتح يرتفع بشكل قبيح حتى وصل إلى مدى قدم أو أقل. فى الحقيقة، من خلال الماء الصابونى للنيل، لم أستطع أن أشاهد كل تفاصيله. مرة أخرى، وهذا ما تعلمناه من تجاربنا المريرة، لا ينزلق القارب الذى يخبط فى القاع حتى يقف مكانه، لكن هو يصطدم بعنف، بل وقد تتكرر الخبطات عدة مرات. ربما فى السنوات التى كان الغرين يرد مع الفيضانات السنوية، أن كان القاع مغطى بطبقة من الطين، لكن حتى مع استمرار ورود هذا الغرين، فإن التيار الذى يعمل خلال مجرى ضيق نوعا بسبب الضبط الذى يتم بواسطة السد العالى

بحيث يجرى الماء سريعا، فهذا بالطبع يؤدى إلى تشتت الطمى. يبدو أن قاع النيل فى هذه المنطقة بالذات قاسيا. ليس هو قاعا صخريا، لكن ربما يكون عبارة عن تجمعات ضخمة من الحصى أو الرمل أو الأحجار التى تجمعت على بعضها وشكلت جسما متماسكا وبذلك يصعب الأمر على المراكبى أن يضع مرساه فى وسط النهر، وهذا ما لم نشاهده يحدث أبداً. نجد مثلا أن الهلب الذى استعاره شاذلى من السفينة السياحية كان يستخدم فقط للرسو على الشاطئ لكنه لا يهبط إلى الماء ذاته. على أية حال، يقع الشاطئ على بعد نصف ميل على الأكثر، وإذا حصل لك عطل ما، فسوف يقوم الريح أو حركة التيار بمساعدتك، طبعا لا تنسى المساعدات التى قد تنالها من صندل مار بالصدفة بجوارك أو المساعدة التى تنالها من قرصان شهم.

كان ذلك الصباح يمتاز بالتنوع، فعندما تغيب ذاكرتى عن العمل، كنت أطيل التفكير فيما يفصل بين التوقعات وواقع الأحوال. لقد دلنى الإحساس السليم على أنه إذا تطابق الاثنان، فما كان حريا بى أن أقوم بهذه الرحلة على الإطلاق، كان من الممكن لى أن أكتب كتابى هذا بدون أن أغادر منزلى. من جانب آخر، هو أمر جدير بأن نختلف بشأنه، أننى رضيت أن أحبس نفسى داخل مركب بدلا من أن أنطلق حرا أفعل ما أشاء، ثم أضطر إلى أن أزحف مئات الأميال خلال هذا الخندق المائى ذهابا وإيابا، بينما ألاحظ مصر كلها وقد تضاءلت إلى شاطئين عاليين يتعذر فى معظم الأحيان أن أشاهد بسببها شيئا. أيضا أعيب على نفسى أننى لم أحاول أن أتعلم لغة أهل البلاد، ولم أتقن سوى القليل من كلماتها، لذا فقد كنت مضطرا إلى أن أحصل على معلومات منمقة من الآخرين ليست بالضرورة حقيقية. فى الواقع، اكتسبت جبهتى بعضًا من اللون البرونزى المحبب للنفس، وأصبحت جريئا بقدر بحيث أمكننى أن أطرح الأسئلة بكل جراة، كذلك أستطيع الآن أن أنظر فى عين أفراد الطاقم بدلا من ان أوزع ابتساماتى باضطراب تجاههم مدركا موقفى الشاذ عندما رضيت أن لا يكون لى أى قدر من السلطة، أو بالأصح أجبرت على ذلك. ربما، كما فكرت، وأنا عائد الآن إلى ركوب

السيارات، تلك التى تعتبر موطنا وملاذا للرجل الغربى - سوف تصبح الأمور جد مختلفة.

رجعنا مرة أخرى إلى بلاد الطوب الأحمر، حيث تبرز مداخن حرق الطوب ويتراكم الطوب ويتكوم بجوار شاطئ النهر، حيث ينتظر الصنادل حتى تنقله إلى مختلف الجهات. شىء مزعج أن تشاهد الأرض الطيبة وقد تحولت إلى طوب أحمر، وكيف تكاثفت وتكاثرت تلك المبانى ذات الزوايا الغريبة. أظن الآن أننى قد تلمست حقيقة المشكلة الرئيسية فى مصر، إنها خاصية الإهمال، معلش، لا تألوا جهدًا حتى تكمل عملك، لأن هذا أمر صعب، وحتى إذا لم يتم، فلا بأس عليك، لا تشغل بالك، الموضوع كله لا يهم.

أشك فى أن نوعية الطوب التى وعدنا بها السكرتير العام، سوف ترى النور، وهو الطوب الذى أخبرنا أنه سوف يصنع من تراب أو طين الصحراء، أما بالنسبة للقباب الطينية مثلا، فلا أعتقد أن أحدًا سوف ينفذها، ولم يفعلها سوى ذلك الطائر الوحيد، حسن فتحى - هل هناك آخرون؟ لا أحد يهتم.

كان هو الوقت الذى وصلتنى فيه الأخبار بأن تواليت أفراد الطاقم قد امتلأ حتى آخره، لهذا انتظروا أن يرسو بالمركب على الشاطئ الغربى بجوار ساحة لصنع الطوب الأحمر. ثم أنزلوا الهلب سريعا على الشاطئ وتسلل أفراد الطاقم واحدا بعد الآخر، كلهم بملابسهم الغريبة التى تتناسب مع أجواء العاصمة التى اقتربنا نحوها، ما عدا شاذلى، ثم أخذوا يبحثون هنا وهناك باحثين عن ساتر. أما شاذلى، فإنه بكل بساطة أقعى على الأرض وظهره للمركب ثم نشر جلابيبه حوله، وقعد يؤدى حكم الطبيعة بكل ارتياح وتمزج. لاحظت أننى لم أحقق الراحة لباقى أفراد الطاقم لأننى كنت أحدق فى ساحة صناعة الطوب من نافذتى، لكنى أخيرا انسحبت وأنا أضرب جبهتى براحة يدى، بينما حاولت زوجتى أن تسرى عنى بكلمات لطيفة، قائلة، لماذا تخبط على جبهتك، هذا هو المكان الذى يستقبل عليه الناس ضربات بمطارق الحديد، وأنت تفعل ذلك وأنت تفعل بمركب؟.

فى الواقع، أنا كنت أفكر فى موضوع آخر، الآن أصبحت البهنسا خلفنا، فهل أخف لزيارتها؟ أم معلش!

عاد أفراد الطاقم وقد ارتسمت أمارات الراحة على وجوههم بأكثر مما كان حالهم وقت ذهابهم. ثم قاموا ببسط غطاء فى منتصف الكابينة استعدادا للإفطار، لقد اكتشفت أنها وجبة عادة ما تقدم فى مصر فى وقت متأخر، كان سيد فى منطقة المطبخ، إذن ما الذى أرغب أن يقدمه لنا؟

عرفت أنه إذا طلبت بيضا وسجقًا، فهذا كأننى أطلب القمر، استطعت بلغتى العربية المطبخية أن أتساءل عما إذا كان فى الإمكان أن نحصل على قهوة وعيش وزبد ومربى المارملاد. لكن للأسف، لا توجد المربى المارملاد، فهى كانت المفضلة عند الطاقم. أيضا لا توجد المربى العادية. لكن أنا لا أعرف الكلمة العربية التى تعنى عسل النحل، لذا قمت بوضع أصابعى فى أذنى وحركت أصابعى سريعا وأنا أقلد صوت طنين النحل. ظهرت ملامح الدهشة على وجه سيد لوهلة، ثم انفجر ضاحكا. فى الحقيقة، أصبح هو ذاك النوبى الذى استمع إلى نكتة بارعة وأثرت تماما فى جسده وروحه. أخذ يغرق فى الضحك حتى طفرت عيناه بالدموع من مآقيه وسالت على وجهه الأسمر. عدت إلى كابينتى متعجبا عما سوف يلحق بنا لاحقا. بعد لحظات سمعت طرقا خفيفا على الباب. إنه سيد يحمل إفطارنا وما زالت البسمة مرتسمة على وجهه؛ لكن بشكل إعجازى لاحظت أنه وسط أكوام العيش العربى كان هناك طبق صغير بداخله عسل النحل.

لذلك، ونحن نزدرد الخبز والقهوة مع عسل النحل، عبرنا محاجر طرة وأخذنا نراقب ضواحى القاهرة القبيحة وهى تترى أمام عيوننا وقد غصت بالعمال الغادين والذاهبين، كان هذا مرغوبا لكنه لا يسر القلب، أو بالأصح لا يدعو للبهجة وإن كان مرغوبا.

علمت الآن لماذا فاتنى أن أزور البهنسا عندما أتيحت الفرصة، فأقرب مدينة لهذا الموقع هى مدينة بنى مزار وهى تبعد حوالى عشرة أميال من النهر. هذه الأميال ما كانت تهم إذا كنا قد استأجرنا سيارة أجرة، فهناك طريق سالك. لكن

علاء، الذى لم أسر له برغبتى الجامحة تلك من قبل وأنى أود أن أزور مكانا ليست به شىء يمكن أن نشاهده، طلب من شاذلى أن نرسو بعيدا عن مركز شرطة المسطحات المائية! لذلك لم تتوافق الأمور لمصلحتى. معلش. معلش، الأفضل أن أبحث عن تلك السلة الموعودة وسوف أعثر عليها فى خيالى.

انشغلت أنا وزوجتى فى توضيب حوائجنا، ووضعنا فى سلة المهملات عددًا من الكتب الجيدة السيئة، كذلك كتابان آخران وفى منتهى السوء، ثم أخذت الرأسين اللتين اشتريتهما من كشك المنيا السياحى ووضعتهما ضمن الزجاجات الفارغة والعلب فى المطبخ. لم أشأ أن ألقى بهما فى النيل، أيضا هما ثقيلان ويصعب أن أصطحبهما معى فى الطائرة بينما نحن فى أمس الحاجة إلى الأماكن الفارغة فى حقائبنا.

وصلنا إلى المعادى ظهرا، قمت بجولة فى المركب ومنحت كل فرد من أفراد الطاقم مبلغا من المال كهدايا، طالما أنه ليس معنا شىء آخر غير ذلك لنقدمه لهم. كانوا جميعا ودودين وآسفين لمغادرتنا، عبروا أيضا عن استعدادهم أن يرافقونا فى المرة القادمة. فجأة أمسك سيد بكلتا يدىّ وقال بكل جد: مشاكلى مع الإنجليز انقضت من زمان.

انتظرنا حضور صاحب المركب وهو الدكتور حمدى. عندما حضر درت به ليطلع على عيوب ومزايا مركبه، ولعل هذا كان مفيدا له، فالطريقة المثلى لمعرفة ما يحتاجه مركب ما هو أن تحركه لمسافات طويلة، وهذا ما أعتقد أننا قد فعلناه، ثم تم تدبير موضوع المواصلات حتى الفندق، وقد تبرع بذلك واحد من أهل علاء العديدين. قادت بنا السيارة ساعة الذروة فى القاهرة والتى ليس لها أية علاقة بإيقاع النيل، أو أى إيقاع آخر. فى القاهرة، إذا أردت أن تظل على قيد الحياة عليك إذن أن تتصرف بجنون مثل الآخرين.

أى إنسان قضى شهرًا أو أكثر داخل مركب، ثم فض حقيبة هدومه سوف يكتشف الحقيقة. عندما تعيش بعيدا عن حقائبك يتعذر عليك أن تتعرف على ما هو فى حاجة للغسيل والتنظيف، وينتهى بك الأمر إلى أن تضع كل ما يقع عليه

بصرك فى كيس الهدوم المحتاجة للغسيل، متمنيا أن ما بقى معك من غيارات سوف يكفيك حتى تصل إلى مقصدك. بالطبع، هنا فى مصر، لا يستغرق موضوع الغسيل زمنا طويلا، وإذا كان الممارسون لهذا الفن العتيق يعرفون مقدار إمكانيات التأجيل المرتبطة بهذه العملية، إذن فهم بلا شك سوف يعثرون على مبررات مقنعة لفعل ذلك، لكن هم لحسن الحظ لا يفعلون هكذا. فهناك دائما تلك الشمس القوية، لذا فالغسيل المتكرر هو أمر طبيعى بالنسبة لهم، ويشبه فى ذلك ضرورة توفير عدد مناسب من مظلات المطر فى بلادنا. حتى مع ذلك، فإن الفنادق الكبرى، بغض النظر عن سمعة بعضها العالمية، دائما ما تزيد من الفترة بشكل اصطناعى، بينما يستطيع الفلاح وزوجته إنجاز غسيلهم أسرع من آلة الغسيل بالبخار. أشعر دائما بالدهشة تكتنفنى عندما أشعر ببهجة النظافة، فإن تلك التفصيلات المعضلة المتعلقة بالنظافة التى ألقتها الحضارة الحديثة على كاهلنا، ليست فقط تستلزم تكرارا مملا، لكن هى أيضا غير طبيعية. لكنى لن أذهب بعيدا وأقف فى صف الدكتور جونسون الذى صرح بأنه لا يكن حبا جما للملاءات النظيفة، لكنى أنا كذلك. مثلا، أجد نفسى غير متفهم إطلاقا لتلك الإعلانات التى تنبهك على ضرورة الحفاظ على زيوت الجسد الطبيعية، بينما هى من جانب آخر تصر فى إعلاناتها على ضرورة الاستحمام المتكرر يوميا! على أية حال، الجسد البشرى، وأى جسد آخر هو عبارة عن قارة متسعة تعربد فيها قبائل متحاربة من غزاة ومدافعين وكائنات طفيلية، يسرحون جميعا هنا وهناك بلا مانع ولا أحد يشاهدهم لضآلة حجمهم، يتكالبون على جسدك وهمهم الأكبر هو منفعتهم الخاصة، لذا يستحيل على المرء أن يطالب بالنقاء الخالص.

لذا فيما يتعلق بملابسى الداخلية: أظن أن ملابسى صالحة لأن أرتديها طالما أننى لم أشم لها رائحة. يشعرنى هذا بالحرية والانطلاق ونحن ننقل حوائجنا من المركب إلى الشاطئ، ويبدو أنه من الملائم أن نتفاعل مع القاهرة كمكان معين سوف نتعرف عليه، فنحن على أية حال، قد رسونا فى أحضانها.

سوف نقضى بقية اليوم، وما قدم لى فى المركب وعلى الشاطئ، لنعثر على بعض الملاحظات التى تعتبر جديدة ومثيرة وتسر القادمين إلى هذا البلد على

وجه الخصوص. لسوء الحظ، لقد تم إنهاك القاهرة عاما بعد آخر، لذا أنا وعلاء قررنا أن نطرق أكثر المناطق عمقا فى القاهرة، نفعل مثلما يتصرف عالم النبات الهاوى الذى يذهب إلى غابات سوسكس أملا فى العثور على نوع نادر من النباتات لم يكتشفه أحد من قبل. لذا ذهبنا أولا إلى اهم منطقة يقصدها السياح، وهى منطقة السوق (البازار). شربنا هناك الشاى فى حارة يعرفها جميع السائحين. الفرق الوحيد هو أننا كنا السياح الوحيدين فى المكان. جلسنا نستمع إلى امرأة عجوز غير عادية تتحدث إلى نفر من الشباب المصرى المهتمين بمتابعة حديثها المتدفق. كانوا بين حين وآخر يبتسمون ويقهقهون. هذه السيدة كانت ترتدى الملابس المعتادة لكن وجهها غير مغطى.

همست لعلاء: ما الموضوع؟

كان يبدو على وجهه الارتياك، كنت متأكدا أننا وقعنا على أحد الأنشطة الثورية أو ما يوازيها فى مصر، نشاط له صلة بالحركة النسوية.

لماذا لا تتكلم يا علاء... هل هى تهاجم الحكومة؟

أنا لا أفهم ما تقوله.

هذا باللغة العربية، أليس كذلك؟

تجهم قليلا، وبان على وجهه عدم الرضى، قال: إنها تروى قصصًا بذيئة.

انفجر المستمعون من الشباب فى ضحك صاخب، ثم استمعوا بلهفة لتكملة حديثها.

أخذت أحدق النظر فى شهرزاد التى لا أفهم منها كلمة. كانت، كما أعتقد، فى الستين من عمرها وتتحلى بمجوهرات كثيفة، خواتم وأساور وخلاخيل، أيضا حلقيان يتدليان من وراء الطرحة. إذا لم تكن تلك المجوهرات مزيفة، إذن فقيمتها خرافية، كانت هى تلك المرة الثانية التى أشاهد فيها امرأة تلبس حجلا فى ساقيها. ثم وجدتها حالا وقد وقفت من جلستها وغادرت المكان، فتبعثر الشباب المستمع.

من فضلك، قدم لى تفسيرا مقنعا.

الموضوع فى غاية التعقيد.

شربنا الشاى. كانت الساحة ما زالت خالية من السياح، اقترحت أن أفضل ما يمكن أن نفعله الآن هو أن نغادر هذه المنطقة ونتجه إلى منطقة فقيرة لنلقى نظرة عليها. وافق علاء وقادنا إلى حارة جانبية على بعد ياردات من الأولى، ليست مضاءة سوى بنور فرجة من السماء. كانت تلك الحارة مرصوفة بالأحجار وليس لها منافذ أخرى، وتتكون فى معظمها من جدران عارية، أما الفتحات الصغيرة الموجودة، فإنها تقود إلى مساحة صغيرة على شكل قبو تدار فيه أعمال صناعية يدوية مختلفة. فى واحد منها كان أحد الصناع يملأ فراغات صغيرة بالمعدن. فى آخر، كان هناك اثنان يمملان فوق كومة من جلد الجمال. فى ثالث، هناك رجل يعمل على مخرطة. أثناء مرورنا، كان الرجال يتحدثون مع علاء. عندما وصلنا إلى نهاية الحارة سألت علاء عما نطقوا به.

على وجه العموم، جميعهم قالوا بأنه ما كان يجب أن أحضركم إلى هنا. لكن كيف أعبر لكم عن ذلك، أنا بعملى هذا أشوه منظر القاهرة. كان واجبا أن أحتفظ بكما فى الحارة الأولى.

حيث كانت المرأة العجوز جالسة، أليس كذلك؟

نعم.

لكنى أنا أفضل هذه الحارة عن الأولى.

هز علاء رأسه وهو بوجوم: وأنا أعتقد كذلك.

عدنا إلى منطقة السياح مرة أخرى وعبرناها إلى الجانب الآخر. فى مكان ما أو فى غيره، تذكرت أننى قرأت يوما أن خبراء الآثار قرروا، ربما بدافع "الفكاهة" كما هو متوقع منهم، أنه طالما من الممكن أن نميز عصور الحضارات المختلفة من تفحص نوعية الفخار والأوانى الطينية التى يتم اكتشافها، لذا يمكنهم وهو فى إنجلترا أن يحددوا أن تلك الآنية هى من الزمن الفكتورى إذا كان مرسوما عليها شكل ورقة الصفصاف باللون الأزرق والأبيض على حواف الإناء.

يا علاء، إذا تكفلت يوما أن تصاحب عددا من السياح الجهلاء حول مدينتكم هذه أو أى مدينة أخرى، أود هنا أن أعطيك معلومة جديدة يمكن بها أن تسعدهم، وتجعلهم مقدرين بسبب قيامك برفع البرقع الذى يمنع السائح من تلمس الحياة الحقيقية. أى مكان تشاهد فيه رأس نفرتيتى، إذن أنت فى منطقة سياحية. إذا لم تر الرأس، إذن أنت فى منطقة عادية. الأكثر من ذلك، يمكن أن تقترح على السائح أنه إذا عثر على واحدة من تلك الرءوس لنفرتيتى وبه عينها الضائعة، أو ربما أنا، إذن سوف أبرز له عشرة جنيهات إذا بدا عليه أنه مستعد للتنازل عنه.

أضافت آن: فى نفس الوقت، ألم ينتبه كلاكما إلى الفرق الواضح ما بين المدينة ومنطقة السياح؟ إنها تبدو شاخصة أمام أعينكم.

أخذت أدير رأسى مستطلعا، أيضا فعل علاء، كان واضحا أن كل من حولنا ليسوا من السياح، وهذا كل ما فى الأمر.

غلب حمارى.

قالت: كم عدد النسوة اللاتى شوهدوا فى منطقة السياح؟

كان هذا حقيقيًا، نحن لم نر سوى السيدة العجوز وغيرها لم نشاهد، لكن هنا، وليس على بعد أكثر من مائة ياردة، عدد النسوة أكثر من الرجال. نحن فعلا كنا نجمع معلومات فريدة، وإن كانت بلا فائدة تذكر. قلت لنفسى، ثم عبرت عن ذلك بصوت عال لعلاء لقد تحققنا من وصلة مهمة!

ما رأيكم الآن فى كل ما يوضح جزالة اللغة، وقدرتها على رسم التعبير الدقيق، الشافى العافى، المغرق فى الموضوعية؟. وقفنا عند ركن الشارع نضحك على خصوصية الكلمات التى يمكن أن تغير وتوضح موقفا معينا وتؤكد فى نفس الوقت أنها أعطت لهذا الموقف أهميته التى يستحقها. كنا سعداء للغاية بتلك "الوصلة"! هناك جلس الرجال ببشرتهم الزيتونية وقد ارتدوا ملابسهم الأوروبية، هنا أيضا تجمعت النسوة يفاصلن فى أسعار الملابس الرخيصة التى تباع وتشترى، كن منشغلات، وأكثر مشغولية من اللاتى كنا نشاهدهن على ضفة النهر

وهن تحت جرارهن التى تلمع فى ضياء الشمس. أيضا ملابس هؤلاء لم تكن مبهرجة فى اللون كملابس الفلاحات، فهى ذات لون بنى أو أسود وربما لون أخضر فاقع. مع ذلك، كان هناك عدد من الفتيات الصغيرات وقد شققن طريقهن وسط الجمع وقد ارتدين أحدث الموضات الحديثة الغربية، جونلاتهن ربما تصل حتى أعلى سمانة الساق، وجوههن مكشوفة لكنها خالية من استخدام المساحيق الواضحة، حتى العيون أيضا غير محددة بالكحل. بعضهن ارتدين طرحة شفافة لكنها لا تخفى الشعر كله، إنها تبدو كنوع من التمييز عن الأخريات.

سألت علاء عن هذا الموضوع، أجاب:

«هذا حقيقى، يعنى أنهن قد قبلن التعاليم الإسلامية ورضوا بأحكامه لكن بالمفهوم المصرى الذى يميل إلى الوسطية».

أتينا بعد ذلك إلى بوابة ضخمة عتيقة، ولن أتذكر اسمها حتى ولو نطقت أمامى عدة مرات، هناك مبنى ظريف داخلها، لكنه ليس قيد الاستخدام حاليا، قيل لى إنه كان سبيلا للمياه، فعندما كانت القاهرة داخل حدود هذه الأسوار وتلك البوابة، تم إنشاء هذا السبيل بحيث يستطيع القادمون من سفر أن يتوقفوا هنا ويشربوا الماء. تلك كانت أيضا علامة من علامات التحضر التى قدمت الكثير لأوروبا، لولا تلك المنازعات البائسة بسبب اختلاف المصالح والاعتقادات، داخل هذه البوابة يوجد مسجد أيضا. خلعنا أحذيتنا ودخلنا، حملقنا بعيوننا إلى أعلى المكان حيث ينتصب برج رائع تتدلى منه ثريا هائلة بعناقيدها المدلاة التى تشبه فروع شجرة متكاثفة فى غابة استوائية. أخذنا بعد ذلك نفحص البوابة ذاتها، لكننا رفضنا دعوة أن نتسلق حوائطها العليا.

خارج هذه البوابة انتقلنا فورا من القرون الوسطى إلى العصور الحديثة، حيث الازدحام والتدافع بين الجماهير المحتشدة لكى يلحقوا ركوب الأتوبيسات. دلفنا بعد ذلك إلى نوع من الأنفاق العالية بين عدد من البيوت ذات الجدران الخشبية، حيث يشغل الدور الأرضى محلات صغيرة مفتوحة. كان المكان شبه مظلم وهادئ، فيه يستطيع الفرد أن يزيح عن كاهله متاعب القدمين. دخلت زوجتى إلى محل

يصنعون فيه أغطية الوسائد وانشغلت بموضوع تطريز المناديل، بينما تجولت خارجا. شهدت فى آخر الممر بطانية معلقة خارج محل ومرسوم عليها رأس ضخم للملكة نفرتيتى، أخذت أقنع نفسى بأن الموضوع ليس إلا أنه نوع من الرياضة، وهو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة، ممثلا لمعايير ثقافية متعاقبة ومتوارثة.

كنا فى حاجة إلى خدمات تواليت، لذا عثر لنا علاء على واحد فى فنادق الدرجة الثالثة، وطبقا للمعايير السياحية، ربما ينعت الغريب هذا المكان بأنه مكان قذر وغير مناسب أبدًا ، لكنه فى الواقع لم يكن كذلك، أو على الأقل لم يكن أكثر سوءا من أى تواليت موجود فى فندق من الدرجة الثالثة. لكن أكثر ما أزعجنى هو الموسيقى المصرية، التى تحولت لتصبح نوعًا من الإزعاج المستمر بسبب استخدام مكبرات الصوت، التى أعتبرها لعنة المجتمعات الكهربائية. أكثر من ذلك، تجد أن المصريين مغرمون بالصوت العالى والضوضاء المزعجة وأن يكون الصوت عند حده الأعلى. مع ذلك، تجد أن كل المعدات الحديثة التى يمكن أن تحصل عليها بالأسعار المرتفعة، دائما ما تميل إلى تقدير الهدوء والرومانسية. فى القاهرة، يمكنك أن تحصل على قدر من الهدوء وتتمتع بالصمت هو أن تدخل إلى جامع، لكن بالطبع أنت مضطر إلى أن تخلع نعليك!

تحدث إلينا علاء رافعًا صوته لعلنا نسمع من خليل تلك الموسيقى الصاخبة. أخبرنا أن هناك "وصلة" أخرى لم نختبرها بعد، وهى منطقة بعيدة عالية، يسكنها مستأجرون لا يتكسبون إلا القليل، هناك هم يفتقدون الحياة الاجتماعية التى هى من أهم صفات المصريين التى يحافظون عليها دوما، حيث يستطيع كل فرد أن يحدد ويجدد نفسه وكيانه، حتى وإن لم يكن معجبا بهذا الكيان. أجبته بأننا نرحب بزيارة هذا المكان لكى نتفهم ما نتحدث عنه بالمفهوم القاهرى، على الرغم من ذلك، ليس هذا ضروريا بشكل عاجل، فتلك المدينة الضخمة كفيلة بأن تفصح عن كل مكنوناتها وما شرحته لنا.

هناك جزء آخر من المدينة لم أشأ أبدًا أن أراه، لأننى رأيته من قبل، ومرة واحدة تكفى تماما. فتدفق الفلاحين الكثيف على العاصمة قد أرهقها وأصبحت أماكن الإقامة لهذه الأعداد الزائدة نادرة الوجود، لذا تجد أن هناك عشرات

الآلاف من البشر لم يجدوا ملاذا للسكن سوى مقابر المسلمين. لكن عندما شرحت هذا الأمر لعلاء، أخبرنى أن الموضوع ليس بهذا السوء الذى أتخيله، وإن كان هذا فى حد ذاته من غرائب الأمور. فكرت، عندما شاهدت الأولاد يلعبون كرة القدم بين أحواش المقابر. من الضرورى بالطبع أن يكون أديم هذه الأرض كلها خليطًا من الرمل وبعضًا من الجثث المتحللة. لكن الأمر لم يكن كذلك، فالمقابر محفورة أسفل الأرض حيث ترقد جثة الملك أو الفقير ملفوفة فى الأكفان على الأرض "حيث يعود التراب إلى التراب..."

لذا نجد أن الفقراء استطاعوا تحويل هذه الأحواش إلى مساكن معقولة، يسكنها الحراس وحافرو القبور ومن يصلون على الموتى وغيرهم. فكرت أنه لا يلزمنا إطلاقا أن نزور تلك المقابر بل من الممكن أن نمر خلالها بالسيارة فقط.

بعد قليل من التجول، ذهبنا إلى مطعم، هو له اسم مشهور، لكنى لا أتذكره الآن، يبدو كأنه كله مبنى من خشب البامبو، إذا كان هذا يساعد فى معرفة اسمه. طلبت طبقا من الخضار، آملا أن لا يكون به أى نوع من اللحوم، لكن عندما حضر الطبق وجدت أن خمسين فى المائة منه عبارة عن قطع من اللحم. هذا أزعجنى للغاية. مع ذلك، كان المكان مريحا وأنيقا بالمقاييس القاهرية.

يجب أن أضيف هنا بأن القاهرة تشبه القرية المصرية، على الأقل فى محدد معين. يتلخص ذلك فى عدم الانتظام فى أعلى درجاته. لا أعنى بذلك تلك المهملات المتراكمة فى الشوارع (على الرغم من كثافة وجودها) ولا أعنى القذارة. أعنى أن الشوارع الضيقة التى ما بين شارعين واسعين، تجدها دائمة مليئة بالمخلفات، كما لو أن هناك مبنى فيها قد انهار؛ وعندما تستفسر، تكتشف أن هذا ما حدث بالفعل، فكما هو الحال فى روما القديمة، هى حالة متكررة ولا يهتم بها أحد إلا من أضير بسببها أو المهتمين بوقوع هذه الحوادث. تسير وسط أكوام من مخلفات البناء، وقطع من البلاط، وعلب كرتون، وصفائح مختلفة وأشياء أخرى متنوعة تعطى مظهرا يوحى بالقذارة، إن لم تكن هى كذلك بالفعل. إنها مخلفات، ذلك موضوع مختلف، فالقذارة فى القاهرة لها مظهر معين، أما فى القرى فهى ناتجة عن عيوب غير معروفة. هم مثلا لا يتمتعون بنظام للصرف

الصحى، بينما يتوفر للعاصمة ذلك. القاهرة هى مدينة قديمة صممت لتعيش كمدينة صغيرة تتآكل تدريجيا، فى أى شارع فيها سوف تجد تجمع مائى حول غطاء مستدير، إنه ليس سوى مدخل للصرف الصحى.

نقص نظم الصرف الصحى فى القرى، ثم استخدام حفر عميقة فى الأرض يمكن أن يجعل القرية غير النظيفة مهندمة ونظيفة؛ كذلك فإن استخدام نظام صرف تنقصه الكفاءة فى القاهرة من شأنه أن يجلب الخراب إليها، ويؤدى إلى انفجار كوارث، والقصص التى تروى ـ وأرجو أن تكون خيالية- مرة ومرعبة.

وأنا أتأمل فى كل هذه الأمور، ويتمعن فيها رجل قضى شهرا فوق سطح مركب به تواليت غير مناسب، جعلنى أستبعد اللحم من طبقى وأحاول أن أتناول أى خضار يمكن أن أعثر عليه.

(١٦)

انطلقنا مبكرا صباح اليوم التالى فى سيارة علاء، تلك كانت فى حالة أفضل من سيارة باسم، لكن ليس بهذا القدر. مع ذلك، لم نخطط لأن نقسو عليها؛ كنا نرغب أن نحقق زيارة إلى منطقة الفيوم، التى لم تكن واحدة من واحات مصر وتعتبر قريبة من القاهرة. تبدو الفيوم وهى على الخريطة بسيطة للغاية ومنبسطة؛ عبارة عن انتفاخ أخضر على جانب من الثعبان الأخضر الذى يمثله وادى النيل. هناك بحيرة فى الفيوم، ربما لا تكون ذات منشأ طبيعى، لكن هى عبارة عن خزان واسع استخدمه الفراعنة الأوائل لتخزين المياه فيه. ومن المحتمل أن يكون بحر يوسف يجرى قديما فى مجرى نهر قديم، لكنه لا يعتبر رافدا من روافد النيل لاختلاف نوعية بطن كل من المجريين، ولعله كان نهرا يصب فى منخفض القطارة، أو ربما كان هناك نهر يوحد ما بين كل واحات الصحراء الغربية، وهذا كان رافدا منه، لذا فواقعيا، تعتبر قناة يوسف تلك تحسينا للطبيعة، بمعنى أن النهر قد تحول إلى قناة يمكن التحكم فى حركة المياه فيها. حتى الآن، نجد أن بحر يوسف لا يتصل بالمجرى الرئيس للنيل إلا على بعد مائة ميل جنوبا ما بين ملوى والمنيا، ثم يسير فى الصحراء الغربية حتى ينتهى فى الفيوم فى بحيرة قارون.

يمكن أن يصل المرء إلى الفيوم عن طريق الجنوب وتظل كل وقتك وسط الخضرة اليانعة، لكننا كنا قد اقترحنا أن نصل إليها عن طريق الشمال، خلال الصحراء الغربية. هذا الطريق يسير من الجيزة ثم يترك الأهرامات ويغيب بعد ذلك فى صحراء وفيافى قاحلة. إنها الصحراء الموحشة التى تبدو أكثر انبساطا

من الصحراء الشرقية، فأنت لا يمكنك أن تشاهد ولو حتى واحد على ألف من أى شىء وأنت تسير فى هذا الطريق، وهناك ثلاثة آلاف ميل من صخور ورمال تفصل ما بين الأهرامات والمحيط الأطلنطى، لذا يمكن القول إنه إذا كانت أكثر انبساطا من الصحراء الشرقية أم لا، فهذا شأن داخلى بحت، لكن هى تبدو أكثر انبساطا طالما أن الأمر يختص بالفيوم بالذات. قدنا السيارة فى هذه المنطقة المنبسطة التى لا يشغلها سوى الرمال والشمس، كذلك اللون البنى والبرتقالى الفاتح، وحيث تنتقل الكهرباء من برج إلى آخر بشكل يبدو أنه ليس له نهاية، وقد ظهرت علامات طفيفة هنا وهناك تنبئ عن الوجود الإنسانى بأنشطته المختلفة. ظهرت بعض التكوينات فى الأفق، قال علاء إنها مدن صحراوية كان الغرض من إنشائها هو أن تستوعب عددا من البشر الذين يزحمون وادى النيل، لكن الحكومة وجدت نفسها فى وضع لا تحسد عليه، لأن لا أحد يود أن يترك مكانه ويرحل، ولا، كما فكرت أنا، أن أفعلها، وإذا كان هناك مكان للمنبوذين فهو هنا، حيث يبدو واضحا أنه تصرف أحمق أن يقبل أى إنسان أن يستقر هنا بدون ضغط هائل أو تقديم رشوة معقولة. عندما يعلم المرء أن الحكومة تسعى جاهدة أن تنقل قطاعا كبيرا من الناس بدون الحصول على موافقتهم ورضائهم، هذا يشعل فى داخلى شكًا مستطيرًا، فغصب الناس على الانتقال إلى مثل هذا المكان هو نوع من الإجرام، وأن تدعوهم للانتقال بالحسنى، هو أيضا أمر سخيف، فى كل الأحوال هى معضلة عويصة.

مر بنا بعد ذلك معسكر يقع بين الأبراج الكهربائية المنتصبة، يبدو أنه مشغول بالبشر.

ما هذا؟ هل هو سجن؟

قال علاء بحرص، أظن كذلك، إنه معسكر للبوليس.

لكن لا يوجد أى شىء يستدعى وجود بوليس!

أعتقد أنه مخصص للتدريبات، أنت تعلم، بسبب المظاهرات والاضطرابات والعصيان.

شرطة لمكافحة الشغب.

بالأسلوب الفرنسى، بشكل متحضر.

تركنا هذا الموضوع جانبا. الآن ظهر خط أسود فى الأفق، إنه بداية منخفض الفيوم وحقولها الخضراء. هنا وهناك تناثرت فى أنحاء الصحراء بعض المبانى كذلك بعض الخرائب والأطلال ربما يكون لها قيمة أثرية. ثم شاهدنا مجرى مائيًا ضئيلاً يجرى فى الصحراء تجاه الفيوم، لكنه ينقطع قبل وصوله إلى هناك. كان هناك أيضا عدد من الصوب الزراعية مكتوبًا على يافطتها معهد إكثار المانجو وأشجار الزيتون. هذا التجمع يشمل بالإضافة إلى الصوب الزراعية كشكًا خشبيًا صغيرًا، وهذا المجرى المائى يسير بجانب هذا التجمع. توقفنا، دخلنا إليهم، تخليت عن خجلى. هذا المكان يرأسه رجل أوروبى، دكتور فى علوم النبات، ويعاونه بعض العلماء المصريين. بدت على وجوههم مظاهر الدهشة بسبب وجود أى إنسان من الممكن أن يهتم بعملهم هذا. أخذونا فى جولة وتفقدنا الآلاف من الأعواد المزروعة، جميعها تحت السيطرة الكاملة وتبدو عليها علامات الصحة والانتعاش. إنها واحدة من المنشآت الحديثة، كما يقولون، حيث لا تُزرع النباتات بالطريقة المعتادة بل يتم تصنيعها. هنا يطبقون أحدث النظم فى الإكثار، وهى الزراعة النسيجية، تلك التى تعتمد على القدرة السحرية لخلية واحدة منزوعة من قمة نبات مزروع لأن تنقسم وتنمو لتصبح نباتا كاملا بكل الصفات المطلوبة. وفى لحظة معينة، يتم غمس هذه الخلية فى وسط يتكون من محاليل مغذية، وإلا تعرضت العملية كلها للفشل.

كان عرضا مدهشا، وهذا ما عبرت عنه.

قال الدكتور بشكل متأن: على أية حال، سوف أغادر هنا الأسبوع القادم.

يبدو من حديثك أن مغادرتك سوف تكون نهائية.

نعم. هذا حقيقى.

من سوف يأخذ مكانك؟

«لا أحد. أعتقد أنه سوف يكون مساعدى المصرى».

تحدث معنا هذا المساعد قائلا: مصر فى حاجة إلى مليون شجرة زيتون، هناك أراض كثيرة متوافرة على أطراف الزراعات، وهى الأماكن المناسبة لزراعة أشجار الزيتون.

هز الدكتور رأسه قائلا، نعم. الأراضى فعلا متوافرة، وليس هناك أبسط من ذلك.

هذا الشاب، هو الذى سوف يشرف على زراعتها أم أنت؟

هز الشاب رأسه قائلا، لا أظن.

شرح لنا الدكتور أسرار الموقف: الناحية العلمية تسير بأفضل حال وعملنا ناجح ويمكن إنجازه، أما عن الوزير- فهو متحمس. لقد طلب منى أن يكون لى الحرية الكاملة فى أبحاثى؛ فهو يؤمن بفاعلية هذا المكان. لأنه يرغب أن تحصل مصر على مليون شجرة زيتون، تصور ذلك! وهذا العدد سوف يكون المدخل لإنشاء صناعة كبيرة كلها خير، بل هى أكثر أهمية من صناعة السكر.

حسنا، لماذا لا يحدث هذا؟

يبدو أنك لا تعرف مصر، أليس كذلك؟

لا.

إنها البيروقراطية. إنها عبارة عن هرم خالد لا يمكن زحزحته من مكانه، ومهما قال الوزير أو ما يحاول فعله، نجد أنه فى مكان ما من هذا الهرم يموت هذا الحلم، يضيع. أنا بكل بساطة يئست، بعد سنوات وسنوات، شعرت باليأس وها أنا الآن فى طريقى إلى بلادى.

ما الذى سوف يحدث لهذا المعهد؟.

هذا الشاب سوف يحاول أن يديره، وليعاونه الله.

هز الشاب المصرى رأسهُ، ثم تحدث بلغته الإنجليزية الحريصة:

إنه موضوع يفوق قدراتى، وعندما يرحل الدكتور، فسوف أرحل أنا أيضا.

إلى أين؟

هز كتفيه، فاستأنف الدكتور الحديث:

هذا شىء يحزننى فعلا. لقد أتيت إلى هنا ممتلئًا بالحماس لكى أقدم مساعداتى. لدولة من العالم الثالث، ولم أُوفق... السبب بسيط: الطبيعة! هذا مغروس فى طبيعتهم، إنه نوع من أنواع الركود والوقوف محلك سر.

ماذا عن المعهد؟

هل أنت خبير بالمعيشة فى الصحراء؟

لا.

هناك آثار فى كل مكان، تجدها جافة مهملة تغطيها الرمال. معلش. ما فيش. عفوا.

أنا...

لاحظت طبعًا كيف كان إحساسنا بهذا الموضوع؟

حسنا...

يبدو شيئا سخيفا أن تتمنى لأحد منهما الحظ الحسن، أو أن تجزى امتنانك وتهنئتك لهذا الإخلاص الذى كان من نتاجه هذا المصنع الزراعى وسط تلك الصحراء الموحشة. فى النهاية، أخذنا نتبادل هز الأكتاف ثم تركناهم.

قلت: شىء غريب أن يبحر الإنسان فى هذا النيل الفظيع فوق سطح مركب، أو أن تستعرضه داخل سيارة، وتقطع عشرات الأميال داخل صحارى قاحلة، بعد ذلك تزور معبدًا أو اثنين، ثم تنقاد لهواك وتدبج كتابًا مليئا بالصور الجميلة، بجانبها بعض العبارات..

عندك... عندك، اهدأ قليلا. ما الذى يمكن أن تتوقعه؟ أنت تعلم بالطبع أن أهالى النوبة ربما يحصلون على الطريق الذى تحدثوا معك بشأنه.

أيضا سوف يحصلون على أشجار الزيتون، أشك أن أى شىء من هذا يمكن أن يحدث!

قالت آن بلهجة الواثق: أنا سوف أهتم بموضوع أشجار الزيتون هذا.

أنت؟

نعم أنا.

قال علاء: هذا بالفعل ما أود أن أستمع إليه.

تبدو الفيوم أكبر مما هى على الخريطة. إنها فى حجم مقاطعة إنجليزية متوسطة. فى الحقيقة، يمكنك أن تصل إليها عن طريق الصحراء، تقترب أولا إلى حدود خط أخضر رمادى، يأخذ فى الاتساع والانبساط التدريجى، ثم يتحول إلى اللون الأخضر اليانع، بعد ذلك تفاجأ عندما تكتشف أن أرض الفيوم تبدو أكثر خصوبة من أى أرض أخرى فى وادى النيل. صديقنا القديم بحر يوسف ينتهى هنا، بينما ترقد بحيرة قارون البالغة الاتساع وخلفها بعض التلال المنخفضة فى جهة الشمال الغربى. كنت أود أن أستطلع مكانا معينا هنا حيث وجدت بعض أوراق البردى وهى منطقة الحمام التى تقع على الشاطئ الجنوبى للبحيرة، لذا قدنا السيارة ببطء غربا متتبعين خط المياه. كان هناك تجمع لبعض من قوارب التجديف واقفة على الشاطئ وهى مدهونة بالألوان الزاهية، هى تشبه قوارب أعلى الصعيد أكثر من قوارب منطقة الدلتا أو مصر الوسطى. حيث يبدو شكلهم تحت أشعة الشمس الساطعة رائعًا للغاية، لكن لا يبدو أن أحدا يستخدمهم، ربما ينتظر الصيادون حتى تصل مياه جديدة تنقلها القناة إلى البحيرة. تبدو الأرض هنا كأن لها صلة ضئيلة بما هو مسجل بالخرائط. أخذنا نبحث عن خليج له خط مستقيم، أين هو؟ فطبقا للخريطة هو المكان الذى تقع فيه «الحمام». كان هناك عدد من المبانى متراصة فى خط مستقيم موازية للشاطئ، أخيرا هبطت علينا الحقائق وتفهمنا ما حدث. لقد حدث انكماش للبحيرة من عام إلى آخر، ثم تم استصلاح الأراضى وبذلك أصبحت الحمام بعيدة عن الشاطئ. هذا الأمر لا يهم على أية حال، فأنا أستطيع أن أحكى عن

هذه البرديات سواء زرت مكان وجودها أو لم يحدث ذلك، هذا يعنى أنه فى إمكانى، عند نقطة معينة، أن أحاضر عن تلك الخواطر غير العادية التى وجدت فى تلك البرديات التى تشرح سبل الحياة العادية، بنفس كلماتها الثرية التى أفرخت وسط تلك الرمال والتراب، نقرأ مثلا عن عقود وخطابات حب وغرام، عن العمل والشهرة والشئون المنزلية، عن الجهل والتعليم والقانون والحريات، عن فترة الطفولة، ونقرأ مثلا:

من ثيون إلى ثيون مع تحيات والده،

كانت تلك حيلة متقنة لعبتها على، أن لا تأخذنى معك إلى الإسكندرية! إذا رفضت أن تصحبنى معك إلى الإسكندرية، فلن أحرر لك خطابا آخر، أو حتى اتحدث معك أو اتمنى لك الصحة الجيدة. لقد قالت أمك لأرشلاوس: "هذا الولد تسبب فى تلف أعصابى- خذه معك! " لذا أرجوك، أرسل لى، أرجوك، أرجوك. إذا لم ترسل لى، سوف امتنع عن تناول الطعام، ولن أشرب الماء. لذا أيضا، لن أدعو لك بتمام الصحة !

تستطيع أن تقتبس الكثير من هذه الخطابات، مثلا هناك خطاب موجه لرجل مدين وخطاب عتاب ودعوة لحضور حفل، ودعوة أخرى لحضور مناسبة أحد الأعياد ودعوة لحضور جنازة، وخطاب به وثيقة طلاق وآخر به وثيقة جواز.. هناك مثلا خطاب تعزية كتب قبل الفترة المسيحية، فيه:

من أيرين إلى تاونوفريس...تحياتى،

لقد شعرت بحزن بالغ وبكيت بحرقة على المتوفى بأكثر مما فعلته عندما مات ديديموس. لقد فعلت كل ما يتوجب أن أفعله ومعى كل أقربائى. لكن فى الحقيقة، ليس هناك شىء ما يمكن أن يفعله الإنسان فى شأن مثل هذا، لذا أرجو أن تعزوا بعضكم بعضا... وإلى اللقاء.

هذا قبل المسيحية؟ إنه ربما يكون حديث العهد، معقول أن تصدر مثل هذه المشاعر الفياضة حتى قبل قدوم المسيحية وانتشارها؟

فكرت أنه ربما كانت واحدة من تلك الخطابات من برديات البهنسا، لكن هل هذا له أى قدر من الأهمية؟ أنت فى الواقع فى حاجة إلى مجهودات سير توماس براون لكى تتعامل مع هذه الأمور بشكل ناجع، عندما يدرك معنا أن موضوع "معهد إكثار المانجو وأشجار الزيتون" يحفز بزوغ هذا النوع من الرسائل والومضات، فلا شك أن القدماء أيضا، عانوا الكثير مثلنا. ويبدو أن تلك المعاملات اليومية التى اقتبسناها من سلة مهملات قدماء المصريين، تتحدث معنا بشكل واضح وتدلنا على تلك المعلومة البغيضة وهو أن كل إنسان مصيره الموت والفناء. عندما نمعن النظر فى تلك الوثائق الأدبية التى استُخرجت من التراب المصرى أو من نتائج إحصاء قديم او من مسرحية كتبها يوروبيدس أو قطعة شعرية دبجتها سافو، يكتشف الإنسان داخله نوعًا جديدًا من الاحترام للأدب عامة والتقييم الحديث لأغراضه، التى تمثل تسجيل الحياة والعون على تحملها.

فى شمال الحمام، عند حدود أرض مستصلحة، كان هناك تجمع من المبانى يبدو من شكلها كأنها قلعة وفى قمتها فنار، وهنا عثرنا على أصدقائنا القدامى من رجالات شرطة المسطحات المائية، وقد تسمروا هنا فى ذلك المركز الوحيد، إنهم فى حالة أسوأ من زملائهم الذى يعملون على طول المجرى الرئيسى للنيل، إنهم يتمركزون الآن فى آخر نقطة من بحر يوسف، حيث ربما يوجد بعض من القراصنة، بينما يعتقد المرء أن لا أحد يجرؤ أن يظهر هنا، وحتى بنادقهم، فقد نالها الكثير من الصدأ وجديرة بأن توضع فى متحف. وأقسم أن هذه البنادق تعود إلى بدايات القرن التاسع عشر، ولم تعرف ما هى النظافة منذ سنوات، احتمالا وخوفا من أن تتداعى جميعا وتتفكك إلى قطع من الحديد، وإذا أطلقت النار، فأخشى أنها تكون مصدرا لخطر داهم سواء من الأمام أو الخلف. لذا تركناهم، وهم يحرسون الوهم،أو يحرسون الخيال، ثم قدنا السيارة وسط ريف مفعم بالنماء والخضرة، لكن قبل وصولنا، اضطررنا إلى أن نعبر منطقة وسطى، هى إما أنها قد جفت منذ وقت قريب، أو يجرى استصلاحها. كانت تلك المنطقة كثيفة الأملاح لدرجة أنها كانت تلمع بضياء أبيض. هذه الملوحة هى لعنة مصر، إنها تنهض من أسفل ومتجهة إلى أعلى. اكيد هناك طريقة للتخلص منها، إذا كان

المهندسون على درجة عالية من الكفاءة، بحيث يستطيعون أن يغسلوا الأراضى التى انتشر فيها هذا الملح. فى الحقيقة، أثناء أفضل سنوات مصر بالنسبة لموضوع الرى، كان عندما الماء يصب فى البحر الأبيض، حينذاك كان يحدث تنظيف آلى للأرض من الملح الذى يستطيع البحر أن يتعامل معه ويبتلعه بكل سرور. فالملح يرتفع فى كل مكان منذ إنشاء السد العالى ولا يتم غسل الأرض بشكل جيد. كمثال: نجد أن هذا الملح يأكل فى الحجارة السفلية لمعبد الأقصر ويهدد كل موضوع الاستصلاح على عمومه، لذا نجد أن العلماء فى بيت المحافظة على الآثار فى شيكاغو يتصارعون مع الزمن لكى يسجلوا كل سمات هذا المعبد قبلما يتكفل الملح بتدميره.

على كل حال، تعتبر منطقة الفيوم من المناطق المتميزة فى مصر، ما عدا بعض مناطقها التى تقع بالقرب من بركة قارون، إنها لا تبدو لها خاصية العيش فى الأراضى المتاخمة للبحر الأبيض حيث ينتشر الطين، أو تتشابه مع نوعية تلك الحياة المحدودة التى تكتنف سكان وادى النيل الضيق. هى منطقة واسعة رحبة، وقد لاحظت زوجتى أنه فى تلك المنطقة فقط من مصر، لدى السكان ذلك المتسع الذى فيه يمكن أن يزرعوا الورود والأزهار، وهناك درجة من الوقار تحفل بها المساكن التى تشى بحياة هادئة مستقرة فى رخاء وبحبوحة، بدلا من أن تكون حياة مظهرها الأساسى هو من اليد إلى الفم من جيل إلى جيل. هناك شىء جدير بالاحترام فى مبانى الفيوم. زرنا أيضا بعض الينابيع المشهورة هناك التى انتظمت حول بعض المتنزهات، حيث تدفع جعلا لكى تدخل. وعلى الرغم من تنظيمها وجمالها المتقن داخليا، لكنها صغيرة الحجم. فى ذلك اليوم الذى دخلنا فيه إلى هذا المتنزه لاحظنا أنه غاص بالطلبة. التفتت الفتيات حول راعينا علاء وطلبن أن يلتقطن معه الصور، الأسباب ربما تكون مقنعة بالنسبة لهن، لكنها لم تتضح أبدًا بالنسبة لى.

مستوى الصحة ونوعية الملابس هنا مرتفعة بالمقارنة بأى مكان آخر فى مصر. هناك العديد من الفيلات، بل ويمكن أن يطلق عليها أرض الفيلات. يقال إن البلهارسيا قد انتهت من الفيوم، وهذا له أهمية قصوى، ربما أكثر أهمية من

إنشاء المساكن رفيعة المستوى. المنطقة كلها كثيفة السكان، لكن نظرًا لانتشار الخضرة، تجد أنهم جميعا اختفوا داخلها.

دخلنا إلى مدينة الفيوم ذاتها، تلك التى كانت تعبد التمساح سوبك، لذا دعاها اليونانيون باسم كروكوديلوبوليس. أعتقد أنه هنا - كما أتذكر - أن قام سائح آخر - وهو شخصية مهمة للغاية - أن انشغل برمى كسر الخبز إلى التماسيح. كان هذا هو أحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى القديم، وقد قرأنا خطابات فيها أوامر معينة تطلب اتخاذ الإجراءات اللازمة لاستقباله هنا. هو آت لكى يملى ناظريه بكل ما هو مبهج ومثير، لذا يجب تجهيز أماكن إقامته، ويجب أن يقابل بالهدايا - وتلك عادة استمرت طويلا - وأن يُزود بكمية من الخبز لتقديمها إلى التماسيح المقدسة. لعله لم يكن سائحا، بل حاكما أتى ليحكم هذه البلاد.

الفيوم بلد نشط مفعم بالحركة، وهناك عدة طرق برية ومائية وسكك حديدية، تربط الفيوم بوادى النيل، وتبدو فى نظرى أقل ازدحاما بالمخلفات بالمقارنة بالقاهرة، وأقل تجهمًا من أسيوط. فى الفيوم ذاتها، هناك منظر مبهج هو السواقى المتعددة، وهناك منتزه صغير تم إنشاؤه حول مركز المدينة. هذه السواقى تتكون من أربع عجلات متحركة وُضعت مترابطة بجوار بعضها بعضًا، وهى تتعامل مع بعض المياه التى تدخل المقاطعة عن طريق بحر يوسف، ونظرا لأن المدينة فى مركز المنخفض الكبير، لذا نجد أن تلك السواقى تقع تحت مستوى الشارع. هناك حركة مرور مزدحمة فى شبكة الطرق المعقدة حول السواقى، وهذا أمر مؤسف طالما أن أجمل ما فى هذه السواقى هو صوتها، إنها، أم هل الأصح أن أقول إنهم؟ إنهم يدورون بشكل بطىء، فتتساقط المياه فضية اللون من خلال نظامها الآلى المتقن. أما تلك العجلات فإنها تصدر ما يمكن أن ندعوه بأنه قدرتها على الحركة، كأنما هى هرقل العظيم محاولا أن يقبض على السماء لفترة وجيزة. أثناء دورانها تصدر صوتا، بحيث يبدو الأمر كأن كل عجلة منها تصدر صوتا يختص بها. إنه نوع من الأنين، نوع من الحمحمة، والصلصلة، والشخللة، وكلها تنسجم مع بعضها بعضًا بحيث لو استمعت إلى لحن واحد لشعرت بانزعاج بالغ. يبدو الضجيج كأنما هو ينظم ويرتب نفسه ليصدر لحنا موسيقيا. يبدو

الصوت كأنه قريب إلى أذنك، لكنه مع ذلك هو بعيد، يتضاد مع خبراتك، لأنه يحاول أن ينأى بصوته، بحيث يعطيك إحساسا بأن لا شيء يحدث هناك قريبا منك، لكن هو يحدث بعيدا حيث النجوم وأن تلك الأصوات ليست سوى نوع من الموسيقى الصادرة من لدنها، بينما خيوط المياه الفضية تتساقط وتتناثر. هذا شيء غريب، حيث يبدو ثراء الماء المتساقط المرشوش، بينما تدور تلك العجلات العظمى وهى تلهث، وتفعل ماذا، لا أعلم: هل هى تنتج الكهرباء، أم تطحن القمح؟ أو لعلها لا تفعل شيئا، هى فقط تنجح فى تحقيق دوراتها، كأنما هى سماء بلا غيوم، لكننا على أية حال، بعدنا عنها وهى ما زالت تتعب وتتوجع، وأعتقد أنها ما زالت تفعل هكذا وأنت تقرأ هذه الكلمات.

قادتنا السيارة جنوبا ناحية المدخل الضيق فى الدخول والخروج، بعد ذلك عبرنا الأهرامات الحارسة فى الهوارة واللاهون، ثم أطبقت علينا الصحراء من الجانبين. عبرنا قناة يوسف، ذلك العمل المعقد بكل أنواع المصدات والكبارى والمعديات فى منطقة دخولها للإقليم، ثم قلت لها وداعا وأنا حزين، فلا أظن أن عينى سوف تراها مرة أخرى. إننى مقتنع تماما أنها قناة يوسف الصديق، وهو عمل عظيم يسجل لفرعون ذلك الزمان والذى كانت تقديراته ممتازة عندما قرر أن يكون يوسف هو وزيره. عندما تشاهد مصر من أولها إلى آخرها، تقتنع أن هذه القناة لها أهمية عظمى وفاعلية غير منكرة، فهى تغذى الخزان العظيم فى منخفض الفيوم، كما فعلت فى تلك الأيام عندما كانت معرفة الكتابة صدمة ثقافية فى مصر.

إذن، وقد اخترقنا الفيوم من شمالها وجنوبها، درنا شمالا متتبعين المجرى الرئيسى للنيل. فى هذا الطريق، يكون النيل على يمينك والصحراء على شمالك، وعلى بعد عشرين أو ثلاثين ميلا من حافة الصحراء، يتناثر عدد من الأهرامات. بالنسبة لنا، كان هذا نوعًا غريبًا من التناقض؛ أخذت أفكر فى تلك الأيام التى قضيناها فوق المركب ونحن نشق طريقنا عكس التيار، ونسعد حينذاك عندما نقطع أربعة أو خمسة أميال، أما الآن، فإننا نقطع نفس المكان لكن بسرعة خمسين ميلا فى الساعة.

كان وقوفنا المقصود بعد ذلك يقع عند هرم ميدوم، وهو الذى طالما تمنيت أن أشاهده عن قرب، لأنه من الممكن لك أن تقول إنه الهرم الوحيد الذى تعرض لكارثة، ومن المحتمل أن هذه تسبب فى إصلاحه. وطبقا للآراء الموثوق بها، يُقال إن الأهرامات تنهار دفعة واحدة، وفى تلك الحالة لن يكون الهرم هرمًا من ناحية الشكل، بل كأنه تمثال قائم. بالطبع، لا يمكن بناء صرح بنفس مقاييسه الحالية،على الأقل ليس فى مرقده الحر هذا. أعتقد أيضا أن أبا الهول ربما يكون قد جثم فى مكانه الحالى بسبب قنبلة مدفع جعلته يحدق بوجهه الملتحى الصافى عبر النيل ناظرا فى اتجاه الصحراء الشرقية.

لكن هذا الهرم بالذات، يستحق أن أدفع مقابلا لكى أشاهده، لعله يتحدث معى لأننى ابن جيلى وابن العصر الذى فيه أعيش، وأعرف أن الحصول على الحقيقة كاملة ضرب من المستحيل. لا تدفعنا إلا الحركة التى تعين على المعرفة، ولا نريد إلا السعى الجرىء، والإيحاء البعيد، وتلك الآثار الدالة. لذا فإن هرم ميدوم، وهو بناء ضخم حتى بمقاييس الجيزة، وفى وضعه المتكوم على أنقاضه، يبعث السرور فينا ويثير.

سلكنا طريقا جانبيا، ثم - وعندما دعانا هذا الشكل الضخم - سقنا فى انحناءات يحفنا طريق يحيطه بعض الحواجز حتى وصلنا إلى الصحراء. اكتشفنا أن هذا الطريق عبارة عن مدق، لذا اضطررنا إلى أن نسلكه، عبرنا بعد ذلك عددًا من الحفر تحتوى على حفريات تعود إلى ما قبل التاريخ. وكان هناك بعض المقابر الإسلامية والمسيحية؛ ثم تبع ذلك منطقة واسعة من الرمال المنبسطة وطبقات سوداء من الطفلة على بعد نصف ميل من الهرم، بدا واضحا أن هناك شيئا غير عادى موجود هنا، فعلى الركن الجنوبى الغربى من الصرح، كان مكوما هناك بقايا الانهيار المبكر متجمعا، مظهرا مسارات حديثة من أشكال منحوتة فى الحجر الجيرى بشكل عشوائى، وكان هناك حوالى أربعين أو خمسين عاملا مصريا - هم جماعة من الفلاحين يقودهم ريس - ينقبون فى هذه المنطقة ويزيحون الأتربة لتكشف عن بعض الآثار التى ظلت مطمورة هنا منذ عدة آلاف من السنين، من الواضح أن هناك اهتمامًا بالغًا بالكشف الأثرى فى المنطقة التى

بها هرم ميدوم. مع ذلك، فقد أوحى لنا أشكال الرجال على البعد قياسا معينا، لذا بالطبع، كانت أشكالهم تبدو كجحافل النمل. هذا أدق وصف لهم.

لكن، يا لجمال البناء! فالطبقات التى سقطت كشفت عن قلب الهرم. هذا العمل يبدو دقيقا كأنما هو مقطوع فى الكريستال. فى الحقيقة، وأنت تنظر إلى الطبقات المهدمة تظن أنها نوع من القش أو إنها قشرة أو غلاف، تلك التى بإشارة معينة وفى لحظة معينة انهارت دفعة واحدة، ترى كيف تدافعت أعاصير الغبار حول الهرم! وكيف تساقطت تلك الصخور وهى تصدر صوتا مزلزلا! بالتأكيد، هناك إله من آلهة الفراعين استبقى تلك الكارثة حتى لحظة الاحتفال بمناسبة معينة! وأنا أحملق والتقط لها بلا مهارة عشرات الصور بالكاميرا، فكرت أن تلك تبدو كأنها لحظة أسطورية مرئية، ما إن انهارت الكسوة، ثم هدأ الغبار، حتى ظل الكريستال مكانه هادئا وبمنظر لا يتوقعه أحد، كأنما هو حقيقة خالدة مكتشفة حديثا.

وعلى مبلغ علمى فإن هرم ميدوم ـ الذى قرر العلماء اليوم أن الفرعون حونى(*) هو الذى شيده، أو أن الهرم شُيد من أجله ـ هو الهرم الوحيد الذى صمد أمام صروف الزمن ولكنه لم يصمد أمام العوامل الجوية. فرغم كل شىء نجد أن هذه الآثار التى بهذا الحجم والشكل لديها القدرة الذاتية على الصمود أمام تقلبات الدهر ولكن بقدر. وهناك رأى مفاده أن ما حل بهرم ميدوم كان بفعل وجوده الطويل فى الزمن. وعلى أية حال فإن البناء يقف شامخًا من الطوب الأحمر الوردى المطلى بالحجر الجيرى المائل إلى اللون الأبيض، على قاعدة بلون الصحراء تظله سماء شاحبة الزرقة... بما يكفى. ظاهرة أبدعها الإنسان، ولكن عوامل الطبيعة والجاذبية ودرجات الحرارة المتغيرة والمطر والزمن والهجر، قهرت الأثر ونالت منه. وفى النهاية نحن أمام جمال أكثر أناقة، جميل بسيط مريح أكثر مما قد تبدعه ريشة رسام. أخيرًا استطعت أن أرى فى مصر أثرًا قديمًا لم يتسق مع توقعاتى فحسب، وإنما فاق هذه التوقعات أيضًا.

(*) الفرعون حونى أو حوينى هو آخر فراعنة الأسرة الثالثة ٢٦٨٦ ـ ٢٦١٣ ق.م، تسلم الحكم بعد الفرعون خخع با. المرجع

وبعد أن أمتعنا العيون والتقطنا الصور الفوتوغرافية على الطريقة العصرية، امتطينا سيارة علاء واتجهنا إلى الهرم عبر الرمال والطُفلة السوداء. وما اقتربنا حتى أوقفنا خفير أو حارس ومعه أحد أفراد شرطة السياحة، ومنعانا بشيء من الغضب من التقاط الصور الموجودة بالفعل داخل كاميراتنا، وأخبرانا أن الصور التى التقطناها غير قانونية. وراحا يشرحان لنا أن التقاط الصور للهرم ممنوع، أى صور. هذا شيء غريب، فلعل رجال الآثار أعلنوا أن اكتشافاتهم الحديثة ممنوعة من التصوير، لكن رجل البوليس فسر هذا بكل غباء وجعل المنع شاملاً، فالهرم واضح المعالم من على بعد عشرات الأميال من كل الاتجاهات، وتظهر الأنقاض واضحة من على بعد ثلاثة أميال، وليس هناك وسيلة تتبع لمنع تصويرها، هى هكذا مثيرة وقد افترشت الأفق. لذا رحلنا ونحن نتحدى بالتصوير وهبطنا الوادى مرة أخرى، ثم أخذنا طريقنا المؤدى إلى القاهرة، وتبدت أمامنا سلسلة الأهرامات التى حرمنا من مشاهدتها ونحن غاطسون بين ضفتى النهر ونحن على ظهر المركب. هناك هرم وحيد يمكن أن يبعث فينا المشاعر نفسها التى عهدناها ونحن نشاهد هرم ميدوم (أنا لا أريد أن أبدو هرماً، أريد أن أكون قاعدة تمثال فحسب!) إنه الهرم «المنحنى»، والذى به تتغير زاوية البناء وهو صاعد إلى أعلى، لذا نجد شكله يتحول ليصبح على شكل معين. إحدى النظريات تقول إن هذا الهرم قد بُنى من أجل الفرعون الذى خلف هونى (الفرعون سنفرو)، وفى فترة بنائه انفصلت كسوة هرم ميدوم، ربما فهمت هذه الإشارة بأنها علامة تحذير، لذا قاموا بتغيير زاوية البناء لكى تكون الأمور أكثر استقرارا. يا لها من سلسلة رائعة من التماثيل، حتى تلك المدمرة والمخربة! إنها تنتصب فوق جسم العاصمة القديمة ممفيس، كأنما هى قصور من العالم الآتى، لعلها جميعا تداخلت مع العوائد القديمة بألف طريقة وطريقة، لكن تلك مفقودة بالنسبة لنا، لعلها جميعا كانت أبنية للراحة أثناء فترة الفيضان، حيث لم يكن أمام الناس سوى القليل ليفعلونه سوى أن يحسبوا مرور الزمن أو أن يطرقعوا أصابعهم. بالتأكيد، أعظم الأهرامات هو هرم خوفو، وهو هرم مجهول، بمعنى أنه لا يوجد نقش معين ينسب هذا الهرم لمن هو من الفراعنة. فى الحقيقة، لا يوجد اسم خوفو إلا فوق

كتلة حجرية بارزة فى جسم الهرم، ولعلها كانت من حفر أحد العمال حينذاك. وفى الواقع، يجب أن تبقى هذه الأهرامات المختلفة دائما مصدرا للمجادلة والظنون، ليس فقط بسبب عدم وجود أدلة قوية بشأنها، لكن بسبب عجزنا عن أن نضع أنفسنا فى مجال الزمن القديم، سواء فى زمن الحكام أو المحكومين.

إذن، فقد عدنا إلى القاهرة ووسائل مواصلاتها الحديثة. لقد شعر علاء بإرهاق شديد، ونحن أيضا شعرنا كذلك بسبب ما شاهدناه اليوم، لكن أن أنشغل اليوم بتسجيل أى شىء فى يومياتى، هو ضرب من المستحيل. بدت حركة المرور فى القاهرة أكثر خطورة عما ذى قبل، وضوضاؤها أكثر إزعاجا للأعصاب، وبدأت أقلق بسبب أمور تافهة، مثل احتمال أن لا نحصل على تمديد لتصاريح الإقامة (الفيزا).

لقد افترضت أن الفندق سوف يؤدى عنا هذه المهمة، لكن لا. فقد ظهر أنه يجب علينا أن نقضى وقتا أطول فى القاهرة بسبب هذا الموضوع، بينما نحن لا نفعل شيئا سوى القليل. إنه أمر مؤلم أن يقضى الإنسان وقتا متجولا بين المكاتب واقفا فى طوابير؛ الآن علينا أن نذهب للسفارة الإنجليزية، التى، وأنا أسجل ذلك لخدمة المسافرين، تقفل أبوابها الساعة الواحدة. فى الحقيقة، كنت متعبا، المستقبل أمامى بدا كأنه حمل ثقيل... كأنما هو الهرم ذاته. دلفنا إلى الدور الأرضى فى الفندق حيث يوجد المطعم الذى يعمل ٢٤ ساعة. قضينا وقتا طويلا أمام وجبتنا، لم نزدرد الكثير، لكن أيضا لم ننطق بالكثير. كان الأمر صعبا علينا أن نمحى من أجسادنا الرج والخض الذى تعرضنا له ونحن داخل السيارة.

(١٧)

مرة أخرى لم أنم تلك الليلة. نهضت من سريرى وأضأت أصغر الأنوار وبدأت فى تسجيل خواطرى فى يومياتى. هذا جعلنى أشعر بالارتياح، فالكتابة لها مفعول علاجى بالنسبة لى.

بعد الإفطار، تلحفنا وخرجنا لكى نبحث موضوع تجديد الفيزا، وبطريقة غريبة وجدنا أن الموضوع قد انتهى فى ثوان معدودات، بعدها أصبحت تراجيديا الليلة السابقة من الأمور السخيفة حقا. لقد أدركتنا المفاجأة الآن وتحققنا من أنه لدينا وقت إضافى لم نتوقعه ولم نظن أننا سوف نكون أحرارا هكذا، ولأننا كنا فى المكان المناسب، لذا توجهنا إلى المتحف المصرى، ذلك البناء العجيب الذى تتصدر قمة مدخله كتابة باللغة اللاتينية. كان لزاما أن أفعل هكذا، لأننى كنت قد عاهدت نفسى أن أكتب ألف كلمة عن الازدحام الذى يكتنف معروضات هذا المتحف وذلك عندما زرته فى رحلتى السابقة، لكن ربما يجوز لى أن أقول إن أى صحفى سوف يشعر بمدى توترى عندما أصرح أنه خلال السنوات التى انقضت ما بين الزيارتين، أصبح العرض فى هذا المتحف مقبولا ومعقولا، مماثلا فى ذلك معظم متاحف العالم. لذا يمكن القول إن الألف كلمة (والتى تشكلت بالفعل فى دماغى) قد سقطت فى البالوعة.

بالطبع، هذا المتحف يعرض الكثير فى مساحته المحدودة، لكن ما الذى يمكن أن يفعله غير ذلك؛ لذا نجد أن احتياجات الدارسين، الهواة والسياح أيضًا، جميعها فى تعارض غريب. فالأول فى حاجة إلى أن يعرف كل شىء، والثانى يود

أن يعرف شيئا، أما الثالث فإنه لا يهتم بشىء. لذا فإن هذا التزاحم للمعروضات، بينما هو يعتبر مريحا للدارس المهتم بإجراء مقارنات بين التفاصيل، لكن هذا ينزع منه أى تقدير أو استمتاع بالجمال. فأنت لا يمكنك أن تركز أنظارك على قطعة معروضة، بينما هناك معروضات أخرى تزاحمك وتشتت انتباهك. مع ذلك، فإن الإحساس بالجمال هى قيمة مضافة حديثة لما تمثله هذه المنحوتات، لذا ربما هذا لا يمثل خسارة جسيمة، بل ويمكنك أن تجادل وتقول إن الأشياء المعروضة جيدا فى متحف الأقصر هى نوع من التفلسف، لكن عن ماذا؟

هم يقولون إنه توجد غرفة فى المتحف المصرى لعرض المومياوات، لكنى أنا لم أعثر عليها أبدًا . إن أكثر الاهتمامات المصرية القديمة أهمية كانت متصلة بالموت والدفن، لكنى أؤمن أن عرض هذه المومياوات هو أمر مقزز ويدعو للرثاء. فما إن ينتهى المتخصصون من فحصهم، ويتأكدون من حصر عدد الغرز فى كل بوصة من اللفائف، ثم ينتهون من الترقيم والتقاط الصور للتمائم، ثم يأتى الفحص الطبى متأخرا فى النهاية، بعدها يجب أن يتم حرق البقايا. كان موقفا حسنا ذاك الذى كان يتبع قديما، حيث كانت المومياوات تحرق خلال الأيام الأولى لظهور السكك الحديدية فى مصر، فهذه العملية كانت تستبعد كل الأشياء التى ظلت قائمة منذ زمن بعيد. إذن، حتى إذا كانت هناك غرفة للمومياوات، فإننى لا أرحب برؤية محتوياتها.

ما شاهدناه فعلا هى مجموعة معروضات الملك توت عنخ آمون، هذه المجموعة، كما يعرف العالم كله، هى تجميع غير عادى لأثاثات الفقيد. يبدو الأمر كأنه ما إن توفى الملك، حتى نُقلت كل محتويات منزله ووضعت بلا ترتيب وبعجلة فى مقبرته. من الصعوبة بمكان أنه سوف يحتاج فى آخرته كل هذه السهام، فقد قام أحدهم بإخراج هذه السهام من جرابها أو من الصوان المحفوظة فيه وألقى بها داخل المقبرة. أما عن شكل الحراس المحيطين بالحرم الذى يحرس المومياء، يبدو من شكلهم أنهم لغرض الزينة فقط، فهؤلاء الآلهة المحيطون بالحرم وقد فردوا أذرعهم بغرض الحماية، كثيرًا ما ينشر عنهم أنهم بالحجم الطبيعى، فى الحقيقة، كل واحد منهم لا يزيد طوله عن ١٨ بوصة ويشبهون عرائس اللعبة.

فى الواقع، يصعب على المرء أن يشارك هوارد كارتر فى مقولته «هم رمز خالص للحب والرعاية»، وأعتقد أن أى عالم للمصريات، ربما كان يرحب تماما بمقايضة كل ما هو مكرر من مقتنيات هذه المقبرة فى مقابل وثيقة واحدة مكتوبة! شىء يدعو للحيرة والتعجب بسبب ما فعله كهنة المصريين القدامى، وذلك عندما زحموا تلك المقبرة بلفائف من ورق البردى الفارغة تماما من أى كتابة فيها.

ذهبت أيضا إلى غرفة مجوهرات توت عنخ المحروسة جيدا، بحيث لا يمكن أن يسمح إلا بدخول عدد محدود من الزوار كل مرة. هنا أيضا، من المستحيل أن أمتنع عن النقد، فمن المعروف أن أية مجوهرات لا يرتديها أحد، فى الحال تفقد قيمتها ورونقها، فهناك نوع من الطمس والعتمة تكتنف أى مجوهرات يتم الاحتفاظ بها داخل الدواليب، كما لو كانت تعلم أنها قد وُضعت فى المكان الخطأ.

يقرر الناس أن الذهب لا يصدأ، إذن ما الذى تقوله عندما تقارن ما بين خاتم الزواج الذى يزين إصبع زوجتك وبين تلك المشغولات الذهبية الباهتة المعروضة داخل دواليب المتحف؟ هل هذه الأخيرة مغطاة بطبقة رقيقة من الغبار؟ هل هى فى حاجة إلى تنظيف وتلميع؟ وهل وهج ولمعان الذهب الذى يتحلى به إنسان راجع إلى الزيوت الطبيعة التى يفرزها الجسم؟ إذا كان الأمر هكذا، إذا فإننى أنصح أن تتاح فرصة للحراس والقائمين على شئون المتحف أن تقوم زوجاتهم وصديقاتهم (وبحرص تام) بارتداء تلك المجوهرات لكى تعود إلى رونقها السابق مرة أخرى. للأسف، هناك الكثير من المحظورات. هذه المجوهرات بالذات تصلح للرجال والنساء، وفى كلتا الحالتين، يجب أن تكون أسمر البشرة. وكل من رأى "أبيض" يمثل فوق المسرح دور مصرى قديم سوف يدرك ما أقول.

مسألة قيمة الندرة هى مثيرة للغاية، فالفضة على أيام المصريين القدماء كانت أكثر قيمة من الذهب، بل إن الحديد كان أكثر ندرة من المعدنين. مع ذلك، أعتقد أنه كان هناك كثير من القطع الحديدية فى المقبرة، مع ذلك ما تجده معروضا من هذا المعدن لا يتعدى سوى خنجر وحيد. ما الذى حدث للباقى؟ على أية حال، يبدو أن الأحجار الكريمة لم تُجمع بسبب قيمتها النوعية، لأنه فى معظم الأحوال، كان الصاغة يستخدمون الزجاج، فكل عقود الصدر التى ارتداها توت، والتى كان

يظن أنها من الأحجار الكريمة، اتضح أنها ليست كذلك. فالغرض من العقود الصدرية هو أن تكون كثيرة الألوان وجميلة، وليست لامعة وثمينة القيمة. على أية حال، يمكن القول إن كل ما وجد من أحجار كريمة هى شبه كريمة. كانوا يستخدمون الكوارتز والحجر الزجاجى الأسود لتوضع مكان الأعين ـ الحجر الزجاجى ربما يكون مصدره منطقة ليبارى التى تقع شمال جزيرة صقلية، أما التركواز فقد عثروا عليه فى سيناء، أما العقيق فربما كان مصدره أفغانستان! أما الذهب فقد جلب بالأطنان من النوبة، أما أقرب مكان للحصول على الفضة فهو الأناضول، وهم نادرا ما كانوا يستخدمونه. أيضا هم وجدوا الياقوت والفلسبار فى الصحراء، كذلك وجدوا هناك اليشب الأصفر. لكن على الرغم من أنهم كانوا يستخدمون الأحجار الكريمة إذا كانت جميلة (الكوارتز الوردى كمثال)، فإنهم كانوا فى منتهى السعادة وهم يستخدمون الزجاج الملون معتبرين إياه أنه لا يقل قيمة عن الأحجار الكريمة. أهم الأحجار قيمة فى نظرهم هو الزمرد. منظر هذه التشكيلة من المجوهرات، جعلتنى أتعجب كيف كانت "القيمة" تقدر حينذاك، وليست القيمة كما كانت تستخدم عندما اخترع الليديون النقود. أعنى أنه كيف ظهر موضوع القيمة فى بدايات الأزمان، عندما كان موضوع ما "لى" وما "لك" ما زال فى طور التكوين . لعله كان هناك زمن ما رغب فيه المخلوق الإنسانى، ليس فقط أن يجمع القطع الجميلة من الأحجار من الينابيع الجارية أو الهضاب الجبلية، لكن لكى يحتفظ بها أيضا؛ ثم بعد ذلك، وفى لحظة مدمرة وغبية، أخذ يستبدلها، هذه القطعة بدلا من تلك، أو هذا الحجر الأبيض بدلا من الحجر الأصفر. وإذا تجاهلنا بحق الإعلانات للاقتصاديين المتخصصين، الا يمكن لنا أن ندرك السر الذى من أجله خلط المصريون القدماء "المجوهرات التقليدية" مع "المجوهرات التى نعتبرها نحن حقيقية" وذات قيمة. بالتأكيد هم لا يهتمون كثيرًا بلمعان ووهج الحجر، لأنهم لم يهتموا إطلاقا بتشكيل وجوه الحجر إلا صدفة، عندما كانوا يتعاملون مع الكريستال. والقطع التى كانوا ينحتونه دائما ما يكون مستقيما. ثم، بعد ذلك، كانوا ينحتون قطعة الكريستال على شكل وجوه دائرية. مستحيل على المرء أن يضع نفسه مكان هؤلاء الناس الذين نزعوا عن أنفسهم

تصوراتنا وافتراضاتنا، الأصح أن نقول: إنها هى البراءة التى كانت من سماتهم الرئيسة. نحن دائما ما تتلبسنا حاجيات نامية معقدة ومعلومات مجهدة. هنا وهناك، نجد ما يسر كل إنسان مهما كان عمره، لكن ربما يعانى نوعا عندما يشاهد معروضات متحف ما والتنافسات المحيطة به. نجد مثلا ناووس توت عنخ آمون موضوعا فى نهاية غرفة فى المتحف المصرى، وبمشاعر رمزية لطبيعة الذهب، أكثر من ندرته أو قيمته المادية، أو حتى جماله عندما يعرض، نلاحظ أن الصناع قد غطوه بطبقة كثيفة ملونة - غالبا من المينا أو معجون الزجاج، والتى خبأت الذهب. وربما فى غرفة المجوهرات هذه، أكثر من أى مكان آخر، سوف تنكر تلك الفكرة السهلة التى تدعى أن الأقدمين "يشبهوننا فى كل شىء". نحن نلاحظ أن العكس هو ما يحدث، إنهم مختلفون تماما عنا.

هنا، فى هذا المتحف، عانيت مرة أخرى من أمور بسيطة، استطاعت أن تجعل من خططى السابقة ضربا من السخافات. كنت أرغب بحرارة أن أشاهد تمثال الملك خوفو المنحوت من حجر الديورايت، لكن بكل بساطة، لم أعثر عليه. لقد تجولت كثيرًا ونظرت إلى خريطتى مليا، لكن المتحف أعلن أنه سوف يغلق أبوابه، وهذا ما حدث.

مع ذلك، فإن رؤيتى للمتحف، اعتبرتها إضافة جميلة، فهى زيارة انتزعت من موضوع تجديد الفيزا، لذا أنا أعتبرها مكسبا. ونظرا لأننا تعرضنا لحالات من الأرق المتكرر، ورأينا الكثير فى المتحف، لذا ما إن وصلنا إلى الفندق باستخدام سيارة أجرة، حتى دلفنا إلى غرفتنا واستغرقنا ظهرا فى نوم عميق. كان هذا ضروريا بالفعل لأن يومنا هذا بالكاد يعتبر أنه قد بدأ، فالوقت مقصر والاحتمال عند حده الأقصى. كنت راغبا أن أعوض نوم عدة ليال قضيتها مستيقظا، لذا استغرقت فى نوم عميق، لدرجة أنه عندما تم إيقاظى، لم أدر أين أنا.

أتى إلينا علاء، لكى يصطحبنا لنشاهد معرضا للرسم المصرى الحديث للرسام صلاح عنانى، والذى رغبنا أن نشاهده. إنه أمر مختلف أن تكد وتجتهد أن ترى ما خلفه القدماء، لكن ما هى مصر بدون أبنائها من الجيل الحالى؟ لذا ذهبنا لنشاهد، وقد تأثرنا بالفعل. معظم اللوحات التى كانت مرسومة بالزيت-

كانت جميعا، وهذا بدا غريبا فى نظرى - غارقة فى ظلال غريبة وعتمة عجيبة. غرضى أن أقول، إنه على الرغم أن الدواخل مظللة بشكل جيد، لكن الشخوص كلها تقع فى الظل، حتى الشوارع، غارقة فى ظلال قاتمة، كأنما هناك ظلام دامس منتظر عند الأركان وينتوى أن يهاجم ما إن تواتيه الفرصة عند لحظة معينة ويغطى الرسوم كلها. مع ذلك، يشعر الإنسان بالتعاطف، كذلك يحس بأن هناك نوعًا من الهجاء تود أن تنقله لنا هذه الصور، إنه هجاء مستتر وليس مكشوفا، فمصر ليست بلدًا يتحمل ذلك بشكل مباشر. هذه الرسومات، إذا كانت تهجو شيئا، فإنها فى الواقع تهاجم الحياة فى المدن والبرجوازية السائدة فيها. كل الشخصيات التى تشاهدها، تجدها مشغولة فى عمل ما أو أنها تحدق فى فراغ لا نهائى، لا يشغلهم أى تفكير فيما يختص بخواء حياتهم، كذلك تجد أن العلاقات الجنسية المرسومة تبدو بشكل كأنما هى تعبير عن التعلق بشىء ما، عن تقارب بين أناس مشغولين بأمور أخرى. تشعر طوال الوقت، أن هناك مجاميع من البشر سيبدءون التجمع حول شىء ما، أو يتسمعون لصوت يثبت بعده أنه ليس سوى تعبير عن رعب قادم لا يمكن التعبير عنه. سألت الرسام، لما هذا الإظلام والعتمة التى حلت على كل رسوماته على الرغم أن مصر تحفل بالضياء الساطع دوما؟ أجاب بأن مصر ربما تبدو هكذا بالنسبة للغرباء، لكن (ونطق بها وهو يبتسم) منذ أن عرف المصرى نظام المدن، فإنه يقضى جل وقته فى حضن غرف معتمة، لذا فإن هذه الوفرة من الإظلام، ليس لها أى مدلول يتصل بالنقد الاجتماعى!

هذا كان يعبر عن قمة شىء ما، لكن ما هو أكثر من ذلك، أى اكتشاف باقى جسم الجبل، أو الشكل السياسى للبلد، فهذا مهما كان شكله ومحتواه، فإننى أتركه لآخرين، فليس هذا مجالى. ما كان مرسوما هناك، رجلا سمينا فوق رأسه طربوش أحمر واقفًا فوق برميل فى مكان مظلم، وقد تجمع حوله عدد من الأشخاص فى شارع ضيق معتم، وكل الأشخاص فى حالة من الظلال القاتمة. فى صورة أخرى، تتجمع «عائلة ممتدة» حول مائدة، كلهم مشدودون صامتون مشغولون بالتحديق فى شىء لم يتم رسمه. هل أنا بالغت نوعًا ما، هل هذه أنواع من التصورات التى تعبر عن الملل؟ أنا لا أظن ذلك. ففى هذه الصور نوع من

النقد اللاذع لأشياء لا تتبدى بوضوح، وتعبير عن موهبة لا يجب أن يلتفت إليها أحد، لأنه إذا تجاوز حدا معينا فإن الفنان أو الناقد سوف يتعرض لمتاعب هو فى غنى عنها. كلها تعبيرات غامضة تشبه تلك السيدة العجوز التى تحلت بمصاغ كثيفة بينما انهمكت فى سرد قصص وروايات بذيئة.

عدنا متأخرين تلك الليلة إلى الفندق وتناولنا عشاءً صامتا، والذى قدم لنا فى منتصف الليل. ثم، وأنا نصف نائم، أو ربما فى الصباح، أخذت أخط ما حدث فى يومى السابق. كان صعبا على أن أترك تلك المشاعر لوقت لاحق، لأننى وافقت فى هذا الصباح أن أقوم بزيارة إلى قرية بالدلتا، فهو المكان الأول الذى كان مفروضا أن أبدأ به لكى أتعرف على مصر، لا أن يكون هو نهاية جولتى، لذا كما ترون، هى رحلة مقلوبة رأسا على عقب.

"غدا وراءنا زيارة لمنطقة الدلتا، أنا لا أرغب فى إتمامها، سوف أفكر جديا بأن أتحجج بصداع أو بأى مرض آخر، لقد اتخمت معرفة، أو ربما عرفت القليل، ثم القليل.

كنا على بعد ١٤ دورا أعلى الفندق على الجانب الغربى من النيل، والمرور ما زال صاخبا على طريق الكورنيش، فلا زالت السيارات تحدث الضوضاء، وتبعث الضياء.

(١٨)

أطل علينا الصباح بالأرق مرة أخرى. طلبنا علاء من سيارته، صعب علىّ أن أرفض. كان هناك شخص ثالث داخل السيارة، سوف أدعوه باسم «الدكتور». كان طويل القامة نحيف القوام وأنيقًا. هو له صلة ما بإحدى الجامعات، ربما كان مستشارا طبيا. كان راغبا فى أن يتحدث، لكن لغته الإنجليزية كانت ضعيفة نوعًا ما. كان يرتدى بذلة غامقة، مكوية جيدا وهناك ثنيات فى نهاية بنطلونه، وهذا ذكرنى بأحمد وهو عائد إلى قريته، لكن بذلة هذا الدكتور ثمينة وعلى الموضة. سقنا السيارة شمالا مخترقين كبارى القاهرة الشمالية. هناك أميال وأميال من هذه المدينة الضخمة، كذلك هناك أميال من اللوحات الإعلانية، سو، وموبيل، وميشلان، وأكل، وملابس، ومطاعم، الكل يعلن على لوحتين متعارضتين ومكتوبة بلغات مختلطة. ثم عندما قل عدد هذه اللوحات، استطعت أن أشاهد الأراضى الزراعية المفتوحة، على الجانبين تراصت جبالاً من البرتقال واليوسفى لمن يريد الشراء، كلها موضوعة على الأرض وقد سطعت عليها شمس عفية، وقد تكومت هكذا لأميال عديدة. أخيرا وصلنا إلى مدينة بركة السبع، هى مدينة كبيرة يسكنها عدد كبير من المصريين، وهى بالطبع ليست مقصدا سياحيا. لاحظت ونحن ندلف من الشارع الرئيس أنها مدينة جميلة، ثم دخلنا شارعا ضيقا، وفى الحال عدنا إلى شارع واسع آخر، لكنه مصنوع من أكوام ترابية. هذا الطريق سار بنا أميالا عدة، ويبدو أن من بنوه لم يراعوا المزارع المجاورة أو التى يخترقها هذا الطريق. قال لى الدكتور إن هذا الطريق يدعى باسم شارع المعاهدة، فعندما كان الإنجليز- أى نحن إذا شئت القول - ينسحبون ليتمركزوا على شاطئ قناة

السويس، كانت الحكومة المصرية حينذاك مضطرة إلى أن تخصص هذا الطريق لكى تسهل على القوات البريطانية الرحيل - طريق المعاهدة هذا، والذى بالطبع فرض فرضا على الفلاحين واقتطع من أراضيهم الزراعية، تحيطه الآن الأشجار الظليلة على الجانبين وتسير فى وسطه قطعان الماشية والدواب، وأحيانا تمرق سيارة أو راكب على دراجة. تجد راكب الدراجة وقد ضم آلته على قلبه وهو يعاملها بحنان بالغ، لكن لن يعامل حماره مثل تلك المعاملة، بل يوسعه نغزا حتى يمشى ويتحرك سريعا. فهنا تُدلل المركبات الحديدية، لكن الحيوانات تُضرب.

التفتنا بعد ذلك نحو طريق أضيق وبجواره كانت هناك جاموسة وبقرة معصوبتى العينين تديران ساقية معدنية، ثم عبرنا على أكثر من واحدة من تلك. لا أظن أنهم كانوا يسحبون الماء من القناة المائية الضيقة، بالتأكيد كانوا يجلبون الماء من آبار محفورة. تعتبر الدلتا هى أكثر الأماكن الموبوءة بمسببات الأمراض فى مصر، لكن لاحظت أن الناس هنا يبدون فى صحة جيدة مماثلين فى ذلك سكان وسط وأعلى النيل. التفتنا مرة أخرى وأصبحنا داخل نطاق القرية التى وُلد فيها الدكتور، وواجهنا نفس ما عهدناه فى القرى المصرية التى زرناها، نفس الارتباك وعدم الانتظام والفوضى، قش، وعصى، وزبالة، ومخلفات، وقناة ضيقة بمياه عكرة وأشجار تحنو عليها. وهناك كالمعتاد أشجار النخيل، الأكاسيا والتين.

كانت نباتات المحاصيل مرتفعة الهامة، كثيفة، خضراء، داكنة الخضرة. تقابلنا مع ابن عم الدكتور، هو شاب وسيم، لا يرتدى ملابس مشابهة للدكتور، لكنه لبس جلبابا وعمة فوق رأسه. فى الحال، جعل علاء يخبرنا أنه فى إجازة، لهذا السبب هو يرتدى ملابسه هذه، هو يعمل سائقًا فى العراق وسوف يعود إلى مكان عمله آخر الشهر. إنه شعلة من النشاط، أخذ يدفعنا دفعا تجاه منزله، هناك تقابلنا مع والده، وهو رجل عجوز بلحية بيضاء، هذا الرجل استطاع أن يحفظ القرآن كله وهو ما زال فى الثانية عشرة من عمره، يبدو عليه التقى والورع وله شفتان حمراوان غليظتان جميلتان. تم تقديم الشاى إلينا، أحضرته لنا واحدة من نسوة الدار، بينما الباقيات كن يتلصصن النظر من وراء حجاب، لقد أمد القرآن هذا الرجل بكل التعبيرات اللازمة التى تتناسب مع كل حدث. سألنى عما إذا كنت

أعرف اللغة العربية، عندما أجبته بمقدار أسفى لعدم معرفتى بهذه اللغة، لذا قال لى بما ترجمه علاء: إن الله الممجد فى سماه، هو الذى خلق الناس من مختلف الأشكال والأنواع والأجناس والطبائع واللغات.

بعد نطقه بمأثوراته هذه، أحنى رأسه مؤكدا قوله لكل جماعتنا، مشابها فى ذلك الريس شاذلى عندما كان يحنى رأسه هكذا وهو يتحدث عن زوجتيه وأبنائه. شربنا الشاى فى صمت. بعد فترة قادنا ابن العم لنشاهد منزله الذى يقع عبر الشارع، والذى بناه من النقود التى اكتسبها فى العراق. هذا يمثل شكلا آخر للبعد عن البلاد حيث يعثر المرء على معيشة وكسب أفضل، ثم يحدث عود حميد إلى وطنه محملا بالخيرات والثروة. يتكون منزل ابن العم من ثلاثة أدوار مماثلا لمنزل والده. هنا لا يمكن أيضا أن تجد زاوية قائمة إطلاقا، كل شىء تجده منزاحا قليلا، كله مبنيا بالخرسانة المسلحة. وقفنا مع المالك الفخور فوق السطح الخرسانى، أخذنا نحدق فى خزين مما يبدو أنه نوع من الفضلات الحيوانية. سألت أن يشرح لى أحد عما يعنى هذا. حسنا، إنه بالفعل يمثل منظرا بانوراميا يطل على كل القرية. كل ما عليك هو أن تجهز أولا سقفا خشبيا، ثم تفرش عليه البوص بزوايا قائمة، ثم تضع طبقة من التبن، أخيرا طبقة من التراب، بعد ذلك تستخدم السقف لتخزين الوقود- عيدان الذرة، وعيدان القصب، وأحطاب نبات القطن، كذلك القش وفضلات الحيوانات. يبدو الأمر معقولا عندما تتفهم دوافعه جيدا، هذه الطريقة تتبع لكى لا يتم شغل الأرض الزراعية الثمينة التى تصل حتى حافة المنزل، حيث يزرع القمح، والفول والبرسيم. ونحن فوق السقف، لاحظت وجود امرأة تعمل فى الحقل، كانت تحمل سلة تنثر منها شيئا بين صفوف الخضروات، ليست هى البذور، لكنها السماد. هذا السماد لم يكن أبدًا لازمًا قبل إنشاء السد العالى. لعلهم كانوا يستخدمون السباخ قبلا، أما الآن فإنهم يستعملون الفوسفات الذى مصدره الصحراء الشرقية، من المصانع التى شاهدتها مقامة على شاطئ البحر الأحمر أو على الطريق المؤدى إلى كوم أمبو، فالأرض الزراعية المصرية التى كانت مشهورة بالخصب والنماء، تحتاج الآن للمخصبات الصناعية. إذن فالسد العالى، كما أعطى، هو أخذ. اكتشفت أن ابن عم الدكتور حاصل على

دبلوم فى الزراعة. نعم، إن المرأة تنثر المخصبات، بعد ذلك مباشرة سوف تنثر المبيدات المختلفة.

هبطنا من السطح، وقادنا الدكتور عبر حارة حتى وصلنا إلى مطحن للغلال. إنه ملكية جماعية. كان المطحن مزدحما بالنسوة، كلهن محملات بأسبتة أو جوالات بها حبات القمح المطلوب طحنها. علمت أن هذا المطحن كان مملوكا أولا لرجل غنى، هو أحد ملاك الأراضى هنا، لكن بعد الثورة...

ما الذى حدث لهذا المالك؟ حسنا، إنه ما زال يعيش بين ظهرانينا. نعم، هو ما يزال يمتلك بعض الأراضى، لكن ليس كثيرًا .

سرنا قليلا، فأشاروا نحو الرجل الذى كان يمتلك المطحن سابقا، أخذ هو يحدق فينا من بعيد، ثم سلك طريقا آخر واختفى بين المزروعات. قادنا الدكتور بعد ذلك ناحية إسطبل واسع بنوافذ عليها قضبان حديدية وله باب خشبى عملاق. فقط، هو لم يكن إسطبلا، إنه منزل والد الدكتور. طرق أولا على الباب، ثم فتحه بنفسه. ظهرت والدته، هى ذات حجم ضئيل ترتدى ملابس سوداء ووجهها مجعد أصفر. رحبت بنا وقادتنا عبر الخليط المعتاد من الدبش والكسر، كانت هناك معزة تشاركها المطبخ، ثم أشارت لنا نحو باب يسبقه عتبتان، فدخلنا بذلك إلى الغرفة الرئيسية بالمنزل.

على يسارنا، يستقر فى نهاية الغرفة سرير واسع، يبدو أن عمدان السرير لم يلمسها أحد منذ أمد بعيد، هناك أيضا كنبة منصوبة فى الجانب الآخر من الغرفة، ثم واحدة أخرى على يسارنا تحت نافذة عليها قضبان حديدية. على الكنبة المقابلة لنا، شاهدت أولا كومة من الخرق، لكن لاحظت بالتدقيق الشديد عمة وشالا بينهما وجه معقوف هزيل. إنه والد الدكتور، المدعو مصطفى. انحنى الدكتور وقبل والده على وجنتيه. كان الرجل العجوز مريضا. مد إلى يد هزيلة ثم مدها بعد ذلك لعلاء، بعدها أسند ظهره متوجعا. جلست تحت النافذة مع علاء. جلس الدكتور أولا على الكنبة بجوار والده، لكن أمه أحضرت له مقعدا فجلس عليه. بعد ذلك، أتى ابن العم وجلس مكان الدكتور. بدأ علاء فى الهمس فى

أذنى: الرجل العجوز اسمه مصطفى، هو فى السادسة والسبعين من العمر، هو يمتلك فدانين ويتاجر فى القمح. كان هذا غريبا. مرة أخرى، ما مفهوم القذارة؟ لقد عجزت معارفى عن الإدراك، حيث لا يتبدى فى هذه الغرفة سوى الغبار والتآكل، وما يبدو مظهره موحشا، تجده مطبوعا فى كل شىء هنا وسط عدم الانتظام المعتاد. نالت بذلة الدكتور من الحب جانبًا، وتغير لون البذلة السوداء، فهناك غبار يزحم كل شىء وخيوط العنكبوت تمتد براحتها من أعلى السقف، بينما هناك أشكال زيتية ارتسمت على كل الجدران الأسمنتية، كلها انطبعت على شكل الدكتور ومظهره الذى حضر به من المدينة، وجعلته متوحدا مع هذا المكان، أصبح قطعة منه. فجأة، جرت أمامنا مناقشة حادة صاخبة، أخذ الأب مصطفى يزعق:

«لا! لا! لا».

التفت إلى علاء الذى غمغم:

«إنهم يتحدثون عن حفيدة مصطفى، إنها ـ كيف أعبر عن ذلك ـ هى ابنة أخت الدكتور».

استمر الرجل العجوز فى الصياح، ظهرت فى الحال امرأة أخرى فى الغرفة، إنها أخت الدكتور ووالدة الفتاة. كانت تبدو كأنها فى عمر والدتها، مجعدة الوجه ولونها أصفر، ترتدى أيضا الملابس السوداء. فى الحقيقة، يبدو أن ما يفصلهما من بعض لا يزيد عن أربعة عشر عاما.

أخذ الدكتور فى التحدث مع والده بلطف وهدوء. خرجت السيدتان ليعدا المائدة. ما الذى أرغب فيه، اللحوم أم الخضروات؟ أوه، بالطبع الخضروات؛ حالا حضر إلينا الغذاء، هو عبارة عن جبن قديم، وجبن حديث، وفطير حجمه كبير موضوع فوق صينية واسعة من الزنك. استخدمنا اليد اليمنى لنأكل بالطريقة التقليدية، بينما يدنا اليسرى مختبئة، لا تستخدم إلا لقطع جزء مستعص من الفطيرة. كانت وجبة هائلة وفاخرة. الجبن القديم رائع، وإن كان قاسيا نوعًا ما. استمر الدكتور فى الحديث مع والده أثناء القضمات. الرجل العجوز لم يأكل شيئا وكان يرد على ابنه بشكل عنيف.

غمغم علاء مرة أخرى:

«سعر القمح قد هبط. الدكتور يعرف عددا من التجار المعتبرين فى المدينة. ينصح الدكتور والده أن ينتظر قليلا، لكن الأب متشائم ويريد أن يبيع الآن، حتى لو خسر مالا».

ما الذى يقولونه عن الفتاة.

إنها حفيدة الرجل العجوز، وابنة أخت الدكتور.

حالا أدركت أن علاء قد أصاب عصفورين بحجر. كنت أود أن أفوز بلمحة تختص بالدلتا وناسها، لذا انتهز رغبة الدكتور لزيارة أهله واصطحبه معنا. هذه الفتاة كانت بالتأكيد تتعرض لنوع من المتاعب، هى تدرس فى الجامعة وقد انضمت إلى لجنة معينة تكونت لكى تشكو من أحوال معينة تواجه طلبة كلية هذه الفتاة. لقد وافق عميد هذه الكلية أن يتقابل مع أعضاء هذه اللجنة وحدد يوما لذلك. الموضوع كله يعتبر شأنا داخليا يختص بهذا المعهد التعليمى. مع ذلك، منذ عدة أيام، حضر رجال البوليس وتقابلوا مع والد الفتاة، وهو فلاح عادى، قالوا له: ابنتك فتاة سيئة. كن على حذر، فأنت لا تدرى المصاعب التى سوف تنالك إذا لم تستطع أن تسيطر على هذه الفتاة. ننصحك أن تطلب من ابنتك أن تحضر إليك هنا فى البلد لتصبح تحت رعاية أهلها وحكمهم. ما الذى يمكن أن تستفيد منه فتاة من التعلم فى الجامعة؟

هنا ثارت مشاعرى، وتحكمت فى عاداتى التى تنتهج الحرية والعدالة، التى تمثل قناعاتى الراسخة.

غمغم علاء، ثم ذكرنى بأمور حدثت منذ عهد قريب. فبعدما قتل المتطرفون السادات، حدثت اضطرابات عنيفة شملت مصر كلها وكثير من أحداثها لم يصل إلى صفحات الجرائد. هؤلاء المتطرفون اكتسحوا كل مراكز الشرطة فى أسيوط - تذكرت فى الحال أصدقاءنا من رجالات شرطة المسطحات المائية ببنادقهم العتيقة!- لقد قتل المتطرفون عشرات من رجال الشرطة واستولوا على أسلحتهم ثم استمرت سيطرتهم على أسيوط ثلاثة أيام، إلى أن قامت الحكومة بإرسال

رجال المظلات الذين هبطوا من السماء. ألا تذكرون معسكر الشرطة الخاص بالتدريبات الخاصة؟ بعد مقتل السادات، كان هناك تراشق بالرصاص فى كل أنحاء القاهرة استمر عدة أسابيع، وحدثت خسارة فى الأرواح لا يعلم أحد مداها، فالحقيقة لم يذكرها أحد. لذا تجد أن الحكومة الآن حساسة للغاية من أى نقد يمكن أن يوجه للحكم، وفى حالة ظهور ولو بوادر بسيطة، فإنهم يرسلون حالا رجال الشرطة.

عاد الحديث ليصبح عنيفا مرة أخرى. هذه المرة كان هو دور والدة الفتاة، أخت الدكتور، وقد فهمت ملخص احتجاجاتها:

إنها فضيحة، أنا لا أتحمل ذلك أبدًا . إنها سوف تدخل السجن، وسوف يصيب عائلتنا الخراب والضياع. فضيحة، أيوه، فضيحة!

أخذت الجدة ضئيلة الحجم تخبط كفيها تحسرا، وقد أقسم لى علاء أن الترجمة دقيقة تماما.

قالت: المفروض أننا لا نهتم كثيرًا بهذا الموضوع... إنه عمل نبيل أن تشترك ابنتنا فى هذا الاحتجاج.

قال الجد: "لا! لا! أنا لا أقبل بذلك أبدًا ! سعر القمح فى النازل، وكليتاى تعذبانى، ثم الآن رجال الشرطة ، ما الذى فعلته حتى يطفو موضوع هذه الفتاة البائسة ويفوق كل اهتمام آخر؟ أحضروها إلى هنا وأنا أقتلها بيدى هاتين!"

لقد نطق الرئيس، لذا استمر الصمت لفترة من الزمن. ثم بدأ الدكتور فى التحدث مجددا وبكل هدوء، ولم ينطق غيره ببنت شفة، وهذا ما استقر عليه الشأن كما اتضح لى، سوف يذهب الدكتور ليتقابل مع والد الفتاة وعليهما أن يقررا ما الذى يمكن عمله. هو يعلم كل خفايا الجامعة، يعلم هو أن هناك عددًا كبيرًا فيها من الرجال المخلصين المتفهمين، لذا هو سوف يغادرنا لفترة خمس عشرة دقيقة فقط لا غير.

تم إحضار الماء، وصب على أيدينا بينما هناك وعاء أسفل يتلقى. قام الدكتور وخرج ليؤدى ما وعد بأدائه. أتى إلينا والد ابن العم، ذلك الذى له شفتان

حمراوان غليظتان ويحفظ القرآن كله على ظهر قلب. انحنى أمام الجميع محييا. بعدها جلس بجوار كومة الخرق والوجه المعقوف الأصفر، الذى لا أرى فيه أى ملمح من الدكتور. بدأ الجد مرة أخرى فى ذكر مشاكله مع أسعار القمح والحفيدة وما يعانيه من متاعب أمراضه، بينما كان يرد عليه ذو الشفتين الغليظتين مهدئا وهو يتلو بعضًا من آيات القران الكريم التى تساند أقواله.

أغمض الرجل العجوز عينيه، مرت خمس عشرة دقيقة، نصف ساعة، خمس وأربعون دقيقة ثم ساعة. حل علينا صمت قاتل لا نسمع ما يتردد سوى بعض الغمغمة بالآيات.

عاد الدكتور أخيرا، وجرى حديث مطول. لقد نصح هو والد الفتاة أن لا يفعل أى إجراء لمدة عشرة أيام، ربما لا يكون الأمر سوى نوع من التخويف، وأنه إذا استدعى الفتاة، فهذا يعنى أن العائلة قد ارتكبت بالفعل خطأ ما. على الجميع أن ينتظر وينظر، فأبسط الأمور هو أن ننتظر ونرى، ربما لا يحدث شىء.

حان وقت ذهابنا. انتهى المشهد، وكان مقدرا لى أن لا أعرف أبدًا ما حدث لاحقا فى هذا المسألة. وقفنا وتقدمنا بجزيل تشكراتنا. الموقف كله كان عبارة عن مشهد درامى، لكن مشكلة سعر القمح لم تحل، وآلام الكلى أصبحت أكثر سوءًا، أما المشكلة التى تسببت فيها هذه الفتاة، فإنهم لم يتوصلوا إلى قرار حاسم بشأنها. إنها جميعا مواقف درامية الشكل، لكن ليست دراما!

فى السيارة، ونحن نسلك الطريق القذر، التفت الدكتور نحوى قائلا:

ما الذى يمكن أن يحدث فى إنجلترا إذا واجهتكم مثل تلك المشكلة؟

بصراحة، الفروق شاسعة للغاية، لم يسعفنى الفكر من أين أبدأ، لذا قلت:

لا يستطيع البوليس...لا، دعنى أفكر.

فى الحال، برقت فى ذهنى حقيقة الفروق:

فى إنجلترا، فإن انشغال العائلة ككل، لن يكون أبدًا بهذا القدر من الاتساع، سوف يكون انشغالا فرديا، إذا تفهمت ما الذى أود أن أنقله لك.

«أنا فاهم».

فقط إذا كانت الفتاة صغيرة فى السن، فإن هذا أمر يختص بوالديها، ولا واحد غيرهما.

آه

لن يظهر فى الصورة احد غيرهما، لا الأعمام أو العمات أو الجدود.

أبدًا؟

إنهم لا يتوقعون ذلك.

هز الدكتور رأسه، ثم قال:

حسنا، انت الآن لديك تصور كامل لما تذكره الكتب عن الأحوال فى العالم الثالث وكذلك العائلات الممتدة.

لقد كنت أظن دوما أن فكرة العائلات الممتدة هو أمر حسن فى ذاته.

ضحك كل من علاء والدكتور، لكن لم ينطقا بشىء.

لذا عدنا سالكين طريق المعاهدة، ثم سرنا فى طريق العودة الزاخرة بأكوام البرتقال على الجانبين تحت الشمس المشتعلة. كان الأمر كله مأساوى بشكل ما، لكنى أنا هو الذى طلب أن يتفهم الأحوال المعيشية للمصريين، لا سيما حياة الفلاحين، وكان من نصيبى أن أزور هذه العائلة الممتدة، وتتميز بالفكر الضيق، فهناك الجد الذى يعانى مرضا فى كليتيه، ذاك الذى جرحت مشاعره وصدم بسبب تصرفات الحفيدة! وهناك تلك الأم التى تتحكم فيها المرارة أكثر من القلق، والأب الذى لا يزيد اهتمامه عن الآخرين، ثم هناك الابن المتعلم، الذى يحاول أن يلطف المشاعر المشتعلة وينصح أخيرا بأنه من الأفضل عدم اتخاذ أى إجراء.

لكن الأمور عموما تحسنت عندهم، فالدكتور هو دكتور، وابن العم الذى يعمل سائقا فى العراق، لديه دبلوم فى الزراعة.

قل لى يا علاء ـ ابن العم هذا الحاصل على دبلوم فى الزراعة- ما الذى سوف يفعله عندما يعود إلى الوطن؟

إنه يفكر أن يشترى سيارة أجرة.

وماذا عن أرضه الزراعية؟

من يعلم؟

إنهم يحصلون على الماء النقى من المدينة القريبة، وحيواناتهم القليلة تبدو فى صحة جيدة، والرجل العجوز لديه فائض من محصول القمح يريد أن يبيعه.

علاء، ما هو مقدار النقود التى يمكن أن يحصل عليها الجد عندما يبيع محصوله الزائد من القمح؟

حوالى ألفين من الجنيهات المصرية.

إذن فهذا الجد يعتبر من كبار الفلاحين، وابن العم سوف يشترى سيارة أجرة، ثم بعد ذلك ربما يدير مجموعة من سيارات التاكسى، بعدها يصبح رجلا عظيما. لكن ما الذى يحدث لحقله الصغير الذى يصل حتى حدود منزله ذى الزوايا الخاطئة؟ أما عن الحفيدة- والتى أتصورها ذات وجه مستدير بملابس عصرية غريبة مع جونلة طويلة ومنديل يغطى شعرها- بالطبع سوف يتقدم إليها العرسان، لكن إذا استمرت فى كليتها وحصلت على شهادتها الجامعية، فإنها بالطبع سوف تنضم إلى طابور طويل من العاطلين عن العمل. تذكرت كيف كان ابن العم يحكى عن هجوم الإيرانيين على العراقيين، وكيف تصرف هؤلاء فى هذا الشأن، إنها جميعا فى رأيى، أمور مسلية.

إذن فقد عدت مرة أخرى إلى الفندق، محاولا أن أستجمع شتات نفسى. لقد صنعنا كل ما عاهدنا أنفسنا أن نفعله، لكن فى الحقيقة، كانت كل الأمور تجرى فى مسارات غير مرضية تماما. كان هذا، وذلك ما أعتقد فيه وأظنه، أن الظروف هى التى تحكمت فى كل شىء. لقد قاومت هذه الحقائق لعدة شهور، لكنى تقبلت الآن فكرة أن كل ما كتبته لم يكن عن مصر، بل عن نفسى أنا، أو إذا أردت، عنا نحن الإنجليز من الطبقة الوسطى القادمين من جحر هادئ فى إنجلترا، ونحن نجوس ونجول فى خضم تعقيدات لا نهائية، لا نوجه أنظارنا نحو شىء محدد، لكن نأمل أن نصادف الحظ الحسن. ليس الأمر أن هناك أكثر من مصر، لكن فى

الواقع هناك عدد كبير من صور مصر داخلى، وليس واحد منها فى حالة صراع، لكن ولا واحدة منها له صلة بالشكل الآخر، فوادى النيل ملىء بمخلفات ملايين الأعوام، ونلاحظ أن صف الأهرامات المعروف يعتبر حديث العهد نوعًا ما، ثم هناك المسلمون والأقباط، العرب والإسرائيليون، كذلك صليب عنخ الموجود بكثرة فى الكنيسة الكاثوليكية ـ كنت فى الواقع أحاول أن أحقق ما كان المصريون ذاتهم يحاولونه باستخدامهم الكثير للصفة «فرعونى». إنه تظاهر بالوحدة خلال مجرى الزمان حيث كان، وما يزال، لكن لا توجد أى صلة.

كانت حركة المرور تجرى كأنما هى نهر من الضوضاء تهدر تحت نافذتى، ونحن لسنا سوى بعض السياح المتميزين، نشاهد كل ما هو غريب بين الحين والآخر، لكن يصعب علينا أن نربط فيما بينها من علاقات ووشائج. وحتى إذا تمكنت يوما أن أعود إلى مصر مرة أخرى، فإن الزيارة الجديدة سوف تضاعف من ارتباكى، لا أن تبسط من اتجاهاتى. هناك مثلا مدن وأرجاء فى سيناء لم أشاهدها، كذلك الواحات، هناك أيضا أراضى النوبة التى لم أتحقق عن مدى امتدادها بعد إنشاء السد العالى الذى أغرق قراها القديمة. وحتى خارج نافذة الفندق الذى نقيم فيه، هناك مدينة حديثة لم نجس فيها بما يكفى. كيف يمكن لى أصف كل هذه الارتفاعات التى تراصت على ذلك الجانب من النيل؟ إنها تبدو كأنما هى أشكال ورقية، بينما تبدو المعابد المصرية كأنها صناديق كرتونية بنية اللون، ويبدو الأمر هكذا على الرغم من عدم وجود أى صلة بينهما. يبدو الأمر أمامك كأنك تنظر نحو عش للحشرات وأنت تتطلع لهذه المرتفعات التى أمامك تحت شمس حارقة، مع ذلك هى لا تشبه خلايا النحل، لكنها تبدو كأنها أسنان المشط التى أشرعت إلى أعلى، تبدو كأنها تجهيزات تختص بنظام إلكترونى. تعطيك أشكال البلكونات الورقية كأنك تنظر إلى كوز للذرة مخليا من البذور، لكن إذا كان شكلها الأسمنتى الخرسانى يعطيها شكلا أكثر صلابة، حينئذ ربما تفكر أن تجرى ظفر إبهامك عليها لتصدر لحنا موسيقيا. الألوان؟ هى إما بلون البسكويت، البنى الخفيف، البنى الغامق، كلها ألوان غير ظريفة، ويبدو أنهم يتعمدون أن تكون هكذا، هو نوع من المرض الذى اجتاح المدينة كلها، إنه تشويه رسمى.

كنا ننوى أن نشاهد النوبة، لكننا شاهدنا كلابشة. كنا نرغب أن نشاهد الفلاحين الفقراء، لكن فى معظم الأحيان لم نتقابل سوى مع الموسرين منهم وأصحاب الحرف. لذا إما أننا دفعنا دفعا وبتعمد لأن نسلك طرقا ظن الآخرون أنه من الأنسب أن نسلكها- أو أن ثراء وصحة المصريين قد انتعشت وارتقت، ربما بسبب انتشار مشروعات تنقية المياه، أو اتباع نظريات اقتصادية غربية أحدثت طفرة يصعب تتبعها. لم أشاهد ولدا بائسا هو عبارة عن هيكل عظمى وسيموت فى القريب العاجل. لقد قيل لى إن الصعيدى يمكن أن ينجز عمل عشرة أفراد من سكان الدلتا، لكن هذا ليس حقيقيا، وأنا متأكد من ذلك تماما. مع ذلك، أرى أن من يتقدم بمثل هذا الافتراض عليه أن يكون طبيبا متخصصا فى المقام الأول.

لقد تعبت. توجهت إلى سريرى متعبا ولاحقتنى أحلام مرتبكة، ثم وأنا مازلت أحس بالتعب، استيقظت من نومى لأواجه يوما حافلا ذا التزامات جسيمة تطول حتى تضاهى النيل فى طوله. إنه اليوم الذى (بصفتنا من المنتجات الثقافية) سوف يتم فيه تقديمنا للسيد وزير الثقافة. لذا شددت من عزمى وقررت أن ألقى بعدد كبير من الأسئلة. أعتقد أيضا أن زوجتى كانت تنوى أن تثير موضوع محطة التجارب الزراعية التى تهدف إلى زراعة مليون شجرة زيتون، وأن لا يتم إغلاقها. من جانب آخر، تعلم هى تماما ما الذى تعنيه الزوجة فى مصر، وهى أن تكون وراء زوجها بخطوة وأن لا تتحدث إلا إذا تم السماح لها بذلك. لكن بالنسبة لى، وأنا الذى أعرفها جيدا، أقول إن الصراع كان متوقعا.

تم استدعاؤنا بعد الإفطار مباشرة، فقد وفد عدد من رجالات الوزارة ليصطحبونا إلى مقر الوزارة. هذا المقر لا يشبه بالطبع ذلك المنزل الذى زرناه بالأمس. إنه مكان لا يمكن القول سوى أنه جدير بأن يكون موقعه فى الشامب- إليزيه. دلفت داخلا أنا وزوجتى وعلاء وجلسنا. حضر إلينا الوزير تحيطه ثلة من المساعدين، لكن اتضح لى على الفور أنه بالفعل إنسان جنتلمان مصرى ومحترم، يرتدى أفضل أزياء (سافيل رو) ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، تكتنفه مظاهر السعادة البادية وحسن الطبع، هو إنسان مستمتع بالحياة، تلك التى كنت مخطئا عندما ظننت أنها خاصية مرتبطة فقط بالإنسان النوبى. من الواضح أن تلك

الخاصية يمكن أن نتلمسها أيضا فى الإنسان المصرى. بدأ بعد ذلك الحديث، وبالطبع صمت علاء، فلسنا الآن فى حاجة إليه. كل الأمور كانت تسير سيرا حسنا ومفعمة بالمشاعر الطيبة. لكن أنا لم أتمكن من إلقاء أى سؤال، بل لقد انهالت علىّ الأسئلة! بعد عدة استفسارات تختص براحتنا وصحتنا، ظهر الإحراج الوزارى. فقد اتضح لكونى منتجا ثقافيًا، إذا ربما يكون لى بعض النفوذ عند جهتين محددتين فى إنجلترا، هما المتحف البريطانى، أيضا رئاسة الوزارة البريطانية! هذا يُعد نوعا من المديح، لكنه مثير للأعصاب أيضًا. تمكنت أخيرا أن أذكر موضوع كلابشة وطلب النوبيين أن يتم إنشاء طريق يصلهم بالنوبة القديمة؛ ومرة وحيدة شاهدت آن وهى تحاول أن تفتح فمها ثم تقفله. مع ذلك، يبدو أن إنشاء الطرق ليس شأنا ثقافيا، بينما هناك أمور فى المتحف البريطانى لها ذلك الطابع الثقافى، هذه الأمور، كما عبر عنها سيادة الوزير، صعبة للغاية، فمما لا شك فيه أن لحية أبى الهول الراقدة فى أحد أبهاء المتحف البريطانى، ليست بذات أهمية كبرى بالنسبة للمتحف، لكن هنا سوف يكون لها شأن كبير إذا أعيد لصقها بالتمثال الشهير، لكن هناك بالطبع قواعد وتعليمات! ويا لها من تعليمات.. وهكذا. لكن ما الذى يمكن أن أفعله؟ فى النهاية وعدت أن أكتب عن هذا الموضوع فى مجلة التايمز. وقفنا أخيرا لنغادر، لكن ما زال وراءنا موضوع الهدايا، وهذه العادة المصرية دائما ما تسبب إحراجا بالغا، فرحلة العودة بالطائرة تجعل من عملية حمل كل هذه الهدايا الثقيلة فى حكم المستحيل، لذا لم أنظر أبدًا بارتياح لكل هذه الهدايا التى انهالت علينا من المنيا حتى القاهرة.

لكن هو قدم لنا هدية من نوع آخر، ووجدت أنها ذات فائدة لا تنكر، فالوزير وهو يشرح لنا مهام وزارته، أخبرنا أن وزارته قد أزاحت ٥٠ ألف طن من المخلفات من القاهرة، وسوف تتخلص قريبا من الباقى، هذا بالطبع أمر ضرورى لكى تتجمل المدينة وتظهر فى أحسن صورة، وعندما سوف يقومون بتنظيف الشوارع الجانبية، إذن سوف تتبدى القاهرة كأنما هى مدينة أوروبية. أكثر من ذلك، أخبرنا الوزير أن وزارته تعمل الآن على ترميم المساجد القديمة الأثرية ليعود إليها رونقها السابق. هل شاهدنا مثل هذا العمل؟

لا، لم نره.

فى هذه الحالة، هو سوف يرسل معنا فلان (قام فلان هذا بكل رشاقة من مكانه) وسوف تتاح لنا فرصة أن نشاهد بأم أعيننا ما الذى تفعله وزارة الثقافة لتحفظ وتحمى الموروثات الإسلامية المصرية. لذلك بعدما قدمنا خالص الشكر والامتنان لسيادة الوزير، غادرنا الوزارة، أما زوجتى فلم تتح لها أبدًا أى فرصة لأن تذكر موضوع المليون شجرة زيتون.

لكنى سوف أفعل، هذا ما وعدت به!

عليك إذن أن تتجهى إلى وزارة الزراعة.

سقنا مخترقين شوارع القاهرة، ببطء كالمعتاد- فقيادة سيارة بسرعة ميل واحد داخل القاهرة سوف يكون إنجازا، فأنت دائما محاط بزحام رهيب ووقفات متكررة تمنعك تماما أن تصل بسرعتك المعتادة، التى هى ٦٠ ميلا فى الساعة.

هذا المسجد الذى شاهدناه كان ضخما، إنه من إنشاءات القرن الرابع عشر، وقد احتل مكانا عظيما فى ميدان كبير، لقد كان يوما مدرسة أيضا، أو استمر هكذا- وربما كان جامعة، لكن من هم مسموح لهم أن يردوه الآن هم المرممون فقط. هؤلاء كانوا بالفعل مدهشين. وبخبطة واحدة، أدركنا ما الذى يحدث، وهو ما عبر عنه علاء فى لحظة تجلى بقوله إنه الإحياء الإسلامى. إنه ليس فقط استرجاع للشكل الأصلى، لكن هو اتجاه يعبر عن رغبات وأمانى المسترجعين. أعتقد أن المكان كان ينشغل بخمسين من هؤلاء العاملين فى الترميم. كانوا يعملون فى هدوء وتركيز، تشع السعادة من خلال كل تصرفاتهم، هم أكثر هدوء وصفاء من النوبيين، يرتدون جميعا الملابس الغربية، وهناك بعض من الفتيات لم يكن حتى يغطين شعورهن. هناك وهناك نصبت موائد نصبت عليها الخرائط والصور الفوتوغرافية توضح الحفريات وأشكال الكتابة البارزة. حول هذه الموائد تجمع عدد كبير منهم يتحدثون بصوت خفيض عن العمل المكلفين به. هنا وهناك، ينهمك شباب صغار فى إنجاز الأعمال الصعبة، تنظيف أسطح الأحجار، التقاط الأقذار التى تجمعت حول النقوش، جميعا اندمجوا فى أعمالهم بعمق وجدانى.

تقدم فلان الفلانى من الوزارة وقدمنا إلى مدير الموقع ، ذاك اصطحبنا فى جولة، بدأنا أولا بالمرور من مائدة إلى أخرى. فى جزء منها كان البعض مشغولا بإعداد وجبة طعام لكل هؤلاء العاملين، أمام مائدة أخرى شاهدنا خبراء يحفرون أحجارا خاصة لتحل محل ما فقد أو استهلك. على مائدة ثالثة، كانت الألوان تخلط، هى ألوان زاعقة مؤكدة تتناسب مع الإسلام والعالم العربى.

دخلنا إلى المسجد ذاته، الألوان السائدة كانت اللون الأزرق والذهبى، حيث نجد بعضًا من عبارات القرآن الكريم بلون ذهبى على أرضية زرقاء. قيل لى إن الخط العربى جميل، لكنى بالطبع نظرت نحوه نظرة الجاهل، فبالنسبة لى، أقول بأن الأشكال كانت مقبولة ليس أكثر، وقد تقبلت كل ما قيل لى بصدر رحب.

يحتوى هذا المسجد على زجاج مصنفر ومعشق، هنا وجدت نفسى واقفًا على أرض صلبة، فهذه النوعية من الزجاج كان استخدامه منتشرا منذ أيام القرون الوسطى فى أوروبا، ويُعد هذا الأمر هو المنطلق المناسب للمقارنة، ولا شىء يمكن أن يعلو عليه. لاحظت أن المصريين العرب أو النوبيين قد برعوا فى خلط الألوان التى يمكن أن تدعوها بالألوان المبهرجة. وعندما يجمعون الزجاج المعشق بعضه على بعض، بلا تغيير يصنعون أشكالا محددة، لذا لا يمكن القول بأن ما شاهدته فى هذا المسجد يُعد متميزا، فهذه النوعية من الزجاج الجنوبى، ليس دقيقا فى صناعته. لكن مع ذلك، لقد حاول هؤلاء الشباب المتخصصون أن يعيدوا هذا الزجاج إلى صورته الأولى.

هناك ملاحظة تتعلق بهذه النوعية من الزجاج المعشق، والتى تبعث السرور فى قلبى (طالما أن الفكرة الراسخة تؤيد المقولة بأن مهمة هذا الزجاج فى المقام الأول هى حجب الأضواء الخارجة من المكان، أكثر من السماح بدخول الضوء) هو أن الزجاج كان مقبولا كوسيلة ناجعة لمنع دخول ضوء الشمس ـ كذلك ضوء القمر! وكانت دائما ما تدعى باسم «نوافذ الشمس والقمر». هذا اسم يوحى بقمر جنوبى كامل الاستدارة، مماثلا لذلك القمر الذى شاهدناه متلألئا فوق سماء

خالية من الغبار والسحب فى سماء الصحراء الشرقية، هو قمر يمكن أن تقرأ شيئا فى ضوئه، وهذا ربما يتعب عينيك إذا ركزت النظر، ليس بسبب التركيز فى تدقيق انحناءات الحروف، لكن بسبب البياض الذى لا يُحتمل عند التطلع إليه.

أخذنا ندور داخل هذا المستطيل الضخم، مستمتعين بقدر من الصمت، الذى كان يقطع أحيانا بسبب غمغمة استشارية، وخبط خفيف بمطرقة خشبية، ثم يبرق أحيانا صوت عنيف صادر من سقالة عليا حيث يتم تثبيت حجر كبير فى ركن معين. إنه جو مفعم بالصحة، فيه تعلم أن الهستيريا قد انزاحت جانبا حيث إن كل ما يصنع، إنما يصنع من أجل جلال الله ورضوانه.

لكن ما زال أمامنا موعد آخر، لذا قادتنا السيارة فى اتجاه منطقة القلعة، ثم درنا يسارا إلى منطقة أخرى أعتقد أن اسمها الجمالية، كنا قادمين لنزور المهندس حسن فتحى. إنه يسكن فى الدور الأخير من قصر مملوكى. لذا تسلقنا سلما حلزونيا أعتقد أنه يكون أكثر تناسبا مع تسلق قمة كاتدرائية. قابلنا الرجل بكل ذوق وأدب، كان لقاؤنا الأول صعبا بسبب قططه السبع. فى كل نصف دقيقة، كانت هذه القطط تتعارك مع بعضها البعض وتصدر منها صيحات غريبة، بينما ينهر السيد فتحى قططه بكل لطف ممكن. جلس أمامنا مرتديا بذلته الكاملة أمام مائدة مشغولة بعدد قليل من الأوراق. لقد حضرنا لكى نحيى الرجل ليس أكثر، لكن هذا كان صعبا بسبب معارك القطط. أخيرا حضرت مديرة المنزل، وهى سيدة مصرية ترتدى الملابس البلدية واستطاعت أن تسيطر على قطيع القطط- فكيف يتسنى للإنسان أن يجد اسما مناسبا لتجمع من هذه الحيوانات التى تتميز بتفردها؟ ـ تمكنت هذه السيدة بالإغراء بالطعام بأن تخرجهم جميعا وتقفل عليهم وعليها الباب.

عندما تقابلنا مع حسن فتحى، كان هو فى الثانية والثمانين من العمر، وقد قيل لنا إنه أحيانا يتوه فى الحديث، لكن نحن لم نكتشف فيه مثل هذا. اخذ يغمغم قائلا بأن كل ما صنعه كان مآله الفشل على الأقل داخل مصر، لقد حاول مرة بعد أخرى، لكن جهوده ضاعت هباءً. قلت مدافعا إن المسجد والمنازل التى

صممها فى القرنة الجديدة هى أكبر شاهد على تميزه، ويا حبذا لو تقدم السواح الذين قدموا لمشاهدة تمثالى ممنون بضع خطوات ليتطلعوا على هذا الإنجاز المدهش.

رفض هو هذا المنطق، لأنه بلا فائدة تذكر، فالمفروض أن من يجب أن يتم التواصل معهم هم الفلاحون ذاتهم ، وبعد ذلك، حسنا، ربما الحكومة أيضا، هذه الصخرة الصلدة التى لا تشاء أن تتحرك من مكانها. كل أعماله تعرضت هنا للفشل، بدا أمامنا كأنه يعمل راعيا للفشل، يحنو عليه ويهدهده.

ثم لاحظنا بعض أمارات الابتهاج تتبدى على وجهه.

مع ذلك، وأنا فى المكسيك، فى نيومكسيكو، قضيت هناك ثلاثة وعشرين يوما... ألا تعلم ذلك، لقد أعجبوا تماما بعملى! عرضت عليهم فكرة بناء القباب بالطوب الطفلى، وتحمسوا للفكرة فورا! لقد حاولت فعل ذلك هنا فى مصر لمدة أربعين عاما ولم أحقق شيئا، لكن فى نيومكسيكو، وفى مدى ثلاثة وعشرين يوما حزت على النجاح المؤزر! حتى كتابى، هم قرءوه، ويعتبر كتابى هذا مرجعا هندسيا فى كل من أمريكا وفرنسا.

ظللنا معه وقتا، ننقل إليه مقدار إعجابنا بدون أن نثقل عليه. أخيرا قمنا وودعنا المهندس فتحى بكل مودة مترجيا لنا كل التمنيات الطيبة، ثم هبطنا سالكين هذا السلم الحلزونى حتى تقابلنا بالليل أسفل المكان. قال علاء: فى الواقع، أنا لم أخبركم من قبل أنه كان أميرا.

بشكل رسمى؟

طبعا... لكن مع قدوم الثورة...

أخذنا علاء بعد ذلك لنقضى بقية الأمسية مع أحد أصدقائه الذى يعمل منتجا سينمائيا فى مجال إنتاج الأفلام الوثائقية، لا سيما فيما يختص بالحياة المصرية. توضح هذه الأفلام كثيرًا مما شاهدناه بالفعل، رأينا مثلا عاملا فى ساحة للطين يصنع ويشكل الأوانى الفخارية المختلفة، فيلما آخر عرض علينا قصة بعض الهاربين من جحيم الحرب التى نشبت بين مصر وإسرائيل وكان

مسرحها مدينة السويس، رأينا أمًا هاربة ومعها أطفالها، وكانت تتحدث عن أطفالها وحيواناتها التى تركتهم ورائها، وهى غير مميزة بين هذا وذاك. كان هناك أيضا استعراض لقرية ما حيث يختلط العمل باللعب، ثم يركز المخرج على مجموعة من الأطفال يلعبون، لكن فى لحظة معينة يتوقفون عن اللعب ويندفعون جريا حتى يقفون أمام منطقة لعبور القطار منتظرين وصوله. إنه أهم حدث فى نظرهم لهذا اليوم. قدم القطار بالفعل وسار الهوينى، أخذ الأطفال يلوحون بأيديهم والناس يحملقون فيهم من وراء زجاج القطار، وكلا الطرفين بعيدان تماما عن بعضهم بعضًا. اسم هذا الفيلم القصير "قصة القرية التى لا يقف فيها القطار". لقد شاهدنا فى هذا الفيلم عرضا لاحتفال تعزف فيه الموسيقى العربية، ذلك أعاد لذاكرتى تلك المواقف التى عهدتها عندما كنا على ظهر المركب مع علاء والريس شاذلى، عندما يقوم الأخير بتغيير محطة الراديو لكى يستمع إلى الموسيقى العربية. هذا الفيلم الأخير عرض علينا الكثير من ملامح الحياة المصرية، ونحن ممتنون لهذا المنتج. لقد عادت إلينا نفس الروح التى بدأنا فيها جولتنا - عدنا بعد ذلك إلى الفندق، وارتمينا على أسرتنا، ثم اختفى الليل بدون أثر يذكر، وفى لحظة أدركنا أن هناك وراءنا مقابلة صحفية فى الصباح، لذا قمنا فجرا وانهمكنا فى حزم متاعنا استعدادا للسفر. ثم تقدمت آن أولا لحضور هذه المقابلة الصحفية، وعرض عليها كل ما كتب عنا فى جرائد الصباح عن مقابلتنا للسيد وزير الثقافة، لذا تشجعت هى وناشدت النسوة المصريات أن ينقذن معهد إكثار المانجو وأشجار الزيتون، وقالت إن على كل مصرى واجبًا وهو أن يقدم لزوجته هدية، وهى عبارة عن شجرة زيتون! ألا ترى معها النسوة المصريات مدى جمال هذه الفكرة؟ إنها مليون شجرة زيتون! بعد ذلك جلست أنا فى المقابلة وأجبت على الأسئلة نفسها التى أتلقاها دائما. فجأة، بدأت مظاهر الاحترام والتبجيل تنهال علينا من إدارة الفندق، وبعدها قدمت لنا الفاتورة مصحوبة بكثير من الاعتذارات. ثم تم توصيلنا حتى المطار، هناك تبادلنا تحيات وداع عاطفية مع علاء، ودخلنا صالة المطار كما لو كنا نسير فى رحاب حلم، وما إن استقر كلانا داخل الطائرة حتى استغرق كلانا فى نوم عميق. ونحن نيام، طرنا فوق الوادى

الضيق، ثم دخلنا مجال البحر الواسع، اليونان، ويوغوسلافيا، والنمسا، وألمانيا... استيقظنا والطائرة فى رحلة هبوطها الحثيث عبر بحر الشمال. إنه بالفعل حلم.

ما حاولت أن أصفه فى رحلتى هذه، كذلك الستون صورة المرفقة، يدخل ضمن الأنشطة السياحية، لكن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن مصر بلد رائع، ولعلى استطعت أن أشرك القارئ فى هذه المشاعر - هذا إذا كانت الحقائق فى حاجة فعلا إلى قارئ- لذا دعنى أطلق عليها بأنها نوع من الاقتراحات. من ضمن هذه الاقتراحات، أقول إن مشكلة مصر الأساسية تنحصر فى عدم اهتمام أهلها بالجمال المحيط بهم، ومن هم فى السلطة ويمتلكون النفوذ فى تلك البلاد قد خفى عليهم أن يتضافروا ويزيحوا عن بلدهم خطر هذا القبح الذى يتبدى فى أشكال المبانى الأهلية، وربما يكون الإهمال متعمدا من جانب ما يمكن أن ندعوه باسم "المصالح الخبيثة". لا أقول أبدًا إن اللجوء إلى أفكار المهندس حسن فتحى واستخدام الطوب اللبن وفكرة الأقبية هو الحل الأمثل لهذه المشكلة، لكن على الأقل فإن اتباع بعض من أفكاره ربما يرد لمصر بعض مما فقدته، وأن يؤمن المسئولون بأن إنشاء المبانى المناسبة أكثر أهمية من الاهتمام بالخرائب.

فى خضم جولاتنا التى قمنا بها فى أنحاء مصر، أجبرنا أن نرتكب خطأ فادحا، هو محاولة أن ننظر إلى كل شىء وأن يكون لنا رأى فى كل شىء، بالطبع سوف تكون النتيجة هى تكوين آراء من لا شىء. إذا كان من المفترض أن تكون يومياتى لها امتداد، كان علىّ أن أنظر دائما إلى ملاحظاتى وأن أضع فيها إحساساتى الآنية مع كثير مما أفكر فيه. سوف يجد القارئ هنا وهناك وصفا كافيا يمكنه إلى حد ما أن يشاركنى مدى تأثرى واهتمامى بكل ما عهدته فى رحلتى الغريبة تلك، وهناك دائما نوع من الغرابة تكتنف أى رحلة يقوم بها الإنسان لمكان جديد عليه.

إذا وجد المسافر نفسه مثلى ساندا رأسه على سرير فى قمرته محملقا ورافعا رأسه لكى يستجلى محددات صخرة تبعد عنه بمقدار ميلين، بينما هو واع تماما فى الوقت نفسه أنه معلق وسط واد غير مرئى عمقه ميلان أيضا، فإنه سوف يضيف إلى خبراته طريقة معينة للخيال والتصور بشكل غير مألوف. إذا شعر أنه

سوف يستفيد من رحلته تلك ويتوصل إلى آراء محددة وموثوق بها ثم يؤلف كتابا يصف فيه كل ما شاهده، فإنه يكون على صواب، وأنصحه أن يتمسك بطبع المائة صورة التى اصطحبها معه لكى تنشر فى هذا الكتاب أيضا. الموضوع كله، بالنسبة لى، كان نوعًا من التحدى لمعرفة ما الذى يمكن أن ينهض من خلال تلامس حضارتين وثقافتين مختلفتين من حيث الخبرات والحياة المعاشة.

أخيرا أنقل لكم قطعة كانت مسجلة على ورقة بردى ومكتوبة باللغة اليونانية القديمة، وهى الفقرة التى وضعتها فى صدر هذا الكتاب:

أنت أيها البحار الذى ينزلق فى غمار البحار العميقة، أنت يا بطل البحر المالح، قل لى يا صديقى، وصف لنا مشاعرك وأنت تشاهد راكب النيل فى مساره السعيد، وسط المياه التى تبتسم له، ما الفرق بين المحيط وهذا النهر الجالب للخير؟

وأريد أن أوجز، ولا أجد عبارة توجز هذه التجربة بكل تعقيداتها الغريبة الحمقاء أكثر غناءً من عبارات حمقاء أيضًا كتبها عظيم من عظماء بلادنا: واحتفاء بعودتنا فى النهاية إلى بلادنا نقتبس عبارات حمقاء أيضًا من آدابها أراها أفضل تفسير للتجربة وأفضل خاتمة:

فهذا الدرهم من الرزيلة يطغى ويصبغ بلونه المعيب الجوهر النبيل بأسره (*) .

(تمت)

(*) وردت العبارة فى مسرحية هاملت لشكسبير فى الفصل الأول المشهد الرابع، والترجمة لمحمد مصطفى بدوى، عن المركز القومى للترجمة ٢٠٠٩ رقم ٨٤١ / ٢ (المراجع)

الكاتب فى سطور:

سير وليم جولدنج

ولد هذا الكاتب عام ١٩١١ فى إنجلترا وتعلم فى مدارسها. التحق بالعمل فى الأسطول البريطانى ثم اشترك فى الحرب العالمية الثانية، وكان ضمن طاقم البارجة التى أغرقت المدمرة الألمانية الشهيرة بسمارك... ثم اشترك فى العبور إلى نورماندى وكان قائدا لقارب إنزال للجنود.

بعد الحرب، عاد إلى مجال التدريس والكتابة. ظهرت أولى رواياته وهى إله الذباب عام ١٩٥٤ بعد معاناة شديدة، وما إن حققت هذه الرواية نجاحا ملحوظا حتى ترك التدريس وتفرغ للكتابة والتأليف وتوالت أعماله ومن ضمنها: الوارثون، بنشر مارتين، السقوط الحر، البرج، الهرم، الإله العقرب، نهايات الأرض... وقد ترك مسودة كتابه الأخير قبل وفاته عام ١٩٩٣ وهى رواية "اللسان المزدوج".

حصل هذا الكاتب على جائزة بوكر عام ١٩٨٠ عن رواية طقوس المرور، ثم حصل على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٨٣ عن مجموع أعماله، على الأخص إله الذباب، بعدها أنعمت عليه الملكة إليزابيث الثانية بدرجة فارس عام ١٩٨٨.

تزوج هذا الكاتب من السيدة آن بروكفيلد عام ١٩٣٩ وأنجب ولدا وبنتا.

أسلوبه فى الكتابة ليس له مسار موحد، ودائما ما يختار مجتمعا مغلقا مثل: جزيرة، قرية، دير، جماعة من الصيادين، سفينة، بلاط فرعونى.

بدأ فى مغامرة يوميات مصرية فى فبراير ١٩٨٤ وعمره حينذاك ٧٣ عاما، وذلك بعد حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٣، وأصبحت شهرته مدوية على مستوى العالم كله، وطبعت مؤسسة فيبر وفيبر هذا الكتاب للمرة الأولى عام ١٩٨٥.

المترجم فى سطور

سمير محفوظ بشير

من مواليد عام ١٩٣٧ .

قام بالكثير من الترجمات منها:

- قصة جوجل عن دار ميريت.
- ساعة عدل واحدة عن دار الهلال .
- أبى طويل الساقين، المركز القومى للترجمة .
- شحات، رجل من مصر، المركز القومى للترجمة .
- الكاتدرائية، المركز القومى للترجمة .
- أصدقاء وكفار، المركز القومى للترجمة .
- جناح النساء، المركز القومى للترجمة .
- وكتب عددًا من المسرحيات الفكاهية.

المراجع فى سطور

الدكتور / أحمد عبد اللاه الشيمى أحمد.

من مواليد باجا ـ سوهاج عام ١٩٥٧.

حصل على الليسانس والماجستير من جامعة أسيوط وحصل على الدكتوراه من جامعتى رايس والقاهرة عام ١٩٩٦ بمرتبة الشرف الأولى.

عمل فى جامعة القاهرة فرع بنى سويف مدرسًا للأدب الإنجليزى ثم أعير عام ١٩٩٩ إلى جامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية وحتى ٢٠٠٩.

يعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا للأدب الإنجليزى ورئيس قسم اللغة الإنجليزية ـ كلية الآداب جامعة بنى سويف.

له أعمال مترجمة منشورة منها:

نساء مفقودات مختارات من القصة الأمريكية القصيرة تصدير الدكتور ماهر شفيق فريد صادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.

يقظة امرأة ترجمة رواية كيت شوبان «The Awakening» صادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.

ترجمة كتاب ستانلى فش هل يوجد نص فى هذا الفصل: سلطة الجماعات المفسرة صادر عن المشروع القومى للترجمة، ٢٠٠٤.

كتاب: ربما فى حلب ذات يوم وقصص أخرى: مختارات من القصة الأمريكية فى القرن العشرين مراجعة الأستاذ طلعت الشايب. صادر عن المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٥، وطبعة ثانية ضمن سلسلة الأدب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦، وطبعة ثالثة عن المركز القومى للترجمة عام ٢٠٠٩.

ترجمة لرواية جون أبدايك الإرهابى صادرة عن المركز القومى للترجمة ٢٠٠٩.

ترجمة كتاب كلير كرامش اللغة والثقافة صادرة عن مركز الترجمة التابع للمجلس الوطنى للفنون والتراث - الدوحة - قطر مراجعة عبد الودود العمرانى وتصدير الدكتور بشير مرزوق بشير، ٢٠١٠ .

له بحوث منشورة باللغة الإنجليزية فى مجلات محكمة.

التصحيح اللغوى: أيمن صابر

الإشـراف الـفـنى: حـسن كـامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب